سيرة بني هلال

تصحيح
دارين أبو شالا

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

حمداً لمن جعل سير الأولين عبرة للآخرين (أما بعد) فهذه سيرة بني هلال التي يشتاق لقراءتها الكبار والصغار على مر الأجيال.

(قال الراوي) بعد وفاة الزير أبي ليلى المهلهل وضعت امرأة الأوس غلاماً سموه عامراً، وعندما بلغ سن الرجولة تزوج بامرأة من أشراف العرب، فولدت له غلاماً في نفس الليلة التي مات فيها جده الجرو فسماه هلالاً وهو جد بني هلال وكان متصفاً بالفضل والأدب، ولما كبر الأمير هلال تزوج بامرأة بديعة في الجمال فولدت غلاماً سماه المنذر، واتفق أن هلالاً زار مكة في أربعمائة فارس وطافوا حول البيت وتشرف بمقابلة النبي المختار، فأمره النبي ﷺ أن ينزل في وادي العباس وكان النبي يحارب بعض العشائر المعادية له فعاونه الأمير هلال ومده بالعساكر وكانت فاطمة الزهراء راكبة على جمل في الهودج فلما رأت هول القتال ومصارعة الأبطال حولت راحلتها لتبتعد عن القتال فشرد بها الجمل في البر فدعت على الذي كان السبب بالبلاء والشتات فقال لها أبوها: ادعي لهم بالانتصار فهم بنو هلال الأخيار وهم لنا من جملة الأحباب والأنصار فدعت لهم بالنصر فنفذ فيهم دعاؤها بالتشتيت والنصر ثم رحل الأمير هلال إلى وادي العباس وعسكر في تلك النواحي، ولما سمعت به العربان تواردت إليه من جميع الجهات فكثرت عند الأصحاب والأنصار وكان له ولد حلو الشمائل وكان فارساً مشهوراً وبطلاً عنيداً اسمه المنذر.

(قال الراوي) بينما كان المنذر جالساً في نافذة قصره رأى ابنة قاهر الرجال تخطر أمامه وهي تميس حسناً ودلالاً فعشقها وحكى لوالده عن حسنها وجمالها ثم قال له: أريد أن تخطبها من أبيها فقال له: أنا لا أريدها لك لأن حسبها ونسبها دون حسبنا ونسبنا فهي تنسب إلى عشيرة جساس بن مرة وهي من الأوباش فتكدر المنذر من جواب أبيه وقال له: أنا لا أريد غيرها، فشتمه والده وطرده من أمامه فاغتاظ المنذر وتكدر وترك أباه وجعل ينهب الناس ويقطع الطرق ويؤذي كل من يراه من عشيرة والده ويعتدي على النساء، فقال لهم أميرهم: قوموا بنا نذهب إلى

أبيه ونشكو له حالنا فإن ردع ابنه عن غيه وطيشه عفونا عنه إكراماً لأبيه وإلا فنأخذ بثأرنا من المنذر، ثم إنهم ساروا إلى الأمير هلال وسلموا عليه وقبلوا يديه وشكوا له أفعال ابنه المنذر وأشار كبيرهم نصار يقول وعمر السامعين يطول:

قال الفتى نصار اسمع يا هلال أنت أمير ومن قوم أصال
أنتم أهل الكرم وجدودكم من خيار الناس ومن خاص العيال
كم بكم من كل قوم غشمشم يدعي الفوارس تحت تلال الرمال
نحنا نرى من تحت يدك يا ملك نرسل لكم عشر المراعي والموال
ابنك قد أذانا وهان نسانا ولا أحد منا جرد عليه نصال
كنا قتلناه من دون إمهال ولو كان غير ابنك يا ملك

(قال الراوي) فلما سمع الأمير هلال من نصار عن أعمال ولده المنذر تأثر جداً وقال لنصار: طيب خاطرك فسوف أرد لكم ما فقد من أموالكم، وأشار يكتب إلى ولده المنذر بهذا القصيد:

يقول الأمير هلال عما جرى له ولي قلب زاد اليوم بالأوجاع
لنا ذكر بين الناس كالمسك فايح شجعان وذكرنا بالعوالم شاع
ولا طلع منا جبان ولا ردي وكل عاصي عاد لحكمي طاع
يا غادياً مني على متن ضامر جد السرى في سهلها وقلاع
إذا جيت للمنذر أعطيه رسالتي وقول له يأتي إليّ سراع
أتوا بنو سليم إلينا واشتكوا وصار لهم ضجات وسط القاع
وجاء الأمير نصار وقومه ومعهم حريم لابسات قناع
وقالوا إن منذر دهانا بشره نهب خيلنا وحريمنا ومتاع
هتكت لعرضي يا ردي بفعالك ترى بوشنا مد الفلا والقاع
فارجع لأهل سليم بالحال بوشهم وعد إلينا وكون مطاع
وإن لم ترد البوش لأهله بسرعة أجيك أنا مع جموع سباع
وأقتلك بالحال وأرميك على الثرى وتأكل عظامك وحشها وضباع

ثم إنه طوى الكتاب وسلمه إلى عبده بلال وقال له: دور على المنذر واعطه الكتاب وهات منه الجواب، فأخذ العبد الكتاب وذهب يفتش على المنذر ويسأل عنه فوجده مقيماً بواد يأكل الطعام ويشرب المدام فدخل عليه وسلم عليه ثم أعطاه الكتاب، فلما قرأه مزقه ورماه ثم كتب جوابه وهو يقول:

قال المنذر قصيداً معتبر النار في قلبي يزيد لها شرر
يا غادياً مني على متن ضامر تسبق هبوب الريح بيوم السفر

إن جيت لعند الهلالي والدي ... لوادي العباس وادي الزهر
قد جاءني منكم يا أبي كتاب ... من أجل نصار أتى لك مع نفر
وتقول لي رد المال لأهلها ... وإذا لم ترد المال شفت العبر
شوري عليك اترك لزعمك يا أبي ... فمن يعصي ما يخاف من البشر

(قال الراوي) فلما فرغ المنذر من كلامه أعطى الكتاب للعبد فأخذه وعاد إلى الأمير هلال وأعطاه الجواب، فلما قرأه زاد غيظه وصاح بالعساكر وأراد أن يركب ويحارب ابنه المنذر، فأشار عليه أصحابه أن يسمح للأمير نصار بأن يركب هو وقومه ويخلصوا أموالهم بأنفسهم لأنهم خمسة آلاف والكثرة تغلب الشجاعة. فلما سمع الأمير هلال هذا الرأي والشعور أعجبه فاستدعى الأمير نصار وقال له: خذ رجالك وحارب ابني واجتهد في أسره وإلا فاقتله وخذ جميع ما ترى عنده من الأموال عند ذلك ركب نصار بقومه وسار إلى الوادي المقيم فيه منذر فلما رأوه أطلقوا الغارة عليه فصاح المنذر برجاله: شدوا على السروج، فأسرعت الرجال إلى الخيل وارتفع الصياح والتحمت الرجال بالرجال وتغلب نصار على رجال المنذر فولوا هاربين فأخذ نصار ما وجد من المال والنساء وعاد مع أصحابه إلى الأطلال، أما المنذر ورجاله فقلت عليهم الأموال والأرزاق وتغيرت عليهم الأحوال فأشاروا عليه أن يكتب لوالده بأن يعفو عنه ويسامحه على طيشه فكتب إلى والده يستعطفه وأرسل الكتاب صحبة نجاب فلما وصل إليه أعطاه الكتاب فقرأه فما لان قلبه على المنذر وأشار يقول:

يقول الأمير هلال أنا ولد عامر ... ونيران قلبي زايدات وقود
أيا منذر روح بحالك وارتدع ... واحذر إلى عندي بقيت تعود
غدرت بقومك نحو نصار وهنته ... نهبت ماله وعصيت إلٰه معبود
أرسلت لك مكتوب في رد مالهم ... خالفت أمري وأنت رجل عنود
قد خلصوا مالهم منك بغارة ... ومالوا عليكم ميلة النمرود
ورحتوا حيارى خائفين من العدا ... كما أخبرنا العبد مسعود
وإن كنت تعود إلينا نقتلك ... ونجعلك بين الناس مفقود

فلما فرغ الأمير هلال من كلامه أعطى الكتاب للرسول فأخذه وسار لعند المنذر وأعطاه الكتاب فلما قرأه بكى وندم حيث لا ينفعه الندم ثم كتب لأبيه يقول:

يقول المنذر على ما جرى له ... بدمع جرى فوق الخدود سجام
يا غادياً مني على متن ضامر ... تسبق لدز المرهف الصمصام
إذا جيت عند الهلالي والدي ... أقريه مني ألف ألف سلام

وقل له أدعو لمنذر اللَّه يصلحه لعله يهتدي عا مدى الأيام

(قال الراوي) ثم أعطى الكتاب للرسول فأخذه وسار إلى أن وصل لعند الأمير هلال وأعطاه الكتاب فلما قرأه حن قلبه على المنذر وندم على فراقه، ثم قال لوزيره: اركب واذهب إلى المنذر وأحضره حالاً فليس لي ولد سواه. فركب الوزير وسار إلى المكان الذي كان المنذر مقيماً فيه فلم يجده لأنه ركب هو وجماعته وساروا إلى دمشق الشام وبعدها إلى حمص وحماه وحلب وكان يمكث في كل بلد أياماً قليلة، ثم سار من حلب إلى بغداد مع جماعته فسأل عن ملك عظيم فقيل له يوجد أمير يحكم على مائة وثمانين ألف بطل وهو الحاكم على بلاد الشيخ وهو الأمير مهذب فقصده وسار لعنده، فلما وصل الخبر بقدومه أمر الأمير مهذب عسكره بالركوب لاستقبال المنذر فركب نحو عشرين ألفاً ليستقبلوه ولما اجتمعوا به نزلوا عن خيولهم وسلموا على بعضهم فأشار الأمير مهذب يترحب بهم ويقول:

يقول الفتى الأمير مهذب يا مرحباً بالقادمين جميع
يا مرحباً فيكم ويا ألف مرحباً بمنذر أمير جاء إلينا سريع
لك عندنا الإكرام يا مير منذر فأمر وانه فوق تخت رفيع
وإن كنت مديون وفينا لدينك ولو كان ملكي يذهب جميع
وبنتي هذبا تكون لك حليلة وتبقى بلادي لك دوم تطيع

فلما فرغ الأمير مهذب من كلامه شكره المنذر على اهتمامه وساروا إلى المنازل فأكرمهم غاية الإكرام وفرح فيهم، وبعد أيام جعله المنذر وزيره وقلده أمور المملكة فحكم وشاع ذكره في تلك البلاد، فلما رأت الست هذبا حسنه وجماله ولطفه وكماله مال قلبها إليه وحكت لأمها أنها أحبته وتريده زوجاً لها، فلما علمت أمها بذلك أخبرت الأمير مهذب فلم يمانع لأنه يحب المنذر فكان قد رأى هذبا فأحبها وهام بحسنها وجمالها وتمنى أن تكون زوجة له وقال: لا أظن أن أباها يغضب إذا طلبتها منه، ولما رأى منه هذا الاستقبال الفخم والإكرام العظيم الذي قام به تجرأ على طلب هذبا منه فأجابه إلى طلبه وأحضر بعض العلماء والأكابر وكتب كتاب المنذر على الست هذبا وأقاموا الأفراح والليالي الملاح وعملوا عرساً يليق بالعروسين وعاشوا بسرور وهناء وبعد مضي سنوات جمع الأمير مهذب وزراء الدولة وقال لهم: إني أشعر بدنو أجلي والموت لا بد منه وأريد أن أجعل صهري المنذر مكاني، فقالوا: افعل ما تريد أيها الأمير فأحضر صهره المنذر وأمر أن يلبسوه بدلة الإمارة فألبسوه إياها ثم سلمه خاتمه وجميع ملكه وأجلسه وأشار يوصيه بالحكم:

قال الفتى المسمى الأمير مهذب العمر مني يا ربع قد ولى
اليوم المنذر عاد فيكم حاكم ولا رجل منكم عنه يتخلى
منذر أمير ابن أمير مسمى ابن أكابر ما يشوف المذلا
وأنت يا منذر احكم بشرع اللَّه يا ويل من في حكمه يزلا

(قال الراوي) فلما فرغ الأمير مهذب من كلامه قالوا له: إنه أميرنا وسيدنا ما دام يحكم بما أنزل اللَّه ثم إن المنذر أخذ يحكم بعدل وإنصاف، فلما توفي الأمير مهذب حزنوا عليه واحتفلوا بدفنه احتفالاً عظيماً، أما المنذر فإنه أنفق وتصدق وأكرم العرب فانقادت له العباد وأتته الهدايا من جميع البلاد وقد مضى مدة طويلة ولم يمن اللَّه على المنذر بولد فقال لزوجته: إنك إلى الآن لم تحملي وأنا أريد الأولاد، فقالت له: أظن أنك تريد أن تتزوج بغيري وتتركني، فقال: معاذ اللَّه أن أتركك لأني أحبك ولا أستطيع البعد عنك ولكني أريد أن أتزوج رغبة في ولد ذكر يتولى الأحكام فقالت له: شأنك وما تريد عند ذلك توجه المنذر إلى الديوان وحكى لوزيره عن رغبته في الزواج وقال له: أريد أن تخطب لي ابنة شريفة لأني أرغب في إنجاب الأولاد فقال الوزير: اعلم يا ملك الزمان إنه يوجد في بلاد السرو ملك عظيم الشأن اسمه الملك الصالح له بنت من أفضل البنات اسمها عذبا فالرأي عندي أن تقصده وتطلب منه ابنته حليلة لك، فأمر الأمير منذر الفرسان بالركوب فركبوا قاصدين بلاد السرو فلما علم الملك الصالح بقدومهم استقبلهم بالعساكر استقبالاً عظيماً ثم دخلوا إلى البلد فأنزلهم الملك الصالح بأعز مقام وأكرمهم وأشار يترحب بهم ويقول:

قال الملك صالح وعني الهم زال بقدومكم يا أهل المروة والكمال
قد سرني يا أمير وقت قدومكم باللَّه أعلمني وجد لي بالمقال
فإن كان لك حاجة تراها عندنا نقضي لك الحاجات في أقرب مجال
وإن كان قد جاء عدو يكيدك ندعي عداك تحت تلال ورمال

قال له المنذر: بارك اللَّه فيك أنا قصدي اطلب ابنتك زوجة لي ولك ما تريد من النوق والجمال والعبيد والمال فقال الملك الصالح: مرحباً بك أيها الأمير إن ابنتي عذبا لك بدون مهر ولا صداق ثم إنه استدعى القاضي والشهود وعقدوا للمنذر على عذبا ثم جهز ابنته جهاز بنات الملوك وأركبها بالهودج مزينة بالحلي والحلل وقدم لها مالاً كثيراً ونوقاً وجمالاً وعبيداً وجواري، وركب معهم نصف نهار فحلف عليه المنذر أن يرجع مع قومه وشكره على نخوته وكرمه فتقدم الملك الصالح من ابنته وأنشد يوصيها بهذه الأبيات:

أوصيك يا ابنتي بالعقل والأدب ترى منذر بين الملوك جليل
أبوه هلال حاكم في بلاده وليس له بين الملوك مثيل
فلا تعبسي قط في وجه منذر تنالي عنده رفعة وتبجيل
واقضي له الحاجات في كل سرعة ولا تكثري من القال والقيل

وأراد أن يودعها فقالت له: أريد منك يا أبي أن تزورني دائماً لأني خائفة أن يحصل لي هم وكدر لأن لي ضرة لا أعلم خيرها من شرها فوعدها وطيب خاطرها ثم ودعوا بعضهم وعاد الملك الصالح إلى بلاده، وسار المنذر بأبطاله ورجاله إلى بلاده فقامت الأفراح مدة شهر فدخل على عذبا وصار ينام ليلة عندها وليلة عند هذبا ومضى عليهم مدة ولم تحبل عذبا ولا هذبا فدعا ربه أن يرزقه ذرية صالحة ثم رفع يديه وبسطهما وأشار يدعو اللَّه تعالى بهذه الأبيات:

يقول المنذر على ما جرى له دمعي جرى فوق الخدود نهور
سألتك يا رحمن يا سامع الدعا يا من تجبر خاطر المكسور
بأيوب بإبراهيم وإسحاق بعده بيعقوب بيوسف نجله المبرور
بحرمة رجب مع شعبان المبارك في رمضان شهر الصوم ثم الحور
اقبل دعائي يا إلٰهي واهدني واجعل قلبي بين الملا مجبور
وارزقني أولاداً يكونوا صالحين وتجعل عيشنا في هنا وسرور

فلما فرغ من الدعاء استجاب اللَّه دعاءه فحبلت عذبا وحبلت هذبا ففرحوا فرحاً عظيماً لا يوصف وقد زادت الأفراح عندما ولدتا ذكرين جميلين فذبحوا الأغنام وأكثروا الولائم وفرقوا الأموال وسموا ولد هذبا جابراً وولد عذبا جبيراً، ولما كبرا خصص لهما المعلمين فدرسا جميع العلوم ثم تعلما أبواب الحرب والكفاح والركوب على الخيل، وكان جابر يكره أخاه جبيراً وكان المنذر يحب جابراً أكثر من جبير، أما الملك الصالح فإنه انتقل إلى رحمة اللَّه فحكم ابنه مفلح مكانه ثم خطر بباله أن يزور صهره المنذر ويرى أخته عذبا، فركب بألف فارس ولما وصل إلى الديار خرج المنذر واستقبله أحسن استقبال وسلم مفلح على أخته عذبا وقبل ولدها جبيراً وبقي عندهم مدة من الزمان، ثم ركب وودعهم وعاد إلى بلاده، أما المنذر فإنه بقي يقدم جابراً على جبير في كل الأمور فيذهب جبير إلى أمه ويشكو لها معاملة أبيه له وكانت عذبا تلوم المنذر وتوصيه أن يعامل جبيراً كما يعامل جابراً فمل منها ومن نصائحها وهجرها فأخذت على خاطرها وقالت لابنها: ماذا عملنا مع أبيك حتى يعاملنا هذه المعاملة السيئة؟ وقد زوجني أبي منه بلا مهر ولا كلفة بشيء فاذهب إليه يا ولدي وقل له إن والدتي تريد أن تأتي إليها الآن لأمر

ضروري، فذهب جبير وقال لأبيه: إن والدتي تريدك، فقطب وجهه وذهب إلى قصر عذبا وسألها عما تريد، قالت له: ألست أنا زوجتك وجبير ابنك قال: نعم قالت: لماذا لا تساوي بيننا وبين جابر وأمه فإما أن تنصفنا أو تطردنا ثم إنها بكت وأنشدت تقول:

تقول فتاة الحي مظلومة النسا بدمع جرى فوق الخدود حدور
يا مير منذر كيف حالك تغير ومالي أشوفك دوم مقهور
أما جابر فدوم تجبر بخاطره وجبير تدعي قلبه مكسور
ومالك ورزقك كله لأجل جابر وهذبا بنت مهذب عليك بتشور
وأنت تهجرني وتترك صداقتي وتدعي همومي بالصدور تنور

فلما فرغت من كلامها قال لها: القصر قصرك فإن شئت البقاء فيه فما أحد يهينك وإن شئت أن تذهبي لأهلك فمع السلامة فتأثرت منه وشدت الأحمال على ظهور الجمال، عند ذلك أمر المنذر وزيره أن يركب بعشرة أبطال ويوصلها إلى أهلها فركبوا وذهبوا معها فقالت للوزير: إذا قصدنا أخي مفلحاً على هذا الحال فيفتكر أني خائنة فيأمر بقتلي فقال الوزير: الأوفق أن نذهب إلى الأمير مرزوق حاكم الأراضي التي بين حكم المنذر وحكم مفلح فوافقته على رأيه وساروا قاصدين ذلك الأطلال ولما وصلوا دخلوا بلاده ونصبوا الصيوان بجانب قصر الأمير.

وبعد ذلك ودعها الوزير وعاد إلى بلاده ودخل على الأمير منذر وأخبره بأنه أرسلها لبلاد أخيها أما الأمير مرزوق فنزل ليستقصي الخبر وسأل عذبا عن سبب قدومها فحكت له ما جرى عليها بالتمام، فحن قلبه عليها وترحب بها فشكرته على حسن استقباله ثم إنه أعطاها قصراً وعبيداً وجواري وكان جبير يرافقه في غالب الأوقات ويدخل على الأمراء والسادات إلى أن بلغ العشرين عاماً فكان شجاعاً هماماً وأسداً درغاماً وصار له تبع وأعوان يزيدون عن الخمسمائة بطل ففي أحد الأيام قدم عليهم ثلاثة ضيوف من بلاد المنذر، فلما رأى الضيوف جبيراً وما يتمتع به من العز والجاه عمدوا إلى الرجوع للأوطان فلما وصلوا دخلوا على المنذر وسلموا عليه وأخبروه أن جبيراً نازل عند الأمير مرزوق مع أمه عذبا وأخبروه عن أتباعه وعزّه وافتخاره وجوده وكرمه، فقال المنذر لوزيره: كيف قلت لي إنك أوصلت عذبا إلى بلاد أخيها بينما هي في بلاد الأمير مرزوق مع ولدها جبير وهما مقيمان عنده إلى الآن، فأجاب: إنني أوصلتها إلى نصف الطريق ورجعت ولا أعلم أين سارت وماذا يهمك من أمرها وقد طلقتها، أما الأمير جابر فقال لأبيه: دعني

أنتقم من جبير قبل أن يستفحل أمره ويحاربنا فسمح له أبوه بهذا الأمر وجمع أرباب الحكام وخلع أمامهم ثياب الملك وألبسها لولده جابر وبايعه الملك والحكم فجلس جابر على الكرسي وصار يأمر وينهى ثم كتب إلى الأمير مرزوق عن لسان أبيه الأمير منذر يقول:

قال الملك منذر جد السفر يا غادياً من عندنا مع لمح البصر
إن جيت إلى مرزوق أمير منتخب أعطيه مكتوبي ولا تبدي خبر
وقل له يا مرزوق اقرأ كتابي واطرد جبير وانجو من الضرر
وإن كان ما تطرد جبير من عندكم نفعل بكم أفعالاً تبقى تنذكر

ثم إنه طوى الكتاب وأعطاه للعبد بلال قال المنذر لابنه: ما كتبت يا جابر، قال: كتبت لمرزوق أن يطرد جبيراً قبل أن تكثر عصبته فيأتي ويأخذ منا بالثأر؛ لأنك طردته مع أمه فلما وصل بلال رآه جبير فأخذ منه الكتاب وقرأه فتكدر جبير وكتب الجواب:

يقول الفتى المسمى جبير بن منذر حزين وما غدر الزمان سواه
أبوي جفاني وقد أمر بفراقنا وطردني أنا وأمي في سهل وفلاه
يا غادياً مني على متن ضامر جد السرى في صبحها ومساء
إذا جيت للمنذر وأخي جابر سلم عليهم سلام يطول مداه
وقل للمنذر يا أبي أنا ذهبنا عنكم وتركنا الفخر والجاه
وجينا إلى مرزوق سكنا بحيه أمير الملا زاد الإلٰه غناه
فأكرمنا وأعطانا الإبل والغنم فماذا السبب حتى تزيد جفاه
واليوم قاصد تفرق بيننا وتطردنا من ديرته وحماه
ومرزوق لو وصل الكتاب ليده يأمر بحربك ولا يخون نزلاه
ولكن أردنا نكسر الشر بمهده وهذا ما جرى واللي كتبناه

فلما فرغ جبير من كلامه أعطى الكتاب إلى العبد بلال فأخذه وسار، أما جبير فأمر عبيده بحمل الأمتعة على ظهور الجمال وأركب أمه عذبا بهودج وركب جواده وسار قاصداً ديار خاله الأمير مفلح ابن الملك الصالح للالتجاء به من هذا الأمر العسير.

(قال الراوي) ولما وصل العبد دخل على الأمير جابر وأعطاه الكتاب فلما قرأه فرح وأخبر والده عن رحيل أخيه من ذلك المكان فتأثر المنذر على فراق ابنه أما جابر فقال لأبيه: يلزم أن نكتب إلى خاله الأمير مفلح إذ قصده جبير لا يحميه ثم نرسل المكاتيب إلى جميع الأمراء الذين في تلك الجهات ونعلمهم بأن لا يدعوه

يدخل بلادهم فسيضطر أن يرجع إلينا ذليلاً مهاناً ونرتاح من شره فقال له أبوه: اكتب لهم كما تريد فكتب إلى الأمير مفلح يقول:

يقول الفتى المنذر وفي القلب علة ... يا ابن عمي أنت أمير مهاب
اطرد جبير ابني إذا جاء بلادكم ... ولا تتركه ينصب الأطناب
ولا تقبله عندك ولا ليلة ... حتى ولا أمه ولا الأصحاب
وإن كنت يا مير تخالف أوامري ... فاعلم بأنك تخسر الأحباب
وتغدو قتيلاً في الديار مجندلاً ... وتبقى ديارك والبلاد خراب

فلما انتهى من تحرير الكتاب أرسله إلى الأمير مفلح فلما قرأه أمر الخدم أن يأخذوا النجاب لدار الضيافة وتعجب الأمير مفلح من هذا الطلب، وقال: مع إننا لم نر عذبا ولا ابنها من مدة طويلة. وفي اليوم الثاني دخل عليه رسول وأخبره بقدوم عذبا مع ولدها الأمير جبير ورجاله فركب مفلح وبصحبته نجاب الأمير المنذر واستقبل أخته وابنها جبيراً وسلموا على بعضهم وقبل الأمير جبير يد خاله، ثم إن الأمير مفلحاً أعطى جبيراً الكتاب الذي أتاه من عند المنذر فلما قرأه جبير كبر الأمر لديه وهطلت الدموع من عينيه وأشار يعاتب خاله:

يقول الفتى المضنى جبير الجابر ... أتيت ديارك يا أمير دخيل
أبوي طردني يا أمير من أرضه ... فسرنا إلى مرزوق أمير جليل
ترحب بنا وأعطانا المال والرضا ... وكان لنا من دون الأنام خليل
فأرسل له المنذر علم بطردنا ... وأمره برحيلنا من عنده ونشيل
أخذت المكتوب وعلمت محتواه ... ومرزوق لم يعلم بهذا النزيل
أمرت في نقل الخيام وجيتكم ... وقلت خالي عاد نعم الكفيل
واللَّه لو مرزوق علم بما جرى ... لجرد على المنذر بلا تمهيل

فقال له خاله: لو كنت قادراً على حرب أبيك لأقمتك عندي على الرحب والسعة ولكن أبوك هددنا بالقتل والخراب وإذا شئت النزول عندنا فانزل ولا عاش من يجرد بوجهك سلاحاً، قال جبير: يا خال ألف إهانة منا ولا إهانة فيك ولنا ربك لا يتخلى عنا وسأكتب لوالدي ألومه على هذه الأعمال وما سبب طردنا ثم كتب له هذا الكتاب:

يقول الحزين جبير عما جرى له ... ودمعي على الخدين دوم قاطر
يا غادياً مني على متن ضامر ... تسبق مسير الطير ثم النواظر
سلم على المنذر وأعطيه رسالتي ... وسلم على أخي الأمير جابر
وقل لأبي ماذا عملنا تجاهه ... فإن كنا مخطئين فاللَّه حاضر

طردتونا والحق عليكم بلا خفا فرحنا إلى المرزوق نلنا المفاخر
فأرسلت مكتوباً لمرزوق تهدده وتوصيه بطردنا من الصبح باكر
وحلت من عند مرزوق بالدجا قاصد بلاد السرو والعشائر
قاصد إلى خالي لننزل بأرضه فأخبرته اطرد جبير لا تساير
فلما وصلت لعند خالي قال لي ارحل عنا يا فتى لا تكابر
فقلت يا خالي ترى ما هي عوايدك تطرد أختك يا كبير العشاير
فقال أبوك أرسل لي كتاباً يقول اطرد جبير خليه داير
فحطيت مكتوبك على الرأس وأنا رايح عنه بلا معاير
واترك أرضك وأرضه جميعاً واترك بساتينك وكل الذخاير
ولا بد من يوم أفرق شملكم وأفيكم بالماضيات البواتر
أنا فارس الفرسان في يوم الوغى وجدي هلال من قوم أكابر

فلما فرغ من كلامه أرسل الكتاب إلى أبيه ثم أمر جماعته بالركوب فركبوا ووقفت عذبا تودع أخاها مفلحاً وتعاتبه بهذه الأبيات:

تقول عذبا من فؤاد موجع والدمع من فوق الخدود سكابها
منذر طردنا يا مفلح وهاننا جينا لعندك نلتجي برحابها
طردتنا يا مير مفلح من بلادك وزدت في قلبي نارها ولهابها
اللَّه لنا يا مير خير منك الحق ينصرنا على عدانا وقرابها
فإن رحلنا نحن عن أرضكم ننزل عند قوم عالي أنسابها
قول الحزينة من فؤاد موجع عذبا جفتها أهلها وأحبابها

فلما فرغت من كلامها قال لها أخوها: ما هذا التوبيخ يا عذبا أقيمي عندنا وإن سمع المنذر وقاتلنا فنكون فداك فقالت: لا يا أخي نحن لا نسبب لك الضرر ولا نريد لك إلا الخير ثم إنها ركبت في هودجها وسارت مع ابنها من بلاد السرو وهم لا يعرفون إلى أي بلاد يقصدون.

(قال الراوي) فلما وصل الخبر إلى المنذر بأن مفلحاً طرد جبيراً وأمه بكى بكاء شديداً حتى أبكى الحاضرين، فقال الوزير منصور: واللَّه لقد أخطأتم في عملكم مع جبير وأمه، فقال جابر: سوف أترقب أخبار جبير أين ينزل حتى أطرده إلى آخر الدنيا، أما جبير وأمه ومن معه فساروا في البر سبعة أيام على غير هدى فقال أحد جماعته: سمعت أن ملكاً في بلاد نجد العدية يقال له النعمان بن حنظل من أجود ملوك العرب وكل من ينزل في أرضه يعيش سعيداً مكرماً فقال جبير: سيروا بنا نحو نجد فساروا إلى أن بقي بينهم وبين نجد مسافة يومين، فنزلوا بواد

ليأخذوا لأنفسهم الراحة نصبوا خيامهم ثم جلسوا وأكلوا وبينما هم جالسون رأوا فرساناً تقترب منهم فركب جبير وتقدم إليهم وسألهم من أنتم وما شأنكم فتقدم أميرهم رحال وقال: نحن من أعيان نجد وقد ركب علينا عدو اسمه الجليلي بن سالم حاكم سنبس فقام بيننا الحرب وانتصر علينا وأخذ مالنا وخيلنا، فرحت أنا وعيالي ورجالي ولم نعرف ما صار بين الجليلي وبين ابن عمي الملك النعمان فقال له جبير: ليس من المروءة أن تترك ابن عمك بالحصار وتهرب فبع روحك مع ابن عمك وحارب معه في هذه الشدة وأنا أبيع روحي معكم وسوف ترى ما يحل بالأعداء من الدمار، فقال رحال: كم معك من الرجال فأجاب: معي ثلاث مائة فارس، فضحك رحال وقال: إن قومنا مائة ألف وما استطعنا أن نقف أمام العدو وأنت تريد أن تحارب بثلاثمائة فارس فاغتاظ جبير من كلام رحال وقال له: اذهب لا أصلح اللَّه شأن الجبان ثم إن جبيراً أمر جماعته فركبوا وسار قاصداً الملك النعمان، أما الأمير رحال فقال لقومه: لنسر خلف الأمير جبير ونتفرج على حربه مع الجليلي فإن انتصر عليه نهجم على الأعداء، فإن غلبناهم ننسب الفوز والنصر لنا وإذا لم ننتصر نرجع على الأعقاب ثم إنهم تبعوا الأمير جبيراً من غير طريق ونزلوا بواد أما جبير وقومه لما وصلوا إلى نجد رأوا النعمان وعسكره في أشد الضيق فانقض الأمير جبير وأتباعه وهم مجردون السيوف وصاحوا على الأعداء وضربوهم بالسيوف، فقلبوا الميامن على المياسر وخففوا الشدة عن النعمان فاغتم الجليلي من هذه المفاجأة وتقدم من الأمير جبير وقال له: من أنت يا مهان وهل لك عندنا ثأر حتى تقاتلنا؟ فقال جبير: أنا ولد المنذر من نسل الملوك ثم التقوا البطلين كأنهم جبلين وحان عليهم الحين وزعق فوق رؤوسهم غراب البين وظل الحرب إلى آخر النهار دقت طبول الانفصال فرجع كل واحد لقومه، فقالوا للجليلي: كيف رأيت خصمك قال: إنه بطل صنديد فكيف يمكننا أن نقضي عليه ونكتفي شره، فقالوا له: أرسل له كتاباً ورغبة أن يساعدك على حرب النعمان فتزوجه ابنتك وإن لم تفعل ذلك فأنت خسران فاستصوب الجليلي هذا الكلام وكتب يقول:

قال الفتى المسمى الجليل صادق ... الحرب عندي تزيد وقود
يا غادياً مني على متن ضامر ... يسبق لدز المرهف المبرود
إن جيت يم جبير نيخ ركابك ... وأعطيه مكتوبي تنال سعود
وأخبره عني في كلام صادق ... تعال إلى عندي فالخير موجود
أعطيك نصف الملك مني وهبة ... مع مدنها وبلادها وحدود

وتـأخـذ بـنـتـي لـك حـلـيـلـة بـنـتـاً جـمـيـلـة وأصـلـهـا مـحـمـود
نـعـمـان ضـدنـا يـا فـتـى وعـدونـا هـذي الـعـداوة عـن أبـبٍ وجـدود

ثم إنه أرسل الكتاب إلى الأمير جبير مع عبده، أما الأمير جبير فإنه نزل في صيوان الملك النعمان فحضنه النعمان وأثنى عليه وأجلسه في أحسن مكان وضربت له النوبات وزلغطت النساء والبنات مع سماع الأنغام وتناول الشراب والطعام، ثم عاد الأمير جبير إلى صيوان أمه وقومه وحكى لهم عن كرم النعمان، ففرحوا به غاية الفرح أما العبد فأوصل الكتاب إلى النعمان فلما قرأه تغير منه الحال وخاف أن ينضم جبير إلى الجليلي فتسوء الحال فرأته ابنته حسنا متحيراً في أمره فسألته عما أصابه، فأعطاها الكتاب فلما قرأته أنشدت تقول:

تـقـول حـسـنـا مـن فـؤاد انـكـوى والـقـلـب فـيـه صـاعـد الـدخـان
إياك يـا أبـي يـرحـل جـبـيـر مـن هـنـا إن راح تـنـظـروا بـعـده الـخـذلان
كـنـا بـأكـبـر ضـيـق مـن نـحـو الـعـدا جـاءنـا الـفـرج مـن ربـنـا الـرحـمـان
كـان الـجـلـيـلـي غـالـبـاً لـرجـالـنـا لـو طـال الـحـرب كـنـا فـي أكـفـان
لـمـا أتـانـا جـبـيـر قـهـار الـعـدا صـارت عـسـاكـرنـا تـقـهـر الـعـدوان
لـولا جـبـيـر بـطـل الـخـيـل فـي الـوغـى كـنـا أسـارى عـنـد الـعـدو نـنـهـان
فـاذهـب يـا أبـي إلـى جـبـيـر وارضـيـه وأعـطـيـه حـسـنـا واجـعـلـه سـلـطـان

فلما فرغت حسنا من كلامها قال لها أبوها: أظن أنك تحبينه فخجلت وقالت: نعم لقد أحببته لأنه كان السبب في انتصارنا على الجليلي وهو بطل وشجاع ولم أجد أفضل منه.

(قال الراوي) لقد استشار النعمان قومه في هذا الأمر فوافقوا عليه ثم توجهوا إلى صيوان الأمير جبير فاستقبلهم بالترحاب، وجلسوا للمحادثة قال النعمان للأمير جبير: أنا صرت كبير السن فأريد منك أن تقتل الجليلي وبعد أن تقتله أجعلك مكاني تحكم على البلاد، ولقد عزمت على أن أزوجك ابنتي حسنا فهي تصلح لك وأنت تصلح لها فقال جبير: لقد غمرتني بفضلك وأنا طوع أمرك فافعل ما تريد عند ذلك أمر النعمان أن يلبسوه بدلة الملك فلبسوه البدلة وجعلوه ملكاً وشهد عليه الوزراء والنواب، ثم قالوا له: أنت حاكم بلاد نجد فخلصها من الأعداء ثم أحضروا القاضي وعقدوا عقد الأمير جبير على حسنا بنت الملك النعمان وباتوا في طرب وانشراح إلى الصباح أخبر النعمان صهره بمكتوب الجليلي فكتب جبير مكتوباً يهدد الجليلي فيه بتسليم نفسه ورجاله ثم أرسل له الكتاب مع العبد فلما قرأه أرغى وأزبد وأمر بدق الطبول وبالهجوم على الأعداء فركب الجيشان واستعدوا

للحرب والطعان فنزل جبير للميدان وطلب الجليلي فنزل إليه وصار بينهما طعن يقصف الأعمار إلى أن قوي الأمير جبير على الجليلي وضايقه ولاصقه وسد عليه طرقه وضربه بالسيف على هامه أطاح رأسه قدامه ثم هجموا على جيشه وكسروا عساكره وفرسانه فقتلوا من قوم الجليلي عشرة آلاف فارس والباقي ولوا هاربين وما زالوا خلفهم حتى قطعوهم بلادهم وعادوا بجميع الأسلاب والغنائم وردوا السبايا والحريم وجلس جبير على كرسي الملك وحوله الأمراء والوزراء وقال الملك النعمان يهنئه ويثني عليه:

قول النعمان ابن حنظل ... الهم عنا قد زالا
بهمتك يا جبير ... ليت عمرك دوم طالا
ضدنا كان الجليلي ... ولى منك بأسوأ حالا
فرقت جيش الجليلي ... بالحسام والنصالا
كل مالي لك وهبة ... من يمنك ومن شمالا
حكم نجد صار بيدك ... بعدلك تحسين حوالا
قول نعمان ابن حنظل ... من صبر نال المنالا

فتقدم جبير من النعمان وقبّل يديه وقال له: إني خادمك المطيع فشكره النعمان وقبله وقال: أنت الآن ولدي وقد وهبتك ما تملك يدي ثم إن الملك النعمان دخل على أبيه حنظل وأخبره بما جرى فتكدر حنظل ولام ابنه على ما فعل ووبخه في الكلام، فقال النعمان: لو لم يأت جبير ويساعدنا كنا قتلنا وراحت بلادنا فكم قتل الجليلي منا وما قدرنا نثبت أمامه وأخذ الأموال وسبى النساء فجبير له الفضل الأكبر علينا.

(قال الراوي) أما جبير فإنه صار ملك نجد يحكم على مائة ألف قرية فشاع خبره في جميع البلاد وتزوج أربع نساء وهن بنت النعمان وبنت الوزير وبنت صخر وبنت صافي، وصار يطعم الجائع ويكسو العريان ويكرم الضيف وجاءه بنات وبنون. وفي بعض الأيام دخل عليه ثلاثة شعراء فترحب بهم وأحضر لهم الطعام فأكلوا وانسروا من كرمه وجوده فأشار أحدهم يمدحه بهذه الأبيات:

يقول الفتى فلاح ابن راشد ... ومن صغر سني أقصد الأمار
أتينا لعندك يا مير جميعنا ... نريد العطا منك بلا انكار
سمعنا بجودك يا ملك ببلادنا ... وصيتك وصل لربنا والدار
جينا لعندك نقصد مكارمك ... يا برمكي يا مكرم الخطار
يا أمير امنحنا واجزل العطا ... يا ريت عمرك أطول الأعمار

يا فارس الفرسان في حومة الوغى يا من دعيت الضد يموت دمار

فلما فرغ الشاعر من كلامه قال له جبير: أبشروا بالغنيمة بعد إتمام الضيافة ولما انتهت الضيافة وهي أربعون يوماً طلبوا من الأمير جبير أن يسمح لهم بالذهاب إلى بلادهم، فأمر لهم بثلاثمائة جمل وثلاثمائة رأس خيل وثلاث خلع، فقبلوا يديه وذهبوا وهم رافعون له الرايات البيض فلما وصلوا إلى بلادهم سمعوا بصيت المنذر وابنه جابر فركبوا خيولهم وساروا قاصدين المنذر وابنه جابراً فلما وصلوا دخلوا عليهم وقبلوا أياديهم فترحبوا بهم وأجلسوهم وقدموا لهم الطعام، فلما أكلوا وانبسطوا دقوا على الرباب ساعة من الزمان فأشار عمار يمدح المنذر وابنه جابر بهذا القصيد:

قال الفتى عمار والقول صادق من طول عمري الكرام أقول
نحن سمعنا يا ملك بجودك وجود جابر في الفلا منقول
شعراً يا ملك جينا لعندكم نرجو العطا منكم بغير مهول
يا أمير دلونا على إحسانكم أنا ورفقتي بلا مجهول
قالوا رح للأمير منذر حاكم بلاد الشيخ عرض وطول
وابنه جابر أصيل ومنتخب كفه على طول المدى بيطول

فقال لهم جابر: أبشروا بالعطاء وأمر لهم جابر بثلاثين جملاً وثلاثمائة دينار، فقالوا: هذا ليس عطاء ملوك بلاد الشيخ فاغتاظ جابر وقال: هل أعطاكم أحد بمثلي هذا المقدار فقالوا: نعم وأضعاف هذا العطاء وتقدم الشاعر فراج وأنشد يقول:

يقول الفتى فراج والقول صادق أنا أعلمك يا مير كل العلايم
على أمير حاكم نجد جينا محله اسمه جبير وحول منه عوالم
كريم عفيف الذيل راعي مروءة يعطي العطايا مثل بحر عايم
أكرم علينا في عطايا كثيرة وقال اعذروني يا خيار الأكارم
ثلاثماية من الجمال أعطانا وعشرين عند من شداد العزايم
وأعطانا أموال لا يحصى عددها وسبق بالجود جودات حاتم
ما شفت أنا بالشجاعة يا مير مثله ولا له مشابه بالعطا والمكارم

فلما انتهى الشاعر من كلامه غضب جابر غضباً شديداً وقال لأبيه: أنا ما عندي جوائز لهؤلاء الشعراء إلا القتل فمنعه أبوه وقال له: مرادك أن تفضحنا وتحط من قدرنا عند الملوك والرعايا في سائر الدنيا؛ لأن إهانة الشعراء عيب وعار عند الأجاويد والأكارم فقال جابر: لا بد من قتلهم ولكن بعد أن أثبت كذبهم وإني

مرسل أربعين شاعراً لعند جبير حاكم نجد، فإن كساهم ووهبهم كما وهب هؤلاء الشعراء فأصدق كلامهم وأعفو عنهم وأكرمهم، فحبس الشعراء الثلاثة وأرسل أربعين صعلوكاً من صعاليك العرب بينهم ثلاثة شعراء إلى نجد ليمدحوا الأمير جبيراً وينالوا منه الجوائز ولما وصلوا دخلوا عليه فاستقبلهم بالبشاشة وترحب بهم وأضافهم عدة أيام وفي أحد الليالي أشار أحدهم يمدح جبيراً ويشكره على كرمه وجوده بهذا القصيد:

يقول المسمى سليم ابن راشد ... فقلبي اليوم بالأفراح عايم
ألا يا مليكاً في نجد العدية ... يا ريت عمرك مدى الأيام سالم
سمعنا عنك تكسي العرايا ... وطعامك للجياع حاضر دايم
أتينا من بلاد الشيخ نحوك ... وكنا عند منذر في الولايم
له بطل يسمى الليث جابر ... شديد البطش ممدوح العزايم
أتينا نحوهم قصد العطايا ... فأعطونا خيولاً مع دراهم
أضافونا من الأيام عدة ... بعيش رغيد والصفو الملايم
أتينا اليوم قاصدين فضلك ... نريد الجود منكم والمكارم

فلما فرغ الشاعر سليم من كلامه شكره جبير وقال له: أبشر بالعطا الزايد أنت ومن معك وأمر أن يعطوهم ثلاثة آلاف جمل وألف ناقة ومائة حصان ومائة فرس وألفين من رؤوس الغنم وعشرين ألف دينار، فأعطوهم ما ذكر فتعجبوا من عطائه وكرمه وودعوه وساروا إلى أن وصلوا إلى بلاد الشيخ ودخلوا على المنذر وولده بخيرات لا تحصى وسلموا عليهما وشرحوا لهما عن كرم الأمير جبير ملك نجد وكم أعطاهم من الخيول والأموال والجواري وقال سليم الشاعر: أظن أن جبيراً هو ولدك فعند ذلك أطلق جابر الشعراء الثلاثة المسجونين وأكرمهم، أما المنذر فحن قلبه على ولده جبير واشتاق لرؤياه وأنشد يقول:

يقول الفتى المنذر قد هام قلبي ... ودمعي جرى فوق الخدود غزير
لو كان لي جنحان طير بالفلا ... كنت أغدي نحو الحبيب وسير
شدوا معي يا قوم خيولكم ... عسى الإلٰه يسهل المسير
شوقي إلى نجد العدية ومن بها ... شوقي لجبير صار شوق كثير

عند ذلك انتخى الشباب وقالوا: لقد أشرت بالصواب ونحن نذهب معك أما جابر فقال: لا تتعب سرك يا أبي، لأن جبيراً عبد يرعى بوش أحد الملوك فقال له أبوه: اسكت فسوف ترى صدق الشعراء ثم إن المنذر ركب وركب معه مائتان من الأبطال وساروا إلى بلاد نجد ولما قربوا منها أرسل المنذر أربعة فوارس يخبرون

الملك جبيراً بقدوم ضيوف فأمر بدخولهم إلى الصيوان، فدخلوا وسلموا عليه وسلم عليهم فجلسوا وأخبروه بقدوم المنذر عليه، فقال: مرحباً به وأمر العساكر أن تستقبله فركب ألف فارس على أصايل سروجها من جلود السباع مطرزة بالذهب الإبريز وضربت الطبول ونفخت الزمور واعتلى الأمير جبير جواده ومعه أكابر دولته، وساروا لاستقبال الضيوف ولما التقوا بهم نزلوا عن الخيول وسلموا على بعضهم وتعانقوا وانسكبت العبرات وندم المنذر على ما فات، وساروا بهم إلى الخيام فدخل المنذر إلى صيوان ولده ومعه الوزراء والأعيان فعند ذلك أخذ جبير يترحب بوالده وينشد:

مقال الفتى المسمى جبيراً فقلبي ذاب من كثر اشتياقي
ألا يا مرحباً فيكم جميعاً لقد ضاءت بكم كل الآفاق
أخي جابر إليه القلب طائر له حب بقلبي للدهر باقي
فأهلاً يا أبي شرفت قوماً بقدومكم صرنا بأعلى طباق

فلما انتهى جبير من كلامه ضمه أبوه إلى صدره وقبله واعتذر إليه وعند ذلك أحضر جبير والدته وأصلح شأنها مع والده ونسوا ما مضى ومرت الأيام وهم في بسط وأفراح ثم أراد المنذر العودة إلى بلاده فألح عليه جبير بالبقاء، فأبى وقال: سأزورك كل عام إن شاء اللَّه فقدم له هدية عظيمة وهدية ثمينة إلى أخيه جابر ثم ركبوا معهم وودعوهم وما زال المنذر سائراً إلى أن وصل إلى بلاده فدخل صيوانه واجتمع بأحبائه وأعوانه وسلم على ولده جابر وقدم له الهدية التي أرسلها له أخوه، فكاد يتميز غيظاً من الحسد فسأله أبوه عن السبب فقال: لا بد من قتل جبير ولو صار فوق السبع طبقات، فقال له أبوه: اذهب عني يا أخس الرجال فتوارى جبير من أمامه.

(قال الراوي) لقد أمحلت بلاد الشيخ بعد مدة من الزمن فرحل الملك المنذر مع ابنه وقومه ونزلوا عند الأمير مفلح في بلاد السرو وهناك توفي المنذر وتوفي بعده المفلح.

قصة الخضراء

(قال الراوي) أما جابر فرزقه اللَّه أربعة أولاد ذكور وهم عامر وتامر وهشام وحازم، ومن حازم أتى جامون ومن جامون حازم ومن حازم سرحان. وأتى من تامر ثابت ومنه دريد ونايل وأتى منه رزق أبو زيد. وهشام أتى منه مالك ومنه طوى ومنه مالك وأتى من عامر قان ومن قان فائد وهذا الفرع يكون بجملتهم خطاباً فهذا ما تسلسل لجابر. أما الأمير جبير حاكم بلاد نجد فله ثلاثة أولاد الأول رياح من ابنة الملك النعمان ومن رياح أتى خمير ومنه رياح ومن غانم أبو دياب. والثاني حنظل من زوجته الثانية بنت الوزير ومن حنظل زهانة ومنه العقيلي حنظل. والثالث النعمان من زوجته الثالثة بنت صخر ومن النعمان منيف ومن منيف مناف ومن مناف مقرب ومنه الماضي، وكان الماضي يحكم على ثلاثين ألف قرية من بلاد نجد لأنه عصبة الجدين وكان أصل البلاد لجده النعمان عم جبير وباقي السبع سلاطين يحكمون على ثلثي البلاد ومعينة عليهم لأنها واسعة الجنبات كثيرة الخيرات وماؤها غزير وهي مائة وعشرون ألف قرية، فكل سلطان أخذ لنفسه قسماً من تلك البلاد فهذا ما كان من سلسلة أجداد بني هلال. أما الأمير جابر فإنه قبل موته ولى ابنه الأمير حازم أبو السلطان سرحان ونادى المنادي باسمه في كل البلاد فأقام حازم في بلاد السرو مدة من الزمان، وراقت له الأحوال وبينما هو في رغد وانشراح وعز وأفراح أتاه كتاب من حاكم مكة المكرمة وهو الأمير قرضاب الشريف ابن هاشم من نسل بني هلال قال في كتابه: لقد بلغنا أن الأبشع ملك الروم قادم علينا في جيوش كثيرة يريد خراب البلاد ونهب الأموال وسبي الحريم والعيال.

(قال الراوي) وكان السبب في قدوم هذا الملك الجبار بجيوشه وعساكره هو أنه لما جلس على تخت الملك سأل أرباب دولته عن أحوال آبائه وأجداده وما لهم من الوقائع، فقالوا له: كان جدك هرقل من أشهر الملوك فقصده النبي ﷺ بالعساكر والأبطال وكان في صحبته قوم بني هلال فهدموا بيوتنا وقتلوا هرقل وسبوا الحريم ورتبوا علينا الجزية، فقال الأبشع: من هو الحاكم على مكة في هذه الأيام؟ قالوا له: قرضاب الشريف بن هاشم وهو من بني هلال الذين يسكنون أرض السرو فقال: لا بد أن أقصده وآخذ منه الثأر وأكشف عنا العار، ثم إنه زحف بجيوشه من

أنطاكية إلى حلب فملكها ونهب أموالها وأقام فيها نائباً من وزرائه ثم ملك حمص وحماه وملك طرابلس والبترون وجبيل وبيروت وصيدا وامتد حكمه إلى نابلس والقدس وغزة والرملة واتخذ صيدا مركزاً له ثم قصد الأمير قرضاب الشريف فلما بلغ الأمير قرضاب خبره اضطرب وخاف وقد رأى مناماً أفزعه وهو أسود وذئاب ونار وشرار وغبار ونزلت الثيران من السماء فأحرقت تلك الوحوش فاستيقظ من منامه خائفاً وحكى منامه لأمين الدين مفسر الأحلام وأنشد يقول:

يقول قرضاب الشريف بن هاشم ولي قلب من جور الزمان ارتاع
ألا يا أمين الدين اسمع قصتي وافهم معانيها وكن لي مطاع
رأيت مناماً هد حيلي وقوتي ورماني بهمّ وبلا وانزاعَ
رأيت سباعاً مع ذئاب وبعدها نموراً ووحوشاً يملؤون القاع
ألا يا أمير الدين فسر لحلمنا واشرح لنا ما خفي من الأوضاع

عند ذلك أخذ الرمَّال الرمل وفرده وتفرس فيه ثم أنشد يقول:

يقول أمين الدين عما جرى له أنا في كتابي رأيت الأهوال
ألا يا ملك قد بان بالرمل عندي سيأتي إلى مكة كثير من الأبطال
وبعلى عجاج الخيل في ساحة الوغى وتجري أمور مع حروف طوال
وأما الذئاب يجي عدو لأرضنا ويلحقنا منه عنا وانكال
وأما السباع فهم رجال يجونهم ويدعونهم بالمرهفات شلال
فتأتيك نجدة يا شريف تنصرك أبطال تجيك من رجال هلال

فلما فرغ الرمال من تفسير المنام سريعاً ركب العبد ناقة وسار إلى صيدا فوجد عسكراً كعدد الرمل فسأل عنهم فقيل له: إن الملك الأبشع قاصد بلاد العرب ليأخذ بثأر جده فرجع العبد إلى مولاه الشريف وأنشد يقول:

يقول سعيد العبد والقول صادق يا فارس الفرسان يا صنديد
أنا سرت نحو الشام وكل بلادها وبأرض صيدا رأيت الأبشع أكيد
قاصد إليك يا مير يا فخر الملا وطاعت له الفرسان وصاروا له عبيد
يا مير جهز لجيشك واحذر البطا واطلب الفرسان من هلال الأجاويد

عند ذلك خاف الشريف وكتب إلى بني هلال يستنجدهم ويقول:

يقول الفتى قرضاب عما جرى له بدمع جرى فوق الخدود بداد
يا غادياً مني على متن ضامر يسابق حد المرهف البولاد
إن أتيت حي بني هلال وعامر تلاقي بها من الخيرين أجواد
فمنهم كبير القوم حازم أميرهم وكل البوادي نحوه تنقاد

فاقريه مني ألف ألف تحية تحية مشتاق إلى الأسياد
وسلم على سرحان والأهل كلهم ورزق البدر والأمير طراد
قل لهم قلل الشريف بن هاشم ألا فانجدونا يا عمام أنجاد
أتى الملك الأبشع إلينا قاصد ومعه قروما يا أمير شداد
إلينا إلينا يا هلال جميعكم يا قاتلين الضد والأعناد

فلما انتهى القرضاب من كلامه أعطاه لعبده راشد وأمره بالسير إلى بني هلال، فسار العبد بسرعة فلما وصل دخل على السلطان حازم وسلمه الكتاب فلما قرأه غضب غضباً شديداً على الملك الأبشع ومسيره إلى مكة المكرمة ثم أعلم الحاضرين بما فيه فقر رأيهم على إرسال النجدات إلى الشريف قرضاب فكتب الجواب إلى قرضاب الشريف وختمه بهذه الأبيات:

يقول الأمير حازم أبشر يا قرضاب بالنصر والفرج من رب الأرباب
واترك الخوف والفزع وياك تهاب وانتظرنا أسبوعاً ولا ترتاب
وخذ جيوشاً عد الحصى وتراب وأؤمرها بما شهت يا عالي الجناب
أبطال مسلحة بسيوف وحراب تدحر العدوان وتفتت الأعصاب
وخيلاً أصايل تسبق الريح وهباب تقفز على الصور من فوق البواب
أهجم على الأبشع هجمة دياب وأرمي جثته للبوم وغراب
وادحر رجاله وردهم على العقاب وشتتوا شملهم بين الهضاب
وأفني عساكره بضرب الرقاب وأهدم بلاده أجعلها خراب
وعد إلى مكة وراية النصر تنساب تخفق بالعلا من أيدي الشباب
واعمل فرح وادع جملة الأصحاب وعش بالمسرة مدى العمر وأحقاب

وبعد أن أرسل الكتاب إلى الشريف قرضاب صاح على الأبطال والفرسان أن يستعدوا للحرب والقتال وأشار يقول:

يا قوم اصغوا إلى كلامي واسمعوا وافهموا قولي يا جميع هلال
اعلموا أن الشريف قرضاب هاجم عليه الأبشع في ألوف رجال
قاصد إلى مكة يخرب بلادها ويقتل أهاليها ويشرد الأطفال
فانجدوا قرضاب يا أهل الوغى واقتلوا الأبشع ورجاله بالحال

ثم نهض الأمير رزق يحرض على الجهاد ويقول:

يقول الأمير رزق يا رجال اركبوا على خيل كالطيور الطائرات
واجعلوا الأعداء طعاماً للوحوش واتركوا فرسانهم تغدو شتات
جسد لو هم عالثرى بسيوفكم واثبتوا في الوغى أعظم ثبات

يـا كـرام الـقـوم هـبـوا بـالـعـجـل انصروا قرضاب بسيوف مرهفات

عند ذلك ركبت الفرسان ظهور الأصايل وهم متسلحون بكامل الأسلحة وساروا إلى مكة المكرمة، فبلغ قرضاب الشريف خبرهم فخرج للقائهم مع السادات والأبطال واستقبلوهم أعظم استقبال ولما دخلوا مكة ذبح لهم النوق والأغنام وأنشد يقول:

قـال الـفـتـى قـرضـاب قـولاً صـادقـاً يـا مـرحـبـاً بـالأهـل والأعـمـام
يـا مـرحـبـاً بـقـدوم سـرحـان الـفـتـى يـا مـرحـبـاً يـا رزق يـا ضـرغـام
يـا مـرحـبـاً فـي قـايـد مـع فـايـد أولاد عـمـي الـقـروم الـلـزام
يـا مـرحـبـاً فـيـكـم جـمـيـعـاً كـلـكـم فـالـلـهـم عـنـا زال والأوهـام

ثم خلع عليهم الخلع الفاخرة وأثنى عليهم فأنشأ رزق يقول:

قـال ابـن نـابـل والـقـول صـادق يـا أمـيـر اسـمـع لـكـلام أعـمـامـك
جـيـنـا لـعـنـدك يـا شـريـف بـجـمـعـنـا بـأرواحـنـا نـفـديـك مـع خـدامـك
لازم بعون اللّه نهفى لك الأبشع ونـقـتـل كـل قـومـه قـدامـك

فشكره قرضاب الشريف شكراً جزيلاً فقال له رزق: أرسل لنا من يأتينا بأخبار الأبشع، فأرسل الشريف الجواسيس ولما عادوا قالوا: إن العساكر نازلون على أرض تبوك فقال سرحان: الرأي أن نهجم عليهم بالعساكر ولا نتركهم يصلون لهذه الديار، فصاروا جميعاً بالجنود والأبطال ولما تقابلوا نزل لساحة الميدان النعمان بن جابر وزير الأبشع فجال بين الصفين وصاح هل من مبارز فبرز إليه سرحان فأنشأ النعمان يقول:

يقول الفتى النعمان عما جرى له جـيـنـا إلـيـكـم طـالـبـيـن الـثـار
أتـيـنـا إلـيـكـم فـي خـيـول كـثـيـرة ومـعـنـا رجـال تـخـطـف الأعـمـار
وعـددنـا مـيـتـيـن ألـف ومـثـلـهـا ومـيـتـيـن ألـف مـن مـدافـع نـار
فـأيـن تـروحـوا يـا عـرب وتـهـربـوا وأنـتـم لـنـا كـالـزبـد فـوق بـحـار

فلما انتهى النعمان من كلامه أجابه سرحان على نظامه:

يقول الفتى سرحان يا نعمان اسمع أتـاك الـقـضـا يـقـصـف لـك الأعـمـار
ولا بد من تشتيتكم وتقطيعكم وأخـذ حـلايـلـكـم مـع الأبـكـار
ونـقـتـل الأبـشـع وكـل قـرومـه ونـدعـيـكـم فـوق الـثـرى دمـار
وكـل فـارس مـنـا بـجـمـعـكـم يـمـحـي جـيـشـكـم بـالـصـارم الـبـتـار

(قال الراوي) فلما فرغ سرحان من كلامه التقى البطلان كأنهما جبلان وحان

عليهما الحين وما زالا في قتال إلى وقت الزوال فقوي سرحان على الوزير وضربه بالسيف على هامه وألقى رأسه قدامه، فعند ذلك دقت طبول الانفصال وبات الفريقان إلى الصباح ركبوا خيولهم واصطفوا للقتال فنزل سراج أخوه فقتله ولم يزل يقتل فارساً بعد فارس حتى قتل عشرين فارساً فانحمق الأبشع ونزل إلى الميدان وحمل على قرضاب فانحدر الأمير قايد وانطبق على الأبشع الوزير إلى الميدان فانحدر له الأمير قايد وتطاعنا بالرماح وتضاربا بالسيوف إلى أن تعب سراج وأراد الهرب، فضربه قائد على هامه وألقى رأسه قدامه فعند ذلك حملت قوم الأبشع على بني هلال والتقت الرجال بالرجال وجرى الدم وسال إلى وقت الزوال دقت طبول الانفصال، فقتل من قوم الأبشع خمسة آلاف فارس وخمسمائة من بني هلال وفي الصباح برز فارس من قوم الأبشع يقال له العملاق، فبرز له قرضاب وضربه بالسيف وقطع رأسه فبرز إليه آخر فتلقاه الأبشع بالحسام وتضاربا وتطاعنا بالرماح فظهر لقائد أن خصمه شديد فخاف على نفسه وولى هارباً فنزل الأمير سرور فقتله الأبشع فنزل آخر فقتله ولم يزل يجندل الفرسان حتى قتل ثلاثين فارساً وعند المساء رجع الأبشع من الميدان وهو متكبر متجبر وفي الصباح نزل إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان فبرز إليه سرحان وأنشد:

على ما قال سرحان بن حازم كلامي جد ما فيه مزاح
أيا أبشع أنا سلطان عامر ابن حازم شديد في الكفاح
فلا تحسب بأني مثل غيري أنا قوم اللقا عند النطاح
فاثبت للقا إن كنت فارس لخلي دمك على الثرى سياح

فحمل الأبشع على سرحان حملة قوية فالتقاه سرحان بحملة أقوى وتجاولا وتضاربا ساعة من الزمان، فرجع الأبشع على سرحان فخاف سرحان على روحه وانسحب من الميدان بخفة الغزلان، فنزل قرضاب الشريف فلم يثبت أمامه إلا ساعة من الزمان ثم ولى هارباً فنزل الوزير وتعارك معه قليلاً ثم ولى هارباً وصارت تنزل إليه الفرسان فمنهم من يهرب ومنهم من يقتل حتى قتل أربعين فارساً فدقت طبول الانفصال ورجع الأبشع إلى قومه مرفوع الرأس، أما قرضاب الشريف فأعلن بين قومه أن من يقتل الأبشع يزوجه بنتاً من بناته فطمع الأمير رزق ببنت الشريف ونزل في الصباح إلى الميدان فنزل إليه الأبشع فصدمه رزق صدمة قوية، فقال له: ارجع إلى أهلك قبل أن تهلك فقال الأمير رزق: خسئت أيها النذل فانحمق منه الأبشع وأنشد:

قال الفتى الأبشع على ما جرى ونيران قلبي زايدات لهيف

أنا فارس الهيجا إذا قام سوقها أخلي الدما من حسامي نزيف
أنا ملكت الروم يا مير والعجم والهند والسند وأرض الريف
من أنطاكية وحلب لديرة حما للشام إلى غزة وكنت مخيف
إلى مصر وأرض الصعيد ملكتها أمري بها سالك بلا توقيف
واليوم جيت إليكم أرومكم وأجنف عليكم يا عرب تجنيف
أنا راعي الناموس والعز والشرف ومدعي الفوارس بالحروب تليف

فلما فرغ الأبشع من كلامه أجابه الأمير رزق على نظامه:

أيا ملك الأبشع عرفنا خصايلك وسمعنا مضارك بالمدن والريف
أتيت إلينا قاصد لقتالنا تخرب أراضينا يا نذل يا سخيف
خاب ظنك والذي أنت طالبه وجاك القضا ومنا تروح تليف
كم رميت مثلك ملوك بسيفي وراحوا من ضربتي تناتيف
ولا بد ما أقطع رأسك بصارمي وخليكم بالوغى ترجفوا رجيف
أنا حامي الزينات بكل غارة ومطلع هوادجكم بيوم مخيف

ثم التقى البطلان كأنهما جبلان وعلا بينهما الصياح وهانت عندهما الأرواح وخطرت في بال رزق بنت الملك قرضاب الشريف فقوي على الأبشع وطعنه في صدره وأراحه من عمره، فدب الرعب في قلوب قومه ورجعوا إلى الوراء، فهجم عليهم بنو هلال وشتتوهم في البراري والتلال وتقدم قرضاب الشريف وقبل الأمير رزق بين عينيه وجمعوا أسلاب العدو وخيوله الشاردة ورجعوا إلى ديارهم منصورين فقدم قرضاب الشريف بناته على الأمير رزق لينتخب منهن عروسة توافقه وتليق به وأنشد:

قال الفتى قرضاب في ما جرى ودمع الفرح هل على الوجنات
يا مير رزق أنت قلبي والحشا دونك لمالي يا فتى وبناتي
بنتي خديجة ثم خضرا أختها معروفات بالأب والعمات
خذ ما تشاء يا أمير منهما ما مثلهن في سائر السادات
لولاك ما كنا دمرنا العدا ملك الأبشع من حسامك مات
يا أمير رزق اللَّه يديم عزك يا صاحب العليا مع الهمات

فلما انتهى قرضاب من كلامه أشار الأمير رزق يطلب الخضرا ويقول:

يقول الفتى رزق الذي شكا يا مير قرضاب اسمع نظم أبياتي
أنا رايد يا مير بنتك الخضرا أنت ترى بالعطا عادات
أنتم بنو عمي ونحنا أهلكم عشنا جميعاً في أرض فلات

أرض بـــهـــا نـــخـــل ورطـــب فـواكـهـهـا يـا أمـيـر مـخـتـلـفـات
فـيـهـا سـفـرجـل مـع لـوز وفـسـتـق وجـوز وعـنـاب زيـن الـصـفـات
والـتـيـن والـزيـتـون فـيـهـا والـعـسـل والـدبـس فـيـهـا والـعـنـب كـومـات
فيها أجمل الوحوش تمرح بأرضها والـطـيـر يـغـرد عـلـى الـشـجـرات
مـا مـثـل نـجـد ولا فـي سـايـر الـمـلا أراضـيـهـا مـزروعـات بـالـخـذات
هـذا مـرادي يـا مـيـر فـجـد بـهـا وخـلـي الـقـلـب يـزيـد بـالـفـرحـات

(قال الراوي) فلما فرغ رزق من كلامه قال قرضاب الشريف: أبشر أيها الأمير رزق، فقد نلت مرادك وستكون بنتي الخضرا زوجتك وأنا أدفع لك مهرها ونفقات الكتاب والعرس ثم أحضروا المشايخ وكتبوا كتاب الخضرا على الأمير رزق ودام الفرح شهراً كاملاً، أما سرحان فقال لرزق: تريد أن تتزوج الخضرا دون أن تشاور عمك الأمير حازم فقال: نشاوره وكتب مكتوباً بواقعة الحال وأرسله إلى الأمير حازم فلما قرأه فرح بهذا القران الميمون وأشار يهنئ الأمير رزق بهذه الأبيات:

يقول الفتى حازم على ما جرى له دمـع الـفـرح مـن خـدي سـكـيـب
أيـا غـاد مـنـي عـلـى مـتـن ضـامـر تسبق هبوب الريح قبل المغيب
سـلـم عـلـى الأمـيـر رزق حـبـيـبـنـا وقـبـل أيـاديـه وكـن أديـب
وقـل لـه أن الـذي قـد فـعـلـتـه لـقـد سـر أهـالـيـنـا وكـل حـبـيـب
لك الخير يا رزق الأمير مع الرضا بـجـاه ربـي سـامـعـاً ومـجـيـب
فسلم على قرضاب عمك وعزوته وكل أمير في حماه مع الترحيب
وسلم على الخضرا الشريفة وأمها وخديجة بنتها معطرات بالطيب

ثم إنه أرسل الكتاب إلى مكة المكرمة وسلموه إلى الأمير رزق فلما قرأه أعطاه إلى الأمير سرحان فقرأه على السادات والأمراء، وعند ذلك دقوا طبول الفرح وذبحوا الأغنام وعملوا الولائم وأقاموا الأفراح والليالي الملاح ولبسوا الخضرا أفخر الحلي والحلل ونصبوا لها صيواناً عالياً من الحرير مزيناً بالذهب وزينوا داخله بالزهور والورود ووضعوا لها كرسياً من العاج له أربع تفاحات من الذهب الوهاج وبدأت البنات ترقص على نقر الدفوف وهن يتمايلن كغصون البان ويغنين:

اسكب الكاسات واسقينا يا خي مـن شـربـهـم وكـان مـيـت عـاد حـي
نـحـنـا زيـنـات الـعـرب أهـل الأدب معروفين أصل ونسب من جد وبي
الـفـرح والـبـسـط فـي أوطـانـنـا عـم يـذهـب الـغـم ويـكـوي الـعـدو كـي
الـفـتـى قـرضـاب وهـو أمـيـرنـا بـالـجـود والـكـرم يـسـبـق حـاتـم طـي

وعلى هذا المنوال كان الشباب يرقصون ويغنون ثم أمر الأمير قرضاب بنصب ميدان للأبطال والفرسان فاصطفت الرجال على ظهور الخيل وبدأت مبارزة الفرسان فظهر الشجاع وبان ثم دقوا الطبول ووضعوا موائد الطعام، وداموا في بسط وانشراح إلى أن قرب وقت الزفاف فغنت البنات الأغاني الشرقية ورقصن الرقصات البلدية ثم زفوا الخضرا على الأمير رزق وأقبل الأمراء والأميرات يهنون العروسين على هذا الزفاف المبارك، فدخل عليها ونال الوصال وتمتع بالحسن والجمال وبعد مدة طلب الأمير رزق من عمه قرضاب أن يسمح له بالسفر إلى بلاده، فأذن له وشد لبنته الخضرا هودجاً مرصعاً بالجواهر وريش النعام وأعطاها عقداً من الجوهر وعقداً من اللؤلؤ وعشرين جارية ومائة جمل وعشرة آلاف دينار واجتمعت البنات حولها يودعنها ودموعهن تنحدر على خدودهن كاللؤلؤ وتقدمت أختها خديجة تودعها:

تقول بنت قرضاب اللي شكت بدمع جرى فوق الخدود بدود
أيا خضرا أتانا الفراق وقد دنا ولا عاد يهنا لنا ركون وقعود
ولا عاد يهنا لي نوم ولا غفا ولا عاد يهنا لي فراش ورقود
تفرقت الخلان وسارت الحبايب متى شوف الخضرا إلينا تعود
هيهات عاد العين تشوفها وهذا مقدر من إلٰه معبود

ثم تقدمت عطر تودع ابنتها الخضرا:

تقول فتاة الحي عطر اللي شكت بدمع جرى عالوجنتين طفيح
لفراق خضرا صابني الغم والبلا وأصبح فؤادي بالهموم جريح
وكنا بخير مع سرور ونعمة والعيش صافي والبسط مليح
يا بنتي خضرا نصيبك أتاك عسى تنالي الخير والتوشيح
كوني لبعلك سامعة ومطيعة واكتمي السر ولسانك لا يبيح

فلما فرغت عطر من كلامها أشارت الخضرا تودع أمها:

تقول فتاة الحي خضرا اللي شكت وعيني لفقد الغانمين تجود
أيا حسرتي جاني الفراق وما بقي سوى ساعة ونعود شرود
أيا ليت شعري هل عاد نلتقي ونحظى بلم الشمل بعد صدود
دعونا نودعكم ومنا تودعوا وتشفى قلوب صابها هم ونكود
بكيت على أهلي وقومي وغربتي وما عاد لي بين الأحبة قعود
أودعتكم للّٰه ربي وخالقي اللّٰه تعالى واحد معبود

ثم عانقوا بعضهم وتودعوا وركبت الخضرا هودجها وركب بنو هلال وركب

قرضاب الشريف وقومه لوداعهم، وساروا معهم نصف يوم فحلف عليهم الأمير رزق أن يعودوا فأشار قرضاب يوصيهم ويودعهم:

يقول الفتى قرضاب فيما قد جرى بدمع سال فوق الخدود بديد
يا مير رزق الخضرا صارت حليلتك غريبة وراحت إلى بلاد بعيد
فأوصيك فيها يا أمير تعزها لحتى يجيها يا أمير وليد
إذا جاها ولد وكان أسمر لا تظن في فعل الردى يا جيد
ترى ستها سودا كان لونها وجدها كان أسود كالعبيد
تظن بالخضرا القبح مع الردى وتجعلها في سوء حال ونكيد
وتبقى حزينة ما لها مساعد سوى دمعها عالخدود يزيد
يقولوا هذه بنت الشريف طامحة وعشقت على الأمير رزق الجيد
فإن صار لك شيء سيرها لنا فتأتي إلينا في بكا وتعديد
ونقتلها وتفضحنا بين الملا وندعها بين السيوف بديد
ويوقع سفك الدما بيننا وبينكم وهذا بياني والبيان مفيد
ولا تقطعوا الأخبار بيني وبينكم أخبار مليحة تسر بالتأكيد

فلما انتهى قرضاب من كلامه أنشأ رزق يرد عليه:

يقول الفتى رزق الذي شكا من فرقة الخلان والبلاد بعيد
كلامك عندي مسجل يا ملك وأنت عديل الروح يا صنديد
ما شفت مثلك بالأنام جميعها أيا برمكي يا ابن ست وسيد
أعطيتني بنتاً شريفة مناضلة منخوبة الجدين بالتوكيد
ونحن عبيدك يا شريف بلا خفا فافعل بنا ما تشتهي وتريد
وإن أتاك عدو راد يحاربك أرسل لنا خبر نجيك ركيد

فلما انتهى رزق من كلامه عاد قرضاب الشريف إلى بلاده وسار بنو هلال إلى بلادهم ولما وصلوا طلع الأمير حازم لاستقبالهم بالطبول والزمور والزغاريد وسلموا على بعضهم البعض وبعد سنة ولدت الخضرا بنتاً سموها شيحة فأنشأ الأمير رزق يطلب من اللّٰه أن يرزقه ولداً ذكراً قال:

يا رب يا رحمن يا سامع الدعا أيا من له كل العباد تسأل
أيا رب ترزقني ولد يسرني يحيا به ذكري وأنال منال
بداود وسليمان ويحيىٰ ويوسف بموسى وعيسى والمصطفى المفضال

بعد ذلك حملت امرأته وكانت تطلب من اللّٰه أن يرزقها ولداً ذكراً وخرجوا مرة إلى بستان، فرأت غراباً أسود يطرد الغربان ويقهرهم ويفتك بهم فقالت: إلٰهي

أسألك أن ترزقني ولداً ذكراً ولو كان لونه أسود لعله ينشأ يغلب الفرسان ويقهرهم مثل هذا الغراب ثم أنشدت:

يا رب يا رحمٰن يا سامع الدعا ترزقني ولد ذكر يا جبار
يكر على فرسان البوادي جميعها ويعلو ذكره في سائر الأقطار
وينسر قلبي ولبي وخاطري لأني شريفة من بيوت كبار

فلما فرغت من دعائها عادت إلى الديار وعند تمام الحمل أتاها الطلق فوضعت غلاماً أسمر اللون وراح المبشر إلى الأمير رزق وبشره بالغلام ففرح له وذبح الذبائح، وأقبل الناس يهنونه وسألوه عن اسمه فقال: بركات وسلموه لبنت عسجم ترضعه وبعد سبعة أيام أتى الأمير حازم وسرحان وبقية الأمراء لعند رزق لينقطوه فأتوا به فلما رآه سرحان عض على أصابعه وقال لرزق: هذا الولد أسود مثل العبد ثم أنشد يقول:

يا مير رزق ليس هذا خليفتك هذا أبوه عبد أسود
سميته بركات به ضاع الهنا راح الفرح عنا وجاء الأنكد
يا رزق قد ضيعت نسلك بالنبي والسعد ولى ونحسك يصمد

فلما فرغ الأمير سرحان من كلامه اغتاظ الأمير رزق وأنشد:

قال الفتى رزق الأمير بما جرى الدمع من عيني لخدي تبددا
يا قوم كونوا كلكم عليّ شهود تكون خضرا طالقة ترحل غدا
وحياة رأسي ما بقيت شوفها لو كان جسمي في هواها مقيدا
ما عاد لي رأساً بقا يرتفع والقلب قد عاد مكوداً أسودا

(قال الراوي) فلما انتهى رزق من كلامه قال سرحان: أسرعت يا رزق بطلاق امرأتك أنا أمزح معك واللّه ما سمعنا على الخضرا ما يسوء بسمعتها ومن يوم الذي أتيت بها ما خرجت لعند جارتها ولا رآها أحد، فقال له رزق: أنت السبب في طلاقها ثم إنه صاح بالعبيد احملوا ستكم الخضرا بالهودج وأرسلوها إلى أهلها فصاحت به الخضرا ما بالك يا أمير غضبان فأنشد:

طلبنا من الرحمان جل جلاله غلاماً ظريف القد عند النواظر
أتانا غلام أسمر اللون باهر فرحنا ودارت في هلال البشائر
قالوا الإمارة هات المولود ننقطه فرب الملا أمر بجبر الخواطر
ناديت للدايات جابوه بينهم محمول على الراحات بالحرايز
فقال لنا سرحان طفلك أسود فلا تحسبوه من هلال وعامر
فأما هلال بالعيون تغامزوا وأما دريد يضحكوا بالمحاضر

ومن زعلي طلقتك الآن طلقة وعادت إلى قلبي لهيب المجامر
خذي طفلك وأموالك كلها وروحي إلى أهلك من غدا باكر

فتأثرت منه لكونه طلقها بدون سبب وأشارت تلومه وتقول:

تقول فتاة الحي خضرا اللي شكت بدمع جرى من مقلة العين حادر
أيا مير لا ترمي بعرض شناعة أنا قط ما أعرف دروب المناكر
أيا مير من حين دخلت لأرضكم فلا رآني عبد ولا سيد عابر
وحاشا لمثلي إن كان تميل إلى الخنا وأنا حليلة رزق كالسبع كاسر
غريبة حزينة من بلاد بعيدة يجازيه ربي بالبلا والمرايز
تردني لأهلي ودموعي حوادر وإن كان بسرحان أراد يضرني
ويقتلني أبي بين الناس كلهم ويدعي دمي على الأرض قاطر
يا ليتني قدمت قبل فرقكم ولا نتبهدل بين كل العشاير
ولا بد ابني بركات أن يكبر ويدعيك في شؤم البلا والمصاير
إلى اللَّه أشكو حالتي لا لغيره ومن يشتكي للَّه ما ظن خاسر

فلما فرغت الخضرا من كلامها بكت وبكى رزق وقال لها: هذا مقدر من اللَّه ثم أمر العبيد بشد هودجها فشدوه وأعطاها الصيوان بما فيه ومائة ناقة وأربعة عبيد وست روس خيل، ثم قال للأمير قايد: وصِّل الخضرا لعند أهلها فركبت هي وابنها بركات بالهودج وأخذت بنتها شيحا في حضنها تودعها بهذه الأبيات:

تقول فتاة الحي خضرا الحزينة بدمع جرى فوق الخدود يعوم
أيا شيحا إبكي ونوحي على أمك من بعدها عاد القصر مهدوم
ليتك يا سرحان بالبلا واقع يجازيك ربي بكل سموم
أيا رزق أحرقت الفؤاد بكلمتك وبيني وبينك واحد قيوم
ولا بد من بركات إن طال عمره يجيكم على ظهر جواد عزوم
ويأخذ بثأري منكم جميعاً ويجعلكم طعم الرحم والبوم
أيا بنتي شيحا يا ضو مقلتي ويا نور عيني والحشا المألوم
فمن عاد يضحك ويبوس تمك ويزيل همك ويخلي عزك يدوم

ثم إن الخضرا بكت وأبكت الجميع على حالها وتودعت من بنتها وسلمتها لأبيها ثم ساقوا الهودج والنوق وساروا مع الأمير قايد مدة من الزمان، أما الأمير حازم فقال لابنه سرحان: هل يحل لك أن تفرق بينها وبين زوجها يا ردي فقال سرحان: أنا ما كان قصدي أن يطلقها ولكني كنت أمزح.

(قال الراوي) ودخلت على حازم وسرحان فاطمة بنت عسجم وقالت

لسرحان: اللَّه يجازيك على أعمالك الرديئة ثم أنشدت تقول:

بكت فتاة الحي فاتنة النسا ... بدمع جرى فوق خدي سكابها
بكيت على فتاة أميرة مهذبة ... محسن حاجبها ومحسن شبابها
فحاشا لها من العيب والردى ... وحاشا يجي الخنا لايم بابها
فإن طاعني رزق الأمير وسرني ... مشى للخضرا الشريفة وجابها
فأسرع يا مير للخضرا وجيبها ... فالخضرا عفيفة وما ينسخى بها
ولا عاد يوجد مثلها طول المدى ... ولو فتش الدنيا وقلب جنابها

فقالوا: هذا الذي صار أما الخضرا فصارت تبكي على حالها فقال لها قايد: لماذا تبكين يا خضرا؟ قالت: متى وصلت إلى أهلي ورأوا هذا الولد وعرفوا أني مطلقة يقتلونني، فالرجاء أن لا تودیني لأهلي بل أرسلني إلى بلاد أحد الأمراء فلا يراني أهلي ولا يعلمون بي قال لها: إذن أوصلك إلى الملك الزحلان، فما على وجه الأرض أكرم منه ثم إنهم ركبوا وساروا فلما قربوا من بلاده قال لها: هذه بلاده فادخليها بسلام ثم ودعها ورجع إلى بلاده، أما الخضرا فإنها سارت هي وعبيدها طالبة منازل الزحلان وكان للزحلان أخت ولها ولدان الأول جابر والثاني جبير، فقال الزحلان لجابر: اربط في وادي الدقايق وقال لجبير: اربط في وادي النسور، فأخذ كل واحد ألف خيال وربطوا فما أحد أتى من قبل العدو أبي الجود ولكن جابراً رأى الخضرا قادمة فاستقبلها وسألها عن حالها فقالت: أنا ضيفة قاصدة الملك الزحلان فقال جابر: أهلاً بالضيوف وبدأ يترحب بها ويقول:

أيا مرحباً بالضيف الذي أتى لبلادنا ... عدد ما مشيتم على وجه الرمال
فإن كنتم مديونين وفينا دينكم ... ونعطيكم منا كثير أموال
فمن أي أرض أتيتم بلادنا ... ومن أي قوم أخبرونا بالحال
قال الفتى جابر على ما جرى له ... ردوا جوابي يا كرام بالحال

عند ذلك أخبرته الخضرا بما جرى لها مفصلاً فقال: مرحباً بك يا بنت الشريف ثم أخذهم وأنزلهم مقابل صيوان خاله، ولما جاء خاله رأى صيواناً مكتوباً عليه هذا صيوان الدريدي فقال: هؤلاء أعداؤنا وصاح بعبده ويلك لمن هذا الصيوان فقال له: هو صيوان ضيوفك فقامت الخضرا وسلمت عليه وأشارت تقول:

دهري ضناني يا أمير وهانني ... وقلبي كواه الهم والأحزان
أتانا الملك الأبشع يهدم بلادنا ... ويهدم معابدنا وسائر البلدان
فأرسل أبي إلى هلال وجابهم ... وقد قتلوا الأبشع بحد السنان

وزوجني أبي رزق وجابني لعند أهله هلال فهذا قد كان
جبت له بنت مليحة زمانها سميتها شيحة بلا كتمان
وبعد سبعة أعوام جبت بعدها ولد ذكر فهد من الصبيان
ولكنه باللون يا أمير أسمر هنوا به رزق سائر العربان
أما الأمير سرحان لما شافه شبه بالعبد من السودان
فقال رزق تكون خضرا طالقة وأعطاني ذا البوش والرعيان
وقال يا قايد روح وديها لأهلها حقاً بلا كتمان
فقلت يدروا بحالي ويقتلوني وابني رضيع يا فتى الزحلان
فجيت لعندك أستظل بظلك وقلبي بشوفتك غدا فرحان

فلما فرغت الخضرا من كلامها ترحب بها الزحلان وقال:

يا مرحبا بك يا شريفة بأرضنا وآضى بك حي لنا ومكان
أقبل علينا السعد حين قدومك وزال عنا الهم والأحزان
فطيبي وقري يا شريفة بأرضنا عليك أمان الواحد الديان
وأنت مثل بنتي زهية وأزود فتشجعي ولا تخشي من العدوان
أربي بركات مع نعيم ومنعم وأعطيه سلاحاً وأعطيه حصان

ففرحت الخضرا فرحاً عظيماً وشكرته على كرمه وجوده، ثم إنه أعطاها بستاناً وأراضي مثمرة تعيش من جناها وأمر أخته بسما أن ترضع بركات فعاش مع نعيم ومنعم، أما الزحلان فجمع أموالاً وأرسلها إلى أبي الجود ولما كبر بركات وضعه الزحلان مع ولديه عند الخطيب يعلمهم القراءة والكتابة وكان بركات ينادي الزحلان يا أبي وكان يظلم الأولاد في المكتب ورآه الشيخ مرة يضرب الأولاد فضربه الشيخ ضرباً أليماً فقال له: لماذا تضربني أما تعلم أن أبي الزحلان فلا بد لي أن أنتقم منك فخاف الخطيب أن ينتقم منه الزحلان وأشار يخاطب بركات ويقول:

يا ولدي بركات ليتك سالم وطول عمرك ما تشوف تكدير
فسامحني يا بركات واجبر بخاطري لأني ندمت على ضربك كثير
أنا أعلمك لسان الترك والكرد ولغة الطليان ولغة البربير
ولسان فارسي وأجنبي ينفعك ولسان سرياني تصير مشير
وأعلمك علم الصباغات كلها فتصير مثلي فاهماً وخبير

فقال بركات: إن علمتني ما ذكرت لي أعطيك كل يوم ديناراً فصار الفقيه يعلمه ليلاً ونهاراً وعلمه لعب الرمح وأبواب الحرب مدة خمس سنوات حتى تعلم جميع العلوم فصار الزحلان يأخذ أولاده وبركات إلى الصيد ويركبهم على الخيل

يلعبون الجريد، فرأى بركات ماهراً فزادت محبته له ودخل بركات إسطبل الخيل وانتخب منها فرساً وحصاناً أشقر وحماراً وصار يسوسهم إلى يوم من الأيام ورد إلى الزحلان كتاب من أبي الجود يطلب منه المال فتأثر وتغيرت ملامح وجهه فقال له بركات:

اسمع كلامي يا أبي ورد الجود قل لي لماذا تزعل وممن تغضبي
إن كنت مديوناً ومالك لا يفي أغزو أنايم الأعادي واكسبي
لا تخش من كل خصم في الورى لو كان خلفه مية ألف تركبي
أنا بطل مقدام في الوغى وكل جيش من حسامي يهربي
وأجندل الفرسان لا أخشى الردى وأدعي أمير القوم مني يرعبي
فأرح نفسك من عناء وابتهج وعش سعيداً في حياتك يا أبي

عند ذلك قال الزحلان لبركات: بارك اللَّه فيك ولدي فأنا سعيد بك وببطولتك وهذا كتاب من عدونا أبي الجود يطلب فيه منا الأموال فأخذ بركات الكتاب وقرأه ثم شقه ورماه وقال لأبيه الزحلان: أنا أرد له الجواب فكتب يقول:

يقول الفتى بركات والقول صادق أبو الجود ترسل لأبي تهديد
تعلن على الزحلان بالحرب يا ردي وتمجد بروحك يا غبي تمجيد
أنا وحق اللَّه وحدي أكيدكم أنا مثل سبع الغاب وأريد
أأرسلت تطلب منا عشر أموالنا يا مغرور يا منهان يا بليد
فكانت حمامة يا هبيل وطارت وراحت من يدك لمكان بعيد
أنا حامي البيض في ساحة الوغى أنا مرعب الفرسان قرم عنيد
أنا طالبك للحرب والكر واللقا ويفوز منا الذي يكون شديد

ثم إنه أرسل الكتاب مع راشد عبد أبي الجود فلما قرأه قال للعبد: من كتب هذا الكتاب؟ قال له: عبد الزحلان فقال أبو الجود: ألا يليق بنا أن يكاتبنا الزحلان فيأمر عبده أن يكاتبنا ولكني سأركب إليه وآخذ روحه من بين جنبيه ثم إنه أمر بالركوب فدقت الطبول وركبت الفرسان على الخيول وساروا طالبين الزحلان، فلما وصل الخبر لبركات لبس عدة حربه وانتخب ألف فارس وساروا إلى القتال وتبعه منعم ونعيم مع بعض العساكر، فقال الزحلان: إن بركات ليس منا وهو يدافع عنا وعن حريمنا فنحن أولى منه بالدفاع عن أوطاننا فدق طبله وأمر الجيش بالمسير، ولما وصل الخبر لعدوهم أبي الجود قال له وزيره: أرى أن أسير بعشرة آلاف فارس فقال أبو الجود: أسرع وفاجئهم بضرب الحسام فأخذ عشرة آلاف فارس وسار بهم إلى ساحة الميدان واجتمعت الفرسان بالفرسان والأبطال بالأبطال وقام

سوق الحرب والطعان وهلك كثير من الأبطال والتقى الوزير ببركات فتقاتلا ساعة من الزمان حتى انعكست بينهما ضربتان قاتلتان فكان بركات أخبر بمواقع الطعن وأرشق، فأتت طعنته في صدر الوزير فوقع قتيلاً ولما رآه قومه قتل ولوا هاربين وأخبروا أبا الجود أن عبد الزحلان قتل الوزير فتأسف على مصرع الوزير وسار بالعساكر إلى الميدان والتقت العساكر بالعساكر وانطبقوا على بعضهم البعض وصار ضرب السيف وطعن الرمح إلى المساء فدقت طبول الانفصال ورجعوا إلى أماكنهم وباتوا إلى الصباح فبرز بركات إلى الميدان وطلب أبا الجود فنزل إليه وقال له: من أنت أيها العبد؟ فقال له: اسمي مسعود بن عمار ومرادي أقطع رأسك بهذا السيف، فأخذ أبو الجود يهدد بهذه الأبيات:

يقول أبو الجود الأمير المرجفي ... النار في قلبي تهب وتنطفي
أنت يا مسعود يا كلب العرب ... ما أنت بالحرب قدري تعرفي
عمال تهرج بالكلام وتفتخر ... وأنت فارغ مثل طبل أجوف
اليوم يومك ما بقي لك ملتجا ... من حد سيفي ما بقي لك مسعفي
ارتمى عليه بركات يقبض روحه ... يقطع وريده بحد المرهفي
لا بد أن تفنوا جميعاً في الوغى ... وندعي دماكم عالثرى تنزفي
لا تحسبوني عبداً أنا بطل اللقا ... نجل الإمارة زاكياً ومشرفي

فلما فرغا من كلامهما التقيا كأنهما مركبان وزعق عليهما غراب البين ولم يزالا في أخذ ورد وقرب وبعد إلى أن طعنه بركات بالرمح في صدره طلع يلمع من ظهره ثم كر على قومه وصاح فيهم أتاكم الفتى بركات ولحقه الزحلان ومنعم ونعيم وباقي الأمراء والأبطال ولم يزل الحرب يعمل والسيف يسفك الدماء إلى أن ولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار، ثم عاد بركات ومن معه إلى الأوطان فقبله الزحلان وشكره على همته وشجاعته ثم أعلن في بني زحلان أن بركات هو الأمير من بعدي وهو الحاكم على الجنود والعساكر ولما دخلوا بلادهم استقبلتهم النساء بالغناء والرقص والزغاريد وأحاطوا ببركات وأثنوا عليه وشاع ذكره في سائر القبائل فوصلت أخباره إلى بني هلال التي أمحلت أراضيهم في تلك الأيام فقال حازم: انظروا لنا أرضاً مخصبة ننزل عليها فقالوا: ما لكم غير أرض الزحلان ولكن سمعنا أن له ولداً اسمه بركات وهو بطل صنديد وقد حارب أبا الجود وقتله، فقال رزق: أنا أكفيكم شره وشر قومه فرحل بنو هلال إلى تلك الأراضي ونزلوا على عين قطف الزهور فأسرع الرعيان إلى الحي وأخبروا مولاهم أن بني هلال أتت ترعى بمراعينا وكان بركات بالصيد فصاح الزحلان بقومه ودق طبله، وقال: متى عاد

بركات من الصيد يخبروه، وسار إلى أن وصل إلى بني هلال فاصطفت العساكر وبرز الزحلان إلى الميدان وصاح في بني هلال أنا ملك هذه البلاد والأرض أرضنا فارحلوا عنا بسلام فهو خير لكم وما أتم كلامه حتى برز إليه الأمير رزق فارس الفرسان فصاح فيه الزحلان وأنشد يقول:

من أي باب قد دخلتوا بلادنا رعيتم أراضينا وكل كهوف
وأنتم أعداؤنا من عصر جدكم وما تعرفون الجود والمعروف
فما لكم عندي سوى الطعن بالقنا ونفني جميعكم بضرب السيوف
فقوموا وارحلوا من بلادنا ومن يبقى منكم رأسه محذوف

فرد عليه الأمير رزق يقول:

أيا ملك زحلان اسمع لقصتي وكون لقولي فاهماً وعروف
نحنا أتيناكم من المحل والغلا محلت أراضينا وكل كهوف
جينا لكم نستظل بظلكم فكن يا أمير للمحتاج سعوف
ونعطي إليك العشر من مالنا وإن أبيتوا فاصمد لضرب سيوف

(قال الراوي) فلما فرغ رزق من كلامه وقع بينهما ضرب السيف إلى نصف النهار وخرجت منهما ضربتان، أما ضربة الزحلان فأبطلها الأمير رزق بطارقة البولاد، وأما ضربة الأمير رزق فنزلت على الزحلان وجرحته في كتفه وقطعت عنق الجواد فوقع الزحلان وأدركه أولاده وحملوه إلى صيوانه وكان الفريقان قد التحما في القتال إلى المساء ودقت طبول الانفصال فرجع كل فريق إلى مكانه، ولما عاد بركات من الصيد رأى الزحلان طريح الفراش فارتمى عليه يقبله ويتأسف لمصابه ثم إنه صبر إلى الصباح فركب جواده وطلب الميدان وكان عند بني هلال ضيف يقال له غانم كان قد أتى يخطب أم دياب بنت القاضي، فأخذته الحمية وبرز إلى الميدان وصار قدام بركات وقال: أنا غانم الزعبي فقال له: أين رزق الدريدي، فقال: هو في الصيد وأنا عوضاً عنه ثم أشار يقول:

يقول الفتى غانم استمع أنا مفرج الكروب بين العرايب
وأنت صغير السن ما أنت قدنا فتبرز لأصحاب اللحا والشوارب
فلا تبتلش بالحرب نرميك بالفنا وتمسي قتيلاً يفقدوك الحبايب
فرد الأمير بركات وقال له أنا كاسب الجود أنا غير هايب
تعيرني في صغر سني جهالة فإن جربتني لقيت الصعايب
ومن لا يشتري روحه بروح بدالها يكون بين الناس جبان وعايب
لسانك حصانك تصونه يصونك وإن خنته رماك بأكبر مصايب

تراني أفتك بخصمي على الثرى بطعن يخرق صلبه والترائب
وأقطع لزغبي مع دياب وعامر وهلال وقيس وكل الكتايب

ثم إنهما هجما على بعضهما والتحما في الحرب والقتال ساعة من الزمان ثم إن بركات وثب عليه وضربه بالبتار فجرحه جرحاً بليغاً ألقاه على الأرض، فقال له: قم وأسرع داو جرحك وأرسل غيرك فقام غانم ورجع إلى أهله والدم يسيل من جرحه فضمدوا جرحه ولزم الفراش وأما بركات فصاح هل من مبارز فنزل إليه الأمير عمار فقوي عليه بركات وقطع رأسه فنزل إليه القاضي فجرحه فاستجار به فعفا عنه ولم تزل الفرسان تنزل إلى بركات فيصرعها على الثرى إلى أن قتل عشرين فارساً وجرح ثلاثين وأسر أربعين وفي اليوم الثاني برز بركات إلى الميدان فنزل إليه سرحان فطعنه بركات بالرمح فأصاب فخذه ثم هجم على قوم بني هلال وشتت شملهم، ولما رجع رزق من الصيد سمع البكاء والعويل ودخل على سرحان فرآه مجروحاً، فأنشد سرحان يقول:

قال الفتى سرحان عما جرى له يا رزق صار بلال أمور عجايب
يا ابن عمي استمع شرح قصتي بركات صيرنا بسيفه ذهايب
أما الفتى قايد وفايد وغانم يذرفوا على الفرسان دموعاً سكايب
قالوا ارحلوا عنهم فوتوا طعونكم وفوتوا النسا مع البنات الكواعب
وما لنا يا رزق سلطة عليهم أسيافهم تقطع الأعناق والمناكب
أنا الشور عندي ترحلوا لبلادكم في ظلام ليل شديد الغياهب

فلما فرغ سرحان من كلامه قال له رزق: أنا أبرز إليه وأكفيكم شره وفي اليوم الثاني برز بركات إلى الميدان فبرز إليه الأمير رزق وصدمه فصمد له بركات والتحما في القتال إلى وقت الظهر فتعب رزق وطلب من بركات أن يقف عن القتال حتى يستريحا قليلاً فقبل بركات ونزلا عن جواديهما فأراد رزق أن يغدر ببركات فمسك بيده الحربة وكان في الهودج شيحا بنت رزق فصاحت انتبه يا بركات، فرأى الحربة بيد رزق يريد أن يرميه بها فقال له: أتريد أن تقتلني غدراً أيها النذل وقفز إلى ظهر الجواد فركب رزق جواده وجددا الكفاح بضرب السلاح إلى أن انجرح رزق في فخذه فتألم منه ووقع إلى الأرض وأراد بركات أن يقطع رأسه فصاحت به شيحا لا تقتله واجعله عتيق سيفك فتركه وعاد رزق فاستقبله سرحان وقال له: كيف رأيت هذا الغلام؟ فقال: أريد أن تضرموا النار وترموا بنتي شيحا فيها لأنها عشقت بركات ونبهته إلى الخطر فقد كنت على وشك أن أقذفه بالحربة فصاحت به انتبه يا بركات فانتبه وقفز إلى الحصان وجدد الحرب وطعنني في فخذي فسألها سرحان

قائلاً: كيف عشقت عبداً ونبهته من ضربة أبيك، فقالت: إن بركات أسمر وأخوه نعيم أبيض، ومنعم أبيض فلماذا لم يطرد أبوهم الزحلان أمهم كما طرد أبي أمي وأخي فلو كان أخي بركات عندنا الآن لكان حارب معكم وأنا لم أعشق بركات ولكن أبي أراد أن يغدر به فنبهته لأن الغدر من صفات الأنذال وأنا لا أريد أن يكون أبي نذلاً ثم أنشأت تقول:

بكيت على أمي وأخي لما رحلوا وعلى فراقهم عفت الأهل والدار
يا ليت من كان السبب بفراقهم يبلى بحربة من يد جبار
فحاشا للخضرا من العيب والخنا وحاشا لشيحة تتهم بالعار
نحنا أصايل يا أمير وشرفا من نسل طه صاحب الأنوار

فلما فرغت شيحا من كلامها قال سرحان: واللَّه يا رزق ما عليها ملام فقال حازم: أظن أن بركات ليس ابن الزحلان يمكن يكون ابن رزق فأرسلوا إلى مكة من يسأل الشريف عن بركات وأمه ثم إنه قال للعبد مرزوق: اذهب واستخبر لنا على بركات وأمه فذهب لمكة ودخل على الشريف وقال له: أنا عبد الأمير رزق صهرك ضربت رجلاً من بني هلال وخفت من سيدي وجئت إليك لتكتب لي كتاباً إلى سيدي ليعفو عني، فقال: على الرأس والعين ولكن أخبرني عن بنتي الخضرا وما عندها من الأولاد فعلم أنها ليست عنده وما عنده خبر عنها فقال له: لا أعلم عنها شيئاً لأني لم أنظرها أبداً فكتب الشريف كتاباً إلى الأمير رزق قال فيه:

يقول الفتى قرضاب والقول صادق الأيام والدنيا تسوي العجايب
نعم أيها الغادي على متن ضامر سريع الخطا في سيره والسباسب
قل لرزق يرسل الخضرا لنا حتى تشوف أهلها والقرايب
نريد نزوج أخاها بلا خفا ونفرح به وينجمع شمل الحبايب
ومن كان رايد منكم فليشرف يحضر إلينا وينال الرغايب

ثم أعطى الكتاب للعبد فأوصله إلى سيده حازم ولما قرأه قال لقايد: لماذا لم ترسل الخضرا إلى أهلها، فقال: إن الخضرا خافت أن يقتلها أبوها فقالت لي: خذني إلى الزحلان حتى أربي ولدي في ظله فأوصلتها إلى الزحلان وأظن أن بركات ابن رزق، فقال حازم لرزق: انزل إلى الميدان وقل: أنا لا أحارب ولداً لا يعرف أباه فيقول لك: أبي الزحلان فقل له: اذهب واسأل أمك تخبرك من هو أبوك فنزل رزق إلى الميدان ونزل له بركات فصاح به رزق أنا لا أقاتل ولداً لا يعرف أباه فقال: أنا ابن الزحلان، فقال رزق: إنه قد رباك وليس هو أباك واسأل أمك الخضرا تنبيك بالصحيح فترك بركات الميدان ورجع وكان معه حشيشة إذا بلعها

الإنسان يصير كأنه ميت ساعة من الزمان فبلع الحشيشة وتغير لونه فقالوا له: هل ضربك رزق؟ قال: طعنني في قلبي وأظن أن موتي قريب وأريد أودع أمي وسار إلى أمه ولما وصل إليها وقع ميتاً فولولت ومزقت ثيابها وغشي عليها ولما أفاقت أنشدت تندبه وتقول من فؤاد متبول:

بركات يا خليفة الحزين ... يا عقد جوهر مع السالمين
أهلك نفوك بالغربة رموك ... أمك وأبوك من الغانمين
أبوك الهلالي قليل المثال ... نهار القتال من البارزين
أبوك رزق وخالك حسام ... أهلك من السرو ناس كرام
لمكة أتوا عرب زائرين ... أقاموا سنة لرأس العام
بعدها أتانا قوم لئام ... قتلهم رزق بضرب الحسام
قتل الأبشع ومعه الوزير ... وبعده قتل جمعاً غفير
قال له أبوي اطلب تنال ... قال مرامي الخضرا بدرب الحلال
ونحنا نحب أهل الكمال ... كتب النصيب رب العالمين
ودعت أهلي وسرحان شال ... ورحنا إلى السرو مسرورين
وقد جبت شيحا مثل القمر ... وجبت صبي عزمه متين
أتى سرحان لعند أبيك ... شافك أسمر من كل جنين
قال لأبوك انظر يا سيدنا ... هذا الغلام يشبه عبيدنا
فاغتاظ منه أبوك ... وطلقني وما لي من معين
جينا لعند الزحلان رحب فينا ... وقعدنا عنده عدة سنين
فقيموا البكا والنوح يا بنات ... حيلي انقطع بركات مات
ولى زماني وعزي فات ... وراح مناي وعيني اليمين

ثم مالت على بركات تقبله ففتح عينيه وقال لها: أنا حي وهل صحيح كل ما تكلمت به؟ قالت: نعم إن رزق أبوك وسرحان عمك فقال: بلغني الخير وسأنتقم من رزق، فقالت له: إياك أن تفعل ما قلت ولكن اعف وسامح إكراماً لي فقال لها: أريني العقد فأرته إياه فإذا هو عقد أمه على رزق، فشقه ورماه وقال: أنا أبي الزحلان رباني خمس عشرة سنة وسوف أقهر رزق وأضعه بين يدي الزحلان يفعل به ما يشاء وحالاً رجع لبني هلال وغار عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وهو يقول: يا لثارات الزحلان فتقدم سرحان وقال: أنا عمك يا بركات ورزق أبوك أخطأنا ومنك السماح ونحن أهل والدم لا يصير ماء فقال لسرحان: أنت اتهمت أمي زوراً وبهتاناً فيجب عليّ أن أقتلك وحمل عليه بركات فولى سرحان هارباً فقال له رزق:

أتهرب يا سرحان؟ فقال له: سيف يرمي رقبتك ورقبة ابنك اذهب إليه وصالحه لعله يعفو عنا، فلما تحقق رزق أن بركات ابنه أتى إليه وسلم عليه فقال له: وقعت يا رزق أنت اتهمت أمي وطردتنا فربانا الزحلان وأتيتم إلى بلاده وجرحتم فخذه وكاد يموت من هذا الجرح فقال له: أنا ليس عندي خبر أنكم عند الزحلان فاذهب إلى أختك شيحا فقال له: أنا أحضر أختي لعند أمي وأنا اليوم قاتلك لا محالة وحمل عليه، فصار رزق يتوارى من ضرباته ويقول له: أتحارب أباك يا بركات؟ فلم يسمع كلامه وضربه بالسيف فتلقى الضربة بالدرقة فنزلت على رقبة الجواد فقطعتها وقفز رزق إلى الأرض فأسرع بركات إليه وكتفه وسار به إلى الزحلان فقال سرحان لبني هلال: إن بركات لا يقتل رزق لأنه حلف يميناً أن يأخذه للزحلان فقال قايد: كنا نقول ما في أفرس من رزق فتبين لنا أن بركات أفرس فيلزم أن نسميه سلّامة، أما رزق فقال لبركات: لا تدخلني لعند الزحلان ذليلاً مهاناً فيشمت بي وأشار:

يقول الفتى رزق الأمير بما جرى فاصغي إلى قولي مع الأبيات
جاءني سيار بن مسعود قال لي يا سيدي جاك السعد والخيرات
ستي خضرا بنت قرضاب خلفت جابت ولد بعيون مكحلات
فقلت له كل النياق بشارتك يبقو لك بالبيت حلايات
سميتك بركات علمت عمومتك وعلمت أهالينا مع السادات
فجاني سرحان ابن عمي وقال لي يا رزق يا صور الهلاليات
هات لنا المولود حتى ننقطه رآك أسمر بعيون سودات
فقال هذا الولد يشبه لعبدك والوجه منه يشابه العتمات
وصاروا هلال كلهم يتغامزوا علينا وعملوا لنا ضجات
فقلت لهم يا هلال ويا عامر اشهدوا الخضرا طالقة بإثبات
وصار الذي صار يا ابن الرضا والتم شملي فيك بعد شتاتي

(قال الراوي) فلما فرغ رزق من كلامه قال له بركات: إذا قال لك أحد ارم حالك بالجب ترمي حالك وأنت أيضاً تخالف كلام ربك في تكوين خلقه فإذا كان الابن ما يشابه أباه تقول عنه ابن زنا وأشار يقول:

أيا رزق كيف تطيع الناس كلهم تطلق لأمي دون إثبات
وتخرب بيتك يا أمير بيدك وتبقى مع الرعيان دون ثبات
وإن جاك طفل لونه أسمر فذا خلقه الباري صاحب الآيات
فانظر إلى المخاليق كلهم ترى صورهم دوم مختلفات
فهذا أبيض كأنه البدر في السما وهذا تراه يشبه الفحمات

فلو كنت عاقل ما سمعت كلامهم وتشمت بك الأعداء والسادات
يا ليت من كان السبب بفراقنا يجيه العمى والهول والشدات

فلما فرغ بركات من كلامه أوصل رزق إلى أمه وقال لها: هذا رزق فماذا تريدين أن نعمل به فقالت الخضرا: أبوك ما عليه ذنب فأطلق سراحه لأجل كرامتي عندك وأشارت تقول:

تقول فتاة الحي خضرا الشريفة أيا ولدي ارفق بحال أبيك
هذا رزق هو أبوك بلا خفا وقد كان عند العدا راميك
وسرحان كان السبب في فراقنا من دون تفكير كان آذيك
وحاشاك تقتل يا ابني لوالدك واسمح عنه فالخير يوافيك

فلما فرغت من كلامها خجل رزق وندم على طردها أشد الندم وقال: حيائي من الناس أجبرني على ذلك وأنت شريفة الحسب والنسب وأشار يعتذر لها:

يقول الفتى رزق الأمير بما جرى بدمع سال فوق الخدود وساح
أيا خضرا ما كان قصدي أفارقك ولا عاد لي حيل أشيل سلاح
وفارقتك حقاً بغير إرادتي وصرت مثل طير مقصوص جناح
وحرمت أتزوج أنا بعدك وذقت العذاب ونمت بمراح
أيا ليت من كان السبب بفراقنا قتيل وفي جنبه ثمان جراح
والحمد للّه قد التم شملنا وزالت عنا الشدات والأتراح

ثم قال: إني أعترف بأن بركات ابني من ظهري فقالت الخضرا لبركات: أطلقه يا ولدي فقال: أنا ذاهب به إلى الزحلان، ولما وصل به إلى الزحلان قال له: قد أتيت لك بالأمير رزق فافعل به ما تريد قال الزحلان: هذا أبوك وأنا سامحته على هذه الطعنة الأليمة التي طعنني بها ثم أشار يقول:

بركات يا ولدي اسمع مقالتي وأنت ضيا عيني مع الأبصار
أبوك برزق كيف إنا نقتله وهو أمير وفارس مغوار
كرمال عيني يا أمير أعتقه الله يبري ذمته من ثاري
يا أمير محمود هات لي خلعة لرزق يلبسها بعشر أزرار
وأعطيه درع يا أمير وخوذة وأعطيه رمح يشع أنوار
وأعطيه مهر من خيلي محجل وأعطيه ترساً يمنع الأضرار
يا رزق قد آلمتني في ضربتك قلبك بقي أقسى من الأحجار
اللّه يجازي المعتدين بفعلهم يوم نقف أمام الواحد القهار

فلما انتهى الزحلان من كلامه فكوا رزق وخلعوا عليه فانحنى على يد

الزحلان يقبلها ثم قال: إن الزحلان ستر حريمي وربى ولدي وعفا عني فما عاد الزمان يخلف مثل الزحلان، أما الزحلان فقد شعر بدنو أجله فقال: أنا ما بقي من عمري إلا القليل ورزقي ومالي وخيلي هبة مني إلى بركات ثم قال لبركات: هؤلاء بناتي الثلاث صبحا وغصن البان وجوهرة اختر لك واحدة منهن حتى أزوجك إياها قبل موتي ثم إن الزحلان جمع قومه وجعل بركات سلطاناً عليهم وأنشأ يقول:

يقول الفتى الزحلان والقول صادق ... ألا اسمعوا يا جملة الزحلان
بركات وليته عليكم كلكم ... وصار عليكم يا ربع سلطان
وأعطيته مالي وكل ذخايري ... مع الدر والياقوت والمرجان
بركات ربيناه مثل أولادنا ... طلع لوذعي أفرس من الفرسان
قتل أبو الجود كان عدونا ... وجاب أبوه رزق إلينا حفيان
أنا أوصيك يا بركات بالحكم ... وباديهم بالعدل والإحسان
وكون كالأخ للناس كلهم ... واكس يا بركات كل عريان
ولا تنهر المسكين إن جاك سائل ... ولا تطرد الوارد يعود منهان
هذه وصايتي إليك يا ولدي ... واحفر لقبري واحضر الأكفان

(قال الراوي) فلما انتهى الزحلان من كلامه سلم بركات الملك ولبسه البدلة الملوكية وجعل له وزيرين ولدي أخته وقال له: اختر لك بنتاً من بناتي، فقال بركات: أريد غصن البان فأحضر القاضي والشهود وعقد عقد غصن البان على بركات وقامت الأفراح والليالي الملاح ولما سمع بنو هلال بهذه الأخبار قالوا: زاد علينا بركات بالسلطنة فيلزم أن نسميه أبا زيد فاشتهر بهذا الاسم (أبو زيد الهلالي سلامي)، أما الزحلان فقد زاد عليه المرض فمات فبكوا عليه ورثوه بالأشعار وبعد ذلك اجتمع الوزراء والأمراء وأجلسوا أبا زيد على تخت الملك. أما سرحان فاتفق مع أبيه الأمير حازم أن يهنئوا أبا زيد بالسلطنة وبالزواج وأرسل يطلب منه السماح ويهنئه مع الأمير قايد، فلما وصل قال الأمير رزق لأبي زيد: هذا الأمير قايد الذي أتى بكم لعند الزحلان فاستقبله بركات وعانقه فناوله قايد الكتاب فلما قرأه سامحهم ولكنه أرسل لهم هذه الأبيات:

يقول الفتى بركات والقول صادق ... أخلى الأعادي من حسامي جفايل
أنا ابن رزق الخيل من أهل عامر ... وأمي شريفة من فروع أصايل
أعطتني أمي لبسما بلا خفا ... ويا ما سقتني من حلو الشمايل
زدت عليكم يا هلالي جميعكم ... أبو زيد اسمي وأنا لطيف الخصايل
يا هلال عودوا لأرضكم وبلادكم ... وقاسوا بها الجوع ومر المحايل

وأنت يا سرحان كنت السبب بفراقنا وأمي ترى من قوم شرفاً أصايل
وقطف الزهور عليكم محرمة وإن لم ترحلوا أجيبكم بالنصايل

ثم طوى الكتاب وأعطاه إلى أحد العبيد فأوصله إلى سرحان فلما قرأه قال أبوه حازم: لنذهب لعنده حفاة نساء ورجالاً فيعفو عنا، فسار نحو مائة رجل ومائة فتاة لعند أبي زيد فلما رآهم استقبلهم وترحب بهم وصافحهم وعفا عنهم وأحضر لهم الولائم وبقي العربان عرباً واحداً أما غانم أمير بني زغبي فإنه قال لأبي زيد: أنا أتيت من بلادي لأخطب ابنة القاضي فايد فاطلبوها لي فطلبوها فأجاب طلبهم فساق له غانم النوق والأغنام، ثم كتبوا الكتاب فأخذ غانم عروسته وسار إلى نجد بعد أن ودع الأمراء ولما وصل إلى بلاده عمل وليمة عظيمة ودخل عليها واحتظى بحسنها وجمالها فولدت له ذكراً سموه بدراً ثم ولد له ولد آخر سموه دياباً وولدت ولداً ثالثاً وهو الأمير زيدان شيخ الشباب.

(قال الراوي) أما بنو هلال فأقاموا سنة كاملة عند أبي زيد ثم أرسلوا خبراً إلى الشريف وطلبوا منه الإذن بإرجاع الخضرا إلى رزق فأرسل لهم الإذن مع عبد له وتوفي قرضاب والعبد كان حاضراً فسلطنوا أباه مكانه فلما وصل العبد لعند بني هلال أخبرهم بالذي جرى على الشريف وأعطاهم الإذن فبكوا عليه وأرجعوا الخضرا إلى رزق وطلبوا الإذن من أبي زيد بالمسير إلى بلادهم فأذن لهم وخرج لوداعهم وودع أمه وأباه وأخته، ورجع إلى مكانه ولما وصلوا إلى بلادهم أقاموا سنة في خير زائد فمرض الأمير حازم وأحضر القاضي فايد وولده سرحان وابن أخيه رزق وسلم ابنه الخاتم وأجلسه على الكرسي وأوصاه بأن لا يتزوج إلا من بنات الأصايل، ثم إنه توفي فاحتفلوا بدفنه وصار سرحان حاكماً على بني هلال وما زال يسأل المسافرين والشعراء عن بلاد الحسب والنسب حتى أقبل عليه شاعر وأخبره عن بلاد الحسب والنسب وعن الأمير زين الدين الحاكم على تلك البلاد وعن ابنته شما الفائقة بالحسن والجمال والقد والاعتدال.

قصة شما وزهر البان

(قال الراوي) لما أجلس حازم ابنه سرحان على كرسي الملك خليفة له أوصاه أن لا يتزوج إلا من بنات الحسب والنسب فقال: على الرأس والعين وحكم سرحان وما ظلم ومضى على حكمه خمس سنوات بعد وفاة أبيه وهو يسأل عن بلاد الحسب والنسب فما أحد يجاوبه على سؤاله وفي أحد الأيام دخل عليه ثلاثة شعراء وسلموا عليه وقبلوا يديه فأمر بإكرامهم ووضعوا لهم الطعام حتى اكتفوا، فسألهم سرحان من أي البلاد أنتم؟ فقالوا: من اليمن وقد سمعنا بعدلكم وكرمكم فجئنا نأخذ عطاكم وننقل ثناكم فقال: سمعونا من بديع أشعاركم وبلاغة أقوالكم فابتدأ نصار يمدح الأمير سرحان بهذا القصيد:

يقول الفتى ناصر عما جرى له ... أغنى على الأجواد والفرسان
أديب لبيب عارف القول فاهم ... ولي قلب من الحسرة تراه ملان
ركبنا مطايانا وجئنا جميعاً ... قطعنا العلا والدوح والودان
وقلنا لها يا نوق أين تميلي ... فقالت إلى يم الملك سرحان
يا مغني المسكين في سنة الغلا ... يا مطعم المسكين والجوعان
يا رائف الملهوف بالمال والغنى ... وكافي اليتامى وكاسي العريان
صيتك وصل للشرق والغرب يا ملك ... أيضاً وصل للهند والسودان
يا أمير امنحنا وأكثر لنا العطا ... يا ريت عمرك ما ترى أحزان
ونرفع لذكرك في البوادي جميعها ... ومن كان له ذكر مليح يبان

فلما فرغ الشاعر نصار من كلامه مدح بقية الشعراء الأمير سرحان بما يليق به وبكرمه، وبعد تمام الضيافة قال لهم: أبشروا بالغنيمة فطلبوا منه الإذن بالسفر فأمر لهم بمائة جمل وثلاثة جياد وثلاثمائة دينار فأعطاهم الوكيل ما أمر به سرحان فقالوا: واللَّه ما نرضى هذا العطاء لواحد منا وهذا يوم أسود الذي جئنا فيه لعندكم، فأخبر العبد سيده بما قالوا فقال: أحضرهم إليّ حتى نرى فأدخلهم العبد على الملك سرحان فقال لهم: لماذا رديتم العطاء فهل أعطاكم أحد أكثر من عطائي وهل رأيتم أكرم مني في جميع البلاد؟ فقالوا: نعم رأينا أكرم منك بكثير وأنت لا تساوي نقطة في بحرهم، فقال لهم: بأي بلاد؟ فقالوا: في بلاد الحسب والنسب

فقال: أنتم تعرفونهم وتعرفون بلادهم قالوا: نعم فقال: صفوا لي كرمهم فأشار ناصر يصفهم بهذا القصيد:

يقول الفتى ناصر على ما جرى له اسمع لقولي يا ملك وأمثال
لقد شفنا يا ملك أكرم منك وأكثر صواوين وأكثر مال
ثلاث أمراء ما لقينا مثالهم ملوك من فرع ذكي اسال
لهم مجد وكرم وعز وهيبة ورايات منصوبة وخيل وجمال
وكل أمير لو نخيته يساعدك على القوم يدعيهم شرود جفال
منازلهم للضيف قد هيأوها يجيها ضيوف ما تخطر على بال
وأخبارهم بالخير والجود والسخا ورياتهم فوق الرماح تنشال
منهم زين الدين قرم غشمشم أمير العرب عنه الملوك تسال
أخوه محي الدين يا نعم ماجد يخلي الأعادي بالسيوف تلال
أخوه شمس الدين أكرم من الندى أبوهم يسمى عقل بن عقال
وفي حيهم بيض ملاح كواعب تشابه لحور العين يا مفضال
ثلاث ملوك لهم بنات ثلاثة شبه بدور نورهم مشعال
شيحا وشوكة يخجلوا البدر بالسما وشما الصغيرة مثل ضي هلال
وإن شافهم ملك تيموه بالهوى يرموا بقلبه أسهماً ونصال
تراب أرضهم كالمسك ريحته ومن فوقها فرش الحرير العال
إن كان تهوى الأصل أقصد بلادهم تزوج منهم وارتاح البال
ومن قصد الأجواد ما رد خايب ينال المنى والقصد والآمال

فلما فرغ ناصر فرح سرحان فرحاً عظيماً وقال لهم: كم يوم المسافة من هنا؟ قالوا: ستة أشهر للمسافر المجد فقال لهم سرحان: أريد أن أتزوج منهم حسب ما أوصاني أبي بشرط أن يذهب معي واحد منكم يدلني على الطريق قالوا: سمعاً وطاعة، وبينما هم في هذا الكلام سمعوا دق الطبول وإذا أبو زيد ومعه ألفان من الفرسان ورياتهم تخفق فخرجوا لملاقاتهم بعراضة عظيمة وسلموا عليهم ونزل أبو زيد في صيوان أبيه وسلم على أمه الخضرا وأخته شيحا ثم إن سرحان أخبر أبا زيد عن الشعراء وأنهم يعرفون بلاد الحسب والنسب ثم قال: ومرادي أن أذهب وأتزوج من بلاد الحسب والنسب وأنت يا أبا زيد تحكم في بلادنا حتى أعود فقال أبو زيد: كيف نترك بلادنا والأعداء يتربصون بنا الدوائر، وإني أرى أن يحكم موضعك عمك مالك أبو زهير وأنا أرفع لك راية من رياتي فاذهب ولا تخف فعند ذلك جهز سرحان حاله وركب بألف فارس منهم رزق والقاضي وفايد وقايد وكان قد

أعطى الشعراء حتى أرضاهم فذهب اثنان منهم يوصلون المال إلى بلادهم، وبقي الشاعر نصار مع سرحان يدله على الطريق وركب أبو زيد وبنو هلال لوداعهم ومشى مع سرحان مقدار نصف يوم ثم التفت سرحان إلى عمه مالك أبي زهير وأوصاه بالحكم وبالعرب وأنشد يقول:

قال سرحان الأمير: إنني قاصد أسير. للحسب يا أبا زهير. أنت مطرحنا مقيم. أنت احكم موضعي. بالعرب حتى المرجع. وإن أتاكم مدعي. احكم بنور اللّه العظيم. وإن أتاكم شاعر جديد. أعطيه مالاً يا رشيد ولا تكن رجلاً عنيد. وخاطرك دايم سليم. والبوش احفظه حقيق. وكن ودوداً للصديق. ولا يجوز أنك تبيق. ولا تنظر للحريم. واحذر الأعداء يجوك. منهم تعدي يدهكوك. وإن غفلت ينهبوك. وتقطع الحبل البريم. وإن كان يا عمي أموت. أنت مطرحنا ثبوت. خذ لمالي والبيوت. والخيول مع الحريم.

فلما انتهى سرحان من كلامه قال عمه: سمعاً وطاعة وسار سرحان وعاد بنو هلال وقعد أبو زيد عندهم شهراً ثم ركب وانطلق إلى بلاد الزحلان وحكم مالك بلاد السرو بالعدل والإنصاف، أما سرحان فإنه جد في المسير مع صحبه والشاعر دليلهم حتى أقبلوا على بلاد الحسب، فدخل الشاعر على ملوك الحسب وقبل أياديهم وأخبرهم عن قدوم سرحان قال: إنه سمع بسيطكم وجاء زائركم وكانوا سامعين بصيت بني هلال وكرمهم عند ذلك أمر الأمير زين الدين أن يفرشوا الصواوين والخيام وأن يأتوا بالذبائح ثم ركب مع إخوته والعساكر واستقبلوا سرحان ولما التقوا بعضهم نزلوا عن الخيل وتعانقوا وسلموا على بعضهم البعض ثم ركبوا وساروا إلى الحي ونزلوا في الصواوين وأشار زين الدين يترحب بهم:

قال زين الدين من وسط الحشا ... القلب مني زاد بالأفراح
يا مرحباً بالقادمين جميعهم ... صبحتوا بالخير كل صباح
والحي أضاء يا ملك بقدومكم ... والخير جاء والهم عنا زاح
يابن حازم أنت ملك العرب ... وجدكم جرمون ذكره فاح
أنتم أصايل من عهود جدودكم ... وشذاكم كالمسك بالطيب فاح
يا أمير لما أن سمعت بذكركم ... صار قلبي بحبكم ملتاح
يا أمير هاتوا أهلكم لعندنا ... تلقوا خيراً عندنا ورياح
ونعيش معكم يا أمير بالهنا ... والهم عنا زال والأتراح

فلما فرغ زين الدين من كلامه نهض ومد لهم سماطاً يدهش النظر من سائر الأطعمة الطيبة وأكرمهم غاية الإكرام عدة أيام وكان يحضر لهم الزاد بصحون من

ذهب، فاندهش سرحان وقومه من كثرة جودهم وعطائهم فنظر سرحان فوجد حاله ما يوازي نقطة في بحرهم فقال رزق: لقد قصر الشعراء في وصف هؤلاء الأجاويد، أما زين الدين فاجتمع هو وإخوته وقال: لا بد يا أجاويد أن يكون لسرحان عندنا حاجة فإن كان مديوناً وفينا دينه وإن كان مطروداً حميناه وإن كان زائراً أكرمناه وإن كان عزباً زوجناه ثم قال للوزير: هات لنا خبر سرحان فقال: سمعاً وطاعة وقام ودخل على سرحان وبلغه كلام زين الدين من أوله إلى آخره فقال سرحان: أنا جئت خاطباً راغباً في بنت من بنات هؤلاء الأجاويد وابتدأ سرحان يخبره عن القصة ويقول:

يقول الفتى سرحان عما جرى له ... حوادث الأيام تريك العجايب
حوادث الأيام كفى اللّه شرها ... من عاش فيها ما خلا من النوائب
الأيام كالدولاب تدور بغدرها ... وتسقي الفتى كاسات مر الشرايب
تباً لذي الدنيا من يعتني بها ... تخليه ماشي بعدما كان راكب
أنا في بلاد السرو ملك بالملا ... وحولي جموع ناصبين المضارب
ولكن أبي لما قربت وفاته ... وجاه القضا يا عون صايب
قد حظني ملك بلادي كلها ... ورزق الدريدي صار نايب
وأبي حازم قد وصاني وصية ... حفظتها عندي بوسط الكتاب
وقال لي لا تأخذ إلا أصيلة ... إذا تغربت سرت جميع القرايب
أتى حينا شعار كانوا ثلاثة ... من أهل الذكاء فازوا بلعب الربايب
وأعطيتهم مني عطايا كثيرة ... ومنحتهم مال وأيضاً جنايب
وقلت لهم أما رأيتم نظيرنا ... من أهل الثنا والحمد والمناقب
قالوا نعم يا أمير شفنا نظيرك ... وأكثر منك بالعطا والمواهب
فواضل بالصواوين والعرب ... وأبطال قوم زينتها المواكب
يسمون أولاد حسب زايد النسب ... ملوك ما فيهم لا ردي ولا عايب
إن كنت تهوى الأصل فاقصد بلادهم ... ربيع الجياع في سنين الجدايب
وأخوه شمس الدين يا أمير مثله ... وأخوه محي الدين وافي الحسايب
ثلاث بنات للإمارة مكملات ... جمالهم كالأقمار بين الكواكب
شيحا وشوكت تخجلان البدر بالسما ... وشما الصغيرة عندها الحسن غالب
ثلاث كحور العين في جنة الرضا ... إذا ملن من فوق عالي المراتب
وإن شافهم مثلك من يهيم بالهوى ... وقع بقلبه سهم كان صايب
ولما سمعت القول هاجت بلابلي ... وثارت بقلبي لاعجات اللهايب
وناديت إلى رزق وفايد وقرومنا ... وقلت لهم شدوا وحطوا لي الركايب

وجينا من السرو ومعنا جيوشنا قدر ألف خيال معي رواكب
وجينا لأرض الحسب طالب النسب رجال الأدب ما فيها قط كاذب
فقالوا لنا أهلاً وسهلاً ومرحباً وقد أجلسونا فوق عالي المراتب

(قال الراوي) فلما فرغ سرحان من كلامه والوزير عون يسمع نظامه سار حتى دخل على أولاد الحسب وقبل أياديهم فقالوا: أخبرنا وعليك الأمان فعند ذلك بلغهم كلام سرحان وأنه جاء طالباً بنتاً من بناتكم فقال زين الدين: من قصدنا وجب حقه علينا والرأي عندي أن كل واحد منا يسأل حرمته عن خصائل ابنته وننظر التي تكون فائقة بالآداب والعقل على غيرها نعطها إلى سرحان، فقالوا: هذا هو الصواب، قال زين الدين: قم يا أخي شمس الدين وسل حرمتك عن خصايل بنتك شيحا وتعال أخبرنا فراح وسأل حرمته عن خصايل ابنته وأخبرها أنه ينبغي أن يزوجها لسرحان، فقالت: نظرت لها عيباً واحداً في كل عمرها فقال: ما هو هذا العيب؟ قالت: من زمان جاءنا ضيوف وفيما كنا نقدم لهم الندى من كل الألوان فمسكت المغرفة وصارت تلحس بإصبعها ونظرت إليها فتركتها وخافت مني وهربت وهذا ما نظرته منها فذهب وأعلم إخوته بما قالت حرمته فقالوا: هذه شرهة ما نرضاها لسرحان ثم قال: قم يا أخي محي الدين وسل حرمتك عن خصايل ابنتك شوكة فمضى وسأل حرمته عن خصايل ابنته وأخبرها بالقضية، فقالت له: إنها رضعت من الجارية أم عمير مع ولدها فربما يشبه خلقها خلق العبيد فذهب محي الدين وأخبر أخويه فقالوا: إنها لا توافق سرحان عند ذلك قال زين الدين: يا ستار أسترنا في سرحان وسار إلى زوجته وجلس أمامها فقالت: ما لك يا ابن عمي فبدأ يخبرها ويقول:

يقول زين الدين والقول صادق الأيام والدنيا كواني حرورها
والأجواد يجلي همها حزم رأيها والأنذال تلقي أمرها بصدورها
أيا أم شما اسمعي شرح قصتي أتونا ضيوف طيبين مثل بدورها
أتونا يريدون تخطبون لبنتنا وما الرأي يا سلمى وما هي أمورها
وشيحا سألنا أمها عن فعالها فقالت النفس زايد مرورها
فقلنا ما تصلح لسرحان زوجة وتهتك قبيلتنا وتهتك ستورها
وشوكة سألنا أمها عن طباعها فقالت له بنتك كثير شرورها
لأنها رضعت من حليب جارية وأنا كنت أقاسي حرورها
فقلنا لا تصلح لسرحان زوجة لبنها ردي وينال منها كدورها
وشما بقت بالله أن تخبريني فإن كانت ما تصلح حتى نغلي مهورها

فلما فرغ من كلامه وسلمى تسمع نظامه فتبسمت وقالت: يا ابن عمي إن كان في بنات خواتك كل واحدة عيبة في بنتك سبع عيوب قال: يا ستار وما هذه العيوب فأشارت تخبره وتقول:

تقول فتاة الشيخ سلمى التي شكت أيا مير زين الدين ما في نكورها
فشما فعايلها ملاح جميعها وتقرأ كلام اللّه تشرح صدورها
وتقرأ بكتب العلم يا أمير واللغة وتعرف لعلم النحو وتقرأ سطورها
خطيبة أديبة يا أمير لبيبة وتنطق بقول الحق من غير زورها
وليس بها يا أمير عيب واضح ولا يوم وقفت على باب دورها
فشما تصلح للأمير حليلة نقية من الأدناس تجهل شرورها

فلما فرغت سلمى من كلامها وبعلها يسمع نظامها حمد اللّه سبحانه وتعالى الذي ما ببنته عيب حتى إنها تسترهم في بلاد الغربة ثم سار وأعلم إخوته وأخذهم وأخذ أكابر دولته ودخل على سرحان وسلم عليه فرد له السلام وقام على الأقدام وجلسوا للكلام بعدما فرغوا من أكل الطعام وانحرف زين الدين نحو الأمير سرحان وأشار يقول:

قال زين الدين من وسط الحشا يا مرحباً في من أتونا قاصدين
أتونا ملوك هلال ضافوا عندنا يا مرحباً فيهم وفي القادمين
يا مرحباً يا مرحباً فيمن أتوا من بلاد السرو اجونا ضائفين
يا أمير سرحان أنت عدت نسيبنا يا ابن حازم فيك نحن راغبين
كرامة فايد هو سياج المحصنات ورزق الدريدي من ملوك العارفين
ظنوا بنا خير ما خاب الرجا لا خير في من يرد القاصدين
شما عطية مني إنك يا ملك وهبي بلا حق ولا مال يزين
المال عندي وخيول كثيرة ونحن بخير بإذن رب العالمين

فلما فرغ زين الدين من كلامه شكره سرحان على ما أفاض عليه من الأنعام وحمد الملك العلام في معرفته لهؤلاء الأقوام، فعند ذلك أحضروا القاضي وكتبوا كتاب شما على سرحان فقال سرحان: أنا لا أدخل عليها إلا في بلادي وطلب الإذن من عمه بالمسير، فأحضر الأمير زين الدين إلى ابنته جملاً أزرق وأمر أن يشدوا لها هودجاً مرصعة عمدانه بالدر والجواهر وزينوه بريش النعام، وأعطاها بدلة ملوكية وعقد جوهر فيه تسعون جوهرة وأعطاها تختاً وسريراً بفرش غالية الأثمان وحريراً وتحفاً وبدلات مشكلة بالذهب والفضة وأعطاها عبيداً وجواري وخدماً وكل عبد على ظهر فرس وكل جارية على جمل في هودج وركبوا شما

بالهودج وساقوا الجميع قدامهم وركب سرحان وركب أبوها وأخواتها لوداعهم نصف نهار فوقف سرحان وحلف عليهم بالرجوع فودعوا بعضهم البعض فقال زين الدين: يا أمير سرحان بنات الأجاويد ودايع أولاد الحلال وهي وداعة اللَّه عندك وأوصيك أن لا تدخل على شما بالطريق إلا إذا وصلت إلى بلادك وشما حلالك وأشار يوصيه فيها ويقول:

يقول زين الدين عما جرى له ... يودع لبنته والدموع تسيل
جريح ونار الأسى بضمايري ... ولي ألم ما ينهيه دليل
أنا أوصيك يا سرحان بالجود والسخا ... وكن كريماً لا تكن بخيل
وهذا عهد اللَّه بيني وبينك ... ومن خان عهد اللَّه فهو ذليل
ومن خان عهد اللَّه ما صح رأيه ... عزه وجاهه عن قريب يميل
ولا تقرب الخيمة ولا تعتني بها ... ولو كان مال فيها جزيل
إذا وصلت لعند أهلك وعزوتك ... يلاقونك بالتكبير والتهليل
فافعل مرادك ما عليك ملامة ... وشما حلالك ما عليها وكيل

فلما فرغ زين الدين من كلامه وسرحان يسمع نظامه فعاهده على ذلك وشكره بكل جميل وأما شما فودعتها البنات والنساء وأمها وبنات عمها وبكين لفراقها وراحت أمها تودعها وتوصيها في بعلها وتقول:

تقول سلمى ضرها البين والنيا ... على فقد شما راح حيلي قطايع
وعيني تسيح الدمع من عظم ما جرى ... وزادت عبراتي بكثر المدامع
وقلت لعيني أن تكف دموعها ... وكثر البكا للعين ما هو نافع
على شما أبكي ونوح صبابة ... وأذكرها عندي بكل المواضع
تروح من بين أعمام وأب وإخوة ... وهي بينهم تزهى كالبدر طالع

فلما فرغت سلمى من كلامها وابنتها تسمع نظامها أتى أبوها وأوصاها في سرحان وأن تطيعه فقالت: سمعاً وطاعة وأشارت تودعهم وتقول:

تقول فتاة الحي شما الشريفة ... بدمع جرى فوق الخدود غزير
أنا واللَّه ما كان الفراق بخاطري ... وأنا عنكم للسرو عدت أسير
وغربتوني إلى بلاد بعيدة ... وأبقى فريدة في الديار أصير
وفارقت أعمامي وأهلي وجيرتي ... وبنات عمي مثل غصن نضير
يا عين ابكي بالدمع واذرفي ... على وجنتي أجري كبحر ذخير
فما عدت أنظركم أنا بناظري ... ولا لي جناح أجي لكم وأطير
ومن كان مشتاق يجينا يودع ... ونحن عزمنا على الرحيل نسير

أيا بنات العم نوحوا لفرقتي وابكوا على غربتي بدمع غزير
أيا أبي ويا أمي يكفي وصية الذي يجري على العباد يصير

فلما فرغت من كلامها وأهلها يسمعون نظامها فودعوها ورجعوا إلى بلادهم سرحان وقومه جدوا بالمسير نحو بلادهم يقطعون الفيافي والقفار والوديان والأوعار ولا يلتفت سرحان إلى شما كما عاهده أبوها وشما تنام وحدها وحولها خدمها وعبيدها فأقبلوا على وادي النار وجبل الكبريت وإذا حميت الشمس تصير مثل جهنم فضاقت أنفسهم من الحر، فنزلوا وربطوا خيولهم ونصبوا خيامهم، أما سرحان فنصب خيمته مقابل خيمة شما وقد تعرى من ثيابه فقام وتغطى بطاق الحرام وكذلك شما تعرت وفرقت شعرها وسبلته على جسدها وقد نصب لها الخدام التخت وفرشوا لها إياه ونامت عليه ووجهها يضيء مثل القمر والعقد الجوهر حلته من جيدها فوضعته على طرف الوسادة والجواري يهوون لها بالمراوح إلى أن نامت فناموا حولها أما سرحان فقال في باله: أنا جئت من بلاد السرو إلى بلاد سفر ستة أشهر وزوجتي شما أوصى أبوها أن لا أدخل عليها ولا أراها إن كانت مليحة أم قبيحة سودا أم بيضا فإن كانت مليحة يطمئن خاطري وإن كانت قبيحة أردها إلى أهلها وأتى نحو شما وهي نائمة وشعرها مسبل على جسمها فظن أنها جارية سوداء، فعند ذلك عض على إصبعه وقال: لا حول ولا قوة إلا باللَّه كل هذه السفرة على شأن جارية حبشية وعاد إلى خيمته وقال: واللَّه لأقتلها ولا أريد حسباً ولا نسباً وسحب سيفه وعاد إليها وأراد أن يقطعها قطعتين فتزحزحت شما فقلبت على جانبها الآخر فبان جسمها مثل النور الساطع، فلما نظرها بهذا الجمال يبست يده بالسلاح وتأملها فكاد عقله أن يطير واندهش من حسنها وجمالها فلاحت منه التفاتة فنظر العقد بجانبها يضيء مثل المصباح، فأخذه وطلع من الخيمة وصار يتفرج عليه وهو يلمع بضوء القمر وعدده تسعون قطعة يسوى ملك الدنيا فبينما هو يفكر وإذا بطير يمر فرأى العقد فظنه قطعة لحم فانقض عليه وخطفه في مخالبه وطلب الجو وسرحان راكض وراءه وكان البحر قرب وادي النار فدخل الطير واختفى في جزيرة من جزاير البحر وسرحان يركض على ضفاف البحر وإذا بمركب إفرنج داير في البحر يتصيدون شافوا سرحان وكان قبطان المركب اسمه برصومة فأمر جماعته أن يرسوا المركب وطلعوا إليه ثمانية بحرية وكل واحد في يده سوط قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نحن الذين نستيسر العبيد وأنت ما الذي أتى بك إلى هنا وأين هدومك؟ قال لهم: شلحَني اللصوص وداير على ناس يكسوني، قالوا: نحن نكسيك كسوة مليحة تعال روح لبلادنا قال لهم: ما لي خلاص منكم قالوا: لا، قال سرحان: يا وقعة الشر التي وقعتها باللَّه تصبروا عليّ قليلاً فتركوه فنظر سرحان

جانبه بلاطة ناعمة فنكز خشمه نزل الدم أخذ عوداً وغطه بالدم وكتب على البلاطة:

يقول الفتى سرحان عما جرى له ودمعه جرى فوق الخدود سكيب
أتونا شعار ثلاثة لعندنا وقد حدثوني بكلام عجيب
قلت لهم هل رأيتم مثالنا من أهل العطا والجود والترحيب
قالوا في بلاد الحسب أمير له نسب له عند ملقات الضيوف ترحيب
وأخوه شمس الدين مثاله وأخوه محيي الدين مثل الذيب
فقمنا وسرنا فوق خيل ضوامر قد ألف خيال نخب نخيب
أتينا لأرض الحسب نطلب النسب فلاقونا بالإكرام والترحيب
أمير زين الدين حاكم بالملا زوجني بنته ذات الحسن والطيب
وأبوها عاهدني أن لا أشوفها على الدرب وأنظرها بطرف لبيب
وخالفت عهود الكلام جميعها ومن خان عهد اللّه ذاك يخيب
دخلت على شما لأنظر جمالها رأيتها شبه البدر قبل المغيب
أخذت أنا العقد وطلعت للخلا لشوفه وأتفرج عليه من قريب
إلا وطير من الجو نازل وغار على يدي كغور الديب
خطفه من يدي وطار بالفلا وراح وخلاني بقاع كئيب
وعدت أنا أسعى وراه أجيبه وقلت لعله يرميه ونجيب
دخل في البحر وعيني تشوفه حكايا منها الرضيع يشيب
إلا ومركب من البحر غاير أخذوني وعدت بسيرهم وغريب

فلما فرغ من كلامه أخذه الإفرنج ونزلوا في المركب وحلوا المراسي وسرحان يبكي فتقدم برصومة وقال: لا تبك غداً إذا دخلت بلادنا تنسى بلادك فقال: كيف لا أبكي وأنا ملك في بلادي، فقال برصومة: ما اسمك؟ قال: سرحان، قال: يا سرحان أنا أجعلك ملكاً في بلادي على رعيان الخنازير وعندي عشرة رجال يرعون الخنازير مع كل واحد مائة خنزير يرعاها وعندي مائة خنزير بلا راع ترعاها أنت وتصير كبيراً على الرعيان قال سرحان: هنيئاً لي على هذه الوظيفة ثم إنهم ساروا إلى بلادهم أما برصومة فلبّس سرحان عباءة وبرنيطة وسلمه الخنازير ووصى فيه الرعيان فصاروا يعطونه زوادته أربعة أرغفة من خبز الشعير مدهونات بالزيت وكان لبرصومة بنت اسمها حنان كانت إذا أتى سرحان من المرعى تمسكه من لحيته وتنيخه وتركب على ظهره وتقول له: دورني على المواشي حتى أتفرج عليها والرعيان يحلبونها وتظل راكبة على ظهره من المغرب إلى العشاء.

أما شما بنت الحسب والنسب فقامت من نومها فما وجدت العقد فقالت

للخدم: أين سرحان ففتشوا عليه فلم يجدوه فأعلموا شما قالت: أحضروا رزق وفايد وقايد فأحضروهم فأخبرتهم أن عقدها فقد قالوا لها: أين سرحان؟ فقالت: لقد فتش عليه الخدم فلم يجدوه فقال رزق: إن كان غرق في البحر أو مات فأنا بداله وقال فايد: أنا آخذها وقال قايد: أنا أحق بها ثم تقاتلوا من أجلها، فقالت لهم: لا تتقاتلوا أنا أختار واحداً منكم فقبلوا وسكنوا ثم إنها صبرت إلى الليل ولبست ثياب سرحان وأخفت شعرها فصارت وكأنها رجل وركبت جواد سرحان وتوجهت نحو البحر تفتش عليه فرأت البلاطة المكتوب عليها بدم سرحان فعرفت ما جرى عليه وبينما هي محتارة بأمرها أقبل مركب من البحر فأرسوه على الشاطئ وقال كبيرهم أندريا: هاتوا هذا الغلام ولا تزعجوه فنزلوا إليه وقالوا له: إن صاحب المركب يريدك فما هو اسمك؟ قال: شمان ولكن اصبروا قليلاً حتى أتودع من أرضنا ثم إنها كتبت على البلاطة:

يقول الفتى شمان على ما جرى له ... بدمع جرى فوق الخدود سريع
تفكرت بالدنيا كوتني أمورها ... لقيت الأيام همها وسيع
ترى الدهر دولابه يمر ويمشي ... كما يشبه غيم بأيام الربيع
لما رأى العقد سرحان شاله ... صار يتفرج عليه رآه بديع
خر عليه طير يسمى عركرك ... خطف منه العقد خلاه يضيع
ألا ومركب جاء من البحر غاير ... أخذوني معهم وما لي من شفيع

فأخذها الإفرنج وصارت تبكي فقال أندريا: لا تبك أنا أجعلك مثل ابني فقد كان لي ولد ومات وأنت محله ولي بنت بديعة أزوجك إياها فطيب قلبك وريح أفكارك فقالت في سرها: احفظني يا رب ولما وصلوا ودخل أندريا لداره ومعه الغلام رأته بنت أندريا فأحبته، فقالت لأمها: قولي لأبي أن يزوجني هذا الغلام فسألت أندريا عن الغلام فقال لها: مرادي أزوجه بنتي ففرحت أمها وأخبرت بنتها ففرحت وصار أندريا يكرم شمان ويلبسه أحسن الأقمشة ويقدم له أفخر طعام فظلت شما عندهم على خير ونعيم دائم. وفي يوم العيد أحضر أندريا ملابس تليق بالملوك وألبسها إلى شمان وذهب به إلى الكنيسة، فلما رأوه اندهشوا من حسنه وجماله ودخل الملك شمعون وحوله الوزراء فرأى الناس تاركين عبادتهم ومجتمعين حول غلام يتفرجون عليه فقال الملك: لمن هذا الغلام؟ فقالوا: لأندريا كسبه من الصيد، فأكد فيه الملك فانبهر من حسنه وجماله ولم يعرف ما يقول في صلاته ولما خرجوا من الكنيسة لم ير الملك الغلام فأرسل خلف أندريا وقال له: أحضر معك الغلام فلما أحضره قال له: بعني هذا الغلام قال: يا مولاي إني أعتقته

فهو حر لا يباع ولا يشرى فقال له الملك: اتركه عندنا الآن فتركه وذهب فقال شمعون: ما هو اسمك؟ قال: شمان فقال له: مرادي أن أجعلك بواباً على باب السرايا حتى أظل أشاهدك في النهار وفي المساء تعود فتنام في قصرك والمماليك في خدمتك فقال شمان: سمعاً وطاعة وجلس شمان على الكرسي والملك لا يرفع نظره عنه وشاع ذكر شمان في الجزائر والبلدان وصار الناس يأتون إليه من جميع الجهات ليتفرجوا عليه وهو بينهم مثل العروس.

وكان للملك بنت اسمها زهر البان ليس له غيرها وقد أتاه خطاب كثيرون فما زوجها لأنها عزيزة عليه مرت زهر البان على سراية أبيها فرأت الناس مجتمعين فسألت عن سبب الاجتماع، فقالوا لها: لقد اشترى أبوك غلاماً جميلاً والناس يتفرجون عليه فتقدمت ونظرت إليه فرأته قد أخذ عقول النساء والرجال وهي أيضاً أحبته وتمكن حبه في قلبها فوقعت مغشياً عليها فحملوها وأرجعوها إلى قصرها وأتت أمها شعوانة ورشت على وجهها الماء فأفاقت فسألتها أمها ما بك يا بنتي فأنشدت:

تقول زهر البان بقلب حزين ... وناري بالحشا زادت ونيني
أيا أماه لو تدري بحالي ... كنت يا حنونة ابتعذريني
نظرت أنا لشمان نظرة ... سلب عقلي وذهني ودِيني
شب مليح أنا ما شفت مثله ... قومي القد كما رمح الردِيني
قومي بسرعة روحي إلى أبي ... لشمان يا أمي زوجيني
إن ما كنتو تجوزوني بمحبوبي ... أموت بحبه وتبقى تندبيني
ولا تلوموني لأني أحبه ... خلافه لا أريد يكون قريني

فلما فرغت زهر البان من كلامها رثت أمها لحالها قالت لها: الهوى صعب يا ابنتي وأنا ذاهبة لأبيك لعله يزوجك بشمان فطيبي قلباً وقري عيناً ثم إنها ذهبت إلى الملك شمعون فرأت الغلام وانبهرت من حسنه وجماله وقالت: بنتي معذورة بحبه أنا مت عنده كيف حال الصبايا؟ ثم دخلت وسلمت على الملك فقال لها: ما سبب حضورك في هذا الوقت؟ قالت: ابنتك مريضة ومتغيرة، فقال: وما سبب مرضها؟ قالت: العشق والغرام أما تعلم أن الهوى قتال لقد رأت بنتك شمان فهامت بحبه فوفقهما معاً قبل أن تقتل نفسها فقال لها: كيف أزوج ابنتي إلى أسير لا أعرف أصله فهذا لا يمكن أبداً فرجعت مكسورة الخاطر ومقهورة ولما رأتها ابنتها عرفت أن أباها يمانع فأنشدت:

تقول زهر البان من قلب جريح ... يا أمي أخبريني بالعجل

لعل أبي قد سمح لي بالزواج لمنيتي شمان قصدي والأمل
شمان حل بالحشا ونار الغضا شب لاعجها بقلبي واشتعل
واللَّه لأذهب إليه بالعجل وأرمي روحي عليه بلا مهل
وأبث شوقي إليه وأضمه وألثم خده ولو قرب الأجل

فلما فرغت زهر البان من كلامها أشارت أمها تقول:

تقول شعوانة أنا صرت في وجل والدمع من عيني قد هطل
يا ست زهر البان باللَّه اسمعي رحت لأبيك والقلب مني انخجل
وقلت له زوج بنتك لشمان فهامت فيه وخاطرها انشغل
قال تبقى تعيرني الملوك جميعاً ينكسر ناموسنا ونقع بالخبل
يا ست زهر البان باللَّه اقصري عن ذكره وارجعي قبل الزعل

فقالت لها: كيف أصبر ومن أين يأتي الصبر ولو كان غيري لهام على الجبال؟ فقالت: سأعيد القول عليه وأقنعه أن يزوجك به. أما شما فتذكرت أهلها وبلادها وما كان أحد يراها فصارت فرجة في بلاد الإفرنج فبكت وأنشدت:

يقول الفتى شمان عما جرى له ونار الأسى جوا ضميري لهيبها
يا حسرتي هل عاد الزمان يلمنا وبالعين قد فارقت حبيبها
حبيب ومحبوب فرق الدهر بينهم وما لقينا ليلة نحتظي بها
متى تجتمع الأحباب في منزل الرضا وتبرد نيراني ويطفى لهيبها

فلما فرغت من كلامها كان الملك قد سمع نشيدها وبكاها فظن أن أحداً أغاظه، فطلبه فلما مثل أمامه قال له: لماذا تبكي يا شمان؟ فقال: عنت الأهل على البال وأنا وحيد أسير قال الملك: أنت لست أسيراً عندنا أنت كأنك واحد منا تجلس على الكرسي وتنام على الحرير وما صاير عليك شيء حتى تبكي ثم قال له: أما لك صنعة تتسلى بها، فقال: كنت أجمع الخراج فعندها أعطاه الدفاتر وأرسل معه أناساً يعاونونه ويكونون في خدمته فودعوا الملك ودارت البلاد والجزائر والقرى والمدائن مدة ثلاثة أشهر فجمعت مالاً كثيراً وكانوا يكرمونها ويعطونها زيادة عن الخراج وشما تعطيهم الوصولات إلى أن فرغت الدفاتر كلها وكانت تسأل عن سرحان. ولما عادت إلى بلد الملك شمعون استقبلها بالعساكر والفرسان والطبول والزمور والناس يتفرجون عليه. أما زهر البان فإنها في غيبة شمان صارت تبكي وعندما عاد وقفت في شباك قصرها تتفرج عليه والناس شاخصة إليه، فقالت لأمها: إن لم يزوجني أبي هذا الغلام قتلت نفسي وكان الملك قد اطلع على الأموال فوجدها زائدة عن كل عام فزادت محبته لشمان ولما ذهب

الملك لقاعة الجلوس دخلت زوجته وأخبرته عن زهر البان بهذه الأبيات:

تقول شعوانة وعبرتي سجام والنار في قلبي يزيد لها ضرام
يا ملك شمعون ارحم حالي بنتك زهر البان زاد فيها الهيام
غشيت من شوقها إليه وغابت عن وعيها وقتلها الغرام
رشيت عليها الماء قامت بالعجل وقالت زوجوني هذا الغلام
ترى إن كان ما حظيت بشمان أقتل نفسي دون كل الأنام
يا أمير اشتريها واستر لعرضك بالحلال يا أمير ما هو بالحرام

قال الملك شمعون: إنها معذورة فيه لأنه محبوب من جميع الناس وما فيه إلا صفات حسنة ثم أنشد:

باكر أزوجها شمان وأفرح بها في وسط قصري ويغنوا قصيد
روحي هاتيلي الحرير والماس وافرشي القصر بالفرش الجديد
واحضري لها تخت يكون مرصع وقولي لزهر البان تفرح أكيد

أما زهر البان فكانت تنتظر عودة أمها فلما رأتها أنشدت تقول:

تقول زهر البان قلبي فيه نار يا أمي أخبريني باللّه شو صار
هل حاجتي يا ترى انقضت وكسر قلبي هل بدا بانجبار
وإلا أسوح في البراري والجبال أرافق وحش الفلا وسط القفار
من أجل شمان الذي مثل الهلال والعقل من حسنه صفق وطار
ما رأينا مثله بين الملا مثل غصن البان يخجل الأقمار

قالت لها أمها: أبشري بنوال مطلوبك فقد رضي أبوك أن يزفك إلى شمان ففرحت زهر البان فرحاً عظيماً وهيأت لها أمها الحمام وفرشوا القصر ونصبوا التخت وعلقوا الجواهر ورشوا الندى والروائح العطرة. ولما طلعت زهر البان من الحمام لبسوها البدلة الملوكية والتاج المرصع باللؤلؤ والمرجان وأرسل الملك شمعون وراء شمان وأجلسه بجانبه وقال له: قصدي أن أزوجك بنتي زهر البان وأجعلك موضعي تحكم على البلاد وأعطيك كل أموالي فقالت شما: عاش الملك إن شمان لا يريد الزواج الآن فظهر التأثر على وجه الملك وقال: لأي سبب فهل لأني عرضتها عليك وقد منعتها عن أولاد الملوك فخافت شما من غضب الملك وقالت: ليفعل مولاي الملك ما يريد فعند ذلك ألبسوه بذلة ملوكية وقامت الأفراح وكتبوا الكتاب ومشوا أمامه بالشموع حتى انتهوا إلى قصر زهر البان وأدخلوه عليها فقالت له: أنت نور عيني وضمته إلى صدرها وصارت تقبله ثم قدمت له النقل والحلويات وصارت تطعمه بيدها ثم قامت وتعرت من ملابسها وقالت له: اخلع

ثيابك حتى تنام، فقال لها: أنا لا أنام إلا في ثيابي ودار ظهره ونام وفي الصباح طلعت شما من عند زهر البان وذهبت للديوان فقبلت يد الملك فبارك له بهذا القران وأجلسه بجانبه أما زهر البان فحكت لأمها عن جفاه قالت لها: لاعبيه وفي المساء دخل شمان فاستقبلته زهر البان وترحبت به وعند المنام دار ظهره ونام فصعب عليها وتأثرت، وقالت له: الذي يستحي من بنت عمه لا يخلف أولاداً وصارت تضع يدها على صدره وساقها على ساقه وهو لا يتحرك فرفعت عنه اللحاف وقالت له: هذه الأبيات:

تقول زهر البان يا شماني ... اسمع كلامي ثم رد بياني
أنا طلبتك من أبي أعطاني ... وعدت اليوم في لقاك فرحاني
وتدير ظهرك يا مليح بوجهي ... ما كأني إلا عروس جربانـي
ليش ما تعمل معي عمل الملا ... عمل الرجال ترى مع النسوان
أيش عذرك يا مليح قل لي ... إن كنت خايف عليك الأمان

فلما فرغت من كلامها تذكرت شما الماضي والحاضر فأنشدت:

يقول الفتى شمان عما جرى له ... ولي قلب من ألمه جريح
تفكرت في الدنيا كوتني أمورها ... فلا بد ما تقابل المليح بالقبيح
زمان الصبا مثل الربيع وزهره ... خزام ونمنام وسنبل وشيح
أنا أعلمك يا زهر عما جرى لنا ... ولكن سره لا يكون مبيح
يا منيتي زهر أنا بنت مثلك ... وما أنا رجل بالمعنى الصحيح
أنا بنت ملك البوادي جميعاً ... واسمي شما والفؤاد جريح
أبي زوجني لسرحان الفتى ... وفارقت أهلي وما فعلت قبيح
وسرنا بقاع البر عشرين ليلة ... ونحنا فراحة والرجل فريح
وجينا لوادي النار حطت جيوشنا ... وبنوا خيام فوق سهل فسيح
وكانوا نصبوا لي خيمة مشرعة ... وسرحان في صيوان خز مليح
تاري سرحان أتى نحو خيمتي ... نظر فوق صدري عقد عاد يليح
أخذ العقد وكنت أنا نايمة ... وراح فيه خلف الخيام يطيح
إلا وطير من الجو نازل ... على يد سرحان شبيه الريح
خطف عقدي وعاد طاير بالسما ... وسرحان خلفه راكضاً يصيح
وقمت أنا من غفلتي وسط خيمتي ... نظرت أنا للعقد راح مطيح
بعت أنا ورا سرحان ما وجدته ... بكيت ودمعي على الخدود يسيح
ركبت جواده ثم أخذت لصارمه ... ولبست شاشة طالبة الترويح

وصـرت أنـا أسـعـى وراه أجـيـبـه أدور عـلـى رؤوس الـجـبـال وأصـيـح
ورحت لـجـنـب الـبـحـر حـتـى أشـوفـه وقـلـبـي تـشـرح بـالـحـشـا تـشـريـح
وإذا بـجـنـب الـبـحـر صـخـرة كـبـيـرة رأيـت خـط الأمـيـر سـرحـان صـريـح
لـمـا قـريـت الـخـط فـاضـت مـدامـعـي وعـدت عـلـى فـقـد الأمـيـر أصـيـح
إلا ومـركـب جـاء مـن الـبـحـر غـايـر أخـذونـي وعـدت بـسـيـرهـم ونـزيـح
اشـتـراني أبـوكـي من أنـدريـا وجـابـنـي وزجـنـي عـلـيـك وقـال أنـت مـلـيـح
يـا زهـرة بـالإنـجـيـل والـصـحـب كـلـهـم بـالـمـقـدس أيـضـاً وكـل كـتـاب صـحـيـح
لا يـطـلـع قـولـي بـرأت دارنـا ولا تـظـهـري سـري بـأمـر وضـيـح
ولا بـد مـن سـرحـان نـأخـذ عـلـمـه وأجـيـبـه إلـيـنـا عـاجـلاً وصـحـيـح
وأعـطـيـك سـرحـان بـنـيـتـي حـلـيـلـة وسـرحـان مـا مـثـلـه رأيـت مـلـيـح
فـتـى مـثـل عـود الـرديـنـي قـوامـه مـلـيـح الـمـعـانـي والـلـسـان فـصـيـح
له عـيـن مـثـل الـصـقـر عـنـدمـا يـلـتـفـت ومـن شـافـه نـظـرة يـقـع طـريـح

فلما فرغت من كلامها وزهر البان تسمع نظامها قالت لها: أما من جهة كتم السر صندوق مقفول وضايع مفتاحه ولكن لست مصدقة أنك بنت، فكشفت لها عن نهودها فعند ذلك تحققت كلامها وقالت لها: لا تخافي مرحباً بك إن وجدناه وإن ما وجدناه فلا يهم لأن النظر إلى وجهك يكفي عن الرجال وأشارت تقول:

تـقـول زهـر الـبـان يـا شـمـا اسـمـعـي نـحـنـا اقـتـنـعـنـا بـك وأنـت اقـنـعـي
مـثـل مـا أنـت بـنـت نـحـن مـثـلـك والـسـر مـا بـيـنـنـا لا يـطـلـع
جـور الـلـيـالـي وهـجـرهـا يـضـنـي الـحـشـا يـا عـيـن قـري بـالـقـلـيـل واهـجـعـي
يـا مـا تـرهـب بـالـزمـان مـثـالـنـا إن الـتـرهـب فـي بـلـدنـا يـنـفـعـي
بـعـلـك سـرحـان شـط بـه الـنـوى وإن طـالـت الأيـام إلـيـنـا يـرجـعـي
إن الـغـزال الـذي تـحـكـيـن عـنـه لابـس عـبـايـة فـوق جـسـمـه تـلـمـع
وعـمـال يـرعـى فـي خـنـازيـر سـيـده حـفـيـان عـريـان عـيـنـه تـدمـعـي
لا بـد بـعـد الـذل يـأتـي عـزه هـكـذا الـدنـيـا تـحـط وتـرفـعـي
والـيـوم أنـا مـالـي غـيـرك بـالـمـلا يـا ست شـمـا أبـشـري ولا تـفـزعـي
سـري وسـرك إنـكـتـم جـوا الـحـشـا مـا أبـيـح لـه ولـو قـطـعـوا إصـبـعـي
أنـت بـدال الـروح والأهـل كـلـهـم وحـبـك فـي ضـمـايـري مـع أضـلـعـي

فطاب خاطر شما وقعدت مع زهر البان ولم يطلع على أسرارهما أحد ثم مات الملك شمعون وليس له ولد خلاف زهر البان وصهره شمان وكانت عادتهم في تلك البلاد إذا مات ملكهم يجتمعون بعد ثلاثة أيام ليختاروا ملكاً لهم وكان

عندهم طير يقال له طير الملك مربى عندهم من الذخائر فيطلقونه فيحوم على رؤوسهم، فكل من هدى على رأسه يكون الملك فاجتمع أهل البلاد كعادتهم وبينهم شمان صهر الملك وكانت شما تطلع كل يوم للديوان وهي بين الرجال رجل مثلهم وعند زهر البان بنت مثلها وما يحسبونه إلا زوجها وأطلقوا الطير والناس تنظر إليه وهو يحوم على رؤوسهم وكان كل منهم يقول بأنه يهدي على رأسه ولكن الطير هدى على رأس شما قالوا: مسلم ما نرضاه يحكم بالنصارى، فكشوا الطير فطار وحام ثم هدى على رأس شما قالوا: غريب ما نريده وكشوا الطير فطار وهدى عليه ثالثاً فقالوا: يستاهل لأن الطير هبط على رأسه ثلاث مرات فمن الواجب أن يكون ملكنا وهو صهر الملك فعند ذلك لبسوه البدلة الملوكية وأجلسوه على كرسي الملك وباركت له أكابر البلاد وحكم بالعدل والنظام.

هذا ما كان من شما وزهر البان وأما ما كان من رزق وقايد والألف فارس الذين بوادي النار لما شدوا الأحمال وأتوا حتى يركبوا شما فما وجدوها فعجبوا من هذه القصة العجيبة فقال رزق: فتشوا عليهما في كل مكان فبدأوا يفتشون.

(قال الراوي) هذا ما كان من بني هلال وأما ما كان من سرحان فإنه لا زال كل يوم يسرح مع الخنازير من الصباح إلى المساء ولما يرجع تركبه مريم كل ليلة وتقيده عند المنام وفي أحد الأيام سرح في الخنازير وتركها ترعى فافتكر في قضيته وما جرى عليه وتذكر الست شما وما جرى لها بعده وتذكر أهله ومملكته وشأنه وكيف بقي أسيراً يرعى الخنازير فبكى حتى بل لحيته ثم أنشد:

يقول الفتى سرحان عما جرى له ... بدمع جرى فوق الخدود غزير
أبات طول الليل تفيض مدامعي ... ولي قلب من جوا الفؤاد كسير
إذا نامت عيون البوادي جميعها ... جسمي يبات الليل دوم سهير
تفكرت بالدنيا كوتني همومها ... ولا شك بعد العسر تيسير
رماني زماني في البحور غصيبة ... وأنا الآن عند برصومة أسير
بالصبح يعطيني عصاتي ومزودي ... ويقول لي اسرح مع الخنازير
يا رب يا رحمن يا رافع السما ... يا من تعالى في سماء قدير
خلصني من غربتي ثم جيرني ... كما جرت يوسف من قرار البير
يا ليت شعري شما ما جرى لها ... يا ليتني طير إليها أطير
يا هل ترى أخذوها لبلادنا ... أما رجعت لأهلها تسير
يا دار إن عاد الزمان يلمنا ... تجمع بنا الأيام فوق سرير
وأحظى بشما وأفرح باللقا ... يا هل ترى عاد المنام يصير

فلما فرغ سرحان من كلامه والتحق متجلياً على نظامه شلح البرنيطة عن رأسه وهي كبيرة بقدر الطبق الكبير ونظر فيها وضحك ثم بكى ونام حصة ثم نهض من نومه فما وجد الخنازير فبهت وقال في باله: هذه الليلة يموتني من القتل وعاد ينتف في ذقنه وهو يركض يميناً وشمالاً فشاف خنزيرة هرمة كبيرة ما لها حيل تروح ولا ترجع، فقال لها: يا ملعونة الأصل قاعدة في وجهي واللَّه ما أنظرك أنغم وسحب العصا وصار يضربها وهي تعيط وتجعر بصوتها ما نظر إلا الخنازير عادت على صوتها فقال في باله: واللَّه عندما أكون في المرعى أترك الخنازير ترعى وأربط هذه الكبيرة والمساء هي تجمع لي الكل، فصار سرحان يتركهم وعند المساء يعذبها فتجتمع على صوتها يسوقها إلى الدار ولم يزل على ذلك الحال مدة ثلاثة أشهر فيوماً من الأيام جلس تحت شجرة بجانب عين ماء فاضطجع على قفاه من الحر ووضع البرنيطة تحت رأسه ونام سبحان من لا يغفل ولا ينام وكان بالاتفاق أن تلك الشجرة معشش فيها طير العركرك الذي عليهما حتى وصلوا إلى البحر وداروا على الشط فنظروا البلاطة المكتوبة بالدم فقرأوها فعرفوا القصة من أولها إلى آخرها فاغتاظوا حتى كادت تزهق أرواحهم فحينئذٍ أمرهم رزق بالمسير وشدوا وركبوا خيلهم وصاروا يقطعون الفيافي والقفار والأودية والأوعار حتى وصلوا إلى بلادهم فخرج العرب والملك زهير ابن عم السلطان لملاقاتهم وسلموا على بعضهم وسألهم الأمير مالك عن سرحان فقال رزق: أظن أنه رجع لعند زين الدين أبي شما وقعد عنده بأرض الحسب والنسب فقال له مالك: هذا الكلام ليس بصواب فأخبرنا الصحيح فأخبرهم بما جرى فوقع عندهم الصياح والبكاء والنواح وأرسلوا الخبر إلى بلاد الزحلان لعند الأمير أبي زيد، وقال: هذا سبق في علم اللَّه ودعاء الخضرا أم الأمير أبي زيد نفذ فيه.

خطف منه العقد بوادي النار فطلع ذلك الطير من عشه وزبل فنزل زبله على وجه سرحان كساه من حواجبه لحد شواربه ففاق سرحان وصعد على الشجرة وصار يهدم العش بيده فوجد شيئاً جامداً فإذا به عقد شما فغسله ووضعه في جيبه وأنشد:

قال سرحان الحزين الفاقد ... دمع عيني حفر في خدها
جور الليالي غدرها يضني الفتى ... جور الليالي قد كواني صدها
أبكي على أيام مضت سوالف ... ولت وجاني شرها من بعدها
يا ليتني طير أطير من الضحى ... لعند شما حتى أريها عقدها
أطلب من الرحمن يجمع شملنا ... وأشوف شما وأصبح عندها

وأبل شوق قلبي منها ساعة وأحط زندي فوق عالي زندها
ونجتمع اثنينا في دارنا وأحط خدي على ورد خدها
وتشوفها بناتنا متمختة فوق المراتب ينشقوا ريحة ندها
وجوارها وعبيدها من حولها وينجلي فوق الملابس عقدها
يا رب يا رحمن تنظر لحالتي بنت الحسب حالاً إليّ ردها

ثم إنه أخفى العقد خلف ظهره وتزنر عليه ثم ساق الخنازير وسار بها إلى دار سيده ووضعها بالإسطبل ودخل للبيت فطلعت إليه بنت سيده مريم على جاري العادة وصفعته كفين ثلاثة وركبت على ظهره ودار بها على الماشية تفرجت عليها وحلب الخدم حليب الخنازير قدامها وعاد فيها ولكن حس ظهره انكسر.

فلما أرادت أن تنزل طأطأ لها حتى نزلت فانفك زناره وسقط العقد بأرض الدار فأضاءت منه الدار فغف عليه سرحان وأخذه ليتزر عليه فقالت له مريم: ما هذا ما رد عليها فندهت على أبيها برصوما فأتى وقال: غلامك فقالت له: يسيرنا معه شيء أضاءت منه الدار قال برصوما: ما معك؟ قال: ما معي شيء فمد برصوما يده إلى عب سرحان وطالع العقد فطار عقله منه فلقاه يسوى ملك الأرض وقام يده وضربه كفاً فتطاير من عينيه الشرر وقال: تقول ما معي شيء قال سرحان: خذه لا بارك اللّه لك فيه حيث ذهب الغالي فلا أسف على الرخيص.

قال برصوما: أين وجدت هذا العقد؟ قال: في الشجرة التي عند العين قال له: اذهب وانظر لنا واحداً آخر. قال: وهل عندكم أشجار تحمل جواهر؟ فعند ذلك أعطى برصوما العقد إلى مريم فأخذته وفرحت به فرحاً شديداً وأمرت الخدم أن تصنع إلى سرحان صحناً من الرز واللحم وقالت له: هذا حلوان العقد وما بقيت أركب على ظهرك أبداً وقال سرحان: هنيئاً لي خلصت من الركوب وصرنا نأكل لحماً ورزاً أما مريم فقد لبست العقد فوق البدلة وكانت بديعة الحسن والجمال، وذهبت إلى الحمام حتى تفتخر فيه على البنات فتحيروا من ذلك العقد وثاني الأيام صار عرس في البلد قامت لبست العقد وراحت فيه لعند العروس فتركت النساء العروس وصرن يتفرجن على حسن مريم وحسن ذلك العقد وشاع في جميع البلد، فصارت هذه تحكي لابنها وهذه تحكي لأخيها فوصل الحكي إلى الملك شمان وهذه ضايع لها عقد ورجل ففرح قلبها، وأرسلت لبرصوما فحضر وقبل الأرض قدامه ووقف أمامه. فقال له الملك: سمعنا بأن عندك عقد جوهر سمعت به بنت الملك الست زهر البان لأن مرادها واحد مثله فأرسل لي إياه حتى نفتش لها على واحد مثله فما أمكن أن ينكره وقال: سمعاً وطاعة وذهب ووضعه بمنديل وأتى به

فأخذته شما فوجدته عقدها بعينه وعدته فإذا لا زائد ولا ناقص فتحيرت بهذه القصة وقالت: من أين اتصل إلى برصوما؟ قالت في خاطرها: إن قلت له هذا عقدي ما يصدقوني ويقولون حيلة يأخذ العقد منه وافتكرت وأتى ببالها أن تسأله عن سرحان حتى تعرف من أين اتصل له هذا العقد فقالت: يا برصوما من أين اتصل لك هذا العقد أنت اشتريته أو أتاك هدية.

فقال: يا ملك الزمان هذا عندي من زمن أجدادي قالت: ويلك تكذب على الملوك أنا سمعت أنه انفتح على وجهك كنز وأخرجت منه أموالاً كثيرة وذخائر ومن جملة ما أخرجت هذا العقد، فالواجب أن نأخذه ونبقي المال بخشيشاً لك لأن الكنز الذي يطلع على وجه الأرض للملك فما تقولون يا أيها الكرام؟ قالوا: هذا هو الصواب أيها الملك المهاب. فقال برصوما: باللَّه عليك أيها الملك لا تتهمني بمطلب ولا غيره ولكن قصدي أن أخبرك الصحيح من أين هذا العقد فإن شئت خذه وإن شئت أعطني إياه. فقالت: قل وإن كذبت بشيء أقطع رأسك لأن عندي الرمل والحساب فأعلم به كل شيء فقال برصوما: اعلم يا ملك الزمان أن عندي أسيراً اسمه سرحان وهو يرعى الخنازير من عدة أشهر وفي أحد الأيام أتى إلى الدار فوقع من عبه هذا العقد فأخذناه منه وقلنا له: من أين لك هذا العقد؟ فقال: وجدته في عش طير في شجرة فقال شمان للحاضرين: أنتم في هذه البلاد عندكم طيور تبيض جواهر قالوا: كلا يا ملك الزمان فقالت: يا برصوما إن كنت صادقاً اذهب وأتني بالأسير حتى نسأله من أين وجد العقد فربما هو سارقه والملك له أن يسأله. قال برصوما: إن سرحان يرعى الخنازير في الموضع الفلاني فأرسل الملك شمان أربع خيالة يأتون به فبينما سرحان يرعى الخنازير إلا وطبق عليه الأربع خيالة وقالوا له: قم واذهب معنا لعند الملك شمان فقال لهم سرحان: وما يريد مني الملك؟ قالوا: لا نعلم وساقوه قدامهم لسراية الملك فرأته شما من الشباك عرفته ولكن رأته في حالة الذل وهو حافي عريان ووجهه أصفر ولحيته فتايل، فتأثرت من حاله ثم أصعدوه لقدام الملك فانبهر سرحان من دولته وهيبته وقبل الأرض بين يديه وجلس أمامه فقال له شمان: ما اسمك؟ قال: اسمي سرحان فقال: يا سرحان أين وجدت هذا العقد؟ فقال: وجدته في عش طير، فقالت: يا سرحان أنا سألت عنه قالوا: ما عندنا شجر يحمل جواهر ولا في طيور تبيض جواهر أنت تكون سارقه من موضع احكِ لي الصحيح وإلا رميت رأسك بحد هذا الحسام وكان مراد شما أن يتكلم سرحان قدام الإفرنج ليعرفوا أن العقد لامرأته شما حتى تخلصه هو والعقد بحسن عياقتها فما كان يتكلم وهو يقول: لقيته في عش

الطير فصاحت على الجلاد خذ هذا وارم رأسه فقال سرحان: بحياة رأسك يا ملك لا تقتلني أنا أخبرك حكايتي فقال: تكلم فافتكر سرحان في جميع ما صار عليه، فهطلت دموعه من عينيه وأشار يخبر الملك ويقول:

قصتي يا ملك أعظم قصة ... لمين أروح اليوم أشتكي
شكيت حالي للذي رفع السما ... يجيرني لو كنت نايم متكي
قد كنت أنا ملك مثلك بالسرو ... وجدنا جرمون عنه قد حكي
قد أتونا شعار يا أمير الملا ... أعطيتهم مني عطايا ملك
وقلت هل رأيتم ملوك مثالنا ... قالوا في بلاد الحسب ملك زكي
قمنا وسرنا قاصدين بلادهم ... وأريد منهم زوجة أتملكي
جينا إلى أرض الحسب ثم النسب ... في عسكر من خلف مني مدرك
إلى الأمير زين الدين أتينا كلنا ... لاقونا بأهلاً وسهلاً يا زكي
أخذت أنا بنته شما بلا بطا ... كالبدر يضيء وجهها ويفتكي
وركبوها فوق هودج مفتخر ... ريش النعام في جانبيه مشبكي
وودعونا نصف يوم ورجعوا ... سرنا نشاوى في غرام ودردكي
والأمير زين أوصاني وصية ... احذر تواصلها تقع بالمهلكي
وأخذ علي العهد عهد اللّه ... ونقصنا للعهد بسوء مسلكي
إبليس غواني لشما أشوفها ... تاري شور إبليس كان مضحكي
دخلت خيمتها لأنظر حسنها ... وجدت عقد في صدرها مشكشكي
أخذته يا مير أتفرج عليه ... غف عليه طير بسرعة تمسكي
خطفه من يدي وطار للسما ... والنار في قلبي لظاها بيهلكي
ذهبت أنا أسعى وراه أجيبه ... وصلت أنا للبحر ألاقي دردكي
مركب للإفرنج موسق يا ملك ... إفرنج ما فيهم غلاماً برمكي
بالحال مسكوني وصرت يسيرهم ... وعاد برصوما بنا يتملكي
وصرت أرعى الخنازير وأنا ... حفيان عريان تحت المهلكي
وبنته مريم تركبني عند الرجوع ... أمشي بها ساعات حتى أبركي
جيت إلى شجرة رقدت بظلها ... من شدة الحر قصدت أن أتكي
إلا وطير من فوق رأسي قد خري ... يسمى ترى بين الطيور عركركي
وطلعت للشجرة خربت لعشها ... وقتلت أفراخها تساوي مملكي
إلا وعقد البنت تحت الفراخ ... أضاء جميع المرج منه يا زكي
والعقد في وسطي أنا مزنر عليه ... وأنا به فرحان كأنه مملكي
وقلت أين شما تأخذ عقدها ... وصرت للدمع الغزير أسفكي

لما وصلت الدار أخذوه يا ملك غصباً وآلمني بضرب مهلكي
يا رب احظيني بشما فرد يوم وأنظر لعينها ووجهي يضحكي
هذا الذي قد صار يا أمير الملا والدهر دولابه يدور ويفركي
إلٰهي بحق موسى وعيسى والنبي فك أسري وحالي إليك أشتكي

فلما فرغ سرحان من كلامه وشمان يسمع نظامه قالت شما: يا سرحان طيب خاطرك والتفت إلى برصومة وقال له: هذا العقد ليس لك فيه حق لأنه لامرأته قال برصومة: يا ملك هذا أسير لا يملك شيئاً قال الملك: لأي سبب هل اشتريته بمالك؟ فقال: وهل يمكنه يفك روحه بدون رضاي؟ قال الملك: كم له عندك يرعى خنازيرك؟ قال: ثلاثين شهراً، فقال شمان: وما وفى ضمانته بعد اذهب وأنا أسمح لك بخراج ثلاث سنين؟ فخرج برصومة مقهوراً أما الملك شمان فقال لسرحان: خذ العقد قال: ضعه عندك أمانة حتى إذا سمح لي المولى أن أذهب إلى بلادي فآخذه منك إن أنعمت علي بالذهاب قالت: أما تسكن عندنا يا سرحان؟ قال: يا حبذا ولكن مرادي أن أدور على ابنة عمي فقالت: كما تريد ثم إن شمان فض الديوان ونزل إلى قاعة الجلوس والعقد في عبه ثم قدموا إلى الملك الغدا فتغدى وقال: نادوا سرحان غدوه معكم فحضر وتغدى معهم وأمرت له بملابس تستره ثم أنشدت تسأله بهذا القصيد:

قال الفتى شمان عما جرى له وعن قريب يفرج اللَّه همومها
وترد أيام قد مضت سوالف أيام سعدك لم اللَّه شمولها
لا بد بعد الذل يأتي عزك قبل الفرح لا بد يأتي كدورها
كم نهر جاري اليوم أصبح ناشف والماء أصبح في قرار بيوتها
ادعي إلى الرحمٰن يفرج كربتك فضله علينا يا فتى وجميلها
بنت الحسب لو شفتها تعرفها احكي الصحيح لا تخبي سطورها
روح يا سرحان نحسك ولى وحبال سعدك قد جمعنا شمولها
قال الملك شمان قولاً صادقاً وكل همومك يا فتى رحلونها

(قال الراوي) فلما فرغ شمان من كلامه وسرحان يسمع نظامه قال سرحان: يا ملك كيف لا أعرف شما وحياة رأسك إن شفتها بنصف الليل بعرفها قالت: ما هي علامتك فيها فأشار يوصف شما:

قال الفتى سرحان من قلب حزين أبيات شعر للزكي لوصفها
وعيني تبات الليل ما تألف الكرى ودموع عيني عالخدود ذرافها
لو كان نصف الليل يا أمير الملا وشفت شما يا ملك بعرفها

أول عرفاني لها في حسنها والشامات الحمرة على سالفها
مثل القمر تضوي بليلة نصفه وبعاد شما لمهجتي يتلفها
وقدها قد الغزال الشارد وزنودها خلقت للحرير تلفلفها
ما مثلها بين الأنام صبية ولا أظن الليالي بقت تخلفها

فلما فرغ سرحان من كلامه قالت له: لا بد أن أجمع شملك بها إذا وجدتها وإن ما وجدتها أزوجك بزهر البان بنت الملك وهي أحسن من شما ونجعلك وكيلاً على باب السرايا وجميع الخدم تحت أمرك، والآن أريد منك أن تصف لي شما حتى إذا كانت تصلح للتفتيش فتشنا عليها فقال سرحان: على الرأس والعين ثم تذكر حسنها وجمالها لما دخل عليها في تلك الليلة التي فارقها بها وأشار يقول:

يقول الفتى سرحان عما جرى له بدمع جرى فوق الخدود وساح
ألا يا أمير دستور أغني باسمك وأنا طير مالي يا أمير جناح
لها قامة مثل عود الرديني أو مثل عود البان والأرماح
والوجه مثل البدر يضوي بالسما ترى من نظرها عاف للأرواح
وعنق طول شبر على الكتف نابق وصاعد على الأكتاف كالملواح
وصدر كلوح العاج في يد كاتب عليه القلائد مثل نشر جناح
ونهدين كما بيض النعام صفاتها أمل مثل رمان على أمه لاح
وبطن كما طي الحرير وأنعم وصرة كغصن بالغوالي شاح
وزندين بيض والأساور زهية وشعرها كجنح غراب يا جحجاح
هذا مقالي في الأميرة وحسنها على حب شما راحت الأرواح

فلما فرغ الأمير سرحان من كلامه تبسمت وقالت له: إن كانت على هذه الأوصاف تستأهل التعب ولكن الحسن حسن الفعل والأصل فهل فعلها وأصلها مثل حسنها وجمالها، فقال: وحياتك يا ملك شمان أصلها أحسن من حسنها وحينئذٍ زادت رغبة شما فيه؛ لأنه باق على عهده ثم إنها قالت له: غداً أنادي في كل الجزائر وآتي لك بكل النساء المأسورات عندنا وأعرضهن عليك فإن كنت تعرف شما تأخذها ثم أشارت تعلمه بحالها وتقول:

قال الملك شمان اسمع يا أسير محبوبتك في ذي البلاد مخفية
غداً أنادي لك بالجزائر كلها وأجيب لك ألفين بنت مجلية
ادعي إلى الرحمن يجبر خاطرك يعطيك رب العرش كل عطية
فإن كنت يا سرحان تعرف شما واللّٰه يا سرحان أنا هية
قد زال عنك الهم يا أمير الملا وبعد الفراق اللّٰه ردك إليّ

يا ما بكيت على فراقك والجوى حكايتي يا ملك صارت أسية
لما أخذت العقد ورحت به وطلعت تركض وسط البرية
جلست مثل الطير قلبي مرتعب من أجل عقدي عدت أنا معمية
وعدت أنا لخيمتك لأسألك لأن عقدي راح مني عشية
ما لقوا لك خبر يا سرحان ولا أثر بالحال رزق وفايد أتوا إليّ
قالوا مالك قلت عقدي فقد قالوا سرحان ما له نية
لقيت شاشك وأخذت لصارمك ومشيت من وقتي على أجريه
نظرت خطك عالبلاطة راعني ولطمت على خدودي بيديه
إلا ومركب من البحر غاير إفرنج أتوا مسرعين إليّ
بسرعة أخذوني وعدت أسيرهم وأندريا عاد حاكم في
وقال مات ابني أنت مكانه أعطيك رزقي والخيول البهية
سمع بنا الملك أرسل خلفنا وقد أخذوني قهر بالغصيبة
لما نظرني قد فتن بمحاسني والعقل منه زال بالكلية
وقال ما هو اسمك يا فتى فقلت له شمان أرفق في
خلع علي خلعة منظومة خلعة من الديباج ملوكية
وقال لي ما كنت تصنع يا فتى فقلت أجمع أموالهم والدية
فقال لي وحياة رأسي يا ولد أعمل في بلادي كاشف الغريبة
وعدت أنا داير عليك بلا بطأ في بلاد الإفرنج والكردية
وما لقينا لك خبر يا سيدي قطعت أنا منك كل رجية
وبعد أيام جابوني سريعاً لعنده إلى البيت من عشية
بالحال زوجني بنته يا منيتي تسمى زهر البان بنت بكرية
تميت معها شهر نايم بجنبها ما مثلها يا أمير شفت صبية
أعلمتها في حالتي من ساعتي كتمت سري في الحشا مخفية
وبعدها شمعون مات وانتقل وعدت أنا سلطان للرعية
وسمعت أنا بالعقد من بعض الملا وطلبت برصوما حضر لدي
لما أتى قلت هاتوا بالعجل جابوه عرفته والحشا مكوية
فقلت له من أين جاءك هذا أنت اشتريته أو جاك هدية
فقال لي عندي أسير يا ملك لقاه بعش طير في برية
فقلت له هات الأسير بالعجل جابوه بالحال مع العسكرية
لما نظرتك من بعيد عرفتك وفرحت في لقاك والجمعية
روح يا سرحان نحسك ولى ولبست من فوق الحرير عبية

فلما فرغ شمان من كلامه وسرحان يسمع نظامه فقال: يا ملك الزمان أفرحتني وأحزنتني؛ لأن ما قلته قوي وقريب من الواقع ثم أخذ يقبل يدي شمان فنتر فيه وقالت له: تعملني مرتك وقالت للخدم: خذوه واحبسوه في حمام المقتول وسكروا عليه الباب وكان مراد شما أن تغسله وهذا هو حمام الملك وبما أنه قتل فيه واحد سموه حمام المقتول، فظن سرحان أنه الحمام الذي يقتلون فيه المسلمين حينئذٍ أخذوه وهو يبكي ووضعوه في الحمام وسكروا الباب. أما سرحان فدق الباب ونام وأما شما فأخذت العقد إلى زهر البان وهي فرحانة وحكت لها القصة بالتمام فقالت زهر البان: وأين هو الآن؟ قالت: أرسلته للحمام ومرادي أرسل له الخدم حتى يحلقوا له شعره ويغسلوه ويأتوا به إلينا في هذه الليلة وأدخله عليك وأوفي عهدي معك، فقومي اغتسلي وتعطري وهيئي نفسك. ثم قامت شما وأخرجت بدلة ملوكية وأساور ذهب مطلية وآلة التزيين وتغسلت ولبست ثيابها وصارت تتمشى في القصر كأنها القمر من فوق غصن بان يتمايل كيفما هب عليه النسيم وخصرها يلتوي تارة ويقبل أخرى، وقد أمرت الخدم أن يزينوا القصر ويفرشوه ففعلوا ذلك ولما حضرت زهر البان قالت شما: ابقي أنت في تختك تحت الستار ولا تحضري إلا ونحن على المائدة فحينئذٍ يكون حضورك فاجلسي بجانبه وأنا أدبر لك الأمر، فقالت لها: سمعاً وطاعة كما تريدين ثم إن شما ذهبت إلى قاعة الجلوس واستدعت بخدام الحمام وقالت لهم: اذهبوا إلى مملوكي في الحمام واحلقوا له شعره وغسلوه وبعد ذلك اسكبوا عليه جامين من العطر والمسك، وأعطتهم أيضاً بدلة ملوكية وأمرتهم أن يذهبوا ليلبسوه إياها ويقوموا بخدمته كما كانوا يقومون بخدمة الملك وأمرت أيضاً أن يأخذوا له جواداً مزيناً بالسرج المذهب والركاب الفضة وأن يمشوا أمامه، فحينئذٍ ذهبوا إلى الحمام فوجدوا الباب مدقراً فقالوا له: افتح فلم يرد قالوا له: لا تخف نحن أتينا لنغسلك ونخدمك لأن الملك هكذا أمرنا فما فتح لهم ولما أعياهم الأمر خلعوا الباب ودخلوا وعروه من الثياب ونيموه على البلاط الناري فحينئذٍ قطع رجاه من الحياة وجعل يبكي على نفسه وهم يتعطفون بخاطره حتى أخرجوه من بيت النار إلى المصطبة وكأنه قد خرج من الجحيم إلى النعيم وذاق لذة ما ذاقها طول حياته ثم حلقوا له شعره وزينوه وطيبوه وألبسوه البدلة وأركبوه على الجواد المعد له، ومشت الخدم أمامه ودقت النوبات وهو كأنه الملك شمان ولم يزل سائراً إلى أن وصل إلى القصر فأنزلوه ومشوا في ركابه حتى أصعدوه إلى قاعة الجلوس فأجلسوه ثم دخل شمان على سرحان فقام وقبل الأرض بين يديه وقال له: إني أطلب من اللّه أن

يديم لنا أيام سعادتك ويحفظك ويهنيك ويعطيك كل ما تقر به عينك فقال الملك: شمان قم واتبعني الآن، ثم مشت أمامه إلى المكان الذي فيه زهر البان فدخلا وجلسا وبعد ذلك وضعوا الطعام للعشا وجلس سرحان وشمان على المائدة وقبل أن يبدأ سرحان بالأكل رأى الستار قد رفع وبان من تحته صبية كأنها البدر في تمامه ووجهها يتلألأ كأنه فص من جوهر فلما نظر سرحان إلى هذه الصورة عاد قلبه يخفق وأعضاؤه ترتعد وقال في باله: هذه الملكة فإذا نظرت إليها يرجعني إلى رعي الخنازير ثم أتت وجلست بجانبه وهي كأنها غنمة أمام ديب يريد أن يفترسها، وبعد أن أكلوا وشبعوا قاموا وغسلوا أياديهم وجلسوا في مكان منفرد في بعض غرف القصر ولما استقر بهم المقام قال الملك شمان لسرحان: كيف أنت الآن؟ قال: يا ملك الزمان أطال اللَّه بقاءك إنني على أحسن ما يكون من العيشة والرفاهية، ولكن الذي يحزنني أن إقامتي قد طالت في هذه البلاد ومرادي أن أذهب إلى بلادي وأنظر ما جرى لشما قرينتي بنت الحسب والنسب، فقالت: ما لك ولهذا الأمر فانظر من على يمينك ألا تنسيك محبوبتك التي تجهل مصيرها فقال: وما فائدة ذلك والمثل يقول: من أطلق نظره أتعب خاطره؟ فقال الملك شمان: بحياتي عليك أن تنظر إليها فحينئذٍ التفت إليها سرحان ونظر إليها فتاه عقله في بحر هواها وقال في باله: يا ريت الملك يوهبني إياها ثم قال للملك: تبارك اللَّه أحسن الخالقين، ولكن هذه هي الملكة قال: نعم ولكن للآن بعد ما دخلت عليها وأريد أن أزوجك بها فقال سرحان: أنا لا أريد إلا شما أن تكون زوجة لي فقالت له: إن لم تتزوج زهر البان أعيدك لعند برصومة ترعى الخنازير، أيصير لك مثل هذه البنت وتتركها؟ فقال: إني قبلت الزواج فأعطته شما العقد وقالت له: ادفعه لها مهراً فأعطاه لزهر البان وكتبوا الكتاب ثم باركت لهما وقامت خرجت عنهما وغلقت الباب وذهب سرحان بزهر البان إلى مكان النوم وناما على فراش من ريش النعام واحتظى بجمالها وقدها واعتدالها فرآها بنتاً بكراً ودرة كريمة ما ثقبت ومطية لغيره ما ركبت وبقي عندها عشرين يوماً وليلة فعند ذلك اختلت شما بزهر البان وقالت لها: لقد مضى عشرون ليلة وأنت معه والآن لقد جاء دوري فقالت: أنا ما منعتك عنه، وفي هذا الوقت يأتي سرحان وأول ما يدخل هو أخرج أنا وحينئذٍ اكشفي له عن ذاتك ودعيه يدخل عليك وبينما هما في الكلام وإذا بسرحان دخل وقبل يدي شمان ثم سأله هل سمعت لي خبراً عن شما؟ فقال له: أتاني خبر أنها في بعض الجزائر مع مسلمات أسيرات فاجلس مكاني على تخت الملك حتى أرسل لك البنات فانظر إليهن فإن كانت شما بينهن فخذها، وإن لم تكن معهن أفتش لك عليها في كل مكان ثم

أخذته وذهبت به إلى كرسي المملكة وأجلسته عليه وقالت لأرباب الدولة: أريد أن يحكم سرحان مكاني لأنه كان ملك بلاده فقالوا: وأنت يا ملك الزمان ماذا تصنع؟ قال: مرادي أن أقيم في قصري نحو شهر لأني مريض فقالوا: سمعاً وطاعة فأجلست سرحان على الكرسي مكانها وذهبت لقصر زهر البان وقالت لها: أجلسته يحكم مكاني ومرادي أن نغير أنا وأنت وندخل على سرحان ونقول له: إن الملك شمان أرسلنا لتنظر إن كانت بيننا شما أم لا ثم قامت ونزعت ثياب الرجال ولبست ثياب النساء وتزينت بزينة العرايس وزهر البان فعلت مثلها وأمرت الخدم أن يهيئوا الأطعمة والمأكولات وأن يفرشوا القصر ويزينوه وذهبوا إلى الحمام واغتسلوا وتعطروا وخرجوا كالأقمار وعليهم من الملبوسات ما لا رأته عين ولا سمعت أذن به وكان معهم داية يقال لها زخروفة فقالت زهر البان: خذينا لعند سرحان وقولي له هل ترى شما منهما وأدخلينا واذهبي بحالك فقالت: سمعاً وطاعة ثم سارت بهما نحو سرحان وكان في وقتها قد انتهى من الديوان وذهب إلى قاعة الجلوس، ووضعوا له العشاء فتعشى وإذا بالعجوز دخلت عليه فقال سرحان: لعله خير إن شاء اللَّه فقبلت الداية الأرض بين يديه وأخبرته عن البنتين وأدخلتهما أمامه فنظر إليهما وانبهر من حسنهما وجمالهما لكنه لم يعرفهما فتقدمت شما: وجلست عن يمينه وزهر البان عن يساره قالت له شما: إذا أنا ما عرفتني وزهر البان ألا تعرفها وهي التي لك عندها عشرون ليلة فأمعن سرحان النظر بزهر البان فعرفها فقال: نعم هي زهر البان ولكن باللَّه عليك من أنت فأشارت تجاوبه على كلامه وتقول:

هي. بنت الكبارية. في حضن السلطان. عروس مجلية بحضن السلطان بنتان كالغزلان. شما وزهر البان. كأنهم في برية شعر مثل الليل. كأنه سبسب خيل. والوجه مثل الليل. وعيون هندية سرحان افهم لي. ولا تكون مختلي. من ذا يكون مثلي. في تلك العلية مثلي قليل يكون. كالجوهر المكنون. اللَّه يكون لك عون. ويلبسك حريرية لبسي حرير أحمر. والعنق كالمرمر. والريق كالسكر. في وسط صينية بيضا كالفضة. عنطوسة وغضة. بالبها مرتضة. كالبدر مجلية سرحان أنا شما. والشمل قد التما. والسعد قد عما. من صفات النية انهض ورافقها. واحذر تفارقها. سبحان خالقها. قامة رباعية أسرع واضجعنا. على مضاجعنا. فالهجر شتتنا. بادر بحنية بادر وودينا. واجلس محادينا. واستوفي الديونا. مني ومن هيه وأسري بنا سحراً. لجهة البحرا. ورفيقتي زهرا. بالحسن معطية.

فلما فرغت شما من كلامها وسرحان يسمع نظامها طار عقله من الفرح وزال عنه الهم والترح وقال لها: والنبي ما أنا مصدق أخاف أن يكون ذلك في منام

قالت: أنا امرأتك شما فإن لم تصدق انظر الشامة في عنقي ولا بد أن تكون قد رأيتها فلما رأى سرحان الشامة في عنقها عرفها تماماً وأنشد:

يا شما قتلتينا. وأنت سبيتينا. ما مثلك شفنا. بأرض الحجازية من أجلك رحنا. بالكرج قد سحنا. واليوم ارتحنا. برؤياك البهية في حي برصوما. قد كنت معصوما. مع شر وخصوما. شمطا ومكريه مريم تركبني. تأتي وتضربني. على الأرض تقلبني. رغماً عن أنفي والعقد لقيته. في العب خبيته. وجيت لبيته. بسرعا أتى لي وجيت متخبي. واتكلت على ربي. وقلت لقلبي. ما عاد لي نية ورحت للحمام. وعبيدك قدام. ورجعت في إنعام. وسعدي رجع لي والسعد قد عما. في جمعي مع شما. والخير قد تما. بالمسلمانية شما قد تلفتيني. بحبك ضنيتيني. قومي واسقيني. شراب وميه قومي أتى دورك. وهلكت من جورك. بالليل أنا أزورك. وهل وقت شوية حسنك سبا عقلي. مثلك يليق لي. هاتي لنا النقلي. بوسط صينية.

فلما فرغ سرحان من كلامه وشما تسمع نظامه قالت زهر البان: انبسط يا سرحان على بنتين ما في الدنيا مثلهما ثم تقدمت وأرخت دلالها عليه وتاهت في حسنها وجمالها وقدها واعتدالها وأنشدت:

تقول زهر البان. يا أمير سرحان اسمع قولي واطرب. وشوفني ما أحلاني انظر حسن خدودي. حمر مثل ورودي. تفاح فوق العود. مشكوك بالأغصان طلبت مني أمي. وأبي ثم عمي. شدون لأجل الهمي. وأعطوني لسرحان جلست أنا قباله. أنظر رفيف دياله. طالبته بوصاله. فقال: عذري بان كتمت أنا أسراره. وطفيت جمرة ناره. وحكى لنا أخباره. ما صار فيه وكان وجيت أنت من بعده. وسعدك غلب لسعده. برقك لمع مع رعده. والغيم ضبضب ثاني نحن حريمك عدنا. إن ردتنا لك ردنا. وتحطنا بالردنا. من داخل القمصان انهض بنا للقصر. نعمل صفاء العصر. جالنا النصر. من ربنا الرحمن.

(قال الراوي) فلما فرغت زهر البان من كلامها وسرحان يسمع نظامها فمن زود فرحه ما عاد يعرف روحه إن كانت في أرض أو في سماء لأنه كان يهيم في حبها فأشار يرد عليها ويقول:

قال الملك سرحان: يا ست زهر البان، حبك سكن في قلبي، فيك أنا فرحان. وحبك سكن فؤادي، وحرق أكبادي، وصمت أنا عن زادي، وحبك أضناني. لك وجه مثل الشمس، أو كالنجوم الخمس، وخدك كما القبس، وسط

الحشا نيران. حواجبك مقرونة، الناس بك مفتونة، اللّه يديمك لي معونة، على طول الزمان. عيونك السود كحلا، وريق فمك أحلى، كأنه عسل نحله، وعنقك عنق غزلان. ما مثل قدك شفنا، ودرنا البلد وطفنا، وغيرك قد عفنا، إلا الفتى شمان.

(قال الراوي) فلما فرغ سرحان من كلامه قامت زهر البان من أمامه وذهبت إلى قصرها وأما سرحان فدخل على شما بنت الحسب والنسب ونال ما كان يتمناه من حسنها وجمالها وقدها واعتدالها وعند الصباح ذهب سرحان إلى الحمام ثم رجع للديوان وعند المساء ذهب إلى شما ولم يزل على هذا الحال عشرين ليلة ومن ذلك الوقت صار ينام عند كل واحدة ليلة وشما تذهب إلى الديوان مثل عادتها. وفي ليلة من الليالي حكم على سرحان البسط والانشراح فوضع شما عن يمينه وزهر البان عن يساره كأنهما القمران، فافتكر سرحان بالأيام التي كان قضاها عند برصوما في رعي الخنازير وكيف صار ملكاً عليهم وكيف تزوج بشما وزهر البان، فحمد اللّه وشكره على ما أولاه من النعم ولم يزل سرحان في بلاد الإفرنج يحكم فيها ثلاثة أشهر وبعدها تذكر أهله وبلاده وأوطانه فحن قلبه إلى الأوطان، ولما اجتمع بشما في الليل قال لها: قد ضجرت من إقامتي بهذه البلاد ومن أهلها. فقالت له شما: وأنا أيضاً مثلك فقال: كيف العمل بالمسير وكيف الرأي بأخذ هذا المال الغزير فقالت له: غداً ندبر أمرنا بإذن الواحد القدير، ثم إنهم باتوا تلك الليلة إلى أن أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح قامت شما ولبست لبس الرجال وطلعت هي وسرحان إلى قصر الحكومة وجلست على الكرسي وسرحان بجانبها وضربت الديوان فحضر إليه الخاص والعام وقبلوا يد الملك شمان، فقالت لهم: اعلموا بأن الست زهر البان طلبت مني الحج إلى القدس الشريف فماذا تقولون بهذا الشأن؟ فأجابوه هذا فرض على كل إنسان وإن فعلت معها ذلك فلك الأجر والثواب فقالت لهم: وأنا أكون معها لأجل خاطرها ويقعد يحكم موضعي برصومة وأندريا حتى أعود قالوا: لماذا لا يبقى سرحان مكانك قالت سرحان: أريد أرسله إلى بلاده وشاع الخبر في المدينة أن الملك شمان يريد يزور القيامة، ففرحت الناس بذلك وقامت جمعت أموالاً لا تعد ولا تحصى ووسقت ثلاث مراكب ثم سأل سرحان زهر البان إن كان لها خاطر بالسفر فقالت: لا أقدر أن أفارقكم ساعة واحدة ثم وكلوا برصومة وأندريا بالملك ولما كانت ليلة السفر نزلت شما وزهر البان وسرحان في مركب وثلاث مراكب موسوقين ما يعلم فيهم إلا الواحد الوهاب، فسافروا على كف الرحمن فما كان إلا أيام قلايل إلا ونفذوا لمدينة يافا وكان يوجد

نزل عرب هناك سلم عليهم سرحان فردوا السلام وقالوا له: من أي العرب أنت؟ قال لهم: أنا سرحان بن حازم سلطان بني هلال وحكى لهم القصة فقالوا له: ما تريد الآن؟ قال: أريد أربع بغال وجمال قالوا: أبشر فصار يخرج من المركب ويحمل الجمال ورتب هودجين لشما وزهر البان وسافروا وكان قد أرسل بشيراً ليبشر الناس ويستقبلوه فصار يسأل عن بلاد السرو إلى أن وصل فرأى ما يفتت الأكباد ويذهل العقول من الحروب فسأل امرأة عن بلاد السرو قالت له: وصلت فقال لها: ما لي أرى هذه البلد بهذه الحال قالت له: إن سلطاننا قد أسر منذ ثلاث سنوات فطمعت بنا الأعادي كما ترى وقد أرسلنا إلى أبي زيد أن يحارب معنا فلم يحضر فتوجه الساعي جهة الزحلان لأجل أن يستعجل أبا زيد ويدركهم وما غاب عن بلاد السرو نصف ساعة إلا والرايات الحمر مقبلة وأبو زيد بأولهم فتقدم الساعي وقبل يديه فقال له: من أنت فأخبره بالقصة من الأول إلى الآخر ففرح أبو زيد بخلاص سرحان قال الساعي: يلزم أن تلحق أهلك يا أبا زيد لأنهم على آخر رمق فقال أبو زيد: سر قدامي فسار الساعي قدام أبي زيد مثل النسيم وأطلق أبو زيد الغارة حتى وصلوا إلى بلاد السرو فرأوا بني هلال بأشد الضيق مع اليهود فجرد أبو زيد الحسام وهجم عليهم مع بني الزحلان وصاحوا اللَّه أكبر، وعبر فيهم أبو زيد كالنار تشعل في الحطب وهو يكردسهم يميناً وشمالاً ويجندل الأبطال وأما اليهود فصاروا بأذل الأحوال لما جاء عليهم أبو زيد ففي قدومه صار النصر لبني هلال وعاد كيال المنايا وزادت الأهوال ولا زال الدم يبذل ونار الحرب تشعل والرؤوس تعزل إلى أن ولى النهار وأقبل الليل، فدقت طبول الانفصال وعاد الفريقان. أما بنو هلال فاستقبلوا أبا زيد وسلموا عليه وذبحوا له الذبائح وأولموا الولايم ودخل أبو زيد على أمه الخضرا وأخته شيحا وسلم عليهما وباتوا تلك الليلة فرحانين وبالنصر مستبشرين. أما اليهود فإنهم باتوا بالذل والهوان واجتمعوا بسلطانهم الملك دومار وقالوا له: ما دام أبو زيد أنجد بني هلال ما عاد لنا منهم مخلص ولا خلاص وبلغنا خبر أنه طردهم من بلاد الزحلان وله عليهم غزوات كثيرة ونهب منهم أموالاً غزيرة فقال لهم سلطانهم: أنا أقهره في حومة الميدان ولما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح اصطف الفريقان وترتبت الطائفتان فنزل دومار للميدان وطلب أبا زيد فما أتم كلامه إلا وأبو زيد قدامه وصدمه صدمة هائلة منكرة وفاجأه بضرب على مفرق شعره قسمه شطرين وغار على اليهود وشتت شملهم وغنم المسلمون خيلهم وأموالهم وتقاسموها بينهم وما أخذ أبو زيد شيئاً من الغنيمة؛ لأنه كان يكرم الناس بالمال ودامت بينهم الأفراح وزالت الأتراح وذبحوا

الذبايح وكسوا الأرامل والأيتام، وسجدوا للّه الملك العلام على نصرتهم وشكروا أبا زيد الهمام فعند ذلك أخبرهم أبو زيد عن الساعي وظهور سرحان وأعطاهم المكتوب فقرأوه في الديوان فحصل عند بني هلال السرور وزلغطت النساء وأكرم أبو زيد الساعي بمئتي دينار وكذلك الأمراء أعطوه فاغتنى بعد الفقر وتأهبوا لاستقبال سرحان ودلهم الساعي على الطريق واجتمعوا ببعضهم البعض وسلموا على بعضهم سلام الأحباب إذا كانوا غياباً، وتعجب بنو هلال من كثرة ما جلب سرحان معه من الأموال وذبحوا الذبايح وفرقوا وأكلوا وشربوا ولذوا وطربوا وقص لهم سرحان جميع قصته وما جرى عليه في سفرته، فقال له أبو زيد: يا ابن العم هذا كله خطية الخضرا فقال له: صدقت وأنا مقر بذنبي ثم إن سرحان أكرم الساعي وسار إلى بلاده وهم هدوا خيامهم وساروا إلى بلادهم بلاد السرو وعبادة وطلع الرجال والنساء بالدفوف والزلاغيط وصارت لهم دخلة عظيمة، ونزل سرحان بأوطانه وترحبت فيه أهله وخلانه وتم الفرح مدة شهر تمام وجاءهم المهنئون من جميع البلاد وأتتهم الهدايا وأقاموا الأفراح.

وجلس سرحان على كرسي الملك وصار يحكم بعدل وإنصاف أما شما بنت الحسب والنسب فقد حملت من سرحان وبعد مضي تسعة أشهر وضعت ولداً ذكراً مثل البدر فسألت أباه ماذا نسميه فقال لها: سميه حسن وأتى المهنئون من جميع الجهات يهنئونه به مدة شهر كامل ولما كبر صار يتعلم العلوم ويتقنها وصار يركب الخيل ويتعلم الفروسية وأبواب الحرب والقتال حتى صار بطلاً شجاعاً وفارساً مهاباً، والتف حوله جماعة من الأبطال والفرسان وصار يحدثهم بالغزو ويحثهم على الجهاد والقتال ثم قال لهم: غداً أستشير والدي عن غزو بلاد برزخا وتلك الجهات.

قصة الملكة خرما بنت الملك النعمان سلطان اليمن وخلاص أخيها الملك سليمان من الأسر في بلاد برزخا

(قال الراوي) بينما الأمير حسن جالس في الديوان مع أبيه الملك سرحان إذ وردت أخبار من اليمن تقول: إن ملك برزخا اعتدى على الملك سليمان ملك اليمن وتغلب عليه وأسره، فغضب الأمير حسن غضباً شديداً واستشار والده في غزو بلاد برزخا فاستغرب أبوه ذلك منه ولم يشجعه على هذا الغزو الذي لم تعرف له نتائج. هل ينتصر فيه ابنه حسن أم يحصل له الهزيمة والاندحار؟ ولما رأى حسن أن أباه ليس له خاطر بسفره قال له: لقد عزمت وصممت على غزو بلاد برزخا وتخليص الملك النعمان من الأسر متكلاً على اللّه ولن أرجع عن عزمي ثم أنشد:

لا بد لي عن غزو بلاد برزخا ... متكلاً على الواحد الوهاب
من رام يركب معي فيا مرحبا ... ومن يأبى ما عليه عتاب
أنا مكرم الضيف في سنة الغلا ... والناس دوماً يحسبون لي حساب
أنا قلبي بالمال ما هو مولع ... لكن مرامي للثنا كساب
سلمت أمري لربي وخالقي ... من يتكل على اللّه ما خاب

فلما فرغ حسن من كلامه قال أبوه: لا حول ولا قوة إلا باللّه، ثم إنه نزل إلى الديوان ودخل على شما وأعلمها بعزم ابنها حسن على السفر وعلى غزو بلاد برزخا فخافت على ابنها وقالت لسرحان: نبه على جماعته أن لا يركب أحد معه لعله يمتنع عن السفر، فخرج سرحان من عند شما وذهب إلى الديوان وأعلم جماعة حسن سراً بعدم الركوب مع حسن لعله يعدل عن السفر، فقالوا: لا نخالف أمر حسن ولا نتخلى عنه ولكن ننصحه بأن لا يتهور وأن يترك هذا الغزو فقال حسن: ادع لي يا أبي بالنصر والتوفيق ثم قال لجماعته: تهيأوا للمسير فقالوا له: إنا ننصحك بترك هذا الغزو أتريد أن ترمي نفسك بالمخاطر وتفقد حالك ورجالك في بلاد لا تعرف عنها شيئاً فقال لهم: أين نخوة الرجال أهذه مروءتكم وهذا

قصدكم ولكني أخيركم فمن أراد الذهاب معي فمرحباً به ومن كان جباناً ولم يرد الذهاب معي فلا لوم عليه فصاح سرحان بجماعة حسن قائلاً: كل من أراد الذهاب مع حسن فلا يلوم إلا نفسه فنهض الرياشي من جماعة حسن وقال: إننا لم نتخلف عن الذهاب مع أميرنا حسن لأن من يأكل خبز السلطان يطيعه ولا يعصي له أمراً فقال أبو زيد للرياشي: بارك اللَّه فيكم حقاً إنكم أبطال والتفت القاضي إلى سرحان وقال له: دعهم وشأنهم لعل اللَّه ينصرهم على عدوهم ويخلصون الناس من شره فساعد ابنك حسناً وجماعته بالمال والرجال عند ذلك قال سرحان لولده حسن: إن كان لا بد لكم من الذهاب فخذوا من عساكري وجنودي عشرين ألفاً يقاتلون معكم وخذوا ما يلزمكم من المال والأسلحة فقال حسن: شكراً لك يا والدي، فإني لا أصطحب معي غير جماعتي ولا نريد مالاً ولا أسلحة ولكني أريد أن تكون راضياً عنا داعياً لنا بالنصر والتوفيق وتقدم حسن من أبيه وقبل يديه وودعه فقبله سرحان وقال له: مع السلامة يا ولدي وأرجو لكم النصر وأن ترجعوا كاسبين غانمين.

أما حسن فودع أبا زيد وجميع الأمراء وركب مع جماعته وكانوا خمسة آلاف فارس وسار حسن أمامهم كأنه قلة من القلل أو قطعة فصلت من جبل وعلى رأسه خوذة من البولاد وعلى صدره درع محبوك بالزرد لا تعمل فيه السيوف ولا الرماح، وقصد صيوان أمه شما فودعها فبكت بكاء شديداً وأشارت تودعه:

قالت فتاة الحي شما التي شكت ... والدمع من بين الأماقي سال
رايد تجد السير يا ولد الرضا ... لأرض المجوس ماذا تكون الأحوال
خذ من أبيك أموال تكفي ... وخذ جنود خيرة الأبطال
رد الفتى حسن الأمير وقلها ... لا خير في فتى بغير أفعال
إذا لم يكن الفتى قرما مجرب ... أحسن يموت معلقاً بحبال
واللَّه لو ما كان أبي ووالدي ... لكنت أسيبه مدى الأجيال
لما سمع أني نويت على الغزو ... إلى برزخا صاح فينا وقال
واللَّه من رافق حسن ادعيته ... فوق الثرى مرمي على الرمال
قالوا ربعي نحنا فدى حسن ... لو ما بقي منا ولا خيال
حلفت أنا عن مال أبي وعسكره ... وقلت لربعي اركبوا يا رجال

(قال الراوي) فلما فرغ حسن من كلامه قالت له: هذا العقد الجوهر ليس من مال أبيك ولا من مالي بل هو من مال جدك زين الدين وهو بتسعين حبة وكل حبة تساوي مملكة فخذه، وأنفق ثمنه على جماعتك فأخذه منها وخبأه في عبه وودع أمه وسار مع قومه متجهين نحو بلاد اليمن. وكان رجل عطار اسمه سعد من اليمن

يجلب العطر ويبيعه إلى بني هلال، وقد عرف كل ما حصل بينه وبين أبيه وأمه فقال: لا بد أن أذهب إلى اليمن وأبشر الملكة خرما بأن الأمير حسناً مقبل لغزو بلاد المجوس فسبق عساكر حسن وذهب إلى الملكة خرما وبشرها بقدوم الأمير حسن الهلالي وهو عازم على غزو بلاد برزخا وخلاص أخيك الملك سليمان من الأسر، فلما سمعت خرما ذلك من العطار فرحت واستبشرت بالنصر وأكرمت العطار ثم قالت لوزيرها: اركب مع أكابر اليمن واستقبل الأمير حسناً وقل له: ليدخل المدينة لضيافتنا ولنقدم له ما يريد من الذخائر والأسلحة والخيل والجنود؛ لأن جيشه ما يكفي لحرب الأعداء فركب الوزير مع جماعته مصطحباً معه ذخيرة ثمينة ولما وصل أنزل الأحمال ودخل على الأمير حسن وسلم عليه وقدم له الذخائر وبلغه كلام الملكة خرما وقال له: إن الملكة خرما لا تنسى فضلك وشجاعتك وتريد أن تكافئك على اهتمامك لأجل خلاص أخيها الملك سليمان من الأسر، فقال له حسن: أنا لا أريد شيئاً فأرجع ما أتيت به وسلم على الملكة خرما واشكرها عني الشكر الجزيل، فامتثل الوزير لأمر حسن وعاد إلى المدينة وأخبر الملكة خرما بأن الأمير حسناً لم يأخذ من الذخيرة ولا مثقال ذرة فتأثرت خرما وقالت له: وما نعمل حتى يأخذ ما نقدمه إليه من المساعدات؟ قال: اجمعي ما يلزم من خيل ومال وأسلحة وعتاد وسيري بها إلى حسن وقولي له بما أنك ستحارب من أجلنا وتدافع عنا فينبغي لك أن تقبل ما أتينا به لك من مال وعساكر وخيل وأسلحة فقالت خرما للوزير: دبر لنا ما قلت عنه حالاً فصاح الوزير بالعساكر أن يستعدوا للسفر وجمع المال والأسلحة وجهز خمسين ألف جندي وركبت خرما والوزير وقصدوا مضارب الأمير حسن، ولما وصلوا نزلوا عن خيولهم وأنزلوا الأحمال عن ظهور الجمال وأرسلت خرما رسولاً ليعلم حسناً بقدومها فذهب الرسول وبلغ الأمير حسناً أن الملكة خرما تريد مقابلته، فقال حسن: إن أرادت أن تأتي ضيفة فمرحباً بها ثم إنه أعلم جماعته وجلس ينتظرها فلما أقبلت دخلت على حسن وسلمت عليه فرد عليها السلام وأجلسها بأرفع مقام فشكرته ودعت له بالفوز والانتصار ثم قالت له: لماذا لم تشرفنا بزيارة قبل السفر ولماذا لم تقبل أن تأخذ ما أرسلته لكم مع الوزير وقد أحضرنا لكم الآن أموالاً وسلاحاً وجيوشاً فأرجو منك قبولها ولك مني الشكر الجزيل فقال حسن: هذا محال أيتها الملكة لأني أخاف أن يعيرني بنو هلال فيقولون: إن الأمير حسناً لم يقبل مساعدة من أمه ولا من أبيه وقبلها من امرأة غريبة ويقولون إنه لا يكسب المال بسيفه من الأعداء فبهتت خرما وقالت: ولكني أهب لك بلادي بما فيها فهي تحت تصرفك كما تريد ثم أنشدت:

بدت خرما بنت سلطان اليمن تمدح حسن من نسل سادات
أنت الحسن حاوي كل لطافة أمير مشهور بأحسن العادات
عازم على أرض المجوس تخوضها تقيم فيها الحرب والغزوات
خالفت أمك مع أبيك بلا خفا ثارت بنفسك يا حسن نخوات
دونك قومي وخيلي والمدن والتخت والمال والقريات
احكم واعدل فالبلاد بلادك خلي عدونا يشرب الحسرات
ولا ترحل نحو ديرة برزخا يمكن سليمان أخي قد مات

(قال الراوي) فلما فرغت خرما من كلامها تبسم حسن وقال لها: إني لم أفعل شيئاً أستحق عليه هذا الكلام والعطاء ولا بد لي من المسير إلى تلك البلاد وأقهر الأعداء وأخلص الملك سليمان، فإن نصرني اللَّه وعدت مع أخيك يبقى الحكم بيني وبينك وبين أخيك، وإن كان أخوك مات آخذ بثأره بضرب برزخا وقتل رجالها وسبي نسائها وأطفالها فقالت له خرما: أعزك اللَّه وأيدك بنصره وأنت وقومك في ضيافتي ثلاثة أيام وبعدها تسافرون فقبل دعوتها شاكراً ثم إنها عادت مع وزيرها وخدمها وأمرت بتجهيز الطعام وترتيب كاسات الشراب، ولما أقبل الأمير حسن وجماعته جلسوا على موائد الطعام فأكلوا حتى اكتفوا وبعد ذلك أقبل خمسون ألف فارس يمنيون وأنزلوا أحمالهم فسأل حسن عنهم فأخبره الوزير بأنهم قاصدون برزخا للتجارة، أما الملكة خرما فقالت للرياشي وغنيم وحماد وعوف أصحاب حسن أن يقنعوا الأمير حسناً بأخذ الذخيرة والإعانة التي قدمتها له فقالوا لها: اقسمي عليه وحلفيه بمن يحبه أن يقبل الهدية ولا بد أن يستشيرنا ونحن نشور عليه أن يقبلها ونرغبه بأخذها وذهبت خرما إلى حسن فسلمت عليه وحلفته بأعز حبيب لديه أن يقبل الهدية منها فاستشار أصحابه فقالوا له: إن النبي ﷺ كان يقبل الهدية فاقبلها أنت فقال حسن: هديتك مقبولة أيتها الملكة ففرحت خرما وأعطتهم جميع ما يلزمهم في سفرهم وجهادهم فأشار حسن يشكرها بهذه الأبيات ويشجع قومه على الحرب والجهاد:

إذا ما السيف فارق ذا القرابا فسميه بحداف الرقابا
أيا بنت الكرام فعلت خيرا جزاك اللَّه عنا الثوابا
لك الشكر الجزيل بكل وقت وللأعداء حزناً وانتحابا
وها نحن إلى بلد المجوس نجد السير من قبل الغيابا

فلما فرغ حسن من كلامه أشار غنيم يقول:

قال الفتى المسمى غنيم المفلح أيا أمير حسن يا أشجع الفرسان

أسرع لغزوك واركب في عجل حولك رجال كلهم شجعان
حولك جموع آل قيس وعامر ورجالهم لا يرهبوا الدشمان
وأبطال اليمن رجال أشاوس يقهروا الضد في ساحة الميدان
نغزو عدانا بسيوفنا ورماحنا فاليوم يوم الحرب يا إخوان

فلما فرغ غنيم من كلامه تحمس الشباب وصاحوا اللَّه أكبر ثم اعتلوا خيولهم ودقوا الطبول وركب معهم عساكر اليمن، وكانت خرما قدمت رجلاً خبيراً بالطرقات إلى حسن واسمه صباح السوقي وقالت له: إن رأيت الطريق عسراً في البر تسر في طريق البحر؛ لأني أرسلت إحدى وعشرين مركباً تكون حاضرة لديكم فقال الدليل: سمعاً وطاعة وسار أمام العسكر، أما خرما فقد أرسلت كبراء اليمن وأشرافها بالأعلام والمزاهر ورفعت الرايات وركبت هي والوزير مسعود وباقي العساكر ليودعوا الأمير حسناً وساروا معه نصف يوم فحلف حسن عليهم بالرجوع فودعتهم خرما وودعهم الوزير وباقي المحتفلين وكانت خرما قد أرخت النقاب عن وجهها فلما رآها حسن اندهش من حسنها وجمالها وكذلك خرما اندهشت من حسنه وجماله وبكت لفراقه ورجعت لبلادها وهي دامعة العين، أما حسن فأحب أن يكافئ خرما فتذكر العقد الذي أعطته إياه أمه فأعطاه للرياشي قائلاً: أسرع واعطه للملكة خرما، فأخذه وأسرع خلف الملكة فاجتمع بالوزير وأعطاه العقد قائلاً: هذا العقد هدية من حسن إلى الملكة خرما فأخذه الوزير منه وأعطاه للملكة خرما فدهشت من لمعانه وجواهره وقيمته الكبيرة وفرحت به غاية الفرح وعرفت أن حسناً أحبها فوضعت العقد في عنقها واشتهر أمر العقد في اليمن ودعت خرما الجواهرجية لتعرف قيمة العقد، فلما رأوه قالوا: إنه يساوي مملكة فقالت: لقد غمرنا حسن بفضله وكرمه أما حسن فكان يسير خلف الدليل صباح فحكم في طريقهم جبلان بينهما واد فمشوا بالوادي حتى قطعوه وانتهوا منه إلى بحر كبير واسع متلاطم الأمواج فتعجب حسن ورأى وسط البحر مدينة عظيمة محصنة بالمدافع فقال للدليل: يا صباح أين الطريق فدهش الدليل وقال: أما معك فك رصدهم؟ قال: لا علم لي بذلك فقال: إذن ارجعوا لئلا تحترقوا أو تغرقوا فقال حسن: وكيف ذلك؟ فقال له: إن تبع اليماني كان قد غزا هذه البلاد وملك السبع أقاليم وشنق الملك ربيعة أبو كليب وطلب أن يتزوج بالجليلة وجاء ابن عمها وقتل التبع وملك بلاده ولما علم الصحصاح بموت تبع حصن مدينته بالأسوار والمدافع وطرد أولاد تبع فساروا على حدود العجم وملكوا البلاد ورجعوا فوارس وعرباناً وشنوا غارة على الصحصاح وحاصروه أربعين يوماً وكان لهم صديق بالمدينة ففتح

لهم الأبواب بالليل وهجموا بالعساكر وصار ضرب السيف فمن أطاع تركوه ومن عصى قتلوه وتمكنوا من الصحصاح فقتلوه وملكوا بلاد أبيهم وجاروا على الرعية وعبدوا الأصنام وكثر فسقهم وفسادهم، فأنزل اللَّه عليهم مرضاً قتالاً أفناهم عن آخرهم وكان في تلك البلاد رجل ساحر يقال له مروان فخاف على نفسه وأراد أن يخرج من المدينة وقبل أن يخرج منها رصد كنوزها فجعل رصداً على كل كنز وأقام أشخاصاً من نحاس على جوانب البلد يقذفون النار من جميع الجهات وطمع العالم بكنوز هذه البلاد من سائر المدن وأرادوا أن ينهبوها فما استطاعوا، فمنهم من غرق ومنهم من احترق ومن ذلك الوقت إلى الآن ما أحد وصل إليها وهي الطريق السالك على بلاد برزخا. فقال حسن: وكيف العبور فإن الأمر خطير فقال صباح: إن الملكة خرما أعدت لنا مراكب تحملنا في البحر فلنرجع إلى البلد التي أحضرت لنا خرما فيها المراكب فقال حسن: نظل الآن هنا إلى الصباح يفعل اللَّه ما يشاء.

(قال الراوي) إن شما أم حسن جعلت شغلها البكاء والعويل على ابنها حسن وكانت تلوم زوجها سرحان لتركه ابنه في هذه الأخطار فقال لها: عندي سيف خشب لجدي كليب مصنوع من جريد النخل وهو منقوش ومطلسم يبهر النواظر فمن حمله ينجو من المهالك والمخاطر ومن حمله لا يغرق ولا يحترق فتعجبت شما وسألته أين هو؟ فقال: في خزانة أسلحتي حافظه للضرورة ففرحت شما فرحاً شديداً ونهضت في الليل تفتش عليه حتى رأته فأخذته ودخلت إلى صيوانها ثم أعطته سراً إلى خادم أمين وقالت له: أوصله إلى الملكة خرما وقل لها أن ترسله إلى حسن بالحال فأخذ السيف وأوصله إلى الملكة خرما وأعلمها عن خواصه وأنه سيف الأمير كليب وكان الأمير حسن مهموماً مغموماً لا يعرف ماذا يعمل وظل يفكر ثلاثة أيام بدون فائدة وكان لا يأكل ولا يشرب ولا ينام حتى أتاه ذلك العبد وأعطاه السيف المرصود، فوثب في الحال وصاح استعدوا للركوب بوسط البحر فقال الرياشي: لا تفعل يا حسن لئلا نغرق فارجع بنا إلى المراكب التي أعدتها لنا خرما ثم أنشد يقول:

قال الرياشي في كلام صادق ... العقل مني طار يا حضار
نحنا وقعنا في المهالك والخطر ... فتنا أهالينا وكل ديار
يا أمير حسن ارجع عن أفكارك ... واتبع صباح في هالمشوار
نرجع على الأعقاب نحو ديارنا ... لو كان يركبنا الأذى والعار

فلما فرغ من كلامه أجابه حسن على نظامه يقول:

قال الفتى حسن الأمير بما جرى ... لي عزم أمضى من حسام بتار

لا بـد أغـزي بـلاد مـجـوسـهـا لـو ذقـت مـنـهـا عـلـقـمـاً ومـرار
وأخـرب أنـا لـربـوعـهـا وقـصـورهـا وأهـدم حـصـون الـمـاكـنـة وأسـوار

ثم صاح حسن اتبعوني يا رجال ورمى نفسه في الماء هو والجواد ولكنه لم يغرق بل سار به الجواد على وجه الماء وظهر أمامه فارسان كأنهما عفريتان وأخذا معه في العراك والصدام فضربهما بسيف الخشب المرصود فقتلهما بالحال عند ذلك غارت المياه ونشف البحر وظهر البر فتعجبت العساكر من هذا الأمر الغريب وتبعوه في الحال وتبعتهم الفرقة اليمانية وساروا إلى أن وصلوا إلى المدينة، فاعترضهم فرسان كأنهم الجان راكبين على خيل من نار وسيوفهم من نار فهجموا على العساكر وقتلوا بعضاً منهم فهجم عليهم حسن وبيده سيف الخشب المرصود وبدأ يجز رقابهم حتى هلكوا عن آخرهم ففرحت العساكر مما كان وساروا على توفيق الرحمن إلى أن وصلوا إلى باب المدينة فإذا هو من الذهب الأصفر مرصع بالجوهر يضيء كالشمس في رابعة النهار وطوله خمسون ذراعاً وعرضه ثلاثون ذراعاً وهو بثلاثة أقفال مرصودة على كل قفل جوهرة عظيمة تبهر الناظر ومن تحته قنطرة عظيمة يجري الماء من تحتها، فأمر الأمير حسن عسكره بالنزول في المدينة واستلام قلاعها الحصينة، فدخل الرجال في جميع أنحائها وأخذوا يترنمون بالفرح وقاموا بعمل الطعام فأكلوا وشربوا ولذوا وطربوا ثم صاروا يتحدثون عن الكسب والحصول على الذهب والفضة، أما الأمير حسن فحمد اللّه تعالى وأخذ الرياشي وغنيم وحمادة وعوف والدليل وصاروا يتجولون في البلد حتى وصلوا إلى السرايا الملوكية فوجدوا مكتوباً على بابها سيرة الملك تبع اليماني وما جرى له من الحروب والأهوال كذلك ما جرى بينه وبين الأمير كليب سلطان بني هلال وكيف قتل التبع بالحيلة عندما قدموا له الحيلة فقال لهم الأمير حسن: انظروا كيف قتل التبعي من جدي كليب في هذا السيف الخشب الذي ما رأيتم فعله للآن ورأيتم كيف قتلت به رصودة الماء ورصودة النار ثم إن الأمير حسناً لمس الأقفال بحد السيف فانفتحت بالحال وانفتح الباب وسمعوا صوتاً من الداخل يقول: ادخل يا حسن أنت ورجالك وخذوا كنوز هذه المدينة فهي داخل هذه السرايا، فعند ذلك دخلوا وهم على ظهور خيولهم شاهرين السيوف بأيديهم وبعدما دخلوا انطبق الباب عليهم وسمعوا الضجات داخل القصر فصاحوا وقعنا بالفخ يا حسن فتبسم وقال: اتبعوني ولا تخافوا فلا قيمة للرصودة مع هذا السيف فزال عنهم الخوف وأخذوا يطوفون بالشوارع والأسواق ولا يرون أحداً والمخازن مملوءة بالخيرات ورأوا كنوز الجواهر والذهب والفضة وهم يسمعون القائل يقول: خذ يا حسن ما شئت من الخزائن والأموال فكلها لك لكن حسناً لم يأخذ شيئاً بل قال لهم: سيروا بنا نتفرج

على القصور والخوائن فوصلوا إلى منزل الملك فوجدوه مشيّداً بحجارة المرمر المصفحة بالذهب والفضة فدخلوا وأخذوا يتفرجون على الرسوم والنقوش على الحيطان ورأوا برجاً قد تصفحت أحجاره بالبولاد وغرفه مملوءة بالأسلحة، ورأوا جداراً معلقاً عليه قضيب من البولاد ودرع وخوذة وسيف وكل قطعة مكتوب عليها اسم الملك التبع واسم الدرع الأخوص، فأخذها حسن وتقلد بها ثم عادوا إلى باب المدينة فوجدوه مقفولاً فلمسه حسن بسيف الخشب فانفتح حالاً خرجوا وهم متعجبون مما رأوا في تلك المدينة، أما عساكر حسن وعساكر اليمن فقد قلقوا لغياب حسن ورفقائه وأرادوا أن يكسروا الباب ولكن الرصد لم يمكن أحداً أن يقترب منه وفجأة فتح الباب وخرج منه حسن ورفقاؤه فتقدمت الجنود والعساكر وهنأوا الأمير حسناً ورفقاءه بعودتهم سالمين وأخذ يقص عليهم ما رآه ووعدهم بأن يقسم عليهم الغنائم بالسوية وأخذ يشجعهم على حرب الأعداء فصاحوا جميعاً نفديك بأرواحنا يا بطل الأرصاد فسوف ترى حربنا مع المجوس وفتكنا فيهم فتك الذئاب في الغنم. فشكرهم على هذه الشجاعة والبطولة وأمرهم بالركوب فركبوا وساروا من مدينة الأرصاد قاصدين بلاد المجوس وابتعدوا عن المدينة المرصودة خمسة أيام فقال الدليل صباح: بقي علينا مسير أربعة أيام لنصل إلى جسر المرتبك وهو أول حكم بلاد المجوس وهذا الجسر لا يخلو من قطاع الطريق على المسافرين فيسلبونهم أموالهم وإن أبوا قتلوهم وإن كانوا غير مجوس يصلبوهم على رؤوس الجبال فقال حسن: يفعل اللّه ما يشاء وبعد مضي أربعة أيام أشرفوا على الجسر المذكور فرأوا جمعاً غفيراً مسلحين ورأوا أربعة مراكب راسية لأجلهم ففرق حسن العساكر أربع فرق وفي الحال هجموا على هؤلاء الفرسان وأخذوا معهم في الحرب والطعان فأهلكوا منهم الكثير واستولوا على المراكب وفكوا الأسرى وسألوهم عن سبب أسرهم فقالوا: نحن تجار وكنا مسافرين فتعرضوا لنا وأسرونا ونهبوا أموالنا وتقدم رئيسهم قدام الأمير حسن وأنشأ يشكو حالهم ويقول:

قال الفتى الأسير الذي شكا ... بدمع جرى من مقلتي غدران
أيا ريت عمرك يا ابن سرحان دايم ... أما عدوك لو عاش ينهان
خلصتنا يا أمير من الهم والبلا ... يجيرك ربي من لظى النيران
نحن من مصر العزيزة وأرضها ... ومعنا حرير مع جوخ وكتان
لما قطعنا للسويس يا أميرنا ... رموا علينا النفط والنيران
وملكوا مراكبنا وكل مالنا ... ولنا سنتين عندهم في إمحان
بعثك إله العرش إليهم مسكتهم ... وخلصتنا منهم بسيفك وسنان

فلما فرغ الأسير من كلامه قال لهم حسن: لا بد لي أن أعوض عليكم جميع أموالكم فترجعوا إلى أهلكم سالمين غانمين ثم إن حسناً نقل كل شيء في المراكب من مدافع وأموال وأرزاق ووزع على كل أسير مائة دينار وأعطاهم شيئاً من الغنائم، ثم قال لغنيم: ابق أنت هنا بهذه الفوارس بينما نحن نغزو برزخا ونعود ثم ودعه حسن وسار يقطع الفيافي والقفار والأودية والأوعار وقطع وادي الإقبال وقاسى فيه الشدائد والأهوال وأشرف على واد كثير الأشجار والمياه ولكنه واصل السير بالليل والنهار حتى بقي بينه وبين المدينة نصف يوم فكمنوا بين الجبال، وقال حسن: نبات الليلة هنا وغداً نفاجئهم باكراً ونهجم على برزخا ونصيح فيهم اللّه أكبر.

قصة الأمير حسن وزواجه بالملكة خرما وفتحه بلاد برزخا وخلاص الملك سليمان من الأسر ورجوع السلطان حسن إلى الأوطان

(قال الراوي) لما قال حسن: غداً باكراً نفاجئهم ونهجم على برزخا قال له صباح الدليل: لا أرى ذلك موافقاً والأحسن أن نكمن في الجبال منقسمين إلى أربع فرق ونصبر حتى يفتحوا أبواب البلد ويسرحوا المواشي وحينئذٍ نهجم عليهم بأربعمائة من الفرسان ونستولي على الغنم ونسير بها إلى أول كمين فيهرب الرعيان ويخبرون الملك عنا، فيرسل لنا شرذمة من العساكر فيلحقوننا إلى الكمين الثاني فيفاجئهم الكمين الأول من ورائهم ويرتد عليهم الكمين الثاني وبمساعدة الفرقة الثالثة والرابعة نقضي على الأعداء ولا نترك منهم مخبراً ثم نهجم على المدينة ونملكها واللَّه ينصرنا عليهم، فقال حسن: لا بأس بمشورتك يا صباح والتفت نحو العساكر وأشار يحرضهم على القتال بهذه الأبيات:

قال الفتى الأمير أبو علي ... اسمعوا يا ذوي الحرب والجسارة
قوموا اركبوا لخيولكم يا عزوتي ... ورماحكم يا قوم تقدح نارة
أنتم سباع البر في ساحة الوغى ... فتيان الحرب يوم غارة
اللَّه أكبر إن أتونا للفلا ... لسنا نخلي منهم ديَّارا

ثم إنه قسم العساكر إلى أربع فرق وقال لعساكر اليمن: متى رأيتمونا هجمنا عليهم اعملوا سيوفكم في رقابهم. ثم إنه صبر حتى سرحت الرعيان مواشيهم فغاروا عليهم ونهبوا الغنم فعلا صياح الرعيان وأسرعوا أخبروا الملك فصاح الوزير بالعساكر أن يقتلوا الأعداء ويردوا الغنم فركب مقدار خمسة آلاف فارس وساروا حتى اجتازوا الكمين الأول فهجموا عليهم من الوراء ورد عليهم حسن بالعساكر الذين معه ومالوا عليهم من كل جانب وفتكوا بهم وهم يصيحون اللَّه أكبر، وظلوا في حرب وقتال وكفاح ونضال مدة ثلاثة أيام حتى هفوهم عن آخرهم، ولما وصلت الأخبار للبلد خرجت عساكر وجيوش لا تعد ولا تحصى ولما توسطوا

ساحة القتال هجمت جيوش حسن عليهم من جميع الجهات ولله در رجال اليمن فإنهم فاجأوا الأعداء بهجوم صاعق بالسيوف الحدب والرماح المكعبة فقتلوا منهم مقدار عشرة آلاف وارتد باقي العساكر إلى البلد مدحورين ولما وصل الخبر للملك متوج أمر الوزير أن يركب بما يستطيع من العساكر وأن يأسروا بعضاً من الجنود حتى نسألهم ما قصدهم وما يطلبون ومن أي البلاد أتوا فأسرع الوزير وركب بالعساكر وأطلقوا الغارة على العربان وكان حسن رتب العساكر يميناً وشمالاً ووضع اليمانية برؤوس الجبال والروابي والتلال وابتعدوا عن ساحات القتال. ولما أتت عساكر المجوس واجتازوا الكمين الأول طلعت عليهم العساكر اليمانية من الجبال والتلال وهم يصيحون الله أكبر والتقت الأبطال بالأبطال وجرى الدم وسال وزادت الأهوال وطارت الرؤوس عن الأبدان ودارت الدائرة على عساكر المجوس فانغبن الوزير وصاح في قومه عليهم أيها الأبطال فقالوا للوزير: دونك وهذا البطل اللابس الدرع المذهب أما تراه يحصد الرؤوس ويزهق النفوس فانتخى الوزير وتقدم من البطل وسأله من أنت وما مرادك قال: أنا الأمير حسن سلطان بني هلال فدونك والقتال وانحدف عليه كأنه الأسد المغوار وضربه بالسيف على هامه ورمى رأسه قدامه، ولما رأت المجوس مصرع الوزير ولّوا الأدبار وركنوا إلى الفرار ولحقهم حسن وقومه حتى توغلوا في الجبال وعندما غربت الشمس رجعوا عنهم وغنموا أسلحتهم وخيلهم ونزل اليمنيون من رؤوس الجبال بعد ما أرعبوا المجوس بصياحهم وذبح كل من صادفوه حياً فشكرهم حسن وقال: بارك الله فيكم يا أبطال اليمن أما المجوس المنكسرون الذين سلموا من القتل فإنهم دخلوا البلد وأعلموا الملك بمصرع الوزير وانكسار جيشه فصاح بالعساكر الباقية ودق طبله وركب بجنوده وعساكره ونشروا على رأسه الرايات وأوقدوا النيران فأشرفت عليهم رجال اليمن من رؤوس الجبال ورأوا ذلك العسكر الجرار فأخبروا السلطان حسناً فصاح في قومه: استعدوا أيها الأبطال فاعتلوا خيولهم في الحال وهم مثل السباع الكواسر وحسن بأولهم وعلى رأسه تاج الملك وتحته خوذة الملك تبع وعلى صدره سيف الرصد وأشار ينخي جماعته على القتال:

قال ابن سرحان الهلالي ... فارس يوم المجال
اسحبوا بيض الصفاح ... واحملوا سمر الرماح
اقتلوا كل الأعادي ... شتتوهم في البوادي
يا مفرج يا رياشي ... طاش مني العقل طاش
هذا يوم الهواشي ... ما نريد إلا القتال

فلما فرغ حسن من كلامه أجابه الرياشي بقوله:

يا حسن طيب لقلبك ... ينصرك يا أمير ربك
يا حسن يا ابن الأصايل ... أنت باعك دوم طايل
أنت عندك كل فارس ... بالوغى دوما ممارس

ثم تحمس الأمير حمادة وأشار يقول:

نهار الحرب افرح فيه حقا ... تهيم جوانحي وكذا عظامي
فطمن خاطرك يا ابن شما ... فسعدك طال يا نسل الكرام
ونرجو اللّه ينصرنا عليهم ... بجاه محمد بدر التمام

ثم إن حسناً قسم عساكره وجنوده إلى عدة أقسام وإذا بالأعادي مقبلون والملك أمامهم تحت البيارق فما أمهلهم حسن حتى يستريحوا بل صاحوا فيهم اللّه أكبر على من طغى وتجبر ومالوا على المجوس بالسيوف والرماح واشتبك القتال والتقت الأبطال بالأبطال وجرى الدم وسال وطارت الرؤوس وزهقت النفوس، ولم يزل السيف يعمل والدم يبذل والرجال تقتل إلى أن تغلب حسن وقومه على المجوس بسبب صبرهم وجهادهم. فلما رأى الملك المتوج تقصير قومه وعدم صبرهم وثباتهم صاح فيهم احملوا عليهم حملة واحدة فمالوا على عساكر حسن ميلة واحدة وتجدد القتال وزادت الأهوال وقصرت الآجال وراح من المجوس عشرة آلاف ومن قوم حسن أربعمائة كتبت لهم الشهادة ثم تجدد القتال بين الرجال والأبطال، وصاح الملك المتوج بقومه اثبتوا في القتال ولا تتراجعوا ثم إنه قصد حسناً بسيفه البتار والتقى البطلان كأنهما جبلان فقام ملك المجوس في عزم الركاب وضرب الأمير حسناً بالسيف فأخذ الضرب بالدرقة فثنى عليه بالرمح أبطله حسن بعياقته، ثم رد حسن على الملك المتوج وطعنه بسيف الخشب المطلسم في صدره فخرج يلمع من ظهره. فلما رأى قومه ما جرى عليه هاجوا وماجوا وهجموا على قوم حسن واشتد القتال، وجرى الدم وسال وفي المساء افترقوا عن بعضهم وتوقف القتال فافتقد حسن جماعته فإذا الباقي منهم في الحياة ألف إنسان فبكى على الشهداء وفاضت من دموعه العبرات ثم قال: لا حول ولا قوة إلا باللّه. وفي الصباح نهض حسن والألف الباقي معه يفتشون على محل أمين يتحصنون فيه فرأوا مكاناً بين الصخور والتلال فتحصنوا فيه. أما المجوس فأرادوا أن يجددوا القتال فما رأوا جيش حسن فتقدموا إلى الأمام وصاروا يفتشون عليهم، فما رأوا إلا والنبال تشك في أجسامهم وخيولهم من بين الصخور والتلال ودامت الحرب بينهم خمسة أيام وقد فني من المجوس خلق كثير ولم يبق من قوم حسن سوى ثلاثة

رجال وهم الرياضي وحمادة وعوف والباقون استشهدوا إلى رحمة اللَّه وهجم عليهم الأعداء وقتل جواد حسن وكلت سواعدهم من القتال، وأرادوا أن يستسلموا للأعداء وإذا بغبار عكر الجو وظهرت رايات حمر تخفق وتحت الرايات أبطال ساحبين السيوف والرماح وأمامهم الفارس المشهور أبو زيد الهلالي وصاح مع عساكره اللَّه أكبر على من طغى وتجبر وهجموا على الأعداء بضرب يفلق الصخر وقام الحرب على قدم وساق وأبلاهم أبو زيد بالذل والوبال وعاد يحصد هو وجماعته برؤوس المجوس حتى أجبروهم على التراجع والهزيمة، فولوا الأدبار وبنو زحلان جاروا عليهم في الطعن والضرب حتى شتتوهم في البراري والجبال ودخل أبو زيد للوادي الذي فيه حسن فوجدوا فيه أكثر من خمسة آلاف من المجوس محاصرين حسناً ورفقاءه، فمال أبو زيد وقومه على المجوس وأفنوهم عن آخرهم ولا زالوا وراء الهاربين حتى دخلوا المدينة وسكروا الأبواب فعاد أبو زيد فرأى في عودته جنوداً من المجوس كامنين بين الجبال فأمر جيشه بالقبض عليهم من جميع الجهات وقبضوا عليهم دون أن يقاوموا وأخذوا خيلهم وأسلحتهم وساقوهم حفاة عراة وعددهم خمسة آلاف منهم أربعة أولاد الملك وثلاثة أولاد الوزير وأسرع أبو زيد إلى السلطان حسن وتعانقا وباتوا في ذلك المكان في أمان.

(قال الراوي) وكان السبب في قدوم أبي زيد أن شما كانت تبكي ليلاً ونهاراً على حسن واستنجدت بأبي زيد وقالت له: لولاك لما راح يغزو في بلاد يستحيل أن يرجع الغازي منها سالماً إلى وطنه أما قلت لحسن اذهب وأنا أساعدك بالجيش فقال لها: حباً وكرامة وأمر عساكر الزحلان بالرحيل إلى مدينة الأرصاد فسافروا ورأى أبو زيد اليمنية هاربين فسألهم عن حسن فقالوا: إنه في أشد الضيق فأسرع أبو زيد وأدرك حسناً ولما انتصر أبو زيد واجتمع بحسن أنشد يقول:

قتلنا منهم كل قرم غشمشم ... وعادت دماهم تشبه الفوار
أخذنا منهم مالهم وجمالهم ... وغنمنا خيولهم بالصارم البتار
وأنا وقومي قد قتلنا خلايق ... وأسرنا خمس آلاف بلا انكار
وهذه الأسرى يا مير بيدك ... يعطوك يا حسن كل ما تختار
خذ طلبك منهم وعود لبلادك ... وانزل بأرضك يا بطل مغوار

فشكره حسن وقبله بين عينيه ثم أمر بالرحيل وسار أبو زيد بجانب ابن عمه الأمير حسن والرايات تخفق فوق رأسه ولما وصلوا الجسر المرتكي استقبلهم غنيم وترحب بهم وأنشد يمدحهم:

قال الفتى المسمى غنيم المفلح ... القلب مني زاد بالفرحات

يا مرحباً بك يا حسن مع قومك يا فارس الفرسان بالساحات
سرتم إلى برزخا غزيتم أرضها نعمت واللَّه هذه الغزوات
قتلتم منهم كل قرم وفارس ودعيتموهم بأوشم الحالات
من سلم منكم نال العز والرضا ومن مات منكم مسكنه الجنات

وبعد أن هنأوا حسناً على سلامته وانتصاره أقاموا في ذلك المكان ينتظرون خبراً من المجوس لعلهم يتفاوضون معهم بشأن الأسرى وفيما هم كذلك أتى عشرة رجال من المجوس استأذنوا في الدخول على حسن ولما دخلوا للديوان قبلوا الأرض أمام الأمير حسن ودعوا له بدوام العز فتقدم أحدهم وقال: يا مولاي لقد أرسلني إليكم أعيان البلاد من جهة الأسرى الذين عندكم وكم تريدون فكاكهم فعند ذلك طلب الحسن المال ثم أنشد:

يقول ابن سرحان الهلالي أبو علي ولي عزم بالهيجا كسبع طاح
أنا ابن سلطان البوادي جميعها أمير ابن أمير فارساً جحجاح
أمير ابن أمير كاسب الحمد والثنا سياج بنات مبرهجات ملاح
بالسيف والدبوس والرمح صائل أخلي الدما فوق الثرى سياح
وحولي أجاويد رجال ضراغم مسربلين في لبسهم ووشاح
وأبو زيد ابن عمي الأمير سلامة سياج العذارى يوم كفاح
فإن كان تريدوا خلاص رجالكم يجوكم سالمين باكر صباح
هاتوا ميتين ألف من الذهب وميتين بنت حسنها وضاح
وكل أسارى المسلمين فكوها وفكوا الفتى سليمان النطاح

فلما فرغ حسن من كلامه أعطاهم الكتاب وقال لهم: المهلة عشرة أيام فأخذوا الكتاب وعادوا به إلى بلادهم واجتمعوا وتشاوروا فقرروا إجابة طلب الأمير حسن ولموا المال في ثلاثة أيام وفكوا الملك سليمان وجميع الأسرى وأوصلوهم إلى جسر المرتكي فاستقبلوا الأسرى بفرح وسرور وتقدم الملك سليمان من الأمير حسن وصافحه شاكراً فضله، ثم قال له: للَّه درك من بطل بك تفتخر البلاد ويتشرف بمقامك كل إنسان وبعد الاحتفال بمشاهدة الأسرى قال حسن: أين البنات التي طلبناها منكم؟ فقالوا: كل واحد منا يسمح بروحه ولا يسمح ببنته فاعف عنا من عدم إجابة هذا الطلب فقال: عفونا عنكم ولكن أين باقي الأسرى؟ قالوا: هؤلاء هم الأسرى، فقال حسن لأبي زيد: اركب وخذ معك ألف فارس وفتشوا على الأسرى في جميع البلاد وسائر السجون فذهب أبو زيد مع الألف فارس وفتشوا جميع السجون فجمعوا ما يقرب من عشرة آلاف أسير وعادوا بهم إلى

الأمير حسن عند ذلك أطلق حسن أسرى المجوس وعادوا جميعاً كاسبين غانمين منتصرين قاصدين بلادهم، فلما وصلوا إلى المدينة المرصودة أخذ حسن سيف الخشب وأشار إلى الباب ففتحه فتعجب أبو زيد وسليمان وهنؤوه ثم دخلوا إلى قصر تبع وغنموا ما فيه ثم نزلوا من القصر فرأوا تحته طبلاً من نحاس مكتوب عليه هذا طبل الصبوح، فأمر أبو زيد بإخراجه فأخرجوه ولما انتهوا من المدينة جلس حسن يكتب لأبيه سرحان يخبره عما جرى له في هذه الغزوة قال لأبيه:

يقول الفتى ابن سرحان صادق ترى الهم عنا والعنا قد فات
نعم أيها الغادي على متن ضامر يجد السرى في البر والفلوات
سلم على سرحان سلطان قومه أبي وذخري صالح النيات
وسلم على جملة هلال وعامر والأهل مع صبيانهم والبنات
وبشرهم بالخير والنصر على العدا وكانت غزوتنا أحسن الغزوات
أتانا سلطان البلاد جميعاً خلفه عساكر تملأ الفلوات
تقابلت أنا وإياه بساحة الوغى وأسكنته يا أمير بالحفرات
فلما رأى القوم مات مليكهم هاجوا علينا من جميع الجهات
فنيت رجالي يا هلال جميعاً وأدركنا أبو زيد من الشدات
غار عليهم غارة ما جرى مثلها وشتتهم في الفلا أعظم شتات
عدونا لجسر المرتكي في قومنا لحقونا بالمال والخزنات
وفكوا بالمال ملوكهم وأسراهم وأخذنا منهم أحسن الخلعات

فلما انتهى حسن من كتابة مكتوب أبيه كتب الملك سليمان إلى أخته الملكة خرما كتاباً وأرسلوا الكتابين إلى اليمن، فأعطوا خرما كتاب أخيها ففرحت وأقامت الاحتفالات وزلغطت النساء والبنات، ولما وصل كتاب حسن إلى أبيه سرحان قرأه ففرح فرحاً عظيماً وفرحت سائر العربان وأقاموا الاحتفالات وحلقات الرقص والدبكات ولما قرب حسن من اليمن أمر بدق طبل الصبوح فلما دقوا على الطبل سمع صوته أهل اليمن وكأنه عندهم وقد دوت منه الجبال والوديان ولما دخلوا المدينة كان أولهم الأسراء الذين كانوا مأسورين في برزخا وعددهم عشرون ألفاً ومن ورائهم الجنود والعساكر وطبل النصر خلف أبي زيد يرج ثم الأمراء قدام حسن بالدروع وحسن بدرع تبع والخوذة ثم سليمان أخو خرما بجانب السلطان حسن ووراءهم الطبل الكبير وهو من النحاس ويسمع صوته من مسافات بعيدة، فتقدم وزير الملكة خرما وسلم على حسن وسليمان وأبي زيد واجتمع سليمان بأخته خرما ثم أنشد الوزير يقول:

قال مسعود الوزير: استمع لي يا أمير. يا حسن يا ابن الكرام. يا بطل يوم الزحام. ليت عمرك ألف عام. يا حسن كنز الفقير. يا حسن لك صيت شاع. في المداين والقلاع. مثل رعد ذو هدير. يا سليمان هذا الهلالي. أمدحه في كل حال. هو الذي جابك وجا شبه سبع أخرجا. أذاق العدا موت الفجا. وعاد بالنصر الكبير.

فلما فرغ الوزير من كلامه قال سليمان: اشهدوا يا كرام إني وهبت بلادي وأملاكي للسلطان حسن وأنا عنده من جملة الخدم، وكانت خرما أحضرت القبة والطير وبدلة أبيها ولبسوها للسلطان حسن وإذا بسرحان أقبل ومعه شما وجميع العربان، فنهض حسن وسلم على أبيه وأمه وقبل أيديهما فقبلا وجنتيه ثم دخل حسن إلى الديوان وجلس على كرسي المملكة وزلغطت النساء والبنات ودامت الفرحات وظلوا في ضيافة خرما ثلاثة أيام يذبحون الجزر ويأكلون الرز واللحم وقد وضعوا القطع الذهبية تحت الطعام، فصاروا يأكلون اللحم ويأخذون الدنانير الذهبية وحصلت ضجة من أجل الذهب الذي وضعه لهم حسن تحت الطعام فقال سرحان: هذا إسراف وتبذير ثم أنشد:

قال الفتى سرحان قولاً صادق ... اسمع كلامي يا حسن واتفكر
اللَّه أعطاك وجبر خاطرك ... بعد ما كنت فقير معتر
وهذا كله كان من صبرك ... ما خاب عبد على الملا يتصبر
وملكت أرض اليمن وبلادها ... وفتحت بسيفك مدينة حمير
فيها كنوز وأشياء كثيرة ... من عهد تبع المال فيها مدخر
كان حاكمها مرين الساحر ... من جاء إليها حالاً يدمر
لكن سعدك قد علا يا حسن ... ورزقك من قديم مقدر
أعطيتك أنا حكم العرب ... احكم على قومي وكل العسكر
احكم من الشرق لأرض المغرب ... لا شك أنك أنت حاكم معتبر

فلما فرغ سرحان من كلامه سلطن حسن على العرب قال القاضي: وأنا وليت ابني عامر قاضي العربان قال حسن: ويكون أبو زيد صاحب الحسام وله الشور والقول والكلام وعند ذلك أعلنوا في المرتكي واليمن ما سلطان العرب إلا حسن. وحضرت الزينة من بلاد صنعا وعدن وزينوا الشوارع والقصور ودخل حسن بموكب عظيم واستمر الفرح ثلاثة أيام ثم إن حسناً عزم الملوك والأمراء والحكام وزينوا سراية خرما وقصرها وحضر القاضي والشهود وكتبوا كتاب السلطان حسن على الملكة خرما فدخل عليها وحظي في حسنها وجمالها وتمت له الأفراح وزالت عنه الأتراح وفي أحد الأيام أعلموا السلطان حسناً بقدوم دياب بن غانم فاستقبلوه

وسلموا عليه ورحبوا به وسألوه عن قدومه، فقال: قد اشتقت لخالي بدير فقال أبو زيد: أنت ضيفي ولا أتركك تروح من عندي وقال له السلطان حسن: أنت وزيري يا دياب فأقام عندهما عدة أيام بعدها أتى خبر من أهالي صنعا أن المجوس حاشدون على صنعا وبدأوا يعتدون على الأهالي فأمر حسن أن يركبوا الخيل وركب حسن والأمراء وبقي سليمان بالديوان يحكم بالعدل وبقي عنده مساعد قديم حسن. فقال له: يا مساعد هات الشطرنج فأحضر الشطرنج ولعب معه فغلبه مساعد مرتين فتأثر سليمان وبان الغضب في وجهه وأراد أن يغلبه في المرة الثالثة ولكن مساعداً غلبه فانحمق منه وطعنه بالخنجر فقتله فلما مات مساعد أمر سليمان أن يدفنوه فحفروا له قبراً ودفنوه، أما امرأة مساعد فأخذت أولادها وذهبت إلى السلطان حسن فمسكت عنان جواده وهي تبكي فقال لها: ما شأنك ومن الذي أبكاك؟ فقالت: إن سليمان قتل زوجي غدراً فلما سمع منها حسن هذا الكلام اغتاظ جداً وطيب قلبها ولما أنهوا مسألة صنعاء عاد إلى الديوان وقال لسليمان: أين نديمي مساعد؟ قال له: لقد مات وأنا قاتله، فقال حسن للقاضي: ما تقول أيها القاضي؟ فقال: النفس بالنفس والقاتل يقتل فصاح حسن بالعبيد خذوا سليمان واشنقوه على باب اليمن فهجموا عليه ومسكوه وأخذوه ليشنقوه فلما رآه أبو زيد وعرف السبب قال لهم: اتركوه وإذا سألكم حسن عنه قولوا شنقناه ثم إن أبا زيد أخذ سليمان ووضعه في السجن.

(قال الراوي) إن الاعتداء على صنعاء قد تجدد لأن وفداً منها دخل ديوان السلطان حسن يتقدمه رجل اسمه مزيد فتقدم من السلطان حسن وأنشأ يقول:

جاك مزيد يا ملك نحوك أتى ... يشكي لك المجوس شكوى ثابتا
أربع مراكب حول ما قربت ... بالليل جتنا وفي أرضنا حلتا
حاصرت أهل المدينة يا حسن ... والأعادي حول صنعا بايتا
فافرج الهم عنا وما قد صابنا ... وخلي العدا في البراري مشتتا

فلما فرغ من كلامه أشار حسن يشجع أبا زيد ودياباً بقوله:

فقال الفتى حسن الدريدي ... أبو زيد ابن عمي يا عضيدي
قوم اركب يا بو زيد واغزي ... ألا يا صاحب العزم الشديدي
وانهض يا دياب بن غانم ... على الخضرا وجرد حسام الحديدي
أبو زيد عقيد القوم فينا ... يخلي دم الأعادي بديدي

فلما فرغ حسن من كلامه تبادرت الفرسان واعتلت ظهور الخيل وركب حسن بقومه وسار أبو زيد أمامهم يدلهم من غير طريق حتى لا يسأل حسن عن المشنوق. فقال له دياب: من هنا حتى نرى المشنوق فغمزه أبو زيد ثم إن دياباً تبع أبا زيد

إلى صنعا وقسم أبو زيد إلى شمال ويمين وخلف كل قوم ألف فارس فاجتمعت الشباب مع أبي زيد ألف فارس ومع دياب كذلك ومسكوا الشط من يمين وشمال وسحبوا السيوف والنصال وهجموا على المراكب وصاح أبو زيد اللَّه أكبر وفتكوا فيهم فتك الذئاب في الغنم. ولما أصبح الصباح ملكوا المراكب وأهلكوا أصحابها وفكوا الأسرى أما أبو زيد فقال لحسن: هذه المراكب والذي فيها حلال لك ففرق على الفقراء والمساكين.

(قال الراوي) وخرج أهل صنعاء واستقبلوا السلطان حسناً وأبا زيد وشكروهما وقبلوا أياديهما وأدخلوهما في موكب عظيم لسراية الأمير عمران نائب حسن، فترحب بهم وضافوا عنده ثم ودعوه وركبوا طالبين اليمن أما الملكة خرما فقد عظم عندها حبس أخيها سليمان فأمرت خدامها أن يكسروا باب السجن ويخرجوا سليمان منه فذهبوا إلى السجن فمنعهم الشجعان فضربوه حتى أغمي عليه وأخذوا سليمان لعند أخته خرما، فسلمت عليه وضمته، أما السلطان حسن لما عاد من الحرب قال لأبي زيد: أخطأنا في شنق سليمان فقال له: إنه في السجن وقد خلصته من الشنق فانبسط حسن ودعاه له ثم أرسل خادمه للسجن فرأى الباب مخلوعاً وجفيل طريح على الأرض من القتل فأخذوه لعند حسن وأدخلوه عليه فسأله حسن عن حاله فأجاب:

يقول جفيل السجان على ما جرى ودموعي جرت مثل طوفان
من أمس خرما أرسلت لعبيدها كسروا باب الحبس بلا إعلان
وقتلوني قتل شديد بالعصي وأخرجوا المساجين مع الهلال

فلما فرغ السجان من كلامه التفت حسن لأبي زيد وقال:

يقول الفتى حسن الهلالي أبو علي لا خير في من للعهود يبيق
ومن دلل النسوان ولو فرد مرة رموه بدوار وسيع عميق
أبو زيد ما تنظر لخرما وفعلها ولا عندي لها عمل يليق
وإن فتاة الحي خرما بحالها تروح وحدها من غير تعويق
رد الفتى أبو زيد سلامي اصغي لقولي يا حسن وفيق
أما فتاة الحي خرما زوجتك وفعلك معها الآن لا يليق
حتى لا أحد يلومك منهم وكن في كل الأمور رفيق

أما حسن فأبعد خرما وسليمان من اليمن لقلعة القنفذة فصارت خرما تلوم سليمان وسليمان يلومها ثم قالت: ليس لنا شفيع سوى أبي زيد فأرسلت إليه ذاك القصيد.

قصة الملك الكوكبي وحروبه مع بني هلال وزفاف الأمير سليمان على بنت الأمير حماد ومصرع ملك الهند جراد وقصة الكركند

قالت فتاة الحي خرما التي شكت بدمع جرى من مقلتي هتان
مني السلام على الأمير سلامة سلطان حاكم في بني زحلان
إن الفتى حسن ابن عمك أهانني وأمر بإبعادي عن الأوطان
طردني أنا وأخي من بلادنا وجار علينا وما بقي لنا شأن
فإن كان غيظه لأجل نديمه نعطيه فديته ذهب رنان
وإن كان يرغب غير ذلك قل لي وخلصني يا سلامة من الأحزان

وكتب أخوها سليمان يقول لأبي زيد:

يقول سليمان الحزين الذي شكا بدمع جرى فوق الخدود سكيب
سلامي على أبو زيد سلامة سلام محب من فؤاد كئيب
أبو زيد يا كاسب القول والثنا يا من ظني فيك ليس يخيب
تشفع بنا عند الهلالي أبو علي يعفو عنا والعفو منه قريب

فلما فرغ من كلامه طوى كتابه وكتاب خرما وأرسلهما لأبي زيد فلما قرأهما دخل على السلطان حسن وتشفع بهما وأخرجهما من السجن فدخلت خرما لسرايتها وزينوا قصرها بأنواع الزهور ودخل سليمان إلى الديوان وسلم على السلطان حسن وأبي زيد وديباب والقاضي بدير فترحبوا به وسامحوه على هفوته وصالح السلطان خرما. وفي ثاني الأيام قال سليمان للسلطان حسن: كان والدي قبل وفاته خطب لي ابنة الأمير حماد حاكم سواكن وأعطاه المهر وعقد عقادي عليها وقبل العرس بأيام قليلة أسرني المجوس وخلصتني أنت وقد بلغني أن الأمير حماد مراده يزف ابنته لسلطان الهند جراد فلي الأمل أن تخلصها لي من ذلك الملك الطاغي فوعده السلطان حسن خيراً وأعلم أبا زيد فقال له: أرسل كتاباً إلى

حماد وتطلب منه أن يزف ابنته إلى زوجها الأمير سليمان وننتظر منه الجواب، فاستصوب السلطان حسن رأي أبي زيد وكتب للأمير حماد هذا القصيد:

يقول الفتى حسن الهلالي أبو علي ... ونيران قلبي زادت لفاح
نعم أيها الغادي على متن ضامر ... تطوي البراري سهلها وبطاح
إذا جيت أرض سواكن وبلادها ... تجد بها قرما من الرجاح
فسلم على سلطانها وأميرها ... الملك حماد من أفضل الصلاح
وقل له حسن الهلالي يقول لك ... كلاماً صحيحاً ليس فيه مزاح
بأن الملك نعمان قبل موته ... أخذ بنتك لابنه بعقد نكاح
وأعطاك منه مهرها وسياقها ... وصارت زوجة سليمان صاح
وما السبب حتى تزفها لغيره ... فهذا ما هو من سيمة الإصلاح
فإن كنت تفعل الردى فتندم ... أجيك على خيل كما الأرياح
وهذا كتابي لك رد جوابه ... إن كنت طالب سلم أو راد كفاح

ثم طوى الكتاب وأرسله مع نجاب فأوصله إلى الأمير حماد فلما قرأه اعتراه الخوف وقال لوزيره: ما العمل وقد وعدنا بها الملك جراد وبذلك نكون قد وقعنا بين خطرين عظيمين خطر جراد وخطر السلطان حسن؟ فقال الوزير: الرأي عندي أيها الملك أن تخدع السلطان حسناً بأن نقول له: إن العروس مجهزة وهي بانتظار حضور جلالتكم لتزفوها إلى الأمير سليمان ثم أرسل كتاباً لجراد وقل له أن يأتي بجيشه وعساكره؛ لأن مراد السلطان حسن أن يزوجها لسليمان فإذا حضر السلطان حسن وقومه وحضر جراد وجماعته يشتبكون معاً في حرب تشيب منها الأطفال فلما انتهى الوزير من كلامه أعجب الملك حماد برأيه ومشورته فكتب للملك جراد الهندي كتاباً يلح عليه بالحضور لأخذ ابنته قبل أن يأخذها سليمان وكتب كتاباً إلى السلطان حسن قال فيه: لما أسر سليمان ظننت أنه قد مات، ولكن لما عرفت أنه في قيد الحياة أبقيتها له لأنه أحق بها من أمير الهند الذي يريد أن يأخذها بالقوة ثم أرسل لكل منهما كتابه فلما قرأ السلطان حسن الكتاب قال لأبي زيد: إن الأمير حماداً موافق على إعطاء بنته لسليمان فخذ سليمان وبعضاً من الأمراء وأحضروا العروس فقال أبو زيد: إن الملك حمّاداً أرسل لك المكتوب وهو منتظر قدومك إليه فخذ معك ثلاثة آلاف فارس من الشباب لأجل المحافظة وخذ معك خرما وبعض النساء وأحضروا العروس ولا معنى لذهابي أنا معكم إلا إذا حصل تنافر أو خصام أو حرب عند ذلك أمر السلطان حسن بركوب بعض فرسان اليمن، فاعتقلوا الرماح وتقلدوا بالسيوف ونشروا الرايات وركبت خرما ومن معها من البنات ودقت

الطبول وزغردت النساء وساروا حتى أشرفوا على وادي سواكن فخرج حماد وأعوانه لاستقبال السلطان حسن فسلموا عليه وأدخلوه في موكب عظيم وأنزله الأمير بسرايته وأظهر السرور والابتهاج بقدوم السلطان حسن وأضافه ضيافة تليق بالملوك فشكره السلطان حسن وقال له: إننا نريد العودة إلى بلادنا في الحال فأين العروس؟ فقال حماد: إن العروس لها مصالح وأمور النساء كثيرة لا تتم بهذه السرعة فناموا هذه الليلة عندنا وغداً يكون كل شيء على ما يرام فقبل حسن وباتوا عندهم تلك الليلة. وفي الصباح ركب حسن مع جماعته وركبت العروس في هودجها وركبت البنات والنساء، أما الأمير حماد فأعطى سكيناً ماضية لجارية وأركبها مع العروس وقال لها: إذا التقى العسكران في القتال اقطعي حبال الهودج وأنزلي العروس إلى الأرض وكانوا زينوا الهودج بالديباج والحرير وصار أهل العروس يدورون حول السلطان وهو يعطي الجميع من الذهب، وفعلت النساء كذلك مع خرما أخت العريس فأعطت كل ما معها من المال ولما توجهوا طالبين اليمن تكدر الجو وارتفع الغبار إلى السماء وظهرت الفرسان والأبطال معتلين الخيول مثل فروخ الجان عند ذلك صاح السلطان بقومه عليهم أيها اليمانيون أظهروا همتكم وشجاعتكم وبطولتكم؟ لأن عساكر الهند يستعدون علينا ويأخذون منا العروس وقال للعبد ساري: أسرع وأدركني بابن عمي أبي زيد فسار العبد كأنه الطير إذا طار حتى وصل إلى ربوع بني هلال وأخبر أبا زيد وبني هلال بما صار أما اليمانيون فإنهم استقبلوا عساكر الجراد بضرب السيوف وطعن الرماح وجال السلطان حسن في الأعداء جولة أذهلتهم فقد قوم السنان وأطلق العنان وانطبق على الفرسان وفرق الخيل في الميدان ودافع عن العروس والنسوان وفتكوا في ذلك اليوم بالأعداء فتك النسور والعقبان ولكن كثرة جنود جراد أرغمت اليمانيين على التراجع، فلما رأت الجارية انكسار اليمانيين قطعت حبال الهودج وأنزلت العروس إلى الأرض فصرخت العروس وولولت النساء فصاح حسن بقومه اربطوا الهودج فربطوه وأعادوا إليه العروس فصاحت فيهم اقتلوا هذه الجارية فهي التي قطعت الحبال ورمتني إلى الأرض، فضربها الأمير غنيم بالسيف فقطع رأسها وكان قد أمسى المساء وخيم الظلام فتوقفوا عن القتال أما السلطان حسن وجماعته فتحصنوا في تل وبنوا الأحجار وحفروا الخنادق وأخفوا العروس والنساء وانتظروا بزوغ الشمس مدافعين عن أنفسهم ونسائهم. وفي الصباح هجم عليهم الأعداء فصاروا يقذفونهم بالأحجار والنبال من وراء الأحجار ومن قلب الخنادق وقتلوا من رجال الهند ما ينوف عن ألف فارس ولما رأى جراد ما حل بقومه غار على السلطان

حسن والتقى البطلان كأنهما جبلان وتقاتلا قتالاً شديداً. أما الأمير حسن فإنه حك الركاب بالركاب وطسه بالسيف على عنقه أطاح رأسه من بين كتفيه فلما عاين قومه ما حل بملكهم هجموا جميعاً على الأمير حسن ومن معه وضايقوهم وما زالوا في أشد قتال حتى كلوا من طعن الحراب وأيقنوا بالهلاك وفيما هم كذلك إذا بالخيل وصلت وفرس دياب أقبلت قبل الخيل وبعده فرس أبي زيد ثم خي بني قيس، وهجموا على الأعداء وفاجأهم بضرب السيف وقطع الرقاب وصاح دياب بالقوم اليوم يوم الطعان، أما أبو زيد فأدرك الأمير حسناً وانتشله من قلب المعركة وأركبه جواداً ثم حمل على الأعداء بقلب لا يهاب فنثر الرؤوس وأخمد النفوس وهاجت بنو قيس وتخاطفت الأعداء وجعلوا قتلاهم مكردسين وغنموا خيلهم وأسلحتهم والذي هرب نجا بروحه، أما أبو زيد ودياب والسلطان حسن فقد هنأوا بعضهم ثم ساروا إلى التل الذي فيه البنات ففرحن بالنصر ودارت كؤوس الشراب بين الأحباب وبعد أن استراحوا قليلاً نهضوا قاصدين العودة إلى اليمن وأخذوا المكاسب وساروا والنساء خلفهم تزغرد فلما أشرفوا على اليمن استقبلتهم النساء تزغرد والرجال تغني وترقص، ولما دخل حسن إلى سرايته قامت الأفراح وزالت الأتراح وتقدمت الست ريما وأنشدت:

قالت ريما في بيوت رائعات ... قول ريما سجلوه بالكتب
اسمعوا لي يا بني قيس مقال ... عن وقائع شفت فيها العجب
التقانا القوم في أولهم جراد ... في عسكر من كل قوم منتحب
كلنا لولا حسن رحنا بلاش ... إنه فارس وعالي في النسب
انطبق علينا الجراد وجاء حسن ... طوحه في رأس مبروم الكعب
ما وقف عند العقيد إلا غنيم ... ساعف السلطان في الأمر الصعب
والرياشي ثم حماد الفتى ... جعلوا روس العدا مثل الحطب
وأبو وطفا دياب قد أتى ... شبه ذيب في البراري إن وثب
وأبو زيد على الحمرا هجم ... ليس مثله بين فتيان العرب

ثم تقدمت زين العرب وأنشدت:

زين العرب غنت في بيوت صادقات ... قولها ما فيه تدليس وزور
كلنا لولا حسن رحنا بلاش ... كان راح العرض منا والستور
رد نحو القوم وتلقا جراد ... طوحه والرمح في جنبه يغور
والرياشي وابن غانم هاجمين ... سببوا للقوم دكات الصدور
ثم أتانا ذلك الزغبي دياب ... فارس الهيجا وقطاع الظهور
وأبو زيد أتانا في الوغى ... مع بني قيس كما الليث الجسور

شـتـتـوا الـقـوم عـنـا بـالـفـلا بـددوهـم بـالـسـهـول والـوعـور
ثـم عـدنـا لـلـمـديـنـة بـالـهـنـا فـارحـات دالـعـات كـالـبـدور

فلما فرغت زين العرب من غنائها قال الأمير حسن لأبي زيد: أحضر الحلاق وقل له يحلق ذقن كل من تخلف عن القتال وهرب من الكفاح والنضال، ففعل كما أمره السلطان ثم قامت الأفراح وعقدوا عقد ابنة الأمير حماد على الملك سليمان وطابت لهم الأوقات. أما المكسورون الذين ساروا للهند هاربين فإنهم دخلوا على الملك الكوكبي ابن عم الملك جراد وكان يحكم على عشرات الكرات وعلى ألف فيل فأعلموه بمصرع جراد، وبانكسار جيشه فغضب غضباً شديداً وأمر باجتماع الأبطال وأن يجهزوا الأفيال ويستعدوا للنزول بأرض اليمن لأخذ الثأر ووصلت الأخبار لليمن، فأمر حسن بجمع الأمراء وأنشد:

يقول الفتى حسن الهلالي أبو علي أبـو زيـد اسـمـع يـا أمـيـر كـلام
يـقـولـون سـلـطـان الـهـنـود لـقـد أتـى وحـولـه رجـال مـثـل بـحـر عـام
قـد شـاع عـنـه أنـه سـار نـحـونـا قـاصـد خـراب بـلادنـا بـالـتـمـام
وجـايـب الأفـيـال تـوقـي عـسـاكـره إذا الـتـقـيـنـا وسـط سـوق خـصـام

فلما فرغ السلطان حسن من كلامه عاد في حساب وأمور صعاب ولما اشتهر الخبر عند العرب والحضر قال الأمير حسن: إن الخطر يحدق بالعرب وعباد النار كثيرون فإذا زحفوا يستولون على البلاد فقال أبو زيد: يجب علينا أن نجمع العساكر والجنود ونرسل من يكشف لنا أخبار ذلك الطاغي المكار ويعود إلينا بالخبر الشافي، قال حسن: من يذهب منكم يا أجواد فما أحد أجاب عند ذلك قال أبو زيد: أنا فداك وأرد لك أعداك ثم أنشد:

قـال أبـو زيـد الـهـلالـي يـا حـسـن إنـنـي فـي كـل عـلـم أعـلـم
بـعـون رب الـعـرش جـل جـلالـه ربـي تـعـالـى حـي وبـاقـي دائـم
أعـمـل أنـا هـنـدي وألـبس مـثـلـهـم أمـضـي إلـيـهـم بـالـفـلا وأسـلـم
أرى أن حـالاتـهـم وصـفـاتـهـم والـكـوكـبـي كـافـر أو مـسـلـم
فـاكـتـب إلـى أبـيـك أنـت رسـالـة وأنـا أكـتـب لأبـي وأفـهـم
وديـاب يـرسـل لأبـيـه رسـالـة كـذلـك الـمـاضـي فـيـأتـوا يـقـحـمـوا
وأنـت حـاكـم بـالـيـمـن وجـنـودهـا اجـمـعـوا كـل الـجـنـود وعـمـمـوا

فلما فرغ أبو زيد من كلامه شكره السلطان والحاضرون على حسن اهتمامه وكتبوا المكاتيب وأرسلوها لسائر الجهات يطلبون النجدات ثم ودعهم أبو زيد وسار إلى بيته، وكان قد تعلم من صغره سبعين لغة فصبغ جسده وارتدى بدلة

هندي وحمل القدح والعكاز وعاد للديوان وتكلم بلسان الأعجام فما أحد عرفه ثم قال: ودعتكم يا أبطال فتعجبوا من هيأته وودعوه. فسار يقطع الفيافي والقفار مدة عشرة أيام وكان معه جراب فيه تمر ومطرة ماء يشرب منها وكان لا يشرب من المياه التي يراها في طريقه خوفاً من سم الأفاعي التي كان يسمع صوتها ويراها تمر أمامه، فخاف أبو زيد منها وهو وحده في ذلك البر الموحش ورأى رجلاً مقبلاً عليه بملابس خضراء فقال: السلام عليك يا أبا زيد يا بركات قال أبو زيد: وعليك السلام والرحمة ولكن من أين تعرفني فقل لي من أنت؟ قال: أنا الخضر أبو العباس فلا خوف عليك ولا بأس ففرح به أبو زيد وقبل يديه ثم قال له: من أين أنت قادم؟ قال: كنت في جبال سرنديب وكنت عند مقام أبينا آدم عليه السلام فقال له: ومتى أصل أنا إلى بلاد الكوكبي؟ قال له: أمامك سبعة وديان في كل واد أفعى عظيمة باستطاعتها أن تبلع جملاً فخذ هذه الحبات السبع فإذا هجمت عليك حية ارم واحدة في فمها فتهلكها حالاً وبعدها ترى الكوكبي وجيوشه عياناً وترى الأفيال وبظهورها الأبراج المحصنة بالرجال فقال أبو زيد: وكيف ننتصر عليه؟ فأجابه: يوجد حيوان هائل يقال له الكركند له قرن واحد، فقال أبو زيد: وكيف الوصول إليه؟ فأخرج الخضر حبلة وقال له: ضع هذه الحبلة في عنقه فيمشي معك مثل الغنم وإذا وقعت في ضيق فاطلب من اللَّه أن يرسل لك الخضر فأحضر حالاً وأخلصك من الهلاك ثم توارى الخضر واختفى، أما أبو زيد فاطمأن قليلاً وسار فأقبلت الحيات وفتحت فمها لتبلعه فألقى فيه حبة فماتت بالحال فحمد المولى الذي خلصه منها وكان يرى من الأهوال ما لا رأته عين ولا سمعت به أذن فأنشد يطلب من اللَّه العون والخلاص:

قال أبو زيد الهلالي يا معين ... يا إلٰه العرش رب العالمين
إن تيسر لي وتفرج كربتي ... بالنبي المختار بين المرسلين
أنت لي يا خالقي نعم المعين ... يا خالق الإنسان من لحم وطين
إنني يا مولاي في وسط القفار ... لست أدري اليسار من اليمين
فأزل عني إلٰهي كل ضيم ... وأعني يا معين العابدين

ثم سار أبو زيد يقطع الآكام فرأى سهلاً واسعاً فيه مياه وينابيع فجلس يستريح وإذ سمع ضجات وارتفاع أصوات ثم رأى الأفيال وهي سائرة أمام العساكر، فاختفى أبو زيد بين أشجار جوز الهند فصارت السعادين تضربه بجوز الهند ثم تسلل إلى أن دخل بين صواوين العساكر ورآهم حاملين ميتاً ألقوه في النار وتركوه يلتهب، فقال أبو زيد: أشهد أن لا إلٰه إلا اللَّه وأشهد أن محمداً رسول اللَّه فلما

سمعوه ينطق بكلمة التوحيد هجموا عليه وكتفوه وأخذوه إلى الملك الكوكبي، فقال له: من أنت وما دينك؟ فجاوبه بلسان الهنود قائلاً: أنا رجل مثلكم ولكني أعبد اللَّه الذي خلقني ورزقني وهو يطعمني ويسقيني، قال له: أما تعبد النار ذات الشرار؟ قال: أنا أعبد اللَّه الواحد الأحد رب الإنس والجان ورب البحر والبر، فلما سمع الكوكبي كلام أبي زيد قال لقومه: حطوه في نظع الدم فهتف أبو زيد قائلاً: إلٰهي أدركني بالخضر أبي العباس فوقعت ضجة بين العساكر وصاحوا قد دهمنا المسلمون بالعساكر فقال الكوكبي: دونكم وإياهم فتركوا أبا زيد في الحديد وفتشوا على عساكر المسلمين ليحاربوهم فما رأوا أحداً فقال أبو زيد في نفسه: إنه الخضر عليه السلام، فقد استجاب اللَّه دعائي وها هو أقبل وتقدم الخضر عليه وفك أبا زيد من الحديد فانطلق يعدو في طريقه لأداء مهمته ورأى في طريقه وادياً مملوءاً بالحيوانات المتوحشة فصعد إلى جبل عال فيه عين ماء فشرب وملأ المطرة ثم سار وهو يقول: يا دليل الحائرين ومرشد التائهين فأشرف على قرية وسلم على أهلها فردوا عليه السلام وأكرموه فنام عندهم ليلة ثم سألهم لماذا تغلقون أبوابكم باكراً وكأنكم خائفون؟ فقالوا: يوجد أفعى هائلة تبلع الحيوان والإنسان تجيء إلى العين تشرب منها وتسمم الماء فيأتي بعدها الكركند يغط قرنه بالماء فيزول السم ويشرب ثم يذهب ونشرب بعده، فقال: إذا خلصتكم من الحية فهل تساعدوني في القبض على الكركند؟ قالوا: نبذل جهدنا فذبح أبو زيد عشر عنزات وملأ جلودها كلساً وأبقى الرؤوس والمقادم عالقة وأوقفها قريباً من العين ولما أقبلت الأفعى هرب الناس وأغلقوا الأبواب فلما رأت الأفعى العنزات فتحت فمها مثل المغارة وابتلعت العنزات العشرة ثم شربت من العين وسمعت الماء فاشتعل الكلس في جوفها وقطع أمعاءها فصارت تصيح من الألم وتقوم وتقعد وتتخبط وتتلوى إلى أن ماتت ففرحوا بموتها فرحاً عظيماً وشكروا أبا زيد وقبلوا يديه فقال: لنقبض على الكركند فقالوا: أرواحنا فداك فأمرهم أن يحفروا حفرة كبيرة ويغطوها بقش وتراب، ففعلوا فلما أقبل الكركند غط قرنه بالماء وشرب ودار حول العين فوقع في الحفرة فرمى عليه أبو زيد حبلاً وقاده ذليلاً فشكره أهل القرية وأكرموه ثم ودعهم وعاد قاصداً بلاد اليمن وهو يقطع الجبال والوديان ليالي وأياماً حتى أشرف على بلاد العرب، فلما عرفوا بعودته سالماً فرحوا به وركب بنو قيس واستقبلوه مع الأمراء والأعيان وسلموا عليه وقبلوه بين عينيه والتحمت حلقات الرقص وارتفعت الزغاريد حتى أوصلوه إلى بيته فوضع الكركند في مكان وأطعمه وسقاه وأغلق عليه الباب ثم غير ثيابه وذهب للديوان وسلم على السلطان حسن وباقي الأمراء فأخذوه

بالأحضان، فقال له الأمير حسن: هات ما عندك من الأخبار عن الكواكبي وعساكره، فأخبرهم بجميع ما جرى معه وما قاسى من الشدائد والأهوال فاطمأنوا قليلاً واستبشروا بالنصر على الملك الكوكبي وأمر السلطان حسن بالاستعداد لحرب الكوكبي فاجتمعت العساكر من جميع الجهات وفي أولهم الملك سرحان أبو الأمير حسن وغانم والماضي ورزق فرحب بهم حسن وأبو زيد ودياب ودقت الطبول واعتلت الفرسان ظهور الخيول وسار الأمير دياب على أهل اليمن ومعه عسكره ومشى أبو زيد مع خمسة آلاف فارس وهو قابض بيده على الكركند وساروا أياماً وليالي حتى التقوا بالقوم والأفيال أمام العساكر وعلى ظهورها أبطال مسلحون، فلما رأوا الكركند ارتاعوا من منظره ووقفت الأفيال خوفاً منه لأنه صار يهمهم ويتحفز للوثوب عليها فرجعت الأفيال إلى الوراء عندما أطلق أبو زيد الكركند فانطلق عليهم كالرعد القاصف يدمدم ويزعق فجفلت الأفيال وارتدت إلى الوراء فوقع الراكبون عليها ودعست الأفيال على العساكر وقتلت كثيراً منهم وولت هاربة فلما رأت بنو هلال أفعال الكركند هجموا مع أبي زيد على الأعادي بطعن الرماح وقطع الرؤوس، وفتكوا بعساكر المجوس فتكاً ذريعاً وصمدت عساكر المجوس والتقت الرجال بالرجال والأبطال بالأبطال واشتد القتال ودام إلى المساء فدقت طبول الانفصال وافترقوا عن بعضهم. وفي الصباح اصطفت الصفوف وترتبت المئات والألوف ونزل الملك الكوكبي إلى الميدان وطلب مبارزة الأبطال فلاعب أبو زيد الحمرا وأراد أن ينزل إليه فسبقه الأمير دياب وصدم الكوكبي صدمة تقرب الآجال وصاح به أنا الأمير دياب حذاف الرقاب وضرب الكوكبي بعود الزان أخذه بترس البولاد ثم ارتد على الأمير دياب وضربه بالسيف ضربة صامدة إلا أن دياب رمى نفسه إلى الأرض فأراد الكوكبي أن يعدمه الحياة وإذا بالأمير أبي زيد هجم على الكوكبي وصاح أتاك أبو زيد البطل الرئبال فترك الكوكبي دياب والتفت إلى أبي زيد واشتبك معه بضرب وطعن يقصف الأعمار حتى شخصت لهما الأبصار واحتارت من قتالهما عساكر الفريقين وداموا في قتال وعراك مدة عشرة أيام وبعدها انتصر أبو زيد على الكوكبي وضربه بالسيف فتلقى الضربة بالترس فثنى عليه أبو زيد بالرمح وطعنه في صدره خرج يلمع من ظهره فوقع على الثرى فاقد الحياة عند ذلك هلل المسلمون وكبروا وأطلقوا الغارة على الأعداء فوقع فيهم الرعب والفزع وهجم دياب بالسيف القرضاب وطير الهامات وبرى الرقاب. أما حسن بن سرحان والماضي ورزق والقاضي فهجموا مع عساكرهم على الأعداء وضيقوا عليهم فسيح المجال وأوقعوا بهم الذل والخبال إلى أن شتتوهم في البراري والجبال تاركين

وراءهم الذخائر والصواوين والخيل والأسلحة وتبعهم بنو هلال حتى أوصلوهم لبلاد الهند فتشكل وفد من الأعداء وخرج لمقابلة بني هلال طالبين الصلح والسلام فرفع بنو هلال عنهم الحصار ونادوا بالأمان من سبي الحريم والنسوان ثم دخلوا لسراية الكوكبي وغنموا خزائن الأموال ونصبوا صيواناً للسلطان حسن فاجتمع حوله الفرسان يهنئونه بالنصر والفوز على الأعداء وجلس حسن يكتب لأبيه سرحان يخبره عما جرى له في بلاد الهند.

فلما انتهى من كتابة الرسالة أعطاها لنجاب فلما وصل سلم عليه وأعطاه الرسالة فقرأها ففرح وانسر المسلمون بهذا النصر العظيم وبعد أن قرر السلطان حسن أحوال بلاد الهند وضع على سرير الملك الأمير شوبان ابن أخت الكوكبي بشرط أن يدفع كل عام خراجاً معلوماً من الأموال ثم أمر بدق طبل الرحيل فركب السلطان حسن وأبو زيد ودياب والهلاليون وأخذوا معهم ما خف حمله وغلا ثمنه من الجواهر والغنائم وعادوا إلى بلادهم، فوصلوا إلى الأمير غانم ورزق وسرحان الذين حرسوا الأموال في المكان الذي قتل فيه الكوكبي وهنأوا بعضهم ثم ساروا جميعاً إلى بلاد اليمن وأرسلوا خبراً إلى سليمان أخي خرما بقدومهم فخرج أهل صنعاء وعدن لاستقبالهم ودخل حسن السرايا وعلى رأسه تاج تبع اليماني، وصارت النساء تزغرد والشباب يرقصون ثم ذبحوا الذبائح وأطعموا الغادي والرائح ثم طلب الأمير غانم والسلطان سرحان والقاضي بدير من السلطان حسن أن يعودوا لبلاد السرو فودعوه وانصرفوا.

قصة شراية الخضرا فرس دياب وقصة فوز بنت الهيدبي ورجوعها إلى ابن عمها بدر العقيلي

(قال الراوي) وبعد هذه الحروب التي ذكرناها في قصة الملك الكوكبي استمر السلطان حسن أربع سنين يتعاطى الحكم في بلاده بحزم ودراية، فاشتاق أن يعود لبلاد السرو فقال لأبي زيد ودياب عن هذا السفر فاستصوبوا رأيه واستعدوا للسفر وأرسل حسن كتاباً لوالده سرحان في بلاد السرو يعلمه فيه برجوعه ثم ركب الهلاليون ومعهم الملكة خرما وأخوها سليمان وولوا على اليمن رجلاً يقال له الإمام ثم سار حسن برجاله حتى وصل إلى بلاد السرو فاستقبلوه استقبالاً عظيماً ومكث في بلاد نجد بأمان بين الأكابر والخلان، وطاب له الزمان إلى أن أقبلت عليه سنوات المحل فانقطع المطر ويبس الغصن فكانوا لا يجدون طعاماً والأولاد تبكي والنساء تشكي. وفي هذه الأثناء حضر دلال ومعه فرس كحيلة أصيلة خضراء، فصار يدلل عليها فاجتمعت عليه الأبطال فأنشد يمدح الفرس ويبين محاسنها:

يقول الدلال سعد بن كامل ... معي شهبا لمن يشتري ويزيد
بحافر كما الدينار مرفوعة الحشا ... لها سرج عالي فصلوه جديد
أبوها الطوسي سيد الخيل كلها ... وكان مشتراه بألف ألف نقيد
فتح بابها حسن الهلالي أبو علي ... بميتين ناقة من نياق البيد
وميتين حمرا يا مير كرامتك ... ومية عبد للخيول تقيد
ناداه يفتح المولى يا أبو علي ... ريت عمرك يا هلالي مديد
تقدم أبو زيد الهلالي سلامة ... وغار عليها من مكان بعيد
وجدها مهره ما حوى الدهر مثلها ... خضرا أصيلة من خيل الوليد
قال ادفع أنا فيها مية ناقة ... وميتين سابق جريها شديد
وميتين سيف يا مير مجوهر ... وميتين درع جيد التزريد
وميتين حمرا لم يوجد مثلها ... وميتين هودج مع جملة عبيد

فقال الدلال يفتخر فيها وبعد ثمنها يا هلالي بعيد
وكان دياب الخيل بالصيد غايب يقنص إلى وحش الفلا ويصيد
فراح له العبد بالحال خبره وإلا دياب الخيل أتاه ركيد
فقال له يا سعد باللَّه قل لي فما لك تترك حمانا وتجي للبيد
هل أتى خطار لفوا لبيوتنا وإلا فوارس للحروب تريد
فقال خضرا قد أتت لنجعنا وإلا جواد فيها تشتري وتزيد
فروح اشتريها يا دياب وجيبها تفتخر فيها وتعيش سعيد
راح دياب للحي رايد يشوفها ويشوف مزادها عله يستفيد
فقال يا دلال تعال وقول لي وخبرني خبر صحيح أكيد
من أين جبت هذه الأصيلة ومين فارسها على التحديد
فقال عمي الهيدبي واسمي سعد واسم أبوي يا أمير مزيد
وهذي الفرس للخداش بن مفضل واللَّه أمانة من أمير زبيد
جبتها للبيع سبب موت سيدها بحكم اللَّه مات وراح فقيد
سمعت بصيتك يا دياب بن غانم بأنك صميدع فارس صنديد
إن سمعت شورى يا دياب خذها تجيب غزال البر قبض الأيد
فقال دياب خذماية ناقة ومثلها وميتين شهبا من خيول البيد
وميتين سيف قبضتها جواهر وميتين درعاً للطراد تفيد
وخذ لك جاريتين بعيون نواعس يغنوا على الأوتار بفن جديد
وألفين دينار يكونوا دلالتك بارك لنا فيها أيا عربيد
فقله هات ثمنها وهات دلالتي اللَّه يبارك بها ألك يا سيد

(قال الراوي) أعطى دياب إلى الدلال ثمن الخضرا ودلالته وصرفه مكرماً معزوزاً مجبور الخاطر، أما دياب فأحضر سايساً ماهراً يسوس الخضرا، وأما الأمير حسن وأبو زيد فباركوا لدياب بالخضرا وقال أبو زيد: إن دياب يستاهل الخضرا أما دياب فانتخب عشرة رؤوس من الخيل الأصايل وأمر أن يركبوها عشرة فوارس فامتثلوا أمره وركبوا وساروا بها مقدار ساعتين، ثم اعتلى دياب على الخضرا وسار بها خلفهم وصاح صوتاً دوت له الجبال ومر عليهم مرور البرق وسبقهم وغاب عن أنظارهم فساروا على أثره فما وقفوا له على أثر فرجعوا إلى الحي وأخبروا أهله فحزنوا عليه وسبب غيابه أنه مرت أمامه غزالة فجد في طلبها إلى المساء، فرأى أطناباً منصوبة على رابية فصاح يا سكان هذا المكان فما أجابه أحد فأنشد يوقظ من فيه:

يقول الفتى الزغبي دياب بن غانم وقلبي تقسم في فؤادي قسايم
يا راعي البيت المشرع في الخلا أنت يقظان وإلا عالتخت نايم
إن كنت تهوى النوم ما فيه فائدة ترى النوم يصلح للرجال البهايم
أنا جيت ضيف يم بيتك بلا خفا من الصيد جوعان ومرخي العزايم
ودايرٍ أنا على الصيد في البر والخلا على ظهر خضرا مثل ريح النسايم
أعطني خبزاً وماء أطفئ به الظما وديكاً عليه السمن طافح وعايم
أخبرني لمن هذا البوش كله ومن هو الذي على البوش حاكم
مقال الفتى الزغبي دياب بن غانم لي عزم أمضى من رهيف الصوارم

فلما فرغ من كلامه كانت فوز تسمع نظامه فتعجبت لأنها لا تعرف غير سعيد صاحب الصيوان وكان هذا العبد عصى على سيده الهيدبي وكانت بنته هذه آية في الحسن والجمال، خطبها منه الأمير بدر بن راجح، ولما أرسل ليأخذها مع قومه كان العبد سعيداً رابطاً لهم في الطريق ففاجأهم بصوته المرعب ساحباً سيفه البتار ومال عليهم يضربهم فخافوا منه وتركوا له البنت فأخذها وسار بها في البر ونصب هذا الصيوان وحطها فيه وراودها عن نفسها طالباً منها الوصال فصاحت به خسئت أيها النذل الموت ولا العار عند ذلك غضب منها وربطها حتى لا تهرب وتركها وذهب إلى الصيد وكل يوم يعذبها ويطلب منها الوصال فتأبى إباء شديداً إلى أن جاء الأمير دياب ووجدها مربوطة بالحبال وهي تئن من الأوجاع ففكها، وقال لها: من فعل بك هذه الأفعال؟ فأشارت تخبره بهذا القصيد:

تقول فتاة الحي فوز التي بكت بدمع جرى فوق الخدود سجايم
أيا من أتانا قاصداً لمحلنا لك الخير أبشر يا ابن الأكارم
أنا بنت الهيدبي بنت تغلب على سبعة ملوك يا أمير حاكم
جاءني الأمير بن بدير راجح خطبني من أبي وافي الذمايم
أخذني بهودج يا أمير حليلة إلى عند بعلي طالب الحي سالم
وإلا مفرج قد أتى من الفلا وغار علينا مثل صقر حايم
ارتد على الفرسان جندل خيارهم والباقين ولوا منه هزايم
وقال يا بنت جودي علينا بالرضا والوصال منك صار لازم
فصحت فيه تخسأ يا نذل يا ردي أبعد عني لا تكون ملايم

فقال دياب: لا بد أن أضرب هذا العبد وأخلصك منه وأردك إلى بعلك الأمير بدر، فلما سمعت منه ذلك خافت عليه من العبد وأشارت تحذره منه:

تقول فوز والنار علقت بالحشا ولا بد بعد الصبر من تيسير

وذا العبد تمساح البحر في الفلا وأنت وحدك ما معك نصير
وكم قهر فرسان في حومة الوغى وصيته ترى بين الرجال شهير
إن طعتني وسمعت نصحي وشوري ارجع إلى ربعك خليك بصير
وإن كان تقدر فرسك تشيلني خذني عليها يا أمير وسير
رد أبو موسى دياب وقلها الأعمار تمضي والسبب تقدير
ولا بد من قتل العبد بصارمي ولو كان طير بالسما يطير

ثم قال لها: مني علي بشربة ماء، فأحضرت له الماء فشرب وسقى الخضرا ثم أنشد:

يقول الفتى الزغبي دياب بن غانم لأني مهذار ولأني كذاب
ولي قلب أقوى من حسام إذا سطا أنا حامي الزينات في دز الحراب
أنا راعي الخضرا دياب بن غانم أمير بن أمير ابن ذي الأنساب
يا فوز لا تخافي العبد مفرج فما هو يشبه الأمير دياب
ولا بد هذا اليوم أقتل مفرج وأسقيه طعن يشيب منه غراب

فانشرحت فوز من كلام دياب وتحققت انتصاره على العبد، وفجأة ظهر فارس بالحديد غاطس فصاحت فوز هذا هو العبد مفرج فنهضت وأخذت الحصان والصيد الذي معه ثم رجعت فقال لها العبد:

يا فوز قولي الصحيح وأسرعي قد صار في وسط الحشا دخانا
يا فوز هل سمع هذا بذكرنا حتى أتى لحينا وحمانا
في غيبتي يأتي وينزل بيتنا مستحقراً قدري ولا يخشانا
يا فوز مرادي أقتله بالعجل ولو كان من أفرس الفرسانا
ردت فتاة الحي فوز يا فتى هذا ضيف أتانا وخش في حمانا
إن كنت تقتله وتبلغ مقصدك تسمع بك العربان يقولوا جبانا
فإن تسمع يا مفرج كلمتي دعه يروح ولا يشوف أحزانا

فعندها مشى العبد إلى دياب وأنشأ يسأله عن سبب مجيئه:

يقول الفتى المسمى الداعي مفرج أنا فارس الهيجا بيوم طراد
نعم أيها الآتي إلينا لحينا فمن أي أرض جيت وبلاد
إن كنت جاسوساً تجسس بلادنا وترجع إلى قومك على ميعاد
ما عاد لك رجعا ولا عاد لك نجا وعمرك ولى والعبد بالمرصاد
رد الفتى الزغبي دياب بن غانم لي عزم أقوى من صفا بولاد
أنا لي ثلاث أيام داير بالخلا فما جئت قاصد ولا رواد

لـقـيـت غـزالـة جـديـت فـي أثـرهـا حـتـى اخـتـفـت فـي هـذا الـواد
رأيـت هـذا الـبـيـت مـبـنـي ومـشـرع ومـرفـوع بـالأطـنـاب والأعـمـاد
فـجـئـت إلـيـه قـاصـد الـنـوم والأوى وأنـا جـوعـان أريـد مـنـك الـزاد

قال العبد: أهلاً وسهلاً بك، أما فوز فطبخت الصيد وأحضرت الطعام فأكل دياب حتى شبع وما أبقى للعبد أثراً للطعام فانحمق العبد منه وقفز إلى ظهر الحصان وطلب الحرب من دياب فصاح به دياب واشتبكا معاً في الحرب بضرب السيف وطعن الرمح وأخذا في الكر والفر وكان العبد أقوى من دياب، فشعر دياب بضعف في قواه فانسحب من بين يدي العبد بخفة وصاح يا فوز سأعود إليك بعد ثلاثة أيام، وأخلصك ثم غاب عن الأبصار فعلم العبد أن الفتاة متآمرة على قتله مع دياب؛ لأنه سمعه يقول لها: بعد ثلاثة أيام آتي وأخلصك فقال لها: يا خائنة اتفقت معه على قتلي فقالت له: هذا ضيف لا أعرفه ولا يعرفني فما صدقها بل عراها من ثيابها ودهن جلدها بالزفت والقطران وجلدها بالسوط وتركها مربوطة وذهب إلى الصيد. أما دياب لما وصل إلى أهله سمع البكاء والنحيب فعندما رأوه أبدلوا الحزن بالفرح وأتى الأمراء وسلموا عليه فذبح لهم الذبائح وأكرمهم وبعد ثلاثة أيام تقلد بعدة حرب وطاسة من فولاذ ورمح مكعب واعتلى الخضراء، فصار كأنه قلة من القلل أو قطعة فصلت من جبل وسار وحده يقطع الفيافي والقفار حتى أشرف على صيوان فوز فسمع صوت أنين صادر عن كبد حزين ويقول بصوت ضعيف: أين دياب سبع الغاب وأين فرسه الخضرا فتقدم دياب، فرأى فوز معلقة بالسقف ففكها وأنزلها إلى الأرض فأشارت تحكي له عما فعل بها العبد:

تـقـول فـتـاة الـحـي فـوز الـتـي شـكـت بـدمـع جـرى فـوق الـخـدود بـديـد
لما تركتني يا دياب أتى العبد وقللي أتـاك ديـاب لـلـوصـال يـريـد
قـلـت لـه هـذا ضـيـف أتـى لـمـحـلـنـا فـكـذبـنـي وضـربـنـي ضـرب شـديـد
أنـا خـائـفـة يـا أمـيـر يـأتـي مـن الـخـلا يـصـيـبـك مـنـه الـبـلا وتـنـكـيـد
يـا أمـيـر بـشـرنـي يـا أمـيـر قـل لـي عـسـاك تـقـتـلـه ونـرتـاح مـن الـتـهـديـد
رد الـفـتـى الـزغـبـي ديـاب بـن غـانـم ونـيـران قـلـبـي زايـدات وقـيـد
يا فوز أقللي النوح والحزن والبكا وخـلـي الـنـكـد عـنـك مـع الـتـعـديـد
أنـا فـارس الـفـرسـان قـرم غـشـمـشـم أنـا مـهـلـك الأبـطـال قـرم عـنـيـد
فـلا بـد مـن قـتـل الـعـبـد مـفـرج ولا بـد أيـام الـسـرور نـعـيـد

فلما انتهى الأمير دياب من كلامه أقبل مفرج ولما رأى دياب عند فوز اغتاظ وزمجر وكشر عن أنيابه وأشارا يتخاصمان بهذا القصيد:

يقول الفتى الزغبي دياب بن غانم الأيام بها الدنيا لها تنكيد
نحنا في طيب الكلام ونشوته وإلا أتانا العبد سعيد
ركبت على الخضرا وصرت قباله وكانت عيونه كالشرار تقيد
وصاح يا بدوي ما أصل مجيئك فيا هل ترى مني أيش تريد
فصحت فيه يا عبد يا تمن العبا لخلي جئتك فوق التراب رقيد
وجاني وجيته وانطوى البعد بيننا وعاد لنا فوق الخيل ترديد
تحاربت أنا وياه من الصبح باكر إلى الظهر في ضرب وفي تهديد
واعتلى رنين السيف بيني وبينه كما طراق يطرق على الحديد
فصاح حصاني كل من الوغى وقلبي تقطع من طراد البيد
وقال وقف القتال بيني وبينك بكره الضحى تنشي حرب جديد
ضربته بسيفي ضرب ماكن انقطع زنده من عند الأيد
والعبد شاف الدم راح هارب وطلع مولي في الجبال شريد
وعدت يم فوز بالسرور والهنا وقلوبنا في فرح وفي تنشيد
وكان اطمأن قلبي لما قطعت يمينه وعلمت أنه ذل بعد قطع الأيد
فقالت يا أمير كمل جميلك وديني لأهلي عساك تفيد
ركبت على الخضرا وسرت أمامها وساحب زمام الفرس بالأيد
فقلت لها يا فوز خيل أقبلت وأنا وحدي ما معي سنيد
قالت هم عربان وكل قرايبي وهذا أبي الهيدبي أكيد
ترى سعيد العبد أردى كبارهم وما زال كايدهم بيوم وعيد

فقال دياب: يا فوز هؤلاء الرجال مرادهم القتال والطعن والنزال فلا بد أن أمحي كبارهم ولا رحم اللَّه أباك وجدك، فقالت: ولماذا يا دياب ضاع الجميل معك فقال: إن العبد سعيد لما هرب قال لسيده بدر: اعلم أني كنت مقبلاً ومعي سيدتي إلى هنا فرآني دياب بن غانم وأهانني وقطع يدي. فلما سمع بدر هذا أمر بدق الطبل فاجتمعت رجاله وأمرهم بالركوب فركبوا وساروا في البر إلى أن رآهم الأمير دياب فأنشد هذه الأبيات:

يقول أبو موسى دياب بن غانم يا فوز قد ضاع الجميل أكيد
وكان مجيء بعلك له سبب وقف صف الراوي وقال قصيد
سعيد العبد راح وأعلمه وقال له اسمع قولي ألا يا سيد
أنا كنت جايب ستي إلى هنا أعيش أنا معكم في ترغيد
فلاقاني الأمير دياب بن غانم راكب على خضرا كبرج مشيد
وغار علينا غيرة السبع بالفلا وخلى دمائي على التراب تزيد

فلما سمع هذا القول عن ابن غانم جمع الأبطال من قريب وبعيد
قال ما الخبر يا تاج عزنا ايش علام الطبل يا صنديد
فقال لهم يا عزوتي وقرايبي سيروا بنا في برها والبيد
نلحق دياب الخيل في واسع الفلا وحقق دياب الأمر بالتأكيد
ولما رأتهم فوز أتت هالعة ودمعها يجري كسيل بديد
وصاحت سلامي على العرب أهل النسب كبار الحسب بيوم نكيد
يا ناس ضليتم وذهبت عقولكم وما بقي فيكم غلام رشيد
ولو كان فيكم شهم ما كان عيدكم ابن الأمة يحظى ببنت السيد
ولولا الأمير دياب بن غانم لكان عرضي يا رجال بديد
فقال بدر العقيلي أقول لكم دياب بن غانم صاحب التمجيد
فواجب إكرامه يا ربع يجينا ما في الحلال عيب يا صنديد
فقال لا وحق من رفع السما أنا أريد ناموس الرجال يزيد

فلما تحقق بدر أن دياباً خلص بنت عمه فوز وأتى بها سالمة من النوائب أخذ دياباً معه وسار إلى الحي فاستقبلهم قوم بدر وسلموا عليهم وعلى الأمير دياب وأضافوه ثلاثة أيام أما بدر فعمل فرحاً عظيماً ودخل على بنت عمه فوز وعاش وإياها في فرح وسرور وبعدها ركب دياب وعاد طالباً بلاده، أما العبد لما انفضح أمره هرب واجتمع بعبيد يقطعون الطريق فصاح بهم آه يا بني عمي انظروا كيف قطع يدي رجل أشقر اللون معه أموال كثيرة ولا بد أن يمر من هذا المكان فاقتلوه وخذوا أمواله. فبينما هم في الحديث وإذا بالأمير دياب مقبل عليهم فصاح العبد هذا هو دياب اقتلوه قبل أن يهرب وخذوا منه الأموال والتحف الغوال أما دياب فتذكر أحبابه وخلانه ولم ير العبيد فصار يغني:

نسيم الصبا إن سرت بلغ سلامنا لنحو الذي ساكن بقلبي ومهجتي
وعرفه فينا يا نسيم وإنني أقضي الليالي بالسهاد ووحشتي
أعد نجوم الليل شرقاً ومغرباً وأجعل عد النجم في الليل شغلتي
ولا لي من أشكو إليه بما جرى ولا من يقاسمني عظائم حرقتي
وقد كان محبوبي أنيسي منادمي مقيمين في عيش هنيء ونعمة
فغادرني دهري المشوم بغدره وفارقني والنار في السجم شبت
وأرجو إلهي أن يردني سالماً إلى وسط قصري في أعز مسرة

وفجأة هجم عليه العبيد من كل جانب ومفرج العبد يحرضهم على القتال

فعند ذلك حرك الركاب وأطلق الخضرا على الأعداء كأنه القضاء المنزل وقطع الرؤوس وطير الكفوف وسالت الدماء وعلا الصياح وانتصر دياب على العبيد المناكيد فصاحوا الأمان الأمان وانسحبوا من الميدان وولوا الأدبار، أما العبد مفرج فإنه هجم على دياب وأنشد:

يقول الفتى المسمى سعيد ونيران قلبي زايدات وقيد
والله لأقطع رأسك بسيفي ولا عدت بعمرك تكون سعيد
دخلت بيتي وما خفت سطوتي وما تعلم بأني فارس صنديد
أنا الفارس المذكور في يوم غارة أنا البطل المشهور أنا العربيد
فدونك الميدان بيني وبينك واليوم تذوق البلا من سعيد

ثم سحب المزراق وأراد أن يطعن فيه صدر دياب فضحك عليه وقال له: هذا المزراق لا ينفعك وأنت قابض عليه بيدك اليسرى، فما رد عليه بل طعنه بالمزراق فخلا عنها دياب راحت خائبة وانطبق عليه دياب وضربه على هامه حط رأسه قدامه وتركه يخور بدمه وسار في البر قاصد الفوز ورأى في طريقه وحشاً عظيماً هائل الجسم وعيناه تقدح بالشر فهاج وماج ووثب وثبة عظيمة بقوة وعزيمة على الأمير دياب، فصاح فيه دياب صيحة عظيمة وأنشد هذه الأبيات:

يقول الفتى الزغبي دياب الماجد ونيران قلبي زايدات اللهايب
أيا ذا الوحش لو تعلم بهمتي لتغذي على الأعقاب في البر هارب
أنا فارس البيدا حقيق مجرب ولا أنا من سطوتك بهايب
هذا اليوم لأدعيك مجندل وتجري دماك على الثرى سكايب

ثم ضربه ضربة قوية على عنقه فبترته ودحرجت رأسه على الحصى والتراب، ثم اجتمع بفوز وسار إلى نجوع الأمير بدر العقيلي ابن راجح فاستقبله استقبالاً عظيماً، فحكى له ما صار معه من الأول إلى الآخر فانسر منه وقدم له الطعام والشراب فأشار دياب يقول:

يقول أبو الفوارس دياب بن غانم والقلب مني مثل نار وقيد
رجعت العربان بعد الوداع للوطن وأنا وحدي ما معي سنيد
إلا وذاك العبد بان من الجبل وعينه تقدح بالشرار وتزيد
وقال رديتها يا دياب وجيتني لخلي المزراق منك يفيد
وجاني وجيته وانطوى البعد بيننا وعاد لنا وقت العجاج رعيد
ضربته بحد السيف طيرت هامه وأوردته بحد القنا توريد
وعبده شاف رأسه ارتمى وانصرع وقال أنا في عرضك يا سيد

فصحت فيه خذ رأس العبد وديه إلى الهيدبي سرعه بلا ترديد
واذهب لستك فوز بالحال قلها دياب لأجلك قضى العمر سعيد
فقال على الرأس والعين يا فتى ولا عاش من يخالفك يا سيد
وسار لسته فوز والبنات عندها ورمى الرأس بينهن على الشيد
فزلغطت فوز بالحال من فرحها واستقبلت دياب الفتى الصنديد

ثم أخذ دياب الرأس وسار به إلى أن أشرف على الديار، فأمر الخدم أن يعلقوه على عود الزان وأمر بني زغبي أن يلعبوا البرجاس وأمر البنات أن يغنوا وأمر بدق الطبل ففعلوا بما أمر وفرحوا واجتمع بنو هلال كلهم ورأوا رأس العبد معلقاً فانسر الأمير حسن وأكابر بني هلال وشكروا دياباً على بطولته وشجاعته وسألوه على ما جرى له فحكى مفصلاً وأقاموا على فرح وسرور وغبطة وحبور.

قصة الهيدبي والعقيلي حنظل

(قال الراوي) إن العقيلي حنظل أرسل كتاباً إلى الأمير دياب يهدده بالحرب والقتال إن لم يدفع عشر المال فأجابه دياب يقول:

يقول الفتى الزغبي دياب بن غانم وإني على ضيفي كما الصور دائر
وجانا كتابك يا عقيلي حنظل تقول تهيؤوا للحرب يا آل عامر
فاستعدوا للحرب إن كان تقدروا ولو كنتم عد الحصى يا فواجر
أنا مرعب الفرسان يوم غارة أنا دياب دوم على العدو غاير
تخوفني ماني من الحرب خايف وماني من الأوباش وأهل المساخر
تراني جيتك لا تقول غدرني ولاقيني للحرب إن كنت قادر

فلما فرغ دياب من كلامه طوى الكتاب وأعطاه للنجاب فأخذه وسار إلى أن وصل إلى سيده فأعطاه الكتاب، فلما قرأه كتم غيظه وصبر مدة حتى نسي عدوه الضغائن والعداء ثم جمع قومه في ليلة مظلمة وهجم على بني هلال وعمل الأهوال واختلطت العربان وهب بنو هلال من نومهم مرعوبين ونهض أبو زيد وصاح في الفرسان فتبعوه واصطدموا بالأعداء ودافعوا عن النساء دفاع الأبطال وجرى الدم وسال وانتصر بنو هلال على العقيلي. فهرب من المعركة وتشتت فرسانه ورجع بنو هلال بالمكاسب، فقال السلطان حسن: ما هو السبب حتى أرعب العقيلي حنظل نساءنا وأزعج فرساننا؟ فقال دياب: إنه أرسل لنا كتاباً يطلب فيه عشر المال وأرسلت له الجواب فقال أبو زيد: لو أعلمتنا بذلك لما جرت هذه الحادثة فقال دياب: أنا لا أدعكم تتكلفون لهذا الأمر لأنكم ضيوفنا وفي حمانا وإن عاد العقيلي نذيقه الموت الأحمر. أما العقيلي فقد كتب كتاباً إلى السلطان حسن وأبي زيد يطلب المال والأعشار ويهددهم بالأشعار:

قال العقيلي العمر منكم قد راح وحروب تجري وعظم كفاح
إذا لم تدفعوا لنا الأموال نذبح الفرسان ونزهق الأرواح
باعت دياب يهددنا بقومه عقله خرج والمال منه راح
هيئوا المال وإلا جيتكم اخلي نساكم في بكاء ونواح

ثم أرسل الكتاب مع العبد إلى بني هلال فسلم الكتاب إلى السلطان

حسن فقرأه ثم أعطاه لأبي زيد فشقه ورماه وأشار يقول:

قال الفتى أبو زيد وضاح ... من صغر سني للعدا دباح
عندي كل فارس بطل رماح ... ومن ضرباتنا راحت الأرواح
أرسلت كتاباً فيه تهددنا ... وتقيم في حينا بكا ونواح
وحياة ربي لأقتلك بلا حربة ... بعقب رمحي لأضربك ضربة
أقابلك متكل على ربي ... وتكون طعام للرخم وشواح
قال أبو زيد الأمير الهلالي ... بالسيف حامي عزوتي ورجالي
والنصر من عند الإلٰه العالي ... سبحان ربي خالق الأصباح

ثم طوى الكتاب وأعطاه للعبد فأوصله إلى سيده فلما قرأه أخذ قومه وعياله وذهب بهم بين الجبال وصبر حتى اطمأن بنو هلال فقال دياب لأبي زيد: مرادنا غداً نذهب إلى الصيد وننزل في البساتين ونتسلى بين الأشجار والأنهار ونقطف الفواكه والثمر، فقال أبو زيد: هذا الوقت ليس وقت صيد فإذا غبنا عن الحي يباغتنا العدو ويأخذ الحريم وينهب الأموال فقال دياب: ولكننا لا نذهب بعيداً عن الحي فقال أبو زيد: كما تريد وبدأ دياب يرتب الضيافة ثم إنه أخذهم وسار بهم إلى مكان فسيح كأنه الجنة فجلسوا وتنزهوا ثم حضر الطعام من جميع الألوان والمحالي التي تليق بالأمراء فجلسوا يأكلون، أما العقيلي حنظل فإنه كبس حي بني هلال ونهب مواشي أبي زيد ووقع الصياح في الحي وأسرع بعض الفرسان أعلم أبا زيد فترك الطعام وقفز إلى الجواد فقال دياب: ما الذي جرى يا أبا زيد؟ فقال: لقد نهب العدو المواشي وكبس الحي ثم ركب أبو زيد مع ألف فارس من الأبطال وسار بهم في البراري والوديان مدة خمسة أيام فما رأى أحداً من الأعداء فرأى راعياً فسأله من أين أنت؟ قال: من عرب الخزاعي قال: كذبت أنت من رعيان العقيلي حنظل وإن لم تدلني أين نازل ضربت عنقك بهذا الحسام فخاف الراعي على حياته. وسار أمام أبي زيد حتى أشرفوا على البيوت والأطلال في واد بين أربعة جبال فوجدوا الحي خالياً من الرجال فأطلقوا الأعنة وقوموا الأسنة وغاصوا بين البيوت فنهبوا الأموال والمواشي والجمال وتقدم أبو زيد إلى صيوان العقيلي. فرأى فتاة تحمل طفلاً وتقدمت من أبي زيد وقالت له: أنا حمامة أخت الأمير دياب قد خطفني العدو وأنا أقاسي العذاب الأليم فقال: أبشري بالخلاص ثم قلعوا الصيوان وساقوا المواشي وعادوا إلى الديار فاستقبلهم السلطان حسن والأمير غانم ودياب وهنأوهم بالنصر وفرح دياب بعودة أخته أما العقيلي حنظل لما عاد إلى الحي استقبلته النساء بالبكاء والعويل وحكين له عما فعل أبو زيد. فعند ذلك صاح

في قومه عليهم أيها الأبطال فركبت الفرسان وسار العقيلي أمامهم وهو يزمجر ويهدد فلما وصل إلى بني هلال أرسل يطلب أبا زيد إلى الحرب والقتال بهذه الأبيات:

يقول العقيلي والعقيلي حنظل لا خير في فتى يعيش ذليل
ولا خير في سلطان يأمن عدوه فذاك عقله ناقص وقليل
نعم أيها الغادي على متن ضامر يشابه الريم بالفلا جفيل
قل لحسن اركب ونادي سلامه ينزل إلى حرب مداه طويل
تعال إلى الميدان أيا سلامه لخلي دماكم على الثرى يسيل

ثم أرسل الكتاب إلى السلطان حسن فقرأه ثم أعطاه لأبي زيد فلما قرأه ركب الحمرا وأخذ من قومه خمسة آلاف بطل وسار إلى الميدان فاصطفت الفرسان وبرز العقيلي إلى الميدان وهو لابس درعاً متيناً وعلى رأسه طاسة من البولاد، فبرز إليه أبو زيد وصاح به أنا فارس العرب والعجم أنا أبو زيد فانطبق عليه العقيلي وعلا بينهما الصياح واشتد القتال وكان أبو زيد يضرب العقيلي ضربات تهد الجبال ولكن درع العقيلي متين وما زالوا في أخذ ورد إلى وقت العصر فتعب أبو زيد وخاف على حياته وأخذ حذره من العقيلي وفاجأه بطعنة رمح في خاصرته، فوقع قتيلاً ثم هجم أبو زيد على جماعة حنظل وتبعه بنو هلال بضرب يقصف الأعمار حتى شتتوهم في البر، وغنمت بنو هلال أموالهم وخيولهم ورجعوا غانمين سالمين ويرجع الكلام إلى السلاطين السبعة فإنهم اجتمعوا عند الهيدبى وقالوا: غداً يطمع أبو زيد ويملك أرضنا عند ذلك كتب الهيدبى كتاباً إلى بني هلال يهددهم بالحرب ويطلب منهم أن يرحلوا عن هذه الأراضي ثم أرسل الكتاب مع عبده فسار به إلى بني هلال وأعطاه إلى السلطان حسن، فلما قرأه قال لمن حوله: تنبهت السلاطين لحربنا فقال أبو زيد: أنا أرد لهم الجواب وكتب يقول:

يا هيدبى احذر من أن تحاربنا نحنا هلال لنا في الحرب توليع
طعناتنا يا هيدبى تشهد لنا بأنا أبطال يوم المعاميع
نحنا بنو قيس معروفة فعايلنا وقعاتنا تشيب روس المراضيع
عشرين ملك قد ملكنا بسيفنا من خوفهم جاءوا إلينا مخاضيع
أنا أبو زيد وكل الناس تعرفني أفنيت العدا من طعن ولواسيع

ثم طوى الكتاب وأعطاه للرسول فأخذه وأوصله إلى الهيدبى فلما قرأه أمر بتهيئة الفرسان.

(قال الراوي) أما السلطان حسن فقال لأبي زيد: غداً تأتينا السلاطين ويصير سفك الدم بيننا ونحن إسلام وهم إسلام، فالأوفق أن نحقن دماء المسلمين ونرسل

لهم هذه السنة عشر المال ونرتاح من الحرب والقتال، فقال له: افعل ما تريد فأشار حسن يقول:

جئنا لنجد وعدنا ضيوفكم حاشا لمن قصد الكرام يخيب
خذوا منا عشر المال وأبشروا ما عندنا إلا رضاكم وكل طيب
بلينا بتشتيت وبعد وغربة نشدت ربي يعين كل غريب
ولولا الغلا ما كنا وسنا بلادكم ونرجع إليها يا كرام قريب

ثم أعطى الكتاب لنجاب وأرسله إلى الهيدبى فلما قرأه أرسل لهم ابعثوا لنا ما تريدون فأرسلوا إليهم خيلاً ومالاً وركب أبو زيد ومعه ألف فارس وأخذوا الأموال وساروا حتى قربوا من مكان الهيدبى فخرج لاستقبالهم وسلموا على بعضهم وأخذ الهيدبى أبا زيد وأنزله في أحسن مكان وأكرمه غاية الإكرام وأشار يترحب به ويقول:

ألا يا مرحباً بك يا سلامي وفي قرومك أبطالاً خيرينا
لكم عندي المكارم يا سلامي مدى الأيام مع طول السنينا
ونحن قد بقينا يا سلامة بنجد كلنا متساوينا
ارعوا المراعي وأردوا المناهل وسيروا فيها شمالاً مع يمينا
رد عليه أبو زيد الهلالي نحن في حماك طليقينا
أتانا المحل في السرو العريضة دهانا يا ملك أربع سنينا
رحلنا من وطنا يا مسعى وكنا كالبحور الزاخرينا
لاقتنا يهود بأرض خيبر وفي جسر الحديد رابطينا
بعث سقيع يريد المال منا وصاروا في نسانا طامعينا
قطعنا قلعة البيضا والسودا وسبع قلاع وياما قد هفينا
طلع غانم وابن عمه لقانا وعدنا في حماهم نازلينا
أتى العقيلي إلينا ونهبنا وللميدان عدنا نازلينا
حاصرته في مكان وضربته وابنه بعده أضحى حزينا
وبعده أنت ردت العشر منا وفي حكمكم كلنا قد رضينا

فلما فرغ أبو زيد من كلامه شكروه وأضافوه ثلاثة أيام ثم أعطاهم المال وأعطوه وصلاً موقعاً عليه من السبعة ملوك بما استلموه من المال والجمال فأخذ الوصل وسار إلى بني هلال فسلم على حسن وأعطاه الوصل فلما توطن بنو هلال في نجد ركب أبو زيد وأخذ معه ألف خيال وساروا يدورون في نجد شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، ولما رجعوا قال حسن: كيف رأيت نجد يا أبا زيد؟ فقال: درتها

كلها فوجدتها مائة وعشرين مدينة وعشرين ألف قرية وأشجارها وأنهارها لا تعد ولا تحصى ولكن بينها بلاد الهيدبى يأخذ منا المال وهذا من أعظم المصائب فقال حسن: وما العمل؟ فقال: نسأل عن بلاد السرو فإن عاد لها الخير بعد المحل نرجع إليها ونطالب الهيدبى بالمال الذي أخذه منا فأرسلوا حمادي يكشف لهم الأخبار فلما عاد أخبرهم بأنها أخصبت عند ذلك أمر أبو زيد بالرحيل فحملوا ظعونهم وركب غانم وقومه وساروا معهم لوداعهم فحلف عليهم أبو زيد أن يرجعوا وأنشد هذه الأبيات:

يقول أبو زيد الهلالي سلامة ... بدمع جرى فوق الخدود بديد
ابقوا بخير يا أجاويد كلكم ... لكم علينا فضل جزيل مزيد
جزاكم الله عنا كل خير ... ويجعل دهركم كل يوم عيد
أيا غانم كثر اللَّه خيركم ... فكنا بساحتكم بخير رغيد
مقال أبو زيد الهلالي سلامه ... فلا ننسى فضلكم ليوم الوعيد

ثم إنهم ودعوا بعضهم وسار بنو هلال قاصدين بلاد السرو فدخلوها وهم بخير وراحة وأقاموا فيها أربعة أعوام ثم أمحلت بلاد السرو وحل الجوع وما بقي عندهم إلا الرحيل فقال حسن: إلى أي بلاد نرحل يا أبا زيد؟ فأجابه أبو زيد:

يقول الفتى الأمير سلامه ... ترى الشور بين الغانمين ضمان
أنا الشور عندي يا هلال ارحلوا ... إلى نجد باكر حملوا الأظعان
إلى غانم الزغبي ننزل بساحته ... ومهما قضى المولى علينا كان
ونقتل الأعداء فيها كلهم ... والهيدبى ندعيه بالفلا منهان
والجيشمي والأحمر نبيدهم ... وزيد وفاضل مع بني نبهان
ونفني عقيل وآل قطحان كلهم ... وتحكم أنت في أرضهم سلطان
وتملك نجد العريضة وأرضها ... وهذا هو الشور يا ولد سرحان

فقال له السلطان حسن: بارك اللَّه فيك ثم أمروا بالرحيل بعد سبعة أيام وفي اليوم الثامن حملوا ظعونهم على الجمال وساروا مجدين حتى قربوا من ديار الأمير غانم، وكان يقال لها قلعة السكر فأرسل حسن يعلم غانم الرياحي بمجيئهم:

يقول الدريدي نادي الوجه أبو علي ... سلامي على غانم ابن غانم
سلامي على المسمى دياب الغانم ... مقري الضيف صاحب المكارم
سلامي على زيدان سلام عاطر ... قاهر الأعداء يوم الملاحم
سلامي على بدر الأمين بن غانم ... سلام محب صافي ملايم

أيا غاديا مني على متن ضامر يشابه لمسيره ريح النسايم
ألا يا عمامي نسبتي وقرابتي وأهلي وقومي أصحاب اللزايم
أتينا إليكم نستظل بظلكم يا كاسبين الثنا بالكرم والعزايم

ثم طوى الكتاب وأعطاه إلى ابن عمه حماد فأخذه وسار إلى قلعة السكر وسلمه إلى الأمير غانم، فلما قرأه فرح فرحاً شديداً وأمر بالركوب فركب بنو زغبي ورياح في تسعين ألف فارس وساروا ليستقبلوا بني هلال فلما أقبلوا عليهم دق بنو هلال طبولهم واستقبلوهم بفرح وابتهاج وسلموا على بعضهم سلام الأحباب، ثم ساروا ونزلوا بالمكان الذي كانوا نازلين به أولاً فذبح لهم غانم الذبائح وأولموا الولائم ومد لهم السماطات فأكلوا وشربوا وأشار غانم يترحب بهم ويقول:

على ما قال غانم من ضميره ألا يا مرحبا بالقادمينا
ألا يا مرحبا بهلال جملة وبالزحلان قوم الخيرينا
لقد ضاء الحمى لما أتيتم وصرنا في لقاكم فارحينا
ومهما تطلبوا منا تنالوا وحق اللَّه لسنا كاذبينا

فلما فرغ غانم من كلامه شكروه شكراً جزيلاً وأقاموا عنده على الرحب والسعة، أما عقيل وحنظل فإنهم سمعوا بنزول بني هلال عند الأمير غانم فقال الهيدبى: إذن لنطلب منهم المال ونرى ما يكون جوابهم وأشار يقول:

يقول الفتى الهيدبى ابن تغلب ونيران قلبي زايدات دخان
وعيني تبات الليل ما تألف الكرى تراعي نجم سهيل والميزان
أربع سنين ياما رأينا من البلا وكم هموم شفنا مع الأحزان
غدا بنو عامر إلى السرور وحملوا وما عاد ينزل من ينزل إلى الميدان
بهذا العام أتوا إلى عند غانم وهدوا كروم التين والرمان
وتقاتلوا الفرسان بالمدن والفلا وعلى الماء حين تورد الرعيان
يا غاديا مني على متن ضامر يقطع فيافي الأرض والوديان
سلم على حسن الدريدي أبو علي سلطان بني هلال ولد سرحان
وقل له بالأمس سرتوا للسرو وعشتم بأرضكم في عز وأمان
واليوم سكنتم أرضنا يا بني عامر فابعثوا لنا المال بلا نقصان
وكونوا مثل ما كنا فيما مضى هذه عادة من قديم زمان
وإن كان ما تعطي فعد لديرتك قبل ما يقع بيننا حرب وطعان

ثم طوى الكتاب وأرسله إلى السلطان حسن، فلما قرأه غضب غضباً شديداً

وقال لأبي زيد: رد له الجواب وقل له: ما عندنا إلا الحرب وطعن الرماح واكتب له هذه الأبيات في نهاية الكتاب:

قال ابن سرحان أبيات معربة من بحر فكره أتت بالمناسيب
تهدي لابن تغلب المسمى عقيل سلطان في نجد وعز المطاليب
المال قبلاً أخذتوه غصيبة شكر الشريف بعت لنا مكاتيب
وما عندنا مال تأخذه منا ما عندنا غير ضرب القراضيب
والمال الذي أخذته منا أعده إلينا قبل المحاريب
محفوظ بالقلب في دفتر القاضي تسعين خزنة مسجلة بالترتيب
نحنا هلال وعامر جدنا الزير وكليب نحنا له مناسيب
الدار دارنا يا هيدبى ارحل قبل ما تلقى البلا والمناكيب

ثم طوى الكتاب وأرسله إلى الهيدبى، فلما قرأه اغتاظ غيظاً عظيماً وأجاب يقول:

غنى ابن تغلب أبيات مرتبة أبيات تطرب كل فصيح بالبيان
تهدي إلى حسن سلطان العرب ملك عامر ودريد وزحلان
يا أمير قومي كثير ما لهم عدد عشر كرات من أفرس الفرسان
أفعالهم يا حسن بالكون معروفة من أتاهم يا ربع عاد خسران
إن طعتني أرسل المال كله وإلا فانزل غداً إلى الميدان

ثم أعطى الكتاب إلى غلامه وقال له: سلمه إلى حسن سلطان بني هلال فسار به إلى أن أوصله للسلطان حسن وسلمه الكتاب، فلما قرأه قال لأبي زيد: رد له الجواب فكتب يقول: من ابن زيد سلامة إلى ابن تغلب السلام على من اتبع الهدى وبعد فقد طلبت منا المال وتهددنا بالحرب والقتال وقلنا لكم ما عندنا إلا الركوب على الخيل وحمل السيوف والرماح لقطع الرؤوس وبري الرقاب وغداً ترون الأهوال من أبطال بني هلال وبني زحلان وبني زغبي سترونا هاجمين مثل السباع الكواسر، وسوف نفني أبطالكم ونملك دياركم بإذن اللَّه وهذا جوابنا وإلى اللقاء. فلما فرغ من الكتاب أرسله إلى الهيدبى فلما قرأه اغتاظ غيظاً عظيماً وقال: لا بد أن نركب عليهم وننهب أموالهم ونقتل رجالهم ونسبي نساءهم ثم قال: أين ضاربة الودع فأحضروها بين يديه، فقال لها: اضربي لنا الودع واعلمينا بما سيجري علينا بالتمام فعند ذلك ضربت له الودع وحررت الأشكال فتبين لها ما يسوء من العاقبة الوخيمة فعضت على إصبعها ثم قالت للهيدبى: أعطني الأمان فأعطاها الأمان فقالت له: إن الحرب على وشك الوقوع بينكم وبين أعدائكم ويقتل منكم

خلق كثير وأنت تقع في خطر وربما . . . فصاح بها الهيدبى وربما ماذا قولي فأنت في أمان. فقالت: ربما تقتل أنت وكل ملوك نجد وما يسلم منكم غير الأحمر فيهرب ويتوارى عن العيان فلما سمع الهيدبى ذلك الكلام صرف ضاربة الودع وقال: ربما تكون على خطأ ونحن صممنا على القتال فلا بد من الحرب والنزال، وأمر بالركوب فركبوا وكان عددهم مقدار أربع كرات فقال: سيروا إلى مرج داغر فلما سمع بنو هلال هذا الخبر ركب حسن وركبت بنو هلال وضربوا الطبول، ودق بنو عقيل طبولهم وركبوا خيولهم وركب دياب في تسعين ألفاً من قومه بني زغبي وسبق الجميع إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان وصاح من عرفني قد اكتفى ومن لم يعرفني فما بي خفا أنا الأمير دياب حذاف الرقاب ولا يبرز لي إلا الهيدبى بن تغلب فما أتم كلامه حتى صار الهيدبى قدامه فصال وجال وأنشد وقال:

قال ابن تغلب دياب يا غلبان ... اليوم تضحي على الثرى منهان
أنا ابن تغلب فارس الخيل بالوغى ... كم فتى مني غدا عدمان
مالك ومال حرب يلقيك في البلا ... كم من أمير راح بالميدان
اقصر عنادك روح لأهلك يا فتى ... ما تنفعك قومك مع العربان
رد الفتى الزغبي وجاوبه ... اترك الهرج أنت رجل خرفان
أنا الزغبي دياب ابن غانم ... بيوم الوغى أحطم الفرسان
إن عانني ربي لأقطع رأسك ... واغنم مال عقيل والنسوان

ولما فرغا من التهديد انطبقا على بعضهما بضرب متوالٍ يقصف الأعمار وحان عليهما الحين وغنى فوقهما غراب البين إلى أن قام دياب بعزم الركاب وطعن الهيدبى بصدره طلع السنان يلمع من ظهره. فلما قتل الهيدبى هربت جنوده وعساكره وتبعهم بنو زحلان وبنو زغبي، أما أبو زيد فاجتمع بحنظل وضربه بالحسام قسمه نصفين وقتل الجيشمي والأمير جراح وما زال السيف يعمل والدم يسفك حتى قتل منهم ثمانون أميراً، أما الأمير الأحمر فإنه هرب ولم يبق أحد يقاتل بني هلال فاستولوا على جميع الأموال وغنموها وأقبلت العربان على السلطان حسن وطلبوا منه أن يعفو عنهم فعفا عنهم وأعطاهم الأمان وحكم نجد كلها ورتب الجزية على أهلها سبع خزنات كل عام وركب على الكرسي وتسلطن في بلاد نجد وصارت تأتيه الهدايا من سائر البلاد وحكم بالعدل. أما الأمير الأحمر فإنه كتب للسلطان حسن وترجاه أن يعفو عنه ويرجعه إلى وطنه فرق قلبه وأرسل له كتاب الأمان قال فيه:

يقول الدريدي نادي الوجه أبو علي ... ولأني بكذاب ولا قلت بهتان

نعم أيها الغادي على متن ضامر يسبق هبوب الريح بالوديان
إذا جيت حنجره يا رسولنا ادخل على الأحمر أبو سليمان
أرسلت تريد الأمن منا وترجع لأرضك وتقعد يا فتى سلطان
عليك أمان اللّه منا جميعاً أمان حقيق ما به نقصان

فلما فرغ حسن من كلامه أرسل الكتاب إلى الملك الأحمر فلما قرأه قال لقومه: لنرجع إلى أوطاننا، فحملوا ظعونهم وساروا ودخل الملك الأحمر مع حاشيته على السلطان حسن وسلموا عليه فحياهم وأكرمهم وعفا عنهم وأعطى الملك الأحمر بلاده يحكم بها من تحت يد السلطان حسن وعاشوا في أمن وأمان، أما العرندس عم دياب فقال لدياب: اطلب (نوربارق) من أخيها وادخل عليها قبل أن يأخذها شكر الشريف منك؛ لأنه بلغني خبر يوم قتل بنو هلال الهرقل خطبها من حسن ووعده بها فلما سمع دياب من عمه هذا الكلام أرسل يطلبها فقال:

يقول الفتى الزغبي دياب الغانم الفرح جانا وراحت الأحزان
سلامي على حسن الأمير أبو علي أمير البوادي الفتى ابن سرحان
فما شفت أنا بالناس مثل أميرنا ولا بالملا من سائر العربان
وسلامي على رفاقه كلهم أعمامي وسندنا بيوم طعان
يا حسن أنت أعطيتني نوربارق أريد الوفا منك يدعمه البرهان
لأن الوعد عند الملوك فضيلة وألفاظهم حجة بلا نقصان

وطوى دياب الكتاب وأرسله مع عبده إلى السلطان حسن، فلما قرأه عبس وجهه وتغير لونه فقال أبو زيد: اسمح لي بهذا الكتاب يا حسن فأعطاه إياه فقرأه وأعطاه للقاضي بدير فقرأه وتأمل فيه ثم قال لحسن: أنت وعدته بها وقولك حجة فقال حسن: لنسمع ما يقول أبو زيد ما على المحسن سبيل ولا أحد يقدر يغصبك، عند ذلك أشار حسن يرد على دياب بهذه الأبيات:

يقول الفتى حسن الأمير أبو علي سلامي على الزغبي دياب بن غانم
سلامي على غانم وكل قرايبه زغبه وريح وكل الأكارم
وبعده اسمع يا دياب مقالتي فما عندنا بنت توافق ابن غانم
يا دياب حيد عن كلامك واقتصر واترك «نوربارق» ما هي ملايم
أعطيناك هولا وأنت أعطيت مثلها واحدة بواحدة يا كبير الحشايم
يا مير شوف لك بنت غير أختنا ومن يترك اللذات نال المكارم

ثم طوى الكتاب وأرسله إلى الأمير دياب فلما قرأه اغتاظ غيظاً عظيماً وناول الكتاب إلى العرندس، فلما قرأه ضحك فقال دياب: ما يضحكك يا عم؟ فقال:

أضحك على قلة عقلك لأجل حماقتك فكيف تنغم ويدك فوق أيديهم وجميلك عليهم وقتلت قريبك لأجلهم والآن باعك حسن من أجل بنت ولا عاد لك عندهم قدر ولا شأن ثم أنشد هذه الأبيات:

قال العرندس استمع يا زغبي ... مني كلامي وافهم المطلوب
بنو هلال قد عتوا وتجبروا ... ملكتهم نجد ومالها لهم محسوب
قتلت ابن تغلب بقلة شورك ... أعطيتهم بلاده ونالوا كل مطلوب
الرأي عندي يا ابن أخي إن تركبوا ... وتغزوا مرعاهم تجعلوه منكوب
وتغنموا مواشي الأمير أبو علي ... وإن أتى يحارب نجعله مغلوب
أنا علي في سلامة أقتله ... وأنت اجعل حسن بسيفك مضروب

فلما فرغ العرندس من كلامه قال دياب: واللَّه يا عم رأيك موافق ثم إنه جمع بني زغبي ورياح وأعلمهم بغزو مواشي السلطان حسن ووعدهم بالغنائم، فحملوا أسلحتهم وركبوا خيولهم فوصل الخبر إلى درة بنت زيدان فعظم الأمر لديها وما هان عليها وكان أبوها عند أبي فأرسلت تعلمه:

قالت له: اعلم يا أبي إن الأمير دياب طلب «نوربارق» من الأمير حسن وكان قد وعده بها، فامتنع حسن من إعطائه إياها فتأثر دياب وانقهر فحرضه عرندس على نهب مواشي الأمير حسن، وقال له: إذا حاربك حسن وأبو زيد فاقتلهما واقتل كل من يناصرهما. فأسرع يا والدي إلينا قبل أن تقع الحرب بينهم وتسفك الدماء ثم إنها أرسلت الكتاب إلى أبيها فلما قرأه تغيرت ألوانه فقال له أبو زيد: ما الخبر؟ فحكى له عن دياب فقال أبو زيد: لو يأتي أخوك دياب إلينا كنا قضينا مراده وبعد هذا الكلام ركب زيدان وذهب إلى دياب فرآه راكباً مع جماعته فبادره بقوله:

يقول الفتى زيدان عما جرى له ... ونيران قلبي زايدات لفاح
ألا يا أبو موسى ويا راس قومنا ... فعالك فعال الباغيين قباح
على شان بنت تفتن العرب يا فتى ... وفيما بينهم تقيم شرور وكفاح
عيب عليك تريد تركب على حسن ... وتنهب مواشيه وتحوز أرباح
وتبقى معاراً للخلايق جميعاً ... ويعلى عجاج الخيل وضرب رماح
فباللَّه عليك اقصر الشر والبلا ... وهذا جريمة تغضب الفتاح

فلما فرغ زيدان من كلامه اغتاظ دياب وأشار يقول:

يقول أبو موسى دياب بن غانم ... كلام شبيه السيف إن كان شاهر
ألا يا فتى زيدان اسمع مقالتي ... واقصر كلامك لا نريد المعاير
حسن مليح لكن ما وفى بوعده ... عطاني أخته وبعد العطا عاد قاصر

فـوالـلَّـه مـانـي راجـع عـن قـتـالـه وادعـي بـنـي قـيـس يـولـوا خـواسـر

فلما فرغ دياب من كلامه اغتاظ زيدان من دياب وأراد أن يحمل عليه فتدخل بينهم القوم وأبعدوهما عن بعضهما، فعاد زيدان وهو مغتاظ وصاح بقومه إن دياب بائق وخوان فتهيأوا للحرب والطعان فلا بد من قتله وقتل من يمشي معه من الفرسان، فركبوا خيولهم وهم أربعون ألفاً عشرون من بني زغبي وعشرون من بني رياح وساروا ليقابلوا دياب الذي ركب بقومه وأطلق الغارة على مواشي حسن وجمعه على بعضه البعض فصاحت الرعيان عيب عليك يا دياب تبوق في حسن فقال دياب: هل أنا بواق يا كلاب؟ وطعن رئيسهم بالرمح في صدره طلع يلمع من ظهره وكان لهذا العبد أخ فغار على دياب وطعنه بالرمح فصاب الجواد وأماته وأراد أن يضرب دياب فغاروا عليه فقتل واحداً منهم وهو ابن عم دياب فحمل عليه دياب وطسه على هامه حط رأسه قدامه ومال بنو زغبي على العبيد قتلوا تسعة منهم وهب الباقون. أما دياب فساق المواشي وساروا بها وفي هذا الوقت وصل زيدان وربعه وصاحوا بقوم دياب اتركوا المواشي يا أنذال، فتقدم إليه دياب وتقاتل معه فللَّه درّهما من بطلين عظيمين وفارسين متماثلين، واشتد بينهما القتال وتوالت الضربات والطعنات وخرقت طعنة منها بطن جواد دياب فوقع على التراب وأراد زيدان أن يكمل عليه فأدركه قومه وأخرجوه من الميدان ودقت طبول الانفصال، أما دياب فأرسل المواشي إلى البيوت وأما حسن فأخبره العبيد بما فعل دياب فغضب غضباً شديداً وإذا بالأمير أبي زيد داخل إلى الديوان وسلم على حسن فرد عليه السلام وقال له: ما لي أراك يا أبا زيد عابس الوجه محمر العين ويدك على قبضة سيفك فما الذي أغاظك هل كان غيظك من أجل ماشيتك المنهوبة؟ أم ماذا قل لي؟ فقال أبو زيد: أنا متأثر جداً من فعل دياب لأنه نهب مواشيك وقتل عبيدك وقد تقاتل مع أخيه زيدان فقال حسن: لا بد أن أركب عليه وأقتله فقال أبو زيد: وأنا معك لنخلص المال من دياب وفي الحال دقت طبول الحرب والقتال وركبوا الخيول وساروا طالبين دياب أما القاضي بدير فأرسل إلى ابن أخته دياب يقول له: اعلم أن حسناً مراده أن يخلص مواشيه منك بالقوة والقتال فإن كنت تعرف نفسك قد هذه الحرب فاثبت لهم أو رد لهم المواشي، فلما وصل الخبر إلى دياب استشار قومه قائلاً: هل أحارب أو أرد المواشي لأصحابها فقال له عرندس: إذا رددت المواشي ينحط قدرك وقيمتك تجاه العرب وإن استجرت بأبي زيد تبقى ذليلاً مدة حياتك. فالرأي عندي أن ترسل إلى خالك بدير بالقتال والحرب والنزال فقال دياب: هو ما تقول ثم أرسل لخاله هذه الأبيات:

مـقـالات الـفـتـى الـزغـبـي كـلامـاً ألا يـا خـال سـيـبـك والـمـلامـا

أتوني من السرو سكنوا معايا جفتهم أرضهم ويا المقاما
وقمت بواجبه أختي عطيته وأعطى أخته لأخي تماما
وأعطاني أنا أخته زيادة أراد بنور بارق لي وساما
طلبناها فما نفذ طلبنا وخجلني أنا بين الأناما
ولا أنا خائف منهم جميعاً ولو قابلتهم عشرين عاما

ثم أرسل الكتاب إلى خاله فلما قرأه قال: يمكن تكون قد حانت منية دياب أما الأمير حسن وأبو زيد فساروا طالبين دياب حتى أقبلوا على منازله، فرأوا زيدان وقومه فسلموا عليهم وتقدم زيدان وقبل يد السلطان حسن وقال له: أنا عليّ في قتل دياب ولا أحد ينزل إليه غيري أما دياب لما رآهم مجتمعين ومتفقين على حربه وقتاله دق طبله وركب بقومه واصطفت العساكر فنزل زيدان إلى الميدان وطلب دياب فنزل إليه دياب وأشار يقول:

قال الفتى الزغبي دياب الماجد النار في قلبي سناها ثارا
من فعلة السلطان فينا عائب حرق قلبي وعقلي طارا
طلبت نور بارق حسب وعده منعها وقال كف قولك عارا
أخذت مواشيه وقتلت عبيده أتانا اليوم مثل شعلة نارا
فارجع يا زيدان ما أنت خصمي أرسل حسن يجيني غارا
زيدان يا ميشوم ارجع عاجل قبل أن تموت والدما فوارا
أقل لك يا زيدان ما أنت قدي إني أبو موسى أنا المغوارا
رد الفتى زيدان يا أبا وطفا اقصر كلامك أنت يا غدارا
الناس عرفت أفعالك كلها قالوا عنك عائب قالوا مكارا
حسن نزيلك يا دياب تخونه فعلك يا دياب كسانا العارا

ثم التقى البطلان كأنهما جبلان وافترقا كأنهما مركبان وحان عليهما الحين وغنى على رأسيهما غراب البين وتقاتلا قتالاً شديداً ولاح منهما ضربتان صائبتان حكمتا بالجوادين، فوقعا على الأرض فهذا أخذه قومه من الميدان وهذا انتشله ربعه من ساحة القتال ودقت طبول الانفصال. وفي الصباح انحدر دياب على الميدان فنزل إليه فارس يقال له غمار وهو من بني زحلان استقبله دياب بالسيف على هامه حط رأسه قدامه وبرز إليه فارس من بني زغبي فقتله وقتل فارساً من بني عامر، فاغتاظ حسن من فعل دياب وأراد أن ينزل إليه فسبقه أبو زيد وأشار يقول:

قال أبو زيد الهلالي توسع قبل أن تولي على الثرى منهانا
تخون يا بواق ونحن ضيوفك تقتل فوارسنا وتبغي أذانا

دياب ما تقدر لقيس وعامر ولا يمكن تقابل الزحلانا
حبل المحبة ينقطع يا زغبي تندم وطول عمرك ندمانا
أرماحهم مثل النجوم اللوامع وسيوف تبري هامة الفرسانا

ثم التقى البطلان في ساحة الميدان بضرب السيف وطعن السنان وقام دياب في عزم الركاب وضرب أبا زيد فمال عنها وتعدل وضرب دياب بالدبوس على رأسه ولولا الخوذة لخرجت روحه ولكنه أحس بوجع فترك القتال وولى هارباً وتبعه قومه منهزمين وفي ثاني الأيام ركب دياب وقصده يغنم مواشي أبي زيد فرآه متاع أخو السلطان حسن فلحقه دياب، وقال له: إلى أين أنت سائر يا خوان وحمل عليه وحمل مناع وتقاتلا قتالاً مريراً وتغلب دياب على مناع وضربه بالسيف، فقتله وأخرج روحه من بين جنبيه وغار على العبيد وقتل منهم عشرة والباقون هربوا إلى السلطان حسن وأخبروه أن دياب قتل مناع وكان أبو زيد موجوداً عند حسن فقال له حسن: لا بد من قتل دياب ونهب أمواله وسبي حريمه وعياله وفني زغبي ورياح، قبل أن ندفن مناع ثم أمر بإطلاق الغارة على بني زغبي ورياح طلعت النساء والبنات والأولاد واستجاروا بحسن وبأبي زيد فلان قلب حسن وتركهم وسأل عن دياب، فقالوا: ما لنا علم به أبداً ثم ذهبوا إلى القتلى فكفنوهم ودفنوهم، أما دياب لما قتل مناع ندم كثيراً وخاف من حسن وأبي زيد فأخذ جماعة من قومه وسار إلى مكان يقال له جنقار فحاصر فيه هو وجماعته وصار شغلهم الصيد واستقاموا على ذلك الحال مدة من الزمان أما السلطان حسن فصار يسأل عن دياب حتى عرف مكانه فركب هو وأبو زيد والأمير زيدان وجميع بني هلال وساروا إلى جنقار، فرأوا دياب ومن معه فأطلقوا الغارة عليه من جميع الجهات وضايقوه ومسكوه مسك اليد هو وقومه وكتفوهم، فأمر حسن أن يمشوا دياب عريان حافي القدمين ففعلوا وذاق دياب الموت الأحمر ولما استقر حسن بالديوان أمر بإحضار دياب فأحضروه فأمر عليه بنقعة الدم فبكا دياب على حاله ورأى السلطان حسناً جالساً وحوله الأمراء وأبوه غانم وإخوته القضاة يبكون عليه فعند ذلك أشار يقول:

يقول الفتى الزغبي دياب الغانم أبكي على حالي وما قد صار
نفسي عزيزة يا كرام ارثوا لحالي إبليس أغراني والحكم قد جار
أنا كنت في خير كثير ونعمة وأيامنا تزهو كما الأقمار
لفَّانا ولد سرحان أطال اللَّه عمره وقومه بني قيس حماة الدار
أعطاهم أبوي المال والملك كله ورب السما أعطى حسن أنوار
وحسن وعدني بنور بارق حليله وسمعت بها الغياب والحضار

وسرنا إلى الهرقل غداً من سيوفنا رجعنا من الغزو وراقت الأفكار
طلبت أنا من حسن أخته فامتنع وصار الخطا منا مع الأقدار
مسكني ابن سرحان للحي جانبي وأمر بقتلي سرعة أبا أمار
أبو زيد خيبتك ليوم كريهة اذكر أيام مضت بيننا تذكار
ألا يا حسن بن سرحان النخي ارحم دياب واغفر له الأوزار
إلٰه السما قادر على كل ما يشا ويفعل بأمره كل ما يختار

فلما فرغ دياب من كلامه أغمي عليه فرش الجلاد على وجهه الماء فأفاق فتقدمت أم دياب وقبلت يد حسن وطلبت منه أن يعفو عن ولدها دياب فما رد عليها وأقبل غانم، وقال له: يا ملك الزمان شفعني في ولدي دياب فقال له: يا غانم لم أقبل شفاعة أحد ولا بد من قتله فألح عليه الحاضرون أن يعفو عنه فأبى وصاح بالجلاد اضرب عنقه فسأل السياف دياب إن كان عطشان أو جائعاً وهل يريد أن يوصي وهل بنفسه شيء، فقال له: ابعد عني حتى أرى أبي وأمي وأهلي وأتودع منهم فابتعد الجلاد قليلاً فوقع نظر دياب على أبي زيد فصاح يا أبا مخيبر ذابت حشاشتي ومرارتي وأنا مستجير بك أن تجيرني أجارك اللَّه من نار جهنم فحنَّ قلب أبي زيد على دياب وهجم عليه وقطع كتافه وأطلقه، وقال لحسن: اقبل شفاعتي فقبل فيه حسن شفاعة أبي زيد على الرغم منه وعفا عن دياب فتقدم أبو وطفا وقبَّل يد السلطان حسن، فقال له: سمعت عنك إكراماً لأبي زيد وفرحت كل العربان بخلاص دياب وقامت الأفراح وزالت الأتراح وعاد دياب إلى قومه فسلموا عليه وسلم عليهم وبعد مدة من الزمان قال دياب لقومه: لا بد أن أعمل مكيدة لابن سرحان حتى تبرد ناري، فقال عمه عرندس: ارحل بقومك إلى برعانة ثم اعمل ما تريد فارتحل قومه ونزل في برعانة ومكث فيها أما حسن فدخل عليه رجل وقال له: إن في حنجرة خمس قفول خذ غفرهم، فأمر أخاه حمادة أن يأخذ منهم العشر فركب حمادة ومعه الفرسان ولما وصلوا إليهم أخذوا منهم العشر وعادوا وإذا بدياب يجتمع بهم ومعه مائتا فارس فقال لهم دياب: اقتلوهم وخذوا ما معهم. فغار دياب ومن معه على حمادة واشتبك بينهم القتال وغار دياب على حمادة وطعنه بالسنان في صدره طلع يلمع من ظهره فهرب جماعة حمادة فلحقهم دياب وقومه وقتلوا منهم ثلاثين فارساً والذين نجوا من الموت دخلوا على حسن وأخبروه بما فعل دياب، فلما سمع حسن هذا الكلام صار الضياء في عينيه ظلاماً وقال لأبي زيد: يا ليتنا قتلنا دياب كنا خلصنا من شره ثم ركب حسن وأبو زيد وزيدان والعساكر وجدوا في المسير حتى أقبلوا على نجوع دياب فاستقبلهم دياب ونزل إلى الميدان فبرز إليه زيدان شيخ الشباب وحمل عليه والتقى البطلان في ساحة الميدان

بضرب السيف والطعن بالسنان مقدار ثلاث ساعات قوي زيدان على دياب وطعنه بالرمح فوقع دياب على الثرى مجروحاً، فأراد زيدان أن يكمل عليه فأقبلت عليه زينة أخت حسن وقالت: يا زيدان شفعني في أخيك دياب، فقال لها: هو في شفاعتك وتركه وأما بنو زغبي فحملوا دياب وهو مغمى عليه ودمه يسيل من جرحه فضمدوا له جرحه وصار تارة يصحو وطوراً يغيب فيبكون عليه وتقدمت وطفا بنت دياب وأنشدت تندب أباها وتقول:

وطفا بدت من كلام في ضمائرها تجري مدامعها على الخدين جريان
الدهر بواق خوان ما يصاحب حدا كواني من فعل أبي وعمي زيدان
طعن بالرمح زيدان أبي وجندله خلاه مرمى على الرمضاء عدمان
احتشمت للغير يا زيدان بالوغى وعاديت قومك وأغضبت خلان
ما تخشى إلٰهك تطعن أبو وطفا خفله أولاد صغار ثم رضعان
يا عم زيدان اذهب لا تنازلنا ارحل إلى روضة تسمى وعران
وطفا تبدت وقالت من ضمائرها إلٰهي ينتقم منك يا زيدان

فلما فرغت وطفا من كلامها ندم زيدان على طعن دياب وطلب من اللَّه أن يشفيه ويعافيه وسأل غانم الطبيب عن جرح دياب، فقال له: ابنك طيب أما الجرح فيلتحم بعد عشرة أيام لكن امنعوا الناس عنه فكثر الحكي والندب يؤذيه ويلزمه الراحة التامة فشكره غانم وأنعم عليه ومنعوا الناس من الدخول على دياب ثم إن الطبيب بنج دياب وأعاد نظره إلى الجرح ونظفه ووضع له المرهم وضمده ثم أعطاه ضد البنج، فأفاق وأحس بالجوع فطلب الطعام فأكل وشرب وظل الطبيب يداويه ويداريه حتى شفي تماماً وفرحت به أهله وخلانه وذبحوا الذبائح وأكرموا الطبيب، أما دياب لما رأى حاله رجعت كالأول وصحته تَحسنت شاور قومه على الانتقام من حسن فقالوا له: اذهب إلى أبي زيد واطلب السماح من السلطان حسن، وأما الحرب والقتال فنتيجتها الخراب والدمار فركب دياب بعشرين فارساً وقصد منازل الزحلان ودخل على أبي زيد وسلم عليه وقال له: العفو عند المقدرة والعفو من شيم الكرام. وأريد أن تتوجه معي لعند السلطان حسن حتى يسمح عني ونتصالح ونحن أهل وأصحاب فقام أبو زيد وكتف الأمير دياب وركب وركب معه زحلان وأخذوا دياباً مكتفاً ودخلوا على السلطان حسن وطلبوا منه أن يعفو عن دياب، فغضب وأبى فقال له القاضي: سامحه واغفر ذاته وتصالحوا فالصلح سيد الأحكام والعفو من شيم الكرام وما زالوا بمثل هذا الكلام يخاطبون السلطان حتى رضي وعفا عن دياب ورق قلبه عليه وحل وثاقه وقال: عفا اللَّه عما مضى. أما أبو زيد

فشكر السلطان حسناً الذي قبل رجاءه وعفا عن دياب وقال: اشهدوا عليّ إني تائب عن فعل كل قبيح فلا تقبلوا فيّ شفاعة أحد ثم أنشد:

يقول الفتى الزغبي دياب بن غانم رجعت عن فعل الأذى والقبايح
ولا عدت أفعل ما كنت أفعله لأن فعل العيب نقص وفضايح
مقال الفتى دياب بن غانم لك الحمد يا ربي أنت المسامح

ثم إنه طلب الإذن بالذهاب إلى أهله فأذن له وركب دياب في جماعته فلما وصل استقبلوه بالسلام وهنأوه، وقامت عندهم الأفراح وزالت عنهم الهموم والأتراح وجددوا الليالي الملاح ثم تصالحوا وطابت خواطر الجميع وصارت تأتي من سائر البلاد وطاعت له سائر العباد.

(قال الراوي) أما شكر الشريف بن هاشم فإنه بعد ذهاب بني هلال من عنده كان ينتظر وعد السلطان حسن من جهة أخته الجازية وقد بلغه الخبر بجميع ما جرى بينهم من الحروب والفتن التي حصلت بينهم، فقال لجماعته: أريد أن أذهب إلى أولاد عمي بني هلال وأجيب الجازية أخت السلطان حسن فما رأيكم من هذا القبيل؟ فقالوا: لا بأس بذلك ولكن من يحكم في غيابكم عن المملكة حتى رجوعكم؟ فقال: يحكم رزق الشريف ثم أجلسه على الكرسي وأوصاه بالرعايا وأوصى الرعايا به ثم إنه حمل الأحمال وأخذ الهدايا والتحف وركب معه مائة فارس، ثم ودعهم وسار قاصداً بلاد نجد وأرسل رسولاً يخبر السلطان حسناً بقدومه فلما وصل أخبر عن مجيء شكر الشريف ففرحوا بقدومه وركبوا الخيل وساروا لاستقباله وعندما اجتمعوا سلموا على بعضهم سلام الأحباب ثم ساروا إلى المنازل وذبحوا الأغنام ومدوا السماطات وزادت الأفراح وبعد مضي أيام من الضيافات قال شكر الشريف: أنا أتيت من أجل الجازية التي وعدتني بها فقال حسن: مرحباً بكم أنا عند وعدي ثم أحضر القاضي وعقد العقد وكتب كتاب الجازية على شكر الشريف، وباركوا لهما بهذا القران الميمون ودارت الأفراح بكل مكان مدة أربعين يوماً فبعد ذلك قرّر شكر الشريف أن يعود إلى الأوطان ثم قدم الهدايا ومهر الجازية، فدهشوا من تلك الأموال والتحف التي قل أن توجد عند العظماء أما دياب لما رأى الجازية تزوجت زاد بلاه وعظم نكده وشاور عمه عرندس ماذا يعمل حتى يحصل على الجازية فقال: اصبر حتى يسير الشريف بالجازية واقطع طريقهم وخذها من الشريف فلما سمع دياب هذا الكلام رآه عين الصواب فقال زيدان: واللّه إن فعلت هذه الفعال فإنك تهتكنا بين الرجال فقال دياب: وكيف أعمل يا زيدان؟ فقال له: اترك هذا الكلام وإلا أكون خصمك على

الدوام فقال دياب: والله لأهج على وجهي في القفار ولا عدت أسكن الديار. أما حسن فأحضر جهاز أخته فأدهش الأنظار وشد لها هودجاً من العاج وزينه بريش النعام وطلعت معها الجواري والخدام وركب حسن وأبو زيد الهمام وركب شكر الشريف وركبت الأشراف وساروا معهم نصف يوم، فحلف عليهم شكر الشريف أن يعودوا إلى الديار ثم إنهم ودعوا بعضهم البعض وسار الشريف إلى أن أشرف على مكة المكرمة فاستقبله الأشراف وهنأوه بالسلامة فأمر بذبح الأغنام وتم الفرح مدة شهر كامل ثم دخل على الجازية وتملى بحسنها وجمالها وبعد أربع سنين كان لها ثلاثة أولاد محمد وأحمد والبنت حمده ولم تزل عند شكر الشريف حتى يرحل أهلها إلى الغرب فتسير معهم.

قصة الحيصا فرس أبي زيد وقصة الست عليا ورجوع أبي زيد ودياب إلى حسين الجعبري وما جرى من الحروب والأهوال

(قال الراوي) وبينما بنو هلال جالسون والسلطان حسن جالس بالديوان وهم يتحدثون عن السلاطين الذين مضوا وعن الفرسان وعن سلايل الخيل الملاح وكان عند السلطان حسن ضيوف من قبائل العرب، فقالوا: يا حسن في بلاد الحسب والقيطاف أمير يقال له حسين الجعبري ابن راشد عنده فرس ليس لها نظير واسمها الحيصا ما ملك مثلها أمير ولا سلطان من يوم خلقت الدنيا إلى هذا اليوم وليس لها نظير في الحسن ولا في المثال وهي فرس أصيلة وموكل بها أربعة عبيد تحرسها في الليل والنهار فقال لهم السلطان حسن: هل أحد منكم رآها؟ فقام أحد الضيوف وكان اسمه ذامل بن كامل وقال: أنا رأيتها فقال حسن: أريد أن توصفها لي فقال: السمع والطاعة وأشار يوصفها بهذه الأبيات ويقول:

قال ذامل ابن كامل يا ملك ... النار في قلبي لها تحميصا
أما حسين الجعبري الراشد ... سلطان آل عقيل بالديصا
عنده مهرة أصيلة محجلة ... حمرا تسمى يا أمير الحيصا
مشتراها ألف دينار ومثلها ... وميت خلعة بالذهب ترصيصا
الظهر منها مثل ضرف ملانه ... سلجم وملجم والردف تنكيصا
ويدين مع رجلين مثل الدلهة ... عمدان في حانوتها تمنيصا
تلحق ولا تلحق إذا أطلقتها ... وتسير مثل الطير بالتخليصا
في قمة البولاد دوم مقامها ... وأربع قيود مخرصة تخريصا
وأربع عبيد يا أمير تسوسها ... ودوم دايم يلزموا التخريصا
وإن سبتها بالبر يا أمير الملا ... بتطير مثل الطير بالتقويصا
عشرين يوم بيوم جد مسيرها ... تسبق لنمر جاء من أرض الريصا

فلما فرغ ذامل من كلامه وحسن يسمع نظامه فتعلق حسن بالفرس وعشقها

على الوصف، وقال: يا ذامل أما يبيعها صاحبه؟ قال له ذامل: دفعوا له فيها مائة فرس ومائتين حصان ومائتين ناقة وألفي دينار وعشرين حمل حرير وما رضي يبيعها، فعند ذلك قال حسن: يا قوم من يذهب ويأتي بهذه الفرس بحيلة وأعطيه أنا ثقلها ذهباً وفضة فسكتوا فأنشأ يقول:

يقول الفتى حسن الهلالي أبو علي والنار في قلبي يزيد لهيبها
أين الصديق أين الصديق يا عرب يروح إلى الحيصا يجيبها
في زي درويش بجلد وركوة وعصاة موسى من خيار قضيبها
ويكون سايح في البراري طايح وينام بين جمالهم وأديبها
لا بد هم يغفلون من قيدها دولاً همج ما يفهموا ترتيبها
أعطيه أنا في ثقلها من مالنا ذهب وفضة مع حرير طليبها
قلبي تعلق يا كرام بحسنها وخاطري يا قوم ما عاد يسيبها

فلما فرغ السلطان حسن من كلامه أنشد أبو زيد يقول:

قول أبو زيد الهلالي صادق لازم عن الحيصا أروح أجيبها
أعمل لها حيلة وأنفذ حيلتي أعمل لها سواح ثم طبيبها
أنا لها يا حاضرين فاسمعوا فعلى أبو زيد الهلالي مجيبها
لازم أجيب الفرس بحيلتي أركب عليها ثم أخب خبيبها

فلما فرغ أبو زيد من كلامه قال حسن: يا ابن العم نخاف عليك من بني فاضل قال: المكتوب ما منه مهروب ثم إنه سار لبيته ولبس بدلة بصفة درويش وودع حسناً والأمراء وسار في البراري والقفار حتى لفى على رعيان يسقون المواشي، فرآه شيخ الرعيان وكان اسمه فارس فقال له: من أين أنت يا درويش الخير؟ قال: أنا من بلاد القدس فأشار كبير الرعيان يخاطبه بهذه الأبيات:

يقول الفتى المعروف فارس ولي قلب فيه الهم والأنكاد
يا أيها الغادي إلينا من الضحى من أي البوادي جيتنا وبلاد
فأنت مبارك دعوتك مستجابة فادعي يأتي لنا أولاد
لي بنت عم ما حوى الدهر مثلها مثل القمر والشمس وحسن زاد
ولي خمسة عشر عام ما جاني ولد وما في مراير والقلوب سواد
واللّه أستحي آخذ عليها بديلة لأنها بنت عمي بنيتي ومراد
رد الفتى السواح عما جرى له أنا سايح بالخير والإرشاد
أدور الأماكن والأكابر جميعها وأدور المشاهد كلها وبلاد
أيا فارس اسمع كلامي وافتهم أنا لي عشرة أيام بالأوكاد

وصار على يدي مصالح كثيرة عشرين واحد جالهم أولاد
فهات لي خيط يكون من التوتر واعقد لك عاجل سريع أولاد
فواحد أحمله وواحد لزوجتك تجيك أولاد على الميعاد
ولكن انذر إلى الشيخ زاهد وأبي صالح المدفون في بغداد

(قال الراوي) فلما فرغ أبو زيد من كلامه والراعي يسمع نظامه فراح جاب خيط وتر وعقد له زوجته وعقاده وتلا أسماء من أسماء اللَّه الحسنى فشكر فضله وأحضر له من الطعام ما يكفيه يومين وجلس يأكل تحت ظل شجرة بجانب العين وقال في باله: أقعد تحت هذه الشجرة إلى أن أعرف مكان الفرس يرجع الكلام إلى الأمير حسين الجعبري كان له بنت تسمى عليا وهي بديعة في الحسن والجمال والقد والاعتدال، وقد خطبها كثير من الناس فما كان يعطيها وكان له وزير يسمى مسعود له سبعة أولاد ذكور وبنتان واحدة اسمها مسعودة والثانية سعدا، وكانت عليا تحب سعدا ولا تفارقها ففي أحد الأيام مر ابن الوزير مساعد على صيوان عليا فنظرها نظرة وضعت في قلبه ألف حسرة وعاد إلى البيت وهو لا يعرف الطول من العرض، فنادى عبده وكان اسمه دعي وأشار يقول:

قال الفتى المسمى مساعد يا دعي أسرع نحو أختي ولا تقاف
سير سريعاً يا دعي نادي لها تراها عند عليا بالعطاف
قل لها قومي وسيري بالعجل إن أخوك اليوم في حال التلاف
مرتمي في خيمته نايم ضعيف والدما من جسمه مثل الرعاف
لا تقل لغيرها عن حالتي أتركك يا عبد أنا أربع شقاف
رد الفتى دعي وقال له يا أمير صار في قلبي لهيب مع رجاف
ريت عمرك يطول على المدى وتعيش في خير ولا يصيبك تلاف

(قال الراوي) فلما فرغ دعي من كلامه وسيده مساعد يسمع نظامه سار إلى عند سعدا فلما دخل إلى عندها ونظرته باكي العين قالت: علامك يا دعي بهذه الحالة وأشارت تسأله بهذا القصيد وتقول:

أنا أرتعب قلبي ولبي وخاطري وعاد بقلبي لاعجات النار
أيا عبد أخبرني ما جرى له وكيف بعدي يا فتى قد صار
أنا جيت خليته على الباب واقف وحوله شباب تشبه الأقمار
يكون وقع من فوق ظهر جواده وإلا أحد طعنه وعنه سار
فاصدقني خبر الصحيح الذي جرى وإلا دعيت الدم منك فار
أشوف دموعك يا دعي مغرغرة ودمعك على الخدين كالأمطار

فلما فرغت سعدا من كلامها ودعي يسمع نظامها قال لها: يا ستي سيدي مريض والدم نازل من منخريه فأرسلني لكي أدعوك إليه بالعجل فقامت وتوجهت إلى عند أخيها، ولما وصلت إليه دخلت فوجدته يتقلب يميناً وشمالاً فقالت له: علامك يا أخي فقال لها: يا أختي استريني ما بقي لي حال وراح يخبرها في هذه الأبيات:

قال الفتى المسمى الأمير مساعد ... الدمع من فوق الخدود سجام
النار في قلبي تهب وتنطفي ... قد هب لاعجها وزاد ضرام
نظرت أنا عليا اليوم باكر ... أرمت بقلبي والحشا أسهام
روحي أيا سعدا اليوم بالعجل ... وإلا أزيل لرأسك بالحسام
قومي خديها نحو عين الزرقا ... ما عندها أحد ولا همام
سيري إليها بالعجل ولا تهملي ... لعله أنا شملي بها يلتام
قولي لها قومي بنا للوادي ... للعين نتغسل من الأوهام
إن جيتم للعين أجي من خلفكم ... أغطس وراكم داخل الحمام
وأنت قومي اهربي من بيننا ... حتى أنال لطلبتي ومرام
إذا أنا واصلتها ما تقدر ... تحكي لأبوها قط بالأعلام
تخاف يقتلها ويخفي علمها ... ويذيقها الفنا بضرب الحسام

قالت سعدا: ارجع عن قولك يا أخي؛ لأن هذا الكلام ضد أصول النظام وأشارت إليه بهذا القصيد:

تقول سعدا والدموع سجامي ... يا أخي مساعد اسمع لكلامي
اسمع لقولي يا أخي ثم ارتجع ... عنها وإلا رحت طعم حسام
عليا تراها بنت سلطان العرب ... وأنت أبوك وزيره وغلام
إن طعت نفسك يا مساعد تهلك ... اسكت ولا تنطق بقى بكلام
باللَّه لا تهلك لعرضك يا أخي ... وتعود ما بين الملا تنضام
وأبوك يقتله وعرضها ينفضح ... ويعود دمك بالوطا سجام

(قال الراوي) فلما فرغت سعدا من كلامها قال لها: أنا رايح أدور في البراري والقفار ولا أعود أرجع إلى هذه الديار وقام ليشد على جواده فحن قلبها وقالت له: روح إلى العين حتى أجيب عليا، ثم إنها سارت إلى عند عليا ولما وصلت قالت: لماذا تأخرت؟ قالت لها: أتانا ضيوف يوعظوا في شهر رجب والصيام فقومي بنا حتى نروح على العين نتغسل ونجي ننام فقالت عليا: ما نقدر نروح؛ لأن الشمس غربت وأخاف من أبي يعلم بحالنا ثم أشارت عليا تقول:

تقول فتاة الحي عما جرى لها بدمع جرى فوق الخدود بديد
أنا أريد مثل ما أنت رايده وأريد للغسل حقيق وأكيد
لكن أجانا الليل الشمس غابت نخاف نلاقي بالطريق عنيد
وأبي حط عندي أربعين غشمشم شوفيهم بالعين جميعهم عبيد
وينظروني خوف من ولد الزنا صناديد فيهم كل قرم عنيد
أخاف إن رحت يحكوا لوالدي يخليني تحت السيوف فقيد
لكن باكر يفعل اللَّه ما يشاء ويحكم بنا ما يشتهي ويريد
ردت فتاة الحي سعدا تقول لها قولك أيا عليا ليس يفيد
فكيف تخافي يا أميرة ووالدك أمير ابن أمير من ست وسيد
أبوك سلطان البوادي جميعها شبه الأسد والليث بالبيد
فإن كان مرادك بالقصر تقعدي أنا أروح نحو العين بالتوكيد
فهذا رجب قد هل شهر مبارك من صانه عند الإلٰه سعيد
فإن كان بتريدي أنا لجانبك قومي معي حتى نروح ركيد
ونرجع إلى قصرك قوام جميعنا قومي بنا ننهض بلا تعنيد

فلما فرغت سعدا من كلامها قامت عليا بعد غياب الشمس وسارت ومعها بنات الوزير سعدا ومسعودة حتى قربوا من العين فسمعت تقرقع الخيل فقالت عليا: ما قلت بخاف أنه يطلع علينا أحد ثم إنهما هربتا وتركتاها وحدها فغار مساعد عليها مسكها وقال لها: زمان ما وقعت في هذا المكان وأريد منك الوصال فقالت له: يا مساعد اخزي الشيطان أنا بنت وأشارت تقول:

مقالات عليا يا مساعد قل الهرج عنا والحكايا
باللَّه اعف عني يا مساعد وخلي عنك أفعال الردايا
أنا بنت وما لي بالقبائح وخاف اللَّه خلاق البرايا
فلا تفعل معي مثل غيري أبوك وزيرنا ونحن الولايا
أبي كان يعرف في فعالك فيقتل بوك مع الرعايا
مساعد روح لا تفضح لعرضي ويبقى ذكرنا بين البرايا
ويقتلني وأيضاً يقتلك تحصل فتن وتصير بلايا
رد لها الفتى المسمى مساعد حبك في فؤادي والحشايا
أنا قلبي تعلق في هواك ومدحي فيك يا حلو المزايا
ولا أرتاع من قومك جميعاً ولا أهلك ولا كل البرايا
وأنا الليلة أريد الوصل منك وأحظى فيك يا زين الصبايا
مقالات الفتى المسمى مساعد ولازم عن وصالك يا منايا

ثم رماها على الأرض فصاحت عليا يا أهل الأجواد فصاح أبو زيد من تحت الشجرة وانحدر على مساعد وفي يده السيف ضربه على هامه حط رأسه قدامه، أما أبو زيد فرجع نحو الشجرة فعرفت أنه من أهل المروءة والناموس فغارت على أياديه ورجليه وقالت له: اللَّه يستر على حريمك مثل ما سترتني وما سبب جلوسك تحت هذه الشجرة وأشارت تسأله بهذه الأبيات:

مقالات لعليا في بيوت ونار القلب قد زادت شعيل
عملت معي جميل يا مدلل يا ريت عمرك يكون طويل
ولما جاء مساعد فوق حمرة يريد الوصل مني هالذليل
مسكني ثم طوحني بيده وأرماني على الغبرا جديل
وقد ناديت يا أجواد ليا فجيت لنا كما السبع يميل
ضربت مساعد زلت رأسه وادعيته على الغبرا جديل
كسبت الخير فينا يا مدلل وأنا بويي سلطان جليل
فقل لي أيش اسمك يا فتى وأخبرني عن قومك يا نبيل

فلما فرغت عليا من كلامها وأبو زيد يسمع نظامها قال لها: أنا قاصد أرضكم لحاجة فإن كان تقضيها لي يكون لك أجر عظيم قالت: وحق الرب الجليل أقضي لك إياها ولو كانت الحيصا قال لها: وهذا بي ولا أريد سواها فقالت له: أبشر بها ولو كنت أبا زيد الهلالي قال: أنا أبو زيد، وقد أتيت هنا من أجلها ثم قال:

مقالات الفتى سلامه أنا أبو زيد أنا فارس هلالي
سمعنا أن في نجد العدية فرس حيصا حقيق بلا جدالي
وحكوا عنها بكل ديره أصيلة في الخصائل والفعال
وهي عند الأمير حسين حقاً ابن الجعبري حامي المجالي
فقال لي ابن سرحان المسمى روح للحيصا احضرها بدالي
فقمت وسرت بثياب الرزايا قطعت أنا الفيافي والجبالي
وقلت أنا الفرس بنزل عليها بنوم الناس في جنح الليالي
ولما صار لك ما صار جيتك شبه السبع وسط الغاب صالي
قتلت مساعد فزال همك وزال الشر عنك والنكالي
ولولاي أنا قد راح عرضك ولا عاد لك محالي ولا مقالي

فلما فرغ أبو زيد من كلامه وعليا تسمع نظامه:

قالت فتاة الحي عليا التي شكت ولي قلب من كتر الغباين داب
أيا ريت عمرك ألف عام وأكثر يا خليفة الأجواد والأنجاب

فإن ردت للحيصا قوام أجيبها أيا أمير كل البدر والأعراب
وأن ردت لك من الخيل ألفين سابق سلايل أصايل تسبق النشاب

فلما فرغت عليا من كلامها وأبو زيد يسمع نظامها أشار يقول:

على ما قال أبو زيد الهلالي بلادي بخير ليس فيها بلية
أنا سلطان بني زحلان حقاً وأنا من نسل قوم برمكية
وضيفي دائماً في البيت جالس بإكرام وإعزاز عليه
وتسعين ألف أنا قومي مؤكد وأبو مرعي قبالي بالسوية
أنا فارس الفرسان حقاً كفوفي دوم يا عليا سخية
فقد شفتي فعالي في مساعد ضربته ضربة كانت قوية
وإن جيتكم من نجد قاصد إلى الحيصا حتى أحس المطية
وأنا قد جيت يا عليا البارح وكنت قد وصلت يا عليا عشية
فحبك عاد جوا القلب ساكن ولازم أخذك زوجة الي
ردت له فتاة الحي عليا أيا أبو زيد أبشر بالعطية
أبشر يا أمير القوم فيها تجي الحيصا وعدتها هدية
تجيك اليوم مني يا هلالي تجيك اليوم وهبة عامرية
أيا أبو زيد فضلك أنت سابق كسبت يا أبو زيد الحمية
وغداً يشيع أمري لأبوي وعمامي ليوث قشعمية
ضراغم ثم فرسان عوابس ليوث الحرب إذا جاءت بلية

فلما فرغت عليا من كلامها قالت له: ابق عندك حتى أروح أجيب لك الحيصا فراحت فكت الفرس من قيودها ثم وضعت عليها الدرع والخوذة والسيف والدبوس والرمح وعادت إلى أبي زيد، فأشار يترحب بها ويقول وعمر السامعين يطول:

قال أبو زيد الهلالي صادق قد زال عنك الهم والأنكال
يا مرحباً من أتتنا بالعجل وجابت الحيصا بلا إمهال
يا محسن الحيصا ومحلا شوفها فرس أصيلة ما لها أمثال
إن كان يا عليا تشوفي شدة ابعثي لنا من عندك مرسال
آتي إليك مئة ألف وأكثر وتصير أعداك في عنا وأهوال
ويخلصك من كيدهم وشرهم وأخذك حقاً بدرب حلال
ما عاد لك بعل سوى بالملا إن كان طيبة وإلا بضرب نصال
وآخذك في وسط هودج عالي مفروش من ريش النعام الغالي

والطبل والزمر خلفك يضج وحولك تمشي جميع هلال

فلما فرغ أبو زيد من كلامه وعليا تسمع نظامه قالت له: لا بد أن يحصل لي ضرر بسبب مساعد ويكون خلاصي على يدك، ثم قالت له: أريد منك قبل أن تذهب تنادي وأنت راكب الحيصا بين البيوت أنا أبو زيد الهلالي غزيتكم وأخذت الحيصا إلى العين لحقني مساعد، قال: انزل عن الحيصا ضربته قتلته قال لها أبو زيد: على الرأس ثم العين ثم ودعها وصار ينادي بين البيوت مثل ما قالت له عليا فركبت الخيالة وراءه فما أحد لحقه فرجعوا إلى العين فإذا مساعد مقتول حملوه ورجعوا إلى البيوت، كفنوه وواروه التراب فقال حسين الجعبري: يا عليا ما رأيت الذي أخذ الفرس ثم ضرب العبيد الذين كانوا يحرسونها، أما الوزير فصار يندب ابنه مساعد:

يقول الفتى مسعود عما جرى له بكيت وبكاني الزمان دموع
ولأجل مساعد ما بقالي جلاده والنار في قلبي تزيد لدوع
ومني انقطع ظهري وماتت قوايمي وانقض من جنبي ثمان ضلوع
أنا حسرتي طول الزمان لأجله وقلبي بقي دون الملا مصدوع

فلما فرغ مسعود من كلامه قال له حسين الجعبري: إن فرسي تساوي ألفاً من ابنك، أما أبو زيد فما زال سائراً يقطع البراري والقفار إلى أن وصل إلى بني هلال فاستقبله حسن وأنشد يقول:

قال الفتى الأمير أبو علي ولي قلب زاد اليوم بالأفراح
أيا مرحباً بك يا أمير سلامه أيا فارس الفرسان يا جحجاح
أيا مرحباً من طال بالشرق غيبته وجانا على الحيصا كبرق لاح
وجاب لنا الحيصا وفرج قلوبنا وفعلك علينا دوم فعل نجاح
الحمد للَّه الذي جيت إلينا سالم وجبت إلينا درع ورماح
أبو زيد قلي كيف رحت وجيتنا واحكي لنا يا أمير بالإصلاح
رد الفتى المسمى سلامه وقله لي عزم مثل النمر لما طاح
أنا رحت إلى الحيصا سريع أجيبها بدق وركوة بحيلة السواح
تميت أمضي شهر تا جبت دراهم لفيت على رعيانها ورماح
فقلت لهم سواح قال مرحباً بك وجيت أنا لعين ماءها قد ساح
لقيت أنا بجنب العين يا ملك شجرة كبيرة وحولها تفاح
وأنا في حساب وألا خيال قد أتى إلى العين تحته أدهم نطاح
وشفت ثلاث بنات مغندرات لهم خدود تشبه التفاح

فلما وصل للماء غار على النساء هرب منهم اثنين كالأشباح
فقالت لهم الثالثة كيف تهربوا وتدعوني وحدي والعقل راح
فأرادت تروح راح إليها جابها وقال لها ما لك نجا ورواح
أيا عليا أنت مرادي وطلبتي أريد وصالك أن يكون سماح
فقالت له أنت أبوك وزيرنا أما تختشي من هذه الأقباح
فقال لها حبك دعاني مسوسح وأبوك عندي مثل هب رياح
وقام رماها يا أمير على الثرى وعادت على ظهرها ملقاح
قالت يا أجواد من يعينني أعطيه مالاً وخيل ملاح
فزيت مثل السبع إليهم بلا بطا ضربته بسيفي ورأسه قد طاح
قالت فعلت معي جميل أنا فتى سترت لعرضي كان عرضي قد راح
لكن أخبرني عن أصلك واسمك ومن أي قوم أنت يا جحجاح
فقلت لها لي عندك حاجة أريد قضاها عندك بغير مزاح
طلبت لها الحيصا فراحت لربعها فجابتها بالدرع والأشباح
وقالت اركب وصيح بصوتك أخذت الفرس والقيد والمفتاح
وابن الوزير مساعد أنا قتلته وخليت دمه على الوطا ساح

فقال حسن: يا ابن العم يكون لك مني مائة ناقة ومائة فاطر قال أبو زيد: حرام آخذ شي، لكن قوموا حتى نجربها فركبها جميع الحاضرين فما كان أحد يضبط فوقها حتى ولا السلطان حسن فقال لهم: ما أحد يقدر أن يركبها إلا الذي جابها.

أما أولاد الوزير إخوة الأمير مساعد راحوا إلى الصيد والقنص ورجعوا مسرورين قالت أختهم سعدا: أخوكم مقتول وأنتم في فرح وسرور فقالوا لها: لو عرفنا غريمه ومن قتله أخذنا بثأره. قالت: غريمه عليا ابنة الأمير حسين الجعبري، فقالوا لها: كيف غريمه عليا؟ قالت لهم: قبل اليوم الذي قتل فيه رأيته أنا عند عليا وقت المساء، وفي ثاني الأيام وجدناه مقتولاً فلما سمع أخوها سعد هذا الكلام سار إلى صيوان الأمير حسين الجعبري فلما وصل قال له: يا ملك الزمان أخونا قتل في علم ابنتك عليا فقال له الأمير حسين: ويلك أخوك قتل في علم ابنتي فحينئذٍ حكى له مثلما قالت له أخته سعدا، فأرسل وراء عليا وسألها عن ابن الوزير كيف قتل. لأن أخاه سعداً حضر إلى هنا وقال: أخوي كان وقت المساء عند ابنتك وأصبح مقتولاً فأشارت تخبره بهذا القصيد وتقول:

مقالات لعليا في بيوت اسمع يا أبي هذه الحكاه

وقولي صدق ما به قط كذبا وأنا عندي شهود بما جراه
فجتني الست سعدا يا أبوي وجتني أختها تغريني أناه
وقالت لي انهضي ثم سيري إلى الوادي واسمع يا مناه
لنلعب ثم نسبح بالبحيرة لأن رجب أتى في ابتداه
فزيت وسرت أنا معها بليلة وقلبي خائف من هجراه
ولما إن أتينا للبحيرة أتانا فارس مثل الهباه
لحقني فوق حمرة سباقية فصحت بصوت عالي بالوداه
أرماني هو على الأرض عاجل وأراد الفحش يا أبي كماه
فصحت وقلت يا أجواد الي أتاني رجل في صوت وجاه
وغار لنحونا يا أبي سريعاً وخلى دماءه سايلاه
وقال انهضي وسيري لأهلك واحكي كلما صار وجراه
فقلت أنت ترى من أي قوم وما اسمك وما اسم الحماه
فقال لا أقلك قط اسمي أنا رجل غريب من الوداه
فقلت إن كان تطلب مال عندي خزاين مال كلها طافحاه
وإن تطلب إلى الحيصا أجيبها بعدتها وسرج متمناه
فقال لي أنا ما أريد سواها لأني جيت من أجلها أناه
وجبت له الفرس والسرج جملة وسيف وترس يتقلد معاه
وقلت له تغدى في جموعي وصيح بصوت عالي يا فتاه
وقل أنا أخذت للحيصا بواكد وقد جاني مساعد للوغاه
ضربته ضربة أرميت رأسه وخليته على الغبرا هفاه
قال لي إن تضايقني بضيقه فودي لي كتاب لأقرأه
أجيك راكب الحيصا بقومي طبول هلال خلفي للوغاه
تسعين ألف قومي يا صبية وتسعين ألف أيضاً بلا خفاه
وتسعين ألف مع تسعين ألفاً كلها شباب نقالة قناه

فلما فرغت عليا من كلامها وأبوها يسمع نظامها قال: كيف تقولون يا قوم في فعل الوزير وأولاده، فقالوا: أرسل وراء أبي زيد فإن جاء وخبر مثل ما قالت عليا يكون صحيحاً أبقى أفعل ما تريد فقال للوزير: هذا العمل عملكم وأنتم تطلبون ثأر مساعد مني فقال الوزير: واللّه يا أمير مالي علم من كل هذا الكلام ولكن الذي تريده أنت افعله فقال: نرسل وراء أبي زيد فإذا حضر فنظر صحة الأمر وأشار يستدعي أبا زيد بهذا القصيد:

قال الفتى حسين الجعبري قلبي لمن فضله علينا طاب

يا غادياً مني على متن ضامر تسبق هبوب الريح مثل سحاب
إن جيت إلى نجد العدية وأرضها نيخ جوادك يا فتى بالباب
وأقري سلامي للأمير أبو علي وبدير والزغبي الأمير دياب
وأقري سلاماً مني وألف تحية لأبي زيد الي يقصده ما خاب
أنت عملت معي جميل وطيب من أجل عرضي كان راح وساب
للو كنت تأتيني وتطلب حاجتك لكنت أنا أعطيك فوق طلاب
عليك ألف أمان مني يا سلامي حاشا بأنك عندنا تنصاب
لأن عليا قد بقيت لك زوجة هذه لك من أعز الأحباب
مالك عندي جزا سوى أرواحنا وسلاحنا وأموالنا وأسباب

ثم ختم الكتاب وأرسله مع نجاب وبينما هو ذاهب استدعته عليا لتعطيه مكتوباً إلى الأمير أبي زيد وأشارت تقول:

قالت فتاة الحي عليا في بيوت النار في قلبي يزيد شعالها
يا غادياً مني على متن ضامر تقطع سهول البر ثم جبال
إن جيت إلى نجد العدية وأرضها اقرأ سلامي إلى ملوك هلال
واقري سلامي للأمير سلامة قرم غشمشم من فروع طوال
اقريه مني ألف ألف تحية وخصصه بالفضل والأفضال
وقل له عليا بهم وشدة تقاسي الشدايد يا ملك وأهوال
قد ذاب جسمي يا سلامة والحشا من نحو سعدا صار هذا الحال
من أخوها يا أمير مساعد هذا الذي قد صار يا مفضال
فقلوا بنتك يا حسين الجعبري تعرف غريم مساعد بالحال
ما عاد لي خلاص منها ولا نجا تعال لعندي أبو زيد يا مفضال

ثم أرسلت كتابها مع كتاب أبيها فلما وصل الساعي إلى نجد دخل على الأمير أبي زيد وقدم له الكتاب فقرأه ثم قرأه السلطان حسن ودياب والقاضي بدير، وبعد أن قرأوا المكاتيب قال حسن: فما تريد يا أبا زيد؟ قال: أريد مائتين من الأمراء والأبطال يسيرون معي إلى بلاد الحسب والنسب والقيطاف لعند الأمير حسين الجعبري، فقال دياب: حباً وكرامة وأنا أتكفل بقطع رأس الوزير ثم نأتي بعليا وتلعب الخيل قدامها ثم إنهم شدوا خيولهم وركب أبو زيد الحيصا ودياب ركب الخضرا وركب القاضي جواده وساروا أمام الخيل والفرسان يقطعون البراري والهضاب حتى نزلوا عند الأمير حسين الجعبري فاستقبلهم بفرح وسرور وهنأوهم بالسلامة وأكرموهم غاية الإكرام وأشار حسين الجعبري يترحب بهم وينشد:

يقول حسين الجعبري أيا مرحبا أهلاً وسهلاً في رجال هلال
يا مرحباً بك يا أمير سلامة يا قاهر الأبطال يوم المجال
يا مرحباً بك يا بدير بن فايد يا قاضي العربان يا مفضال
أهلاً وسهلاً بالزائرين كلهم عدد ما مشيتم سهلها وجبال

ثم ذبح لهم الذبائح وخلع عليهم الخلع الفاخرة، أما الوزير مسعود فلم يستقبل بني هلال ولم يحضر الاحتفال بهم بل قال لقومه: لنقتل أبا زيد ومن معه ونأخذ بثأر ابني مساعد وإن منعنا أبو عليا عنهم نقتله أيضاً ونأخذ الأملاك ونسبي الحريم فقالوا له: أرسل ابنك سعيداً يقتل أبا زيد وننظر ماذا يكون فسار سعيد يدور على أبي زيد فرآه يتمشى خارج القصر، فقال له: أنا لي عندك ثأر لا يمحى إلا بقصف عمرك وصار يتهدد عليه بهذه الأبيات:

قال الفتى المسمى سعيد بما جرى النار شبت بقلبي وفؤادي
أبو زيد يا بركات يا ولد الزنا قتلت أخي واختفيت وسط الوادي
واليوم نأخذ الثأر منك يا ردي نحن ليوث الحراب بالمطراد
لا بد عن قتلك وقتل رفاقك ونرمي جثتكم للوحش بواد
رد أبو زيد الهلالي وقال له لا بد ما تغدي بسيفي بداد
أنا أبو زيد الهلالي واسمي سلامه أرديت أخوك مساعد بالجماد
من أجل فعله القبيح قتلته وأخذت الحيصا ورحت لبلادي

فلما انتهى أبو زيد من كلامه تجاولا ساعة من الزمان ثم ضربه أبو زيد بعرض السيف فألقاه على الأرض وخاف سعيد أن يقتله أبو زيد فاستجار به أن يعفو عنه، فعفا عنه وأطلق سراحه فحكى لأبيه عما صار فيه فوبخ ابنه ووصفه بأنه جبان ثم أمر قومه بالركوب فركبت العساكر خيولها واستعدت للقتال، أما حسين الجعبري فسأل أبا زيد عما حصل له مع سعيد فقال له: جاء يهددني وأراد أن يقتلني فضربته بعرض السيف وقع على الأرض فقال: سامحني فسامحته وأطلقت سراحه فعرف حسين الجعبري أن الوزير مسعوداً هو الذي حرض ابنه ليقتل أبا زيد، فقال: لا بد من قتل الوزير ومن يلوذ به وأدفع لكم أمواله وخيله هبة لكم ثم إنه أمر بدق الطبول وتجهيز العساكر فتحضروا وكان الوزير قد استعد للقتال فلما التقت العين بالعين برز الوزير مسعود إلى الميدان وصاح ابن أبي زيد صاحب المكر والكيد. فبرز إليه حسين الجعبري وصدمه صدمة جبار ورده إلى الوراء وثبت الوزير واشتد بينهما القتال وعظمت الأهوال وضرب الوزير حسين الجعبري فأبطلها بمعرفته وحسن درايته وسحب بيده الدبوس وضرب به مسعوداً فأتت الضربة على

رأسه طيرت جميع أضراسه فوقع على الأرض فأسرع قومه إليه وخلصوه من الموت ثم التقت الرجال بالرجال وجرى بينهم حرب شديد يشيب رؤوس الأطفال، وكانت وقعة مهولة وكان الرابح الوزير مسعود لأنه قتل من قوم الأمير حسين الجعبري ألف فارس ولم يقتل من قوم الوزير سوى خمسين فارساً، ولما وصل الخبر لأبي زيد صاح بقومه ساعدوا الأمير حسين الجعبري فهبوا كالأسود وتوجهوا إلى ساحة الميدان وغاروا على قوم الوزير وقتلوا منهم كثيراً من الأبطال والفرسان وردوهم عن قوم الأمير حسين الجعبري والتقى الأمير سعيد ابن الوزير بالأمير أبي زيد وجرى بينهما قتال عظيم وحرب جسيم وصاح فيه أبو زيد وضربه بالحسام أطاح رأسه على الثرى، فبرز إليه أخوه مطر فصال وجال حتى حير عقول الرجال واشتبك مع أبي زيد في قتال مرير تغلب فيه أبو زيد وضربه على هامه حط رأسه قدامه فنزل أخوه علي وصدم أبا زيد صدمة تزعزع الجبال وتقاتلا وتضاربا حتى تعب تحتهما الجوادان وضرب أبو زيد خصمه فجاءت الضربة على عنق الجواد برته كما يبري الكاتب قلمه فوقع على الأرض فغار عليه قومه وخلصوه وعلى جواد آخر ركبوه والتقت الأبطال بالأبطال وجرى الدم وسال وقد فتك أبو زيد وقومه فتك الأسود وأسروا من قوم الوزير ثلاثمائة فارس وربطوهم بالسلاسل والقيود وظلوا في حرب شديد حتى أقبل الظلام فافترقوا إلى ثاني الأيام دقت طبول الحرب والصدام فبرز الأمير أبو زيد إلى ساحة المجال فصال وجال ولعب برمحه العسال حتى حير عقول الرجال، فبرز إليه الأمير أبو علي ابن مسعود فالتقى البطلان كأنهما جبلان وزعق عليهما غراب البين وما زالا في افتراق والتحام إلى نصف النهار، ثم إن الأمير أبا زيد ضربه ضربة جبار على رأسه فوقع على الأرض مع جواده أربع قطع فنزل إلى الميدان أخوه بدر وتجاول مع أبي زيد ساعة من الزمان حتى قتله أبو زيد وصارت تنزل إليه الفرسان وهو يجندلها في الحرب والطعان حتى قتل من قوم الوزير مقدار ألف فارس. وفي المساء رجع أبو زيد من الميدان فاستقبله الأمير حسين الجعبري وذبح لهم الأغنام ولما أصبح الصباح نزل دياب إلى الميدان على ظهر فرسه الخضرا وطلب مبارزة الفرسان فبرز إليه سعدون ابن الوزير وحمل على دياب حملات منكرة تهدد الجبال الراسيات وتقاتلا في ساحة المجال حتى حمي الحر، فعندها افترقا عن الساحة بقصد أخذ الراحة ثم عادا إلى الحرب والكفاح وضرب الصفاح وكان السابق بالضرب الأمير دياب ونزل السيف على سعدون فشقه نصفين فوقع على الأرض قطعتين فبرز إليه أخوه وصدم الأمير دياب صدمة منكرة وتطاعنا بالرماح وتثلمت بأيديهما الصفاح وما زال دياب يحارب خصمه حتى أتعبه

وضربه بالسيف على هامه حط رأسه قدامه فعند ذلك صاح الوزير بعساكره خذوهم على أسنة الرماح والتقت الأبطال بالأبطال وجرى الدم وسال وتقطعت الأوصال وظلوا في حرب إلى المساء افترقوا عن بعضهم. أما عساكر الوزير فعولوا على الهرب وفي اليوم الثاني نزل الوزير إلى الميدان فبرز إليه القاضي بدير وكان الوزير قد يئس من النصر وقد رأى جنوده تصرع ورجاله تهرب فقال للقاضي: أنا أريد أن ألقي السلاح ولا أريد أن أحاربك على شرط أن تعطوني الأمان، فقال القاضي: عليك الأمان مني ومن بني هلال جميعاً أنت وأهلك ومالك وافترقا على سلام ورجع القاضي من الميدان وأخبر الأمراء بأن الوزير طلب الأمان ويريد الصلح فأجبته إلى مبتغاه وارتحنا من الحرب والقتال، أما أبو زيد فكان غائباً مع ثلة من جنوده يدبر خطة للهجوم على الوزير وليس معه علم بما أجراه القاضي فغار بمن معه على قوم الوزير وجددوا فيهم ضرب السيف البتار ونهبوا أموالهم وسبوا حريمهم وعيالهم واجتمع أبو زيد بالوزير وقد ظنه هارباً فذبحه ذبح الغنم وشتت قومه في البراري والقفار، ولما عادوا من القتال ملطخين بالدماء سألهم حسين الجعبري عن السبب فحكى لهم عما فعلوه بالوزير وقومه فقال القاضي: إن الوزير طلب الصلح والأمان فأمناه وحقنا دمه فقال أبو زيد: أنا ليس لي علم بذلك ولكن هذه إرادة اللّه حينئذٍ شكرته جميع الفرسان وأثنت عليه فأمر الأمير حسين الجعبري بذبح الأغنام، ثم قامت الأفراح ورقصت النساء والبنات ولما أحضروا الموائد أكلوا جميعاً وعزموا سائر العربان، وأما حسين الجعبري فأرسل المكاتيب إلى السلطان حسن وإلى زيد العجاج وزيد ابن شرهان والقاضي مقرب وإلى الملك الأحمر وإلى جميع قبائل العربان من كل مكان حتى يحضروا عرس الأمير أبي زيد ولما وصلت الأخبار إليهم فرحوا غاية الفرح وتوافدت الرجال من جميع الجهات ومعهم الهدايا من حرير ومال قاصدين ديار الأمير حسين الجعبري فاستقبلهم وفرح بحضورهم ودقت النوبات وزلغطت النساء والبنات وسلموا على بعضهم ونصبوا لهم الخيام وأحضروا الطعام والشراب وسمعوا ضرب الطبول وصهيل الخيول، وإذا بقدوم فرسان وأبطال على خيول أخف من الغزلان وهم من قوم الملك الأحمر والقاضي ابن مقرب ومعهم هدايا يكل عن وصفها اللسان فنزلوا عن خيولهم وسلموا على الأمراء سلام الأحباب فترحبوا بهم غاية الترحيب ولما أخذوا راحتهم مدوا لهم مائدة كبيرة وضعوا عليها جميع أنواع الطعام فتقدمت السادات على الصفين فأكلوا هنيئاً مريئاً وقدموا الشكر للأمير حسين وللسلطان حسن ولأبي زيد ودياب. وكانت النساء قد ألبست الست عليا الثياب الفاخرة والحلى الثمينة ووضعوا في عنقها عقداً

من الجوهر وفي يديها أساور زمرد مرصعة بالذهب، فكانت كالشمس في رابعة النهار ونصبوا لها صيواناً مرصعاً بالعاج والذهب الوهاج والزمرد والألماس وألبسوا الأمير أبا زيد أفخر الثياب وقلدوه بسيف محلى بالجواهر الكريمة والمعادن الثمينة ونصبوا له صيواناً عالي الشان عواميده من الرخام وفي أعلاه عشر قبب مرصعة بالذهب على كل قبة طير من الزمرد عيناه من المرجان ورجلاه من الزبرجد وفي فمه جوهرة، ثم أحضر القاضي وكتبوا كتاب الأمير أبي زيد على الست عليا ثم أدخلوا العريس على العروس بفرح وسرور وباركوا لهما بهذا القران الميمون ولم يزالوا في الضيافة مدة خمسين يوماً بعد ذلك طلب أبي زيد من الأمير حسين الجعبري الإذن بالذهاب إلى الأوطان، فدقت طبول الرحيل وحملوا الأحمال على ظهور الجمال وركبت الفرسان ظهور الخيل وشدوا إلى الست عليا هودجاً مجللاً بالحرير الأخضر والذهب الأحمر وأمامهم هوادج البنات وساروا حتى أشرفوا على الديار فأمر السلطان حسن بذبح الأغنام وتحضير الطعام فشكره الخاص والعام.

قصة الملك الديدبان

(قال الراوي) أما الملك الديدبان فكان يسكن في بلاد الهند ويحكم على ثمان كرات من العساكر وله ولدان الأول زعيم الخيل والثاني كاسر الرجال فركب الديدبان في ألف فارس وخرج إلى الصيد والقنص يقطع البراري والقفار وهو يرمي الأرانب والغزلان حتى وصل إلى حدود نجد فعلاه الهم والكدر فقال: آه يا فرسان يا حبذا صيدة من بني هلال حتى آخذ منهم بالثأر وأزيل العار بضرب هؤلاء الأشرار ثم أنشد:

مقال الديدبان عما جرى له ... النار في قلبي تزيد وقادي
بنو هلال أعدانا قديماً ... من عهد الآباء والأجداد
ابن عمي سار لعند ابن عمه ... يريد بنت عمه بالوكاد
رآه مخيبر بالبراري ... ابن أبو زيد نسل أجواد
تلاسنوا بالحكي وصار شر ... تعدلت الفوارس للطراد
وابن العم قد قنطر مخيبر ... خلى قومه تولي شرادي
خرج عنده عبد يسمى ... أبا القمصان في صوته ينادي
قتل عند اللقا جملة فوارس ... ادعى دماهم جاري بدادي
وبعده ظهر سيده سلامه ... كنار تهب من الزناد
وديباب الخيل غاير بسرعة ... على خضره تصول على الأعادي
وصاحوا بالفوارس شتتوهم ... شرايد في جبال وبوادي
هجم ابن عمي على الفوارس ... ضربه أبو زيد قطع منه الأيادي
سمع عمي بقتل القوم حقاً ... جمع فرساناً يتوه فيها عدادي
جاءهم غائراً من فوق أدهم ... واشتد القتال بيننا وبين الأعادي
قتل أبو زيد عمي سريعاً ... وخلى الحزن داخل فؤادي
سألت اللَّه يرميهم بيدي ... حتى أبلغ من هلال مرادي

فلما فرغ الديدبان من كلامه قالوا له: لنعد إلى بلادنا ونجمع العساكر والأبطال ونفاجئ بني هلال بحرب لا تبقي ولا تذر، فقال لولديه: خذا معكما شرذمة من الفرسان ودوروا في البلاد لعلكم تجدون أحداً من بني هلال فاقتلوه

واحفظوا أنفسكم وأنا راجع إلى البلاد أجمع لكما العساكر والجنود، ثم ركب بمن معه من قومه وعاد إلى بلاده، أما ولداه زعيم الخيل وكاسر الرجال فإنهما سارا بثمانمائة فارس في أراضي نجد فوصلوا إلى وادي الغزلان فرأوا جماعة من بني هلال في الصيد والقنص وهم الأمير زيدان والأمير مخيبر وأخوه وأولاد أبي زيد وموسى ابن الأمير دياب وحسن ابن مزيد وباقي الشباب، وقد بلغ عددهم خمسين أميراً وكانوا يشوون لحم الغزلان ثم وضعوا الطعام وجلسوا يأكلون أما عكرمة ابن أبي زيد فلم يجلس على الطعام. وقال لهم: إن قلبي يحدثني عن وجود أعداء ينزلون علينا وفجأة أقبلت عليهم الخيل مثل الجراد فصاح عكرمة بالشباب دونكم وهؤلاء الأعداء ثم أطلق جواده وأرخى عنانه وانقض على الخيل فقتل منهم خمسين فارساً فتقدم إليهم زعيم الخيل، وقال لهم: من أنتم؟ فقال له: نحن شباب بني هلال فقال له: أنتم طلبنا وقد وقعتم بيدنا وما بقي لكم خلاص ثم أنشد:

يقول القرم زعيم الخيل ... والنار في قلبي تهب وتضرمي
لنا عندكم ثارات قديمة ... نريد أخذها وزيادة مغنم
لا بد ما أدعيكم قتلي على الثرى ... وتذوقوا كاس سم الأرقم
وبناتكم تبقى سبايا عندنا ... إن كنت عايف روحك قدم
رد الأمير ابن أبو زيد وقال له ... أنا عكرمة في الحرب قرم غشمشم
لو ترى زيدان شيخ شبابنا ... وأخاه دياب الخيل يوم الموزمي
أتيت لحربي لا تقل غدرتني ... كم فارساً راح مني مرتمي

فلما انتهى عكرمة من كلامه انحدف على زعيم الخيل والتحما بحرب يشيب الطفل الوليد وبدر منهما ضربتان ماضيتان، أما ضربة زعيم الخيل فراحت خائبة وأما ضربة عكرمة فحكمت على عنق الجواد فوقع على الأرض فأدركه أخوه كاسر الرجال وأخذه من الميدان والتقت الفرسان بالفرسان والأبطال بالأبطال وحاقت بني هلال البلايا والشدات لأنهم قليلون فصاح زيدان صوتاً كأنه الصاعقة نزلت من السماء وصار ينخي قومه على الثبات والقتال فصاحوا اللَّه أكبر على من طغى وتجبر وهجموا على زعيم الخيل واشتد القتال وجرى الدم وسال واشتبك زيدان مع زعيم الخيل وتقاتلا أشد قتال نحو ساعة من الزمان وما زال السيف يعمل والدم يبذل إلى المساء، فرجعت الفرسان من المعركة وباتا يتحارسان. وفي الصباح ركب زيدان بمن معه من الأبطال والتقت الرجال بالرجال فما كنت ترى إلا رؤوساً طائرة وخيولاً غائرة وقد اشتد القتال على بني هلال فخاف زيدان من عواقب الأحوال، فقال لموسى بن دياب: اركب واقصد نجد واعلم السلطان حسناً بما أصابنا حتى

يدركنا بالفرسان والأبطال فركب موسى وأسرع إلى نجد فدخل على السلطان حسن وأعلمه بما جرى عليهم من المصائب، فعند ذلك أمر السلطان بالاستعداد للحرب فركبت الفرسان وركب السلطان حسن مع باقي الأمراء وخفقت الرايات وجدوا في المسير. فلما وصلوا وجدوا عساكر الديدبان متفوقة على بني هلال من كل جانب ونازلين عليهم ضرب مثل زخ المطر وهم يحتمون وراء الصخور والأشجار فصاح أبو زيد بالعساكر عليهم: أيها الأبطال خلصوا رفقاءكم من الهلاك وهجم أبو زيد على عساكر الديدبان بمن معه من الأبطال والفرسان وصاح: أنا فارس الفرسان ومبيد الشجعان أنا أبو زيد ليث الميدان وحكم فيهم ضرب السيف وطعن النبال وتقدم الأمير دياب في بني زغبي وانطبق على عساكر الأعداء فمزق الصفوف وشتت الألوف وجرت موقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير وهجم زعيم الخيل على أبي زيد وهجم كاسر الرجال على دياب بضرب السيف وطعن الرماح وكان دياب أشجع وأعرف بمواقع الطعن، فضرب كاسر الرجال بسيفه وقطعه نصفين فترك زعيم الخيل خصمه وهجم على دياب وتلاحما في ساحة الميدان وطعن زعيم الخيل دياب بالسنان فغطس دياب تحت بطن الجواد فصابت الطعنة الجواد فوقع دياب على الأرض، فأحضر بنو هلال له جواداً آخر فركبه وصاح في خصمه وهجم عليه كسبع الغاب وأخذا في الطعان والصدام مدة ساعة من الزمان ولله در الأمير أبي زيد فإنه هجم على الأعداء ونكس الرايات وقتل كثيراً من عساكر الديدبان. وكان قد ولى النهار بالاعتكار فدقت طبول الانفصال فافترقت العساكر عن القتال ورجع دياب مقهوراً لأنه لم يحصل على بلوغ المراد وفي الصباح ركبت الفرسان ظهور الخيول وقصدوا ساحة الميدان واشتبك القتال بين الفريقين والتقى زعيم الخيل بالأمير دياب وتقاتلا قتالاً عظيماً فاستظهرت بنو هلال على عساكر الديدبان وأبلوهم بالذل والويل فكتب زعيم الخيل إلى أبيه يطلب منه المساعدة فأنشد يقول:

يقول زعيم الخيل عما جرى له ... ونيران قلبي زايدات الشعايل
أتتنا قروم هلال من كل جانب ... على خيول ضامرات أصايل
عقيدهم زيدان شيخ شبابهم ... أمير جليل حاوي للفضائل
أتانا الفتى الزغبي دياب الغانم ... قتل كاسر خلى دمه سايل
فإن لم تنجدنا هلكنا جميعاً ... لم يبق منا واحد يقاتل

ثم أرسل الكتاب إلى أبيه الديدبان فلما وصل إليه الكتاب وقرأه تأكد صدق المنام؛ لأنه بعد أن أرسل ولديه رأى مناماً أزعجه وهو أن سبعاً قطع إحدى يديه

وهجم عليه سبع آخر فأعدمه الحياة فلما نهض من نومه مزعوجاً طلب الرمَّال، فلما حضر قال له: فسّر لنا هذا المنام وحكاه له فقال: أعطني الأمان لأفسره لك على حقيقته فأعطاه الأمان فأنشد:

يقول زريق من قلب حزين ودمع العين فوق الخد جاري
ضربت الرمل فبانت لي حروفه ونجم العكس ظاهر كالنهار
رأيت أولادك في ضيق عظيم وكاسر مات في وسط البراري
فأدركهم بجيشك يا مليكي وخلصهم من ضيق وانكسار

فانشغل بال الديدبان على ولده وباقي الفرسان بعد أن بكى على ولده ثم جمع العساكر والأبطال وأرسلهم مع ابن أخيه الغضبان فجد السير في هذا الجيش وقطع الروابي والتلال قاصداً بني هلال الذين تغلبوا على زعيم الخيل وأحاطوا به وبجيشه من كل مكان، فصاح زعيم الخيل بقومه قائلاً: تشجعوا أيها الأبطال وقاتلوا الأعداء قتال الموت قبل أن يقتلوكم أو يأسروكم فالتقت الأبطال بالأبطال وعظمت الأهوال وجرى الدم وسال وهجم أبو زيد والأمير دياب وباقي الفرسان هجوم ليوث الغاب. وما انتصف النهار حتى تأخر زعيم الخيل وأيقن بالهلاك والدمار وإذا بغبار قد ظهر وبان من تحته عساكر وأبطال بعدد الرمال يتقدمهم بطل مسربل بالحديد، فصاح على بني هلال اليوم ترون منا الأهوال فقد أتاكم الغضبان ثم إنه حمل عليهم وتبعته فرسانه وطعنوا بني هلال وقتلوا منهم عدة رجال فتصدى زيدان للغضبان وصدمه صدمة قوية واقتتل معه إلى نصف النهار وكان زيدان قد ضايقه وسد عليه جميع الطرق وطعنه بالرمح في صدره خرج يلمع من ظهره. فلما رأت عساكره ما حل به حملت على بني هلال مثل السباع فالتقت الرجال بالرجال وتقطعت الأوصال وجرى الدم وسال وعند المساء رجعت الفرسان عن الحرب وكان الديدبان أتى للميدان واجتمع بولده زعيم الخيل فسلم عليه وأعلمه بما جرى على الغضبان من الأمير زيدان وفي الصباح ركب الديدبان بالفرسان وطلب ساحة الميدان وركب السلطان حسن بفرسان بني هلال اشتد القتال وعظمت الأهوال وهجم الملك الديدبان على العساكر هجوم الأسود وفعل أفعال نمرود، وكانت الرجال تبتعد عنه أما الأمير دياب فالتقى بزعيم الخيل فتجاول معه في معركة الصدام فأذاقه العذاب الأليم وطعنه بالرمح في صدره خرج يلمع من ظهره، فلما رأى الديدبان مصرع ابنه عظمت مصيبته واسودت الدنيا في عينيه وحمل على دياب واقتلعه من على ظهر الخضرا ورماه على الأرض فأسرع أبو زيد وصاح بالديدبان أتاك أبو زيد فترك الديدبان دياب والتفت إلى أبي زيد وأنشد يقول:

يقول الملك الديدبان بما جرى أنا فارس الهيجا أنا المغوار
أنا البطل الصنديد في حومة الوغى أبيد الفوارس ميمنة ويسار
فمن أنت يا كشحان تبرز للقى فلا بد عن قتلك يا غدار
ولا بد ما أفنيكم في ساحة الوغى وتذوقوا مني علقماً ومرار

فلما فرغ الديدبان من كلامه أجابه أبو زيد يقول:

يقول أبو زيد الهلالي سلامه ونيران قلبي زايدات شعال
أيا ديدبان أنت اليوم فريستي ولا بد عن قتلك بغير محال
ونقتل جيوشك كلها بسيوفنا ونملك بلادك سهلها وجبال
ارجع من الميدان من قبل الفنا واسلم بروحك من سيوف هلال

فلما انتهى أبو زيد من تهديد الديدبان حمل عليه وتقاتل معه أشد قتال وكانت الحرب قائمةً بين العسكرين حتى ارتجت البطاح من الزعيق والصياح وضرب السلاح، وما زالوا في حرب وصدام حتى استطال أبو زيد على الديدبان وطعنه بالرمح في صدره خرج يلمع من ظهره. فلما رأت عساكره مصرعه ولوا الأدبار وفروا من المعارك فتبعتهم بنو هلال حتى أوصلوهم إلى بلادهم فكسبوا غنائمهم وأموالهم وملكوا بلادهم ثم إنهم جعلوا الأمير خوجند ملكاً على الهند بشرط أن يعدل في الأحكام ويدفع الجزية في كل عام لبني هلال ثم رجع بنو هلال بالعز والنصر إلى بلادهم فاستقبلتهم النساء والبنات بالأفراح والمسرات وطابت لهم الأوقات وأتتهم الهدايا من جميع الجهات واستراحوا من الحروب والقتال.

قصة زين الدار

(قال الراوي) بينما كان السلطان حسن جالساً في الديوان دخل عليه ثلاثة من الشعراء فدعوا له بالعز والنعم وبعد أن أكرمهم سألهم من أي البلاد أنتم؟ فقالوا له: نحن من بلاد الحجاز، وقد سمعنا بجودك وكرمك فقصدناك طمعاً بجوائزك ثم إن الشعراء مدحوا السلطان بقصائد بليغة فأنعم عليهم بألف دينار فشكروه شكراً جزيلاً ثم ذهبوا لصيوان الأمير زيدان شيخ الشباب ومدحوه بالأشعار، فأكرمهم وخلع عليهم الخلع الحسان ثم قال لهم: هل سمعتم أو رأيتم بنتاً بديعة الجمال موصوفة باللطف والكمال وحسن الخصال؟ فقال مفراج: يوجد في بلاد الهند بنت أزهى من البدر وليس لها نظير في الجمال ومحاسن الصفات وهي زين الدار بنت الملك الغطريف ثم أنشد يقول:

طفت البلاد شرقاً ومغرباً ... حتى وصلت الهند والأطلال
مدحت سيدها وحامي قطرها ... شهم كريم بالسخا مفضال
رأيت بنته يا أمير كأنها ... بدر السما بالحسن وجمال
لها قامة مثل الرديني طولها ... ما شافها أحد إلا وعقله زال

فلما انتهى الشاعر من كلامه هام زيدان بحب زين الدار ثم أكرم الشاعر وصرفه فصمم على السفر ليرى زين الدار فركب وسار دون أن يعلم أحداً من بني هلال وليس معه أحد سوى عبده مفتاح وبعد أن قضى بالسفر عشرة أيام اجتمع بالأمير عجاج ابن زيد العجاج، فقال له: لماذا يا أمير زيدان أنت وحدك في هذا المكان؟ فقال له: أنا قاصد الهند لأتزوج زين الدار بنت الملك الغطريف فتعجب الأمير عجاج وقال لزيدان: إن الطريق كثير الأخطار وإني لا أدعك تلقي نفسك في المهالك وإذا كان لا بد لك من الذهاب فإني أذهب معك ثم أمر عجاج خمسة وعشرين فارساً أن يركبوا معهم وجدوا في قطع البراري والقفار حتى وصلوا إلى بلاد الهند، ولما قربوا من مدينة الغطريف نزلوا بمكان يبعد عن المدينة سبع ساعات فقال زيدان للأمير عجاج: أقم أنت هنا مع العساكر حتى أدخل أنا البلد وأستخبر فقال: افعل ما تريد فدخل البلد وصار ينتقل في شوارعها فرأى امرأة عجوزاً فسلم عليها وسألها عن اسمها فقالت: عطر الورد من قبيلة الملك الهيدبى

من بلاد نجد، فقال: إني سمعت بمحاسن زين الدار فعشقتها فهل تساعديني على الوصول إليها ولك ألف دينار؟ قالت: سأجمعك عن قريب وسأذهب إليها وأعود إليك بالجواب ولكن غير ثيابك حتى لا يعرفك أحد فغير ثيابه وسار حتى دخل على الغطريف وهو جالس على كرسي مرصع بنفيس الدرر والمرجان ودخل على الغطريف أربعة أشخاص خطبوا منه زين الدار وكل واحد يريدها لنفسه وحصل بينهم النزاع فاتفقوا مع أبيها على أن يحضروها غداً ويعملوا قرعة عليها والذي تقع القرعة عليه يتزوجها. فلما سمع ذلك زيدان خاف أن تفوته الصبية فعاد إلى العجوز فرآها تنتظره وقالت له: ذهبت إلى زين الدار ومدحتك أمامها وإن مرادك أن تتزوجها فمال قلبها إليك ولم تمانع بحضورك إلى عندها، ففرح زيدان ببلوغ المراد وسار ليلاً مع العجوز ودخل على زين الدار فاستقبلته بالترحيب ولاطفته بالحديث وقالت له: لقد بلغني طرف من أخباركم لما حاربتم الديدبان أحد ملوك الهند وانتصرتم عليه وسمعت عنك وعن بطولتك ولطفك الشيء الكثير فتمنيت أن أراك والحمد للَّه رأيتك. فقال لها: إن أولاد عمك خطبوك من أبيك وأخاف أن تتزوجي أحدهم فهل تذهبين معي إلى خارج البلد عند جماعتي؟ قالت: نعم أذهب معك ثم إنها لبست لبس الرجال وملأت خرجاً من الجواهر والأموال وركبت جواداً وسارت مع زيدان بعد أن أعطت العجوز ديناراً، ولما وصلوا عند عجاج استقبلهم بالفرح والسرور وتعجب من هذا التوفيق ثم إنهم ركبوا وساروا، أما الملك الغطريف فإنه عند الصباح دخل عليه أولاد أخيه فأرسل يطلب زين الدار فلم يروها فرجعوا وأعلموه بأنها غير موجودة فانشغل باله وقال: لقد ذهبت زين الدار وخلفت لنا الذل والعار ثم إنه أمر العساكر أن يفتشوا عليها ويحضروها حالاً فركبوا وساروا يقتفون الآثار حتى أدركوهم فصاح زيدان لقد أدركتنا العساكر ولم ينجنا سوى القتال وسلم زين الدار إلى عبده مفتاح وأمره أن يواريها عن العيان ولما اقتربت القوات الهندية برز إلى الميدان طالب بن مختار وهو ابن عم زين الدار وصاح ببني هلال ويلكم أين زين الدار أحضروها وإلا نفنيكم عن آخركم. فبرز إليه الأمير زيدان وصدمه صدمة هائلة وجرى بينهما القتال إلى المساء دقت طبول الانفصال فافترقا على سلام فقال زيدان: لقد وقعنا في الخطر وقد قاتلت طالب بن مختار فوجدته فارساً صنديداً ولا بد أن يهاجمونا غداً وإذا دام القتال عشرة أيام ظفروا بنا ونالوا المرام فقال عجاج: سأرسل إلى أبي زيد الحجاج وأطلب منه أن يمدنا بالجيوش والعساكر فكتب لأبيه هذه الأبيات:

يقول الفتى عجاج من قلب موجع ونيران قلبي زايدات اللهايب

لما خرجنا من البلاد مع ربعنا لأجل صيد الوحش ثم الأرانب
وجدنا الفتى زيدان بن غانم قاصد بلاد الهند وتلك السباسب
طالب لزين الدار بنت مليكهم أوها الغطريف قرماً محارب
فسرنا معهم قاصدين بلادهم ولما وصلنا قد رأينا العجائب
أخذ الفتى زيدان بنته بالعجل وسرنا بعد ما نلنا المآرب
أتتنا جموع ليس يحصى عددها فأسرع إلينا قبل وقوع المصائب

ثم طوى الكتاب وأرسله لأبيه مع نجاب فلما وصل سلمه الكتاب فلما قرأه زيد العجاج جمع الجنود والعساكر والأمراء وقال لهم: استعدوا للحرب والقتال. ثم أرسل كتاباً إلى ابن عمه زيد بن شرهان يعلمه بما جرى لولده في هندستان ويطلب منه المعونة والإمداد، فدقت طبول الحرب وركبوا ظهور الخيل وسار زيد العجاج إلى أن وصل إلى الأمير زيد بن شرهان فسلم عليه وشكره على اهتمامه ثم ساروا بالعساكر والأبطال بعد عشرة أيام من المسير أرسل زيد العجاج يعلم بني هلال بما جرى على ولده وعلى الأمير زيدان في بلاد هندستان وكيف أنه قاصد تلك البلاد بالعساكر والجنود وهذه صورة الكتاب:

يقول الفتى زيد العجاج بما جرى النار في قلبي تزيد وقيد
أتاني مكتوب من ولدي عجاج يخبرنا عن زيدان الفتى المجيد
قاصد بلاد الهند حقاً بلا خفا طالب لزين الدار بالتأكيد
فسار ولدي عجاج برفقته وعادوا لزين الدار يا صنديد
أتتهم عساكر كالرمل عددها وقد قاتلوهم قتالاً شديد
ألا يا حسن اجمع جيوشك واتبعنا بكل قرم عنيد

ثم أرسل الكتاب إلى السلطان حسن فلما قرأه تأثر من زيدان؛ لأنه ذهب ولم يعلمه وقرأ الكتاب على الأمراء فقالوا: من الواجب أن نذهب كلنا إلى هندستان، فأمر السلطان حسن بدق طبل الرجوع فدقوه بالحال واجتمعت الأبطال والفرسان فركب الأمير دياب بتسعين ألفاً من بني زغبي والأمير أبو زيد بتسعين ألفاً من بني زحلان والأمير حسن والقاضي بدير كل منهما بتسعين ألفاً وجدوا في قطع البراري والتلال حتى اجتمعوا في زيد العجاج وزيد بن شرهان على الغدران. أما الأمير زيدان والأمير عجاج فإنهم ظلوا يحاربون ويناضلون حتى أحاط بهم طالب من كل جانب فثبت زيدان ثبات الأسود وتقدم إليه طالب وأراد أن يأسره وصاح به ارم سلاحك واسلم بروحك فقال زيدان: خسئت يا جبان وطعنه بالرمح في صدره خرج يلمع من ظهره فحملت الهنود على أعدائها واشتبكوا معهم في قتال مرير

ولكنهم لم يثبتوا بل فروا من المعركة فتبعتهم بنو هلال وكسبت من الأموال ما لا يعد ولا يحصى وفي الصباح دهمتهم الجيوش من نواحي هندستان، وذلك أن الملك الغطريف جهز خمسمائة ألف بطل وسار بهم حتى التقى زيدان في ذلك المكان وأحاطوا بزيدان وبني هلال من اليمين والشمال فصاح زيدان برفاقه دونكم وهؤلاء الأنذال فهاجت الشباب وهجمت على عساكر الغطريف كالذئاب وانقض زيدان على الأعداء يبري الرقاب فما كنت ترى إلا رؤوساً طائرة وفرساناً غائرة وأدمية فائرة وقد دام القتال على هذا الحال حتى ضعفت قوة زيدان لكثرة عدد الدشمان فيئس الأمير زيدان من الخلاص خصوصاً لما رأى كثرة الجرحى والقتلى من قومه. وفيما هو يتلقى ضرب السيف بترس البولاد خوفاً على حياته علت من ورائهم الأصوات وتطايرت الرؤوس عن الأبدان وتفرقت عساكر الغطريف واندحرت وذلك أن عساكر بني هلال قد وصلت إلى ساحة القتال يتقدمها الأمير دياب حذاف الرقاب، فهجموا على عساكر الغطريف وهجم أبو زيد بعساكره وزيد العجاج وزيد بن شرهان والقاضي بدير والسلطان حسن وفاجأوا عساكر الغطريف من جميع الجهات بضرب السيوف وطعن الرماح وثبت الغطريف في الميدان فتقدم إليه الأمير دياب واشتبك معه في القتال والنضال وكانا تارة يفترقان وتارة يلتحمان إلى المساء دقت طبول الانفصال فافترقوا عن بعضهم يتحارسون إلى الصباح نزل الغطريف إلى الميدان، فنزل إليه أبو زيد وصاح به يا طاغي يا جبان اعلم أني نزلت إليك لأقطع رأسك وأخمد أنفاسك يا غدار ثم هجما على بعضهما وتطاعنا بالرماح وتضاربا بالسيوف إلى المساء دقت طبول الانفصال. وعند الصباح برز الملك الغطريف إلى ساحة الميدان وطلب مبارزة الفرسان فنزل إليه أبو زيد وحمل عليه بقوة فصمد الغطريف وأكثر الضربات المتواليات على أبي زيد ولم يزالا في القتال والنضال إلى أن كلت منهما الزنود وتعبت تحتهما الخيل وحان عليهما الحين وزعق عليهما غراب البين. وأما أبو زيد فإنه رأى خصمه قد كل ومل وبعد عزه قد ذل فضربه بالسيف على عنقه فأطار رأسه من بين كتفيه، فهجمت عساكره على أبي زيد ومالت عليه من كل جانب فخاف دياب على أبي زيد وصاح في بني هلال وحمل هو والسلطان حسن وزيد العجاج وزيد بن شرهان وباقي الأبطال واشتد الحرب والقتال وجرت الدماء كالأنهار وانكسرت عساكر الغطريف وولت الأدبار وصاحوا الأمان، تقدم راشد ابن الملك إلى السلطان حسن وطلب منه العفو والأمان فأعطاه الأمان وجلس حسن على كرسي الملك الغطريف مقدار ساعة ثم أجلس راشداً وجعله ملكاً وشرط عليه أن يدفع الجزية كل عام لبني هلال ثم أمر بالركوب،

فركبت الفرسان خيلهم وضربت النوبات والطبول أمامهم وساروا بعز وافتخار ثم أرسلوا البشائر بقدومهم فخرج لاستقبالهم الأمراء والسادات في المزاهير والدفوف وخرجت النساء والبنات يرقصن ويزلغطن، فلما دخلوا نجد ابتدأوا في كتب كتاب زيدان على زين الدار، ثم ابتدأوا بالاستعداد للعرس وحضرت لفرحهم المغنيات واجتمعت الأمراء والسادات والنساء وهم بأفخر الحلي والحلل وبعد ذلك وضعوا الموائد وعليها من أنواع المأكولات ما لذ وطاب وداموا بعز وانشراح وأمان.

قصة غصن البان

(قال الراوي) لما قتل بنو هلال الملك الغطريف لعبت الفرسان ملاعيب أذهلت المتفرجين فبينما كانوا مجتمعين عند الأمير زيدان قال لهم: من أراد الذهاب معنا للصيد فعليه أن يتجهز للسفر فبعد ثلاثة أيام يكون المسير. وفي اليوم الرابع ركبوا وهم مخيبر وعكرمة ولدا أبي زيد ومرشد وموسى ولدا دياب وحسن المزيدي وسار معهم أربعون فتى من أولاد الأمراء وركب في مقدمتهم زيدان شيخ الشباب وساروا إلى أن خرجوا عن حدود البلاد وصاروا يصطادون الطيور والأرانب والغزلان. فوصلوا إلى برج الحدود وهو في حكم الملك كاسر الرجال وكان يحكم على ستة أقاليم وكان من جملة أتباعه الملك الديدبان والملك سليم والملك النعمان وجملة من الملوك العظام وكان كاسر الرجال فارساً عنيداً وبطلاً مجيداً لا يهاب القتال وله ابنتان جميلتان غرة الصباح وزهرة الأيام وكان الملك النعمان يدفع الجزية كل عام لكاسر الرجال فاتفق في تلك السنة أن كاسر الرجال أضاف مبلغاً عظيماً على الجزية وطلبها من النعمان فامتنع عن دفعها؛ لأن الطلب كان زائداً عن العادة فلما بلغ كاسر الرجال ذلك الخبر جمع العساكر والأبطال وركب بهم وهجموا على مدينة النعمان فقامت الصيحات وعلت الأصوات وبكت النساء وحملت الرجال السلاح وكانت ساعة رهيبة على قوم النعمان فالفرسان غائرة والرؤوس طائرة والدماء فائرة.

ولما أظلم الظلام ارتدت العساكر عن بعضها، أما الملك كاسر الرجال فإنه قسم العساكر إلى ثلاثة أقسام وعند الصباح هجمت العساكر والتحم القتال وتضاربوا بالرماح والنصال وجرى الدم وسال، فانهزم قوم كاسر إلى الوراء وتبعهم قوم النعمان وظن النعمان أنه انتصر فتبعهم في تلك الصحراء فتمكن القسم الثاني من الهجوم عليهم وصاحوا بهم وضربوهم ضربات قاسيات وقتلوا منهم عدداً كثيراً وارتد القسم الأول المنهزم والتقت الرجال بالرجال وجرى الدم وسال وكثر على قوم النعمان الفزع والأهوال وانشغال البال وكان الوزير صندل في ساحة الميدان فالتقى بالملك النعمان فتقاتلا ساعة من الزمان حتى تمكن الوزير من النعمان فطعنه بالرمح في صدره خرج يلمع من ظهره، فلما قتل النعمان غاروا على قومه ذات

اليمين وذات الشمال حتى أبلوهم بالذل والعار وكان القسم الثالث دخل البلد وقتل ما بقي من الرجال والفرسان المحافظين على الديار والنساء ثم أخذوا الأموال وسبوا الحريم والعيال وكان من جملتهن غصن البان فتقدمت أهالي البلد وطلبوا العفو والأمان من كاسر الرجال، فأجابهم إلى طلبهم وأقام أحد وزرائه ملكاً عليهم وأمر عسكره بالركوب فركبوا وقصدوا الأطلال وبصحبتهم الأموال والتحف الغوال فاستقبلتهم النساء والبنات بالمزاهر والدفوف واستقبلوا غصن البان بالإكرام فأدخلها كاسر الرجال بين حريمه وقد هام بحبها، ففي أحد الأيام دخلت بنات الملك على أبيهن وسألنه أن يسمح لهن بالذهاب إلى بستان الورد. فسمح لهن وأحضر لهن خيمة من الحرير مرصعة بالدر والجوهر فخرجن من القصر وهن غرة الصباح وزهرة الأيام وغصن البان وركبن وذهبن إلى بستان الورد وكان جهال بني هلال قد وصلوا إلى عين الورد وهي بجانب بستان الورد. وبينما هم في بسط وانشراح إذ سمعوا ضجة وإذا ببنات الملك وغصن البان دخلن مع المماليك إلى تلك الخيمة فتفرعن ونزعن عنهن ثياب الحرير وصرن يتمايلن كأنهن الأقمار، فأمرت الخادمات أن يهيئن الطعام ثم أخذن يتمشين في ذلك البستان ويقطعن الثمر عن الأغصان فرآهن شباب بني هلال، فاندهشوا من حسنهن وجمالهن وظهروا أمامهن وقال لهن عكرمة: أهلاً وسهلاً بالزينات فأنتن العرائس ونحن العرسان فأطرقن رؤوسهن من الحياء، فقال زيدان: لماذا الخجل نحن أولاد عم وقدم لهن ابن أخيه مرشد، فلما رأته غصن البان أحبته ومالت إليه وزهرة الأيام أحبت عكرمة وغرة الصباح أحبت حسن المزيدي وسلموا على بعضهم فقال زيدان:

يا شباب احفظوا ناموسكم ... أنتم بنو هلال عاليين النسب
الفعل هذا لا يليق بقدركم ... تنظروا الزينات بغير ثياب
ردوا إلى الخيمة سريعاً يا بنات ... والبسوا الديباج وعقود الذهب

فلما فرغ زيدان من كلامه عادت البنات إلى خيمتهن وارتدين ثيابهن وعدن إلى الشباب فأشارت غصن البان تقول:

قالت غصن البان مظلومة الوغى ... النار في قلبي تهب وتوقدا
أبي ملك النعمان عز وغنى ... دعاه الملك كاسر يفقدا
عشر أعوام بقصر ما شفت حدا ... ما شفت خيل ولا مواشي توردا
لا شفت رجال ولا شفت شباب ... غير سيدي الفتى مرشدا
إن رادني منيتي ردته أنا ... دخيلكم خلصوني من العدا

عند ذلك تحركت النخوة في رؤوس الشباب وقالوا لها: روحنا فداك ولا بد

عن أخذ الثأر، وفيما هم كذلك أحاطت بهم فرسان كاسر الرجال فلما شعروا بهم أردفوا البنات خلفهم وانطبقوا على الدشمان وأبلوهم بالذل والنكال وداروا رؤوس الخيل في طريق نجد، فرأوا في طريقهم مواشي كاسر الرجال فساقوها أمامهم فهجمت عليهم العبيد ورئيسهم زلزال فاستقبلوهم بضرب السيف البتار والتقى الأمير مرشد بالمقدم زلزال وطعنه بالرمح بين البزين أرداه قتيلاً فهرب العبيد طالبين النجاة، فساق بنو هلال المواشي وجدوا في المسير أما أحد العبيد واسمه فتوح فقد أسرع وأخبر الملك بهذا القصيد:

على ما قال فتوح المتيم ... اسمع ما جرى يا أمير كاسر
جيت أخبرك ما صار فينا ... كنا نرعى البوش وزلزال حاضر
وما كنا للعدا نحسب حسابا ... تركنا المواشي ترعى في الجزاير
شفنا خيمة على البعد تضوي ... تداوير الذهب فوقها جواهر
عرفناها خيمة الست زهرة ... وغرة الصباح والغصن باهر
صاح فينا زلزال صوتاً رهيباً ... على العدا كل واحد يبادر
قلنا زلزال ما في الحرب مثله ... يوم الوغى تشهد له الحراير
ضربه الفتى مرشد يا ملكنا ... بحد السيف زوره المقابر
ومال السيف فينا بسرعة ... وكاس الموت علينا صار داير
هربنا منهم في البراري جميعاً ... لحقونا وخلوا دمنا قاطر

فلما سمع الملك هذا الكلام اغتاظ وتكدر وطار من عينيه الشرر، فقالت امرأته ريما: ومن الذي تجاسر على هذه الأعمال؟ فقال العبد: شباب بني هلال وقد أخذوا معهم البنات الثلاث زهرة الأيام. وغرة الصباح. وغصن البان فلما سمعت الملكة ريما هذا الكلام طار عقلها وبكت وصاحت بزوجها أسرع وأرسل الأبطال والفرسان يقتلوا بني هلال ويخلصوا منهم البنات وكان له وزير اسمه صقر الرجال أمره بالركوب بمائة ألف خيال فركبوا وجدوا في السير حتى أدركوهم فقال صقر لخاله خالد بن دفاع: أخرج إليهم وأخبرهم عن بأسي وسطوتي واعلم أن حسان صار جارنا وأكل من طعامنا ونحن نحميه، فإن أجابك زيدان إلى ما تريد فهاته أسيراً وإن عصى فاقتله فسار خالد حتى قرب من زيدان فقال له: ويلكم أيتها الشرذمة اليسيرة والعصابة الحقيرة أنا خالد خال صقر وقد أرسلني إليكم شفقة عليكم فعند ذلك برز مرشد إلى الميدان وصاح بخالد ثكلتك أمك يا أخس الرجال، فمن أنت حتى تهددنا بثرثرتك ثم طعنه بالرمح في صدره خرج يلمع من ظهره، فلما رأى صقر أن خاله قتل نزل إلى الميدان وصاح: أنا صقر بن هود ولا

بد ما أفنيكم عن آخركم فاستقبله مرشد وتطاعنا بالرمحين وتضاربا بالسيفين وقام بينهما الحرب على قدم وساق ثم هجمت قوم صقر على بني هلال فصاح زيدان عليهم أيها الأبطال ثم تركوا البنات على رابية مع عبيدهن وهجموا على الوزير وقومه وأبلوا فيهم أعظم بلاء والتقى الأمير زيدان بالوزير صقر وتقاتلا كأنهما أسدان كاسران وبقيا يتقاتلان سبعة أيام عند ذلك كتب الوزير للملك كاسر الرجال يطلب منه إرسال الجنود والعساكر قال:

يقول الفتى صقر الوزير مما جرى ... الجيش من الحرب غداً تلفان
لما طلعنا في سوابق خيلنا ... شفنا شباباً رادفين نسوان
انتصب سوق الحرب بيني وبينهم ... صار الدما يجري كما الطوفان
معهم بناتك فوق ظهر خيولهم ... غرة وزهرة ثم غصن البان
تحاربت أنا وزيدان شيخ شبابهم ... تاري علينا راجح الميزان
إذا أتيتنا سلمنا من العدا ... وإن لم تجي عمرنا قد حان

ثم أرسل الكتاب إلى الملك كاسر الرجال فلما قرأه أمر بدق الطبول وركب بأربع كرات وساروا إلى نهر الغدير وإذا بغبار قد سد منافس الأقطار فسأل عن هذه العساكر، فقالوا له: هذا الملك سليم أتى من الهند الجواني ليحارب بني هلال ويأخذ بالثأر؛ لأنهم قتلوا عمه الملك الديدبان فخرج كاسر الرجال إلى لقائه وترحب به غاية الترحيب ثم قرروا أن يركب الملك سليم في عساكره ويسير إلى نجد ويكبس أحياءها ولا يبقى من ينفخ ناراً فضرب طبله وجد السير. وأما الملك كاسر فإنه سار ليخلص الوزير من الاندحار، أما بنو هلال فإنهم سألوه عن الأمير زيدان وبقية الشباب فقال دياب: أنا لي خمسة أشهر ما وقفت لهم على خبر أما أبو زيد فضرب الرمل فبان له فأنشد يخبرهم عما رأى:

يقول أبو زيد الهلالي سلامه ... ودمع عيني على الخدود غزير
ساروا لبلاد الهند يم كاسر ... نظروا بنات مثل بدر منير
ثلاث عرايس ما مثل صفاتهم ... غرة وزهرة وغصن بنت الأمير
يا أبو علي دق طبلك بالعجل ... شد عزمك من غير تأخير
يا دياب الخيل يا ولد غانم ... أخوك زيدان في الوغى ما له نصير

فلما فرغ أبو زيد من كلامه صاح دياب أسرعوا بالركوب فركب كل أمير بتسعين ألف فارس وانتشرت الرايات والبيارق على رؤوس الأمراء والسادات وسافروا يسابقون الطير وما بقي في نجد غير غانم الزغبي والرياشي مفرج وأبي ليث الكندي وعرندس ظلوا مع خمسمائة فارس لحماية النسوان. أما زيدان فتغلب

على الوزير صقر ولو لم يهرب لبطش به وهجموا على قوم كاسر الرجال وأبلوهم بالذل والهوان وكانت قد وصلت قوات الملك كاسر، فلما رأى اندحار جيش الوزير خرج عن دائرة الاعتدال وهجم هو وقومه على بني هلال وأحاطوا بالأمير زيدان ورفاقه وأبلوهم بالذل والهوان، ولو لم تأتهم النجدة لماتوا عن بكرة أبيهم فقد سمعوا صوت دياب يقول: لبيك يا زيدان وانطبق مع قومه على الأعداء يجزون الرؤوس عن الأبدان وبعدهم تقدم أبو زيد وانطبق بفرسانه على الميمنة والقاضي بدير على الميسرة والسلطان حسن دخل مع قومه في وسط المعركة فعلت الصيحات وفارت الدماء، فللَّه در الأمير دياب من بطل جسور فقد فتك في الأعداء وقتل كثيراً من الفرسان وفي المساء دقت طبول الانفصال فافترقوا عن بعضهم وجلس بنو هلال في صيوان السلطان حسن يهنئون بعضهم فالأمير أبو زيد عانق ولده مخيبر ودياب سلم على أخيه زيدان وولده مرشد وبينما هم في الحديث دخلت البنات الثلاث وقبلن يد السلطان حسن وسلمن على الأمراء وباتوا تلك الليلة وفي الصباح برز الملك كاسر للميدان وطلب مبارزة الفرسان فبرز إليه أبو زيد وانطبقا على بعضهما، وأخذا في الكر والفر والطعن والضرب وصاح أبو زيد على بني هلال أن يهجموا على الأعداء فهجمت الفرسان بقلوب أقسى من الصوان واعتكر الجو بالغبار وكثر الصياح وجرى الدم وساح وكان يوم أسود من الظلام، فما كنت ترى إلا تجندل الرجال وهلاك الأبطال من شدة الأهوال فثبت الشجاع وهرب الجبان والتقى الأمير كاسر الرجال بالسلطان حسن وأخذ معه في القتال وما زالا في حرب شديد وضرب جريد يفك الزرد النضيد عند ذلك أخذ كاسر في يده دبوس البولاد وضرب به السلطان حسناً فخلا عنه وراحت خائنة وبعد قتال عنيف شعر حسن بالتعب فانسحب من الميدان بخفة الغزلان خوفاً على حياته، فنزل القاضي بدير فقاتل كاسراً قتال الأبطال وجاءت ضربة من كاسر على رقبة الحصان فبراها كما يبري الكاتب القلم فوقع القاضي على الأرض وسحبه قومه من الميدان والتقت الرجال بالرجال والأبطال بالأبطال وتمددت الفرسان على الرمال وتغلبت عساكر كاسر على بني هلال، ولما أقبل الظلام رجعت الفرسان عن بعضها وكانت فرسان بني هلال في غاية الذل والعار فقال حسن لدياب: لماذا لا تنزل أنت للميدان وتكفينا شر كاسر الرجال؟ فقال دياب: إنكم هجمتم أولاً دون أن تفتكروا في بقية الأبطال وطلب القاضي بدير السماح من دياب؛ لأنه نزل قبله إلى الميدان، وقال حسن: إن كاسر الرجال قد علم علينا وقهرنا وهذه الوقعة ما لها غير دياب

حذاف الرقاب فقال دياب: إن شاء اللَّه غداً أكفيكم شره ولما أصبح الصباح نزل دياب إلى الميدان فنزل إليه بطل من الأبطال فقتله دياب بالحال وتقدم أخوه ليأخذ بثأره فطعنه دياب في صدره أماته بالحال ونزل إليه فارس اسمه بلال فألحقه دياب بمن قبله، وهكذا حتى قتل عشرة فوارس فانحمق منه كاسر الرجال ونزل إليه بالحال وأخذ يهدده بالمقال:

يقول الفتى كاسر قلبي انكوى ... يا دياب الخيل انظر موقفي
أنا ملكت الهند في عز القنا ... فعلي على كل الملوك مشرفي
كم ميت أمير مثلك قد غدوا ... قتلتهم في حد سيفي المرهفي
أنتم اعتديتم علينا بحربكم ... أخذتم بنات ملوك مهفهفي

فانطبق عليه دياب كأنه القضاء المنزل فتلقاه كاسر كالأسد وأخذا في كر وفر إلى وقت الظهر صاح دياب فيه صوتاً كالصاعقة وضربه بالسيف على عنقه أطار رأسه فوقع كاسر قتيلاً فزلغطت غصن البان وقالت: سلمت يداك يا دياب أما الهنود فقالوا: يا لثارات كاسر الرجال وهجموا على بني هلال. وحصلت معركة هائلة تطايرت الرؤوس فيها عن الأبدان ودارت على عساكر الهنود الدائرة وبقي السيف يعمل والدم يبذل إلى أن ولت قوم الهنود هاربة وبنو هلال وراءهم حتى أدخلوهم بلادهم وغنمت بنو هلال الأموال والتحف الغوال وحكموا الأمير جفال بن الليث الكندي، أما الأمير دياب فقال: أنا فكري مشغول على البلاد والحريم لأنه ليس موجوداً عندهم أحد فركب دياب في بني زغبي وأسرعوا في المسير إلى نجد، فرأى الهوادج خارجة من البلاد مع العبيد والخيل والجمال ولكن الخضرا تقدمت نحو الهوادج فرأى زين الدار عروسة أخيه زيدان فصاحت به خلصنا يا دياب فبرم الدبوس وضرب العبد على رأسه أخمد أنفاسه فزلغطت وطفا لما رأت أباها دياب وصاحت عليا امرأة أبي زيد يا حامي البنات يا دياب فصار يقتل العبيد واحداً واحداً حتى خلص البنات وجميع الهوادج وفك أباه وأعمامه من القيود وأركبهم على الخيول وظهرت بيارق سليم المعتدي على الحريم وفاجأه دياب وبنو زغبي بهجوم صاعق يذبحون فرسانهم ذبح الغنم والتقى دياب بالأمير سليم وصاح به ما الذي حملك على هذه الأعمال يا ابن الأنذال؟ فقال: جئت آخذ بالثأر وأفنيكم كبار وصغار، فصاح به دياب خسئت يا جبان وهز في يده عود الزان وطعنه في صدره خرج يلمع من ظهره وحملت العساكر على العساكر وحصلت معارك عظيمة وقد وصلت فرسان أبي زيد وحسن والقاضي، وحصروا عساكر سليم ونزلوا بهم ضرب يقصف الأعمار وعظمت الأهوال وارتجت الروابي والبطاح

ولم تكن غير ساعة من الزمان حتى انكسرت عساكر سليم وطلبت الهزيمة فلحقتها بنو هلال وشتتها في البراري والقفار وأخذوا خيولهم وأسلحتهم ورجعوا إلى نجد في زلاغيط ولعب جريد ثم ابتدأوا بعرس أولاد الأمراء ونصبوا برجاس خيل وزفوا غصن البان على الأمير مرشد وزهرة الأيام على عكرمة وغرة الصباح على حسن المزيدي.

قصة سعد الرجا

(قال الراوي) بينما سادات بني هلال جالسون في صيوان السلطان حسن إذ دخل عليهم ثلاثة شعراء فقبلوا يد السلطان وسلموا عليه وعلى جميع الأمراء فأمر لهم بالجلوس. فجلسوا وقالوا: نحن من اليونان من بلاد الغضبان حاكم اليونان فسمعنا بعدلكم وكرمكم فأتينا قاصدين فقال لهم: أبشروا بالخير وبدأوا يمدحون السلطان بأشعار بليغة فأنعم عليهم وأكرمهم فخرجوا من عنده شاكرين وداروا على أمراء بني هلال فأكرموهم ثم دخلوا إلى صيوان مخيبر ابن الأمير أبي زيد فسلموا عليه وترحب بهم، ثم قال لهم: هل سمعتم ورأيتم أجمل بنت في الدنيا؟ فقال ذلول: إن أجمل بنت موصوفة بالحسن والجمال والقد والاعتدال هي سعد الرجا بنت الملك الغضبان حاكم بلاد اليونان فقال مخيبر: هل رأيتها؟ قال: نعم رأيتها وأكرمتني إكراماً جزيلاً، قال: صف لي إياها على حقيقتها ولا تبالغ بالمدح إذا لم تكن موصوفة به فقال الشاعر ذلول:

يقول الأديب ذلول عما جرى له ... شاعر يرتجل شعرها وقصيدها
يخبر كل من كان مولع بالهوى ... عن زينات يسبي حسنها وجيدها
سعد الرجا بالحسن فايق جمالها ... عليها من الملبوس أغلى جديدها
ولا مثلها بالسند والهند واليمن ... ولا في بلاد الترك يوجد نديدها
القامة مثل الغصن يعشق للندى ... والورد فتح فوق أعلى خدودها
والخصر كعود الزان إن كان مايل ... أو مثل رمح بيد قرم عنيدها
فاقت نساء الأرض بالحسن والغوى ... من شافها يا مير يمسي فقيدها
وما قلت يا أمير ربع وصفها ... خوفي على عقلك يروح شريدها

فلما فرغ الشاعر من كلامه أكرمه الأمير مخيبر وتعلق قلبه في حب سعد الرجا وفي ظلام الليل أخذ معه جواهر ومعادن وعقوداً ومصاغاً وركب جواده وتسلح وسافر حتى أشرف على غدير فجلس لأخذ الراحة فأكل وشرب وسقى جواده، وبينما هو كذلك إذ أقبلت على الغدير بنات كأنهن النجوم الطالعات وتقدمت إلى مخيبر أبدعهن منظراً وألطفهن ذاتاً وسلمت عليه وسألته عن اسمه ومن أي البلاد هو فقال: اسمي الأمير مخيبر ابن الأمير أبي زيد من نجد العدية فمن

أنت يا سيدة النساء؟ فقالت: اسمي هلالة وأنا من نجد فأخبرني عن قصدك ومرامك فأنشد يقول:

يقول الفتى الأمير مخيبر ودمع العين فوق الخد سايل
هلالة أنا اليوم قاصد محلك أنا من نجد من قوم أفاضل
وفي سعد الرجا قلبي تعلق والغربة مضيعة الشمايل
مرادي تجمعي شملي بشملها وأعطيك ما تريدي طلب كامل

فقالت له: اعلم أيها الأمير أن سعد الرجا من أجمل النساء وأبوها الملك غضبان فارس صنديد وبطل عنيد وله ثلاثمائة ألف فارس فانتظرني هنا حتى أرجع البنات إلى البيوت ثم آتي وآخذك إلى داري إلى أن تتيسر الأمور ثم إنها أوصلت البنات إلى بيوتهن وعادت إليه وأخذته إلى دارها وأكرمته ثم ارتدت أفخر الثياب، وقالت له: أنا سائرة إلى سعد الرجا ولما وصلت إلى القصر دخلت على سعد الرجا وسلمت عليها وقالت لها: أتتني بنت من نجد ضافت عندي وهي ذات حسن وجمال تحفظ قصص المتقدمين وحكايات المتأخرين وتسلي بعذوبة لفظها قلوب المحزونين والعاشقين، فأحببت أن أحضرها إليك لتسليك ولكني قلت أشاورك أولاً فهل تميلين إلى رؤيتها والاجتماع بها؟ فقالت لها: هل هي حقاً من نجد؟ قالت: نعم فقالت: إني رأيت مناماً كأني حمامة طائرة في البر أتاني طير أسمر وألف عليّ، فسرت أنا معه نحو نجد فأتتنا طيور فقاتلونا فانهزمنا في البراري والقفار وطيري وقع على الأرض وخفت عليه وصرت أصرخ وأصيح وانتبهت على صراخي وبكائي فقالت لها: إن هذه الفتاة النجدية تفرج همك وتفسر لك المنام لأنها أعجوبة الزمان ونادرة العصر والأوان تضحك بكلامها الثكالى وتزيل الهم عن القلوب والقلق عن الأفكار فقالت لها: اذهبي واحضريها ففرحت هلالة وسارت إلى مخيبر وأعلمته برضائها ثم إنها نزعت ثيابه وألبسته بدلة ثمينة من أفخر ثيابها وزينته بأنواع المصاغ وكان مخيبر حلو الشمايل بوجه مستدير، فصار أجمل من البنات وأحلى من العروس فأخذته هلالة إلى سعد الرجا فلما رأته ظنت أنه بنت فتعجبت من حسنه وجماله وسلمت عليه وترحبت به فرد عليها السلام بأفصح كلام وهام بحبها، فأجلسته بجانبها وقالت لها: يا بنت الكرام قد شرفتنا بحضورك وأسرت قلوبنا بحسنك وكمالك فاعلميني أيتها الصبية عن اسمك فقالت: اسمي خبورة بنت سلامة الهلالي ولما طالت السهرة وهن في بسط وانشراح قالت هلالة لخبورة: قومي يا بنت عمي حتى نرجع إلى البيت فمن يجالس سعد الرجا لا يمل من مشاهدتها وحديثها فقالت سعد الرجا: دعيها تزور عندي ثلاثة أيام؛ لأن قلبي

أحبها فقالت هلالة: كما تريدين وتركتها وذهبت وبقي مخيبر مع سعد الرجا يلاطفها بالكلام ويمدح لها بلاد نجد فقالت لها: لقد شوقتني يا خبورة إلى أهلك وبلادك فقولي لي ما سبب مجيئك إلى هذه البلاد؟ فقالت لها: لقد أتى شعراء إلى أخي مخيبر فسألهم عن أجمل بنت على الإطلاق فوصفوك له بأنه لا يوجد مثلك في الدنيا. فقال: يلزم أن أذهب إليها وأراها فقالت له: أنا أذهب إليها وأخبرك عنها وبعد هذا الكلام قامت سعد الرجا إلى تختها لتنام وأشارت لخبورة إلى تختها فقام مخيبر إلى تخته وهو يصبر نفسه من فرط العشق والهيام وبعد ثلاثة أيام قالت خبورة لسعد الرجا: أنا ذاهبة الآن وأرسل لك هلالة تعلمك بواقعة الحال فزاد سرور سعد الرجا وانشرح خاطرها فتركها مخيبر وسار لعند هلالة، فكتمت أمره وأخفت جواده وذهبت لسعد الرجا فرأتها مصفرة اللون ومتغيرة فقالت لها: ما بك؟ فقالت: من خبورة ظلت تمدح لي مخيبر طول الليل وهي تقول مخيبر أجمل من خبورة حتى تعلق قلبي بحبه وهمت به هيام الجنون وتغيرت كأني مريضة من شهور فقالت لها هلالة: كوني مطمئنة القلب والخاطر فقد سمعت أن مخيبر دخل هذه البلاد يفتش على أخته ويريد أن يراك وقد اجتمع بخبورة وسألها عنك، فإن كنت تريدين أن تجتمعي به فأنا أذهب الآن وأرسله لك فقالت لها: أحضريه عندي بوقت لا يراه فيه أحد فسارت هلالة إلى الأمير مخيبر وبشرته برضاء المحبوب ولما دب الظلام ومضى نصف الليل والناس نيام أوصلته هلالة لعند سعد الرجا فلما رأته ورأت ما فيه من الحسن والجمال والشباب أحبته ولكنها أظهرت الحياء وأدارت وجهها عنه فأنشد:

مخيبر قال تبدي جفاك ... للفتى لما يطلب لقاك
أتيت أنا من نجد العدية ... إلى هذا الحمى حتى أراك
أنا ما جيت دارك يا مليحة ... ولا خاطرت إلا برضاك
ولست أنا من أهل الرذايل ... ولا خاين ولا فتاك
ومهما تطلبين اليوم قولي ... فإن الروح يا سعدا فداك
ألم تعرفي أني كنت معاك ... ثلاث أيام قاعد حداك

عند ذلك التفتت إليه وقالت: أهلاً وسهلاً في خبورة المحتالة ولكن:

لقد هام الفؤاد إلى لقاكا ... وذاب الجسم مني في هواكا
وعمري أنا ما حبيت غيرك ... ولست أريد لي بعلاً سواكا
تعاتبني بشعرك يا مدلل ... أما تعلم أن روحي فداكا

عند ذلك فرح مخيبر وصالحها وتعانقا ثم اتفقا على أن تذهب معه إلى بلاده

وهناك يكتبون كتابها عليه ويصير العرس فقامت لبست بذلة من ثياب الرجال وأتت بجوادين من أطيب الخيل وأنعمت على هلالة بأموال جزيلة وجدوا في قطع البراري والسهول حتى أشرفوا على غدير، فنزلا لأجل الراحة ثم أكلا وشربا وناما. أما الملك الغضبان فانتظر من سعد الرجا أن تقدم له القهوة فما أتت، فسأل عنها الجواري فقالوا: كان عندها شاب غريب وعند الصباح لم نجد لهما أثراً فغضب أبوها عليها غضباً شديداً وصارت عيناه تقدح الشرر وكان يعرف ضاربة رمل تكشف له عما يجهله فأرسل عبده ليأتي بها فأحضرها بين يديه فقال لها: أخبريني أين ابنتي سعد الرجا فضربت الرمل وولدت البنات من الأمهات وكانت عرفت ما حصل بين مخيبر وسعد الرجا فأنشدت:

تقول فتاة الرمل والقول صادق وعلم الغيب اللَّه يعرف أحوالها
ضربت الرمل وبانت لي حروفه وبراج النحس هفهفت أذيالها
عطارد اليوم دخل في بلادنا والزهرة الغراء بدا أذلالها
وقد اتصل فيها ومعه قد غدت وكوكب المريخ بالفلا حمى لها
قلت أين سعد الرجا قد سرت قال إلى نجد سينتهي مشالها
واللي أخذ بنتك يا ملك الملا أمير مخيبر غنمها وربح مالها

فلما فرغت المنجمة من كشف المخبأ أمر أولاده أن يركبوا في خمسين ألف فارس ويقصدوا بلاد نجد ويسبوا الحريم ويقتلوا الرجال والأطفال وينهبوا المواشي والأموال ويقبضوا على مخيبر وسعد الرجا ويأتون بهما حتى أذبحهما بيدي ذبح الغنم فامتثلوا أمره وركبوا في خمسين ألف فارس وساروا طالبين نجد وهم يفتشون على مخيبر وسعد الرجا. أما الأمير زيدان فقد عزم على الصيد فجمع الشباب فلم يجد مخيبر فسأل عنه أبا زيد فأحضر طبقاً من نحاس ملأه ماء ثم قرأ ودمدم وهو ينظر في الماء فوجد ولده مخيبر عند سعد الرجا نائمين على الغدير، فقال لزيدان: اركب حالاً برجالك وسر إليه ونحن نتبعك بالفرسان فدق زيدان طبله فاجتمعت الرجال وركبت خيولها وتقلدت بسلاحها وساروا يقطعون البراري والقفار، ولما استيقظ مخيبر وسعد الرجا من النوم قال: لقد أخطأنا في نومنا هنا ولا بد من وقوع حادث عظيم ثم إنهما ركبا وسارا حتى أشرفا على وادي الغيلان وإذا بغبار قد ثار وخيول أخف من الغزلان، فقالت سعد الرجا: هي عساكر أبي الملك الغضبان وفي صحبتهم إخوتي غيلان ومقبل وحامد وعابد وراشد وزامل ومنجد وصخر ومنعم، فقال لها: تواري أنت عن العيان واختبئي بحيث لا يراك إنسان، أما مخيبر فاقتحم الميدان بقلب أقسى من الصوان وصاح هل من مبارز فصارت تبرز إليه

الفرسان فيجندلها بسيفه البتار حتى قتل عشرين فارساً عند ذلك حملت عليه الأبطال من اليمين والشمال وعظمت الأهوال وضاق على مخيبر المجال فهتف إلٰهي تنجدني بفرسان بني هلال، وإذا برؤوس قوم الغضبان قد تطايرت عن الأبدان وذلك أن الأمير زيدان والأمير دياب حذاف الرقاب وعساكر بني هلال قد وصلوا إلى الميدان وبدأوا بالحرب والطعان وهم يصيحون اللَّه أكبر على من طغى وتجبر أبشر يا مخيبر بالنجاة وبلوغ الوطر ثم هجموا على الخيل ومالوا عليها كل الميل وكان الأمير زيدان غار على الميمنة وحسن المزيدي على الميسرة ودياب وعساكره في القلب وقد انفسح المجال أمام مخيبر، فجدد الهمة والعزم وصار يهجم على الأعداء ويفتك بهم ودارت على قوم الغضبان الدائرة فولوا الأدبار والتفت زيدان إلى مخيبر وهنأه بالسلامة، وقال له: أين سعد الرجا؟ قال: إنها مختبئة فسار إليها وطمأنها بالنصر وأتى بها فسلمت على الأمراء فردوا عليها السلام ثم إنهم نصبوا الخيام ووضعوا موائد الطعام وبعد الانتهاء من تناول الطعام والشراب قال زيدان لمخيبر: إنك قاسيت الأهوال في هذه الغربة ولكنك حصلت على صبية آية في الحسن والكمال واللطف والدلال فشكره مخيبر وأثنى عليه.

(قال الراوي) لقد وصلت الأخبار إلى الملك الغضبان أنه قتل له ثلاثة من أولاده وانكسرت عساكرهم، فلما سمع هذا الخبر غاب عن الصواب وأقسم بالنار أن لا يبقى من بني هلال لا كبير ولا صغير ثم كتب كتاباً إلى أخيه عنان صاحب بلاد العراق فأعلمه بواقعة الحال وطلب منه النجدة والمعونة على حرب بني هلال. وكان عنان يحكم على ثمانمائة ألف فارس فلما بلغه هذا الخبر أمر العساكر بالاستعداد ثم ركب وسار بالجيوش حتى أشرف على بلاد أخيه فاستقبله وترحب به ونزلت العساكر خارج المدينة فقال له الغضبان: أريد منك أن تسير بعساكرك إلى بلاد نجد وتسبي الحريم وتقتل الرجال وتنهب المواشي والأموال وأنا أسير بعساكري إلى قتال الفرسان، فركب عنان بالأبطال والفرسان قاصداً بلاد نجد وركب الغضبان في أربعمائة ألف فارس وسار طالباً خلاص ابنته وقتل زيدان. أما الأمير أبو زيد فقال لدياب: من الصواب أن نركب ونلحق بزيدان ومخيبر وأنا أبقى هنا لأن الملك الغضبان ربما يرسل العساكر لحربنا فإذا أمنا من هذه الجهة فأتبعكم بباقي الحي فجمع دياب الأبطال والفرسان وركب في تسعين ألف فارس من بني زغبي وجد في قطع البراري والقفار طالباً بلاد اليونان، أما الأمير زيدان فسار طالباً الديار وإذا بغبار قد ثار حتى سد منافذ الأقطار وبان من تحته عسكر جرار وهو عسكر الملك الغضبان قد أدرك القوم في ذلك المكان فصاح زيدان بالأبطال والفرسان وأخذ يشجعهم على الحرب والقتال وقال لهم: هذا اليوم من أعظم الأيام

فاستعدوا للحرب واصبروا إن اللَّه مع الصابرين فسلوا سيوفهم وهجموا على العساكر المقبلة عليهم وهجمت العساكر على العساكر وتقاتلوا واختلطوا ببعضهم البعض والتقى الملك الغضبان بالأمير زيدان وأخذا في الحرب والصدام فيا لهما من بطلين عظيمين وأسدين درغامين فاقتتلا أشد قتال، أما الغضبان فضرب زيدان بالدبوس على رأسه طبق الخوذة وأراد أن يكمل عليه فهجم عليه مخيبر وعكرمة وحسن المزيدي وضربوه ضربات قاطعات فابتعد عن زيدان وانطبقت عليهم قوم الغضبان وجرى وقعة لم يجر مثلها اندحر فيها بنو هلال وذاقوا الأهوال، وإذا بغبار قد علا وثار ثم ظهر أبطال وفرسان كأنهم مردة الجان وفي مقدمتهم الأمير دياب وأبطاله الأنجاب وهو راكب فرسه الخضرا ثم اقتحم الميدان بالأبطال والفرسان وضربوا الأعداء بالسيوف وطعنوهم بالرماح وخلصوا زيدان من قلب المعركة. وفي المساء دقت طبول الانفصال وافترقت العساكر عن بعضها وفرح بنو هلال بقدوم دياب وشكر الأمير مخيبر الأمير دياب، وقال له: لولا مجيئك كنا بأوشم حال وباتوا تلك الليلة يتحارسون ولما أصبح الصباح وضاء نوره ولاح دقت طبول الحرب والكفاح فنزل الغضبان إلى ساحة الميدان فبرز إليه الأمير دياب وصدمه صدمة تزعزع الجبال فقال له الملك الغضبان: من أنت؟ قال: أنا الأمير دياب بن غانم ولا بد من قتلك فمال عليه الغضبان والتقى البطلان كأنهما جبلان وقدحت حوافر خيلهما شرر النار وضرب دياب الغضبان وجرحه فاقترب من دياب واقتلعه عن ظهر الخضرا وخبط به الأرض، فصاح زيدان والشباب على الغضبان وهجموا على دياب وخلصوه من الغضبان وحملت الفرسان على الفرسان وجرى بينهم حرب وقال: إلى أن انكسرت عساكر الغضبان وكان قد أمسى المساء، وفي الصباح قال دياب: لا بد لي أن أبارزه وأقطع رأسه وبرز إلى الميدان فنزل إليه الغضبان وجرى بينهما قتال شديد دام سبعة أيام إلى أن انكسرت بنو هلال فجمعهم دياب، وقال لهم: اصبروا وعن قريب يحضر أبو زيد وبنو زحلان ونهجم جميعاً على عساكر الغضبان وننتصر عليهم بإذن اللَّه فصبروا وثبتوا يتبارزون مع الأعداء. أما أبو زيد فأمر بني زحلان في الركوب فركبوا وكانوا تسعين ألفاً، وجدوا في قطع البراري إلى أن أدركوا القوم فصاح أبو زيد هذا يومكم يا أبطال. فهجموا على الأعداء واشتبكوا معهم بالضرب والطعن فعظمت الأهوال وجرت الدماء وقد فرق الأمير أبو زيد بهجومه الأعداء بضربات قاطعات فنكس البيارق، فلما رأى دياب أبا زيد فرح واستبشر بالنصر وتشددت العزائم وفتكوا بالأعداء وكانوا كالأسود الضراغم والتقى أبو زيد بالغضبان واشتد بينهما القتال إلى أن انجرح أبو زيد في يده وصاح الغضبان على الأبطال واشتبك القتال فللَّه در أبي زيد ودياب فإنهما قاتلا

قتالاً عظيماً تعجز عنه الأسود والتقى الأمير دياب بالغضبان بقلب لا يهاب وتقاتلا قتالاً عظيماً وهجمت عساكر بني هلال على عساكر الغضبان من كل جانب ومكان حتى أبلوهم بالذل والهوان، ولما رأى أبو زيد أن دياب لم يقتل الغضبان هجم أبو زيد يساعد دياب وضربا الغضبان ضربات قاطعات ونشط دياب بمعاونة أبي زيد وضرب الغضبان فشقه نصفين فوقع هو والحصان وانكسرت عساكره وولوا هاربين فلحقهم بنو هلال وشتتوهم في البراري والتلال حتى وصلوا إلى الديار فنهبوا الأموال وغنموا المواشي والجمال فحينئذٍ اجتمعت النساء والبنات وهن باكيات وطلبوا الأمان من أبي زيد ودياب فأمنوا الرجال والنساء وأقاموا عليهم صخر ابن الملك غضبان حاكماً مكان أبيه وأن يرسل لهم الجزية كل عام. وبعد يومين دقت طبول الارتحال فركبوا وعادوا قاصدين نجد العدية ورايات النصر تخفق فوق الرؤوس وهم في جذل وسرور، أما عنان الذي أرسله الغضبان إلى نجد بأربع كرات فإنه جد في قطع البراري والتلال قاصداً بلاد بني هلال وكان السلطان حسن رأى مناماً فأنشد يرويه أمام الأكابر والأعيان:

يقول الفتى حسن الهلالي أبو علي بدمع جرى من مقلة العين سايح
رأيت مناماً هد حيلي وقوتي فقمت أنا مرعوب والعقل رايح
رأيت أفاعي قد أتت بلادي ومعهم قروم مصفحة بالصفائح
دخلوا لصيواني فزادت لوعتي وزادت هلال بالبكا والنوايح
وقامت علينا ضجة ما أمرها وكم فارس عاد على الأرض طايح

فقال القاضي بدير: اللَّه يجيرنا من هذا المنام؛ لأنه يدل على حروب داخل البلاد فيجب علينا أن نستعد لغدرات الزمان ونصد أذى العدوان فجمعوا العساكر والجنود، فكانت مائة وثمانين ألف مقاتل تسعون ألف مقاتل برسم القاضي وتسعون خاصة بالسلطان حسن فلما وصل الملك عنان بفرسانه التقتهم بنو هلال بالسيوف والرماح، واشتبك بينهم القتال وكان يوماً من أعظم الأيام ووقعة يشيب من هولها رأس الغلام فالفرسان مشتبكة والخيول غائرة والرؤوس طائرة وقد اشتركت بعض النساء الهلاليات في هذه الحرب الضروس فحملن السيوف وهجمن على الأعداء ولكن الأعداء تغلبوا على بني هلال وضايقوهم في ساحة الميدان حتى كسروهم وأدخلوهم البيوت فكثر الصياح وعلا النواح وولت البنات هاربات باكيات وانقضت عساكر عنان على السلطان حسن والقاضي بدير وبقية السادات، وأسروهم ونهبوا خيرات نجد وأسروا القبيلة عن بكرة أبيها وعادوا إلى بلادهم راجعين كاسبين غانمين فأشرفوا على مرج أخضر فنصبوا الخيام ونشروا الرايات والأعلام

فقال حسن للقاضي: ما العمل ومن يفكنا من الأسر؟ فقال له: أرسل كتاباً إلى زيد العجاج وزيد بن شرهان وأعلمهم بما جرى واطلب منهم المعونة والنجدة فكتب إليهما على غدر الأعداء ببني هلال ثم قال لهما: أسرعا وخلصونا من الأسر والاعتقال، ثم أعطى الكتاب إلى عامر الهجان وأسرع بسيره إلى أن وصل إلى زيد العجاج وأعطاه الكتاب، فلما قرأه غضب غضباً شديداً وأمر العساكر أن يستعدوا بسرعة إلى القتال ثم كتب كتاباً إلى زيد بن شرهان قال فيه:

يقول الفتى زيد العجاج الفاضل ... بدمع جرى فوق الخدود سجام
يا غادياً مني على متن ضامر ... تسبق هبوب الريح في الآكام
سلم على زيد بن شرهان خبره ... وقبل أياديه مع الأقدام
وقل له يا أفخر الناس كلهم ... يا عز من نقل القنا وحسام
أتوا إلى نجد قروم عوابس ... كفار دينهم يعبدوا الأصنام
ومسكوا حسن وبدير والقبيلة ... وأسروا رجالنا وكل غلام

ثم قال: لا يكون الجواب إلا الركوب والحرب فلما وصل إليه الكتاب قرأه فبكى على بني هلال وأمر بدق الطبول وجمع العساكر وسار بهم إلى جبل الأزرق فالتقى هناك بالملك عنان ومعه بنو هلال مأسورين فصاح في قومه اليوم يومكم يا فرسان فابذلوا جهدكم بالفتك بالأعداء حتى تخلصوا السلطان حسناً ومن معه فشدوا عزائمهم وصاحوا اللَّه أكبر وهجموا هجوماً صاعقاً على الأعداء فهبت عساكر عنان مذعورة وحملت السلاح وسل عنان سيفه وهجم مع جنوده فالتقى بزيد بن شرهان، وصاح به ما سبب قدومكم وماذا تريدون؟ فقال له: يا عدو اللَّه سوف ترى ما يحل بكم من الأهوال لأنكم اعتديتم على بني هلال ووضعتموهم في الأسر والاعتقال، فلما سمع عنان كلامه التقى البطلان كأنهما جبلان وجرت بينهما حرب تدهش الأبصار واشتد بينهما القتال واعتدل زيد على حصانه وضرب عنان بالسيف على عاتقه فتلقى الضربة بطارق البولاد فوقعت على عنق الجواد، فوقع على الأرض وهجم قوم عنان وخلصوه من الموت ثم التحم القتال وجرى الدم وسال واختلطت الرجال بالرجال وكان عنان قد ركب جواداً وغار على بني هلال فتلقاه زيد وأخذ معه في الحرب والصدام وإذا بغبار علا وثار وانكشف على عساكر زيد العجاج وأمامهم فارس بالحديد غاطس فصاح بالأعداء اللَّه أكبر أتاكم زيد العجاج واقتحم الميدان بقلب أقوى من الصوان، وانطبقت الرجال بالرجال فالسيوف تقطع الرؤوس والرماح تخرق في الصدور وما زالوا في قتال إلى نصف النهار وغار زيد العجاج على عنان وضربه بالسيف أصاب الحصان وهجم دهقان

على زيد العجاج فتلقاه بالسيف قطعه نصفين وصاح سنان أخو دهقان بزيد بن شرهان وهجم عليه فضربه زيد قطعه نصفين فعندها دقت طبول الانفصال. أما أبو زيد ودياب وبنو هلال فإنهم بعد رجوعهم إلى نجد وجدوا القبيلة خالية من الرجال والنسوان والنوق والمواشي والبيوت مفتوحة والقتلى ملقوحة فحزنت بنو هلال حزناً عظيماً، فقال لهم أبو زيد: الرأي عندي أن يبقى قسم من الفرسان لحفظ الغنائم والأموال ونركب نحن بباقي الرجال لخلاص السلطان حسن وجميع المأسورين، فركبت الفرسان بتسعين ألفاً من بني زحلان وفي مقدمتهم أبو زيد وركب دياب بتسعين ألفاً من بني زغبي وبجانبه زيدان في ستين ألفاً من الشباب وجدوا في قطع القفار طالبين الأعداء، فلما أشرف أبو زيد على المعارك رأى عساكر الملك عنان محيطة بزيد العجاج وزيد بن شرهان فاقتحم معركة القتال وتبعته الأبطال والفرسان وغاروا على الأعداء يقطعون الرؤوس ويطعنون في الصدور فلما رأى عنان ما حل بقومه هجم على بني هلال وعقيل وإذا بغبار قد ظهر وبان من تحته عساكر دياب وزيدان وصاحوا اللّٰه أكبر وهجموا على عساكر عنان وغار أبو زيد على الملك عنان وطعنه بالرمح في صدره خرج يلمع من ظهره وانكسر جيش عنان وما سلم منهم غير الذي هرب ثم تقدم أبو زيد ودياب وفكوا السلطان حسناً وجميع المأسورين فشكروهم على شجاعتهم وبطولتهم ثم ركبت الفرسان وساروا إلى الأوطان وباشروا بزواج مخيبر ابن أبي زيد على سعد الرجا وداموا في فرح وسرور في أرغد عيش وأهنأه وعلى أحسن حال.

قصة الست ريما بنت الملك صخر بن علقم وما جرى لها مع محبوبها الأمير مرشد ابن الأمير دياب

(قال الراوي) إنه بعد زفاف الأمير مخيبر على سعد الرجا غار مرشد بن دياب وقال: إن أولاد الأمراء يأتون بالنساء الحسان ويتزوجون بهن وينالون الافتخار وأنا جالس في البيت مثل النساء، ثم إنه أقسم أنه سيغزو ويأتي ببنت تكون زائدة في الحسن والجمال عن بنات الملوك بعيون بابلية وخدود وردية وأسنان لؤلؤية ومراشف سكرية ونهود عاجية، ثم إنه أمر عبيده سالم وسليم بتجهيز ما يلزمهما للسفر معه. وفي الصباح ركب جواده وتقلد السيف اليماني وحمل العود الرشاوي وفي رأسه حربة تلمع وطلع يطوي البراري والقفار إلى أن أشرف على بلاد زيد العجاج ودخل الصيوان وسلم على زيد العجاج وعلى أمراء بني عقيل فردوا عليه السلام وأجلسه زيد العجاج بإزائه وبدأ يسأله عن بني هلال وإذ أقبل عليهم شعراء ثلاثة فترحب بهم زيد العجاج فأمر بإحضار الطعام فوضعوا الموائد وجلست الناس تأكل، ثم قدموا القهوة وكاسات الشراب وبعد ذلك قال زيد العجاج للشعراء: هاتوا ما عندكم من بديع الشعر وشنفوا منا الآذان بقصائدكم الحسان فقالوا: حباً وكرامة وتقدم كبيرهم وأنشد:

قال جبر بن جابر يا كرام ... أتينا إليكم نبتغي الأنعام
قد أمحلت بلادنا يا مير الملا ... دقنا بها المر والمرض وأسقام
أتانا المحل يا زيد فوق فقرنا ... انقطع مني العزم وحالي كالعدام
سمعنا بصيتك يا أبا فاضل ... يا كنز العطا والفضل يا همام
أعطنا يا زيد واجبر قلوبنا ... لنمدحك بين الناس على الدوام

قال زيد العجاج: أهلاً وسهلاً بكم يا شعراء، قد أمرت لكل واحد منكم بمائة ناقة محملة وألف دينار فشكروا صنيعه ودعوا له بدوام العز والبقاء والنعم، فلما انحل الديوان ذهب زيد العجاج إلى منامه لعند الست أم السعود بنت جابر وبقي في الديوان مرشد ابن الأمير دياب وفاضل بن زيد العجاج والشعراء فسأل

فاضل مرشداً عن سبب مجيئه من نجد، فقال له: معلومك أن شباب بني هلال يغزون ويأتون بالبنات الجميلات ويفتخرون بشجاعتهم وبطولتهم ويتزوجون بالأبكار بنات الملوك ولا يخفاك أني شاب جاهل ولست امرأة حتى أجلس في البيت، لذلك فإني قد عولت على مغامرة لأجلب لي عروساً تفوق بالحسن والجمال كل ربات الجمال، ثم التفت مرشد إلى كبير الشعراء وقال له: لعلك تهديني على بنت أحد الملوك ولك مني الإكرام الزائد، فقال له: لقد مررنا على بلاد نبت الزهور وحاكمها الملك صخر بن علقم وليس له أولاد سوى بنته ريما وهي فوق حسنها وجمالها عالمة وأديبة. فلما سمعت بنا أرسلت إلينا طالبة أن ننزل ضيوفاً عندها فلبينا طلبها وضفنا عندها سبعة أيام نسليها بالقصص الأدبية والأشعار وحكايات العرب فأكرمتنا إكراماً زائداً والحقيقة يا مرشد أن الست ريما لا نظير لها في الدنيا ولا رأت عيني أجمل منها ويسمى مكان أبيها ريم الجافل ثم عدل الشاعر الرباب وشرع يوصف الست ريما في هذا القصيد:

على ما قال الشاعر ابن جابر ... ناظم فنون الأدب مرتجل أقوالها
إن ريما ليس يوجد مثلها ... ولا يوجد نظيرها في جمالها
الخشف مثل الريم مين قدر يعادله ... والوجه مثل البدر حائز كمالها
كل من نظرها تاه عقله بالغوى ... يغدو مع السواح في سوء حالها
ما أحد حاز بهاها ولا انوجد ... هنيئاً يا مرشد لمن صار حلالها
ريما رمت بالقلب علة طويلة ... ريما يليق لمرشد يكون غزالها

عند ذلك أكرم مرشد الشعراء وانتظر إلى الصباح وقال لفاضل: مرادي أذهب إلى نبت الزهور لعلي أرى الست ريما فقال فاضل: سأذهب معك فركب مرشد وعبيده وفاضل وعبيده وساروا إلى نبت الزهور وكان ملك تلك البلاد جباراً عنيداً، وقد خطب ابنته أولاد الملوك فأبى أن يزوجها فكانت تتأثر من أبيها وتستجير من ظلمه وعناده فأتاها الخضر عليه السلام وقال لها: لا يخلصك من ظلم أبيك إلا بنو هلال، فقالت له: ومن أنت؟ قال لها: أنا الخضر أبو العباس عند ذلك كتبت كتاباً إلى بني هلال تستجير بهم من ظلم أبيها وقالت لعبدها سعيد: أوصله إلى بني هلال وأدخل الديوان وسلمه إلى أي أمير تجتمع به وهذه صورة الكتاب:

تقول فتاة الحي ريما الحزينة ... بدمع جرى فوق الخدود وعام
أيا غادياً مني خذ لي رسالتي ... مرقومة في حسن خطها ونظام
إذا رحت إلى بني هلال وعامر ... فأدخل الحي واقصد قوم كرام
تجد به حسن الهلالي أبو علي ... وبو زيد إلى خيل العدا صدام

وقل لهم يا عزوة الجود والعطا يا من ثناكم عالي على الأعلام
والدي ترى جابراً عنيداً ذقت منه العنا والهول والأسقام
رايد يبورني بفكره والدي فخلصوني منه بكل بطل درغام

ثم أعطته للعبد فركب جواده وأسرع في السير إلى أن وصل إلى عين مرج الأزهار فرأى على العين مرشداً وفاضلاً وعبيدهما فسلم عليهم فردوا عليه السلام فسأله مرشد من أين يا صاح وإلى أين مسافر؟ فقال: إلى بني هلال أعطيهم رسالة فقال له: أبشر أنا مرشد ابن الأمير دياب فهات الكتاب، فناوله إياه فلما قرأه أعطاه لفاضل فسأل العبد عن قصر الست ريما أين يقع؟ فقال: في مكان يسمى دليل الغريب، فقال مرشد لفاضل: لنسرع إلى ذلك المكان فركبوا خيولهم وأعطوا الكتاب للعبد وقالوا له: لا تقل لأحد أنا قرأنا الكتاب ولكن قل لهم تركت مرشداً وفاضلاً في نبت الزهور وهيهات تدركوهما، ثم ذهب كل فريق لقضاء حاجته فلما وصل مرشد إلى مكان دليل الغريب طلع إلى قصر الست ريما وطرق الباب ففتحت جاريتها الباب، وقالت لمرشد: ما الذي أوقفك أمام قصر بنت الملك أما تخاف من أبيها أن يقتلك؟ فقال لها: أنا مرشد ابن الأمير دياب قد وقعت في هوى الست ريما وأريد أن أراها فعادت الجارية وقالت لستها ريما: إن الذي قرع الباب شاب من أحسن الشباب ظريف القد حلو المبسم فسألته عن اسمه وما يريد فقال: اسمه مرشد ابن الأمير دياب وهو يهواك ويريد أن يراك فقالت لها: أحضريه فأحضرته فلما رأته الست ريما دهشت من حسنه وجماله فهو حلو المبسم بخدود وردية ووجه كالقمر، فلما دخل مرشد ورأته نهضت واقفة واستقبلته بفرح وابتسام وأرادت أن تضمه إلى صدرها فقال لها: انتظري فأنا سأبذل جهدي وآخذك بالحلال ثم إنه أعلمها بمكانه في برج العمارة وأقام عندها مقدار ساعة ثم ودعها وعاد إلى مكانه وأخبر ابن عمه بما صار ثم قال له: مرادي أن نسوق مواشي الملك صخر ونصيح على ملك الزهور لنصلي الحرب بيننا وبينه، فقال ابن عمه: غداً صباحاً نركب مع العبيد ونحارب. وفي الصباح ركبوا وقصدوا المواشي وساقوها فهبت عليهم الرعيان واشتغل الضرب بالسيف والطعن بالرمح وقتل من الرعيان عدة أشخاص والباقون هربوا ودخلوا على الملك صخر وأخبروه بأن المواشي قد نهبت والرعيان قد قتلت، فصاح بابن أخيه قاهر العدا وأمره بركوب الخيل وأن يقتل الأعادي ويرد المواشي فركب في جملة من الأبطال وجد المسير حتى وصل إلى برج العمارة وصاح بالأعداء ارفعوا أيديكم وسلموا أنفسكم قبل أن نأخذكم على شفار السيوف فارتد عليهم مرشد وابن عمه والعبيد ووقع بينهم الكر والفر والطعن والضرب. فهز قاهر العدا بيده عود الزان وطعن به مرشداً فغطس تحت بطن الجواد ثم اعتدل

بسرعة وضرب خصمه فحكم الضرب على طارقة البولاد واعتدل قاهر العدا على ظهر الجواد وطعن مرشداً بالرمح فجرحه في زنده فوقع على الأرض فحمله جواده وأخرجه من الميدان فتصدى لقاهر العدا فاضل وتقاتل معه مقدار ساعة، فما نال منه المراد فندما على ما فات منهما ودخلا مع عبيدهما إلى برج العمارة وأغلقوا الأبواب. أما قاهر العدا فأرجع البوش إلى نبت الزهور وذهب إلى عمه وأعلمه بما جرى. أما مرشد فأرسل العبد إلى الست ريما يطلب منها مرهماً فذهب وقرع الباب وقال للست ريما: أعطني مرهماً لمرشد يداوي جرحه وأخبرها بما جرى فبكت ولطمت خديها وندبت سوء حظها ثم أعطته المرهم، وقالت له: سلم على سيدك فأخذ المرهم وأسرع فأعطاه لمرشد فوضع منه على الجرح وربطه. أما الست ريما فأرسلت عبدها إلى بني هلال وقالت لهم: أسرعوا إلى نبت الزهور وخلصوا مرشداً وفاضلاً من كيد العدو فهما محاصران في برج العمارة، فلما وصل العبد دخل الديوان وسلم على السلطان حسن وعلى الأمراء وأعطاهم الكتاب فقرأه أبو زيد فلما سمعوا ما حصل لمرشد وفاضل أمروا بالركوب حالاً فركبت الفرسان وقرع الطبل وجدوا بالمسير. أما دياب ما قرأ الكتاب صاح في بني زغبي شدوا الركاب، أما زيدان فقد سبق الجميع حتى أقبل على بلاد نبت الزهور فلما رأى مرشد غبار الخيل وسمع الطبل يضرب هبت به الأشواق وأنشد:

يا ريح خذ سلامي وجد يراعي لنجد دار لنا عز المنازيلي
تلاقي بها ليث جسور ذكره شاعي يسمى أبو زيد شيال المحاميلي
والأب يسمى دياب السبع له ضاعي يا والدي قل عزمي وانقطع حيلي
وبدر بن غانم سياج البيض نفاعي بيوم تنادي له بنت وأراميلي
زيدان يا عم ابن الأخ قد ضاعي حملي وقع ما أحد للحصل بيشيلي
إن مت يا عم خذ لي الثأر يا راعي من قاهر الخيل لا تبقى له حيلي
حولك صناديد تشبه وثبة سباعي عقل ابن هولا متى الكون يوميلي
يا عقل عقلي غدا والصبر قد ضاعي جراح شتي ومالي من يداوي لي
يا حسرتي ما أحد للقول سماعي لو كان زيدان عمي كان يناديلي
يا أهل الوفا أنجدوني العقل ضاعي في حب ريما دأبت مناديلي

فلما فرغ مرشد من كلامه وسمع زيدان نظامه قال: يا ابن أخي أتاك عمك زيدان فنهض مرشد وفتح الباب فدخل زيدان ودخلت وراءه الشباب فسلموا على بعضهم وأخبرهم مرشد بما تم وجرى. وقد وصل الخبر إلى الملك صخر بأن الفرسان في برج العمارة كانوا ستة فوارس، فأصبحوا اليوم ستين ألفاً فلما سمع

هذا الكلام غضب غضباً شديداً وأمر ابن أخيه قاهر العدا بركوب الخيل فركبوا بمائة وخمسين ألفاً وساروا إلى برج العمارة، فصاح عقل بن هولا أخذتنا عساكر الدشمان فلما سمع زيدان ذلك الكلام نهض واثباً وصاح: الخيل يا ركابها والأعداء يا طلابها فركبوا واستعدوا للقتال واصطف الجيشان وبرز قاهر العدا إلى الميدان وصال وجال وطلب لقاء الأبطال فبرز إليه فارس كأنه الليث العابس وقال: أنا الأمير زيدان شيخ الشباب وهجم على قاهر واشتبكا في القتال والنضال حتى انجرح زيدان فأتاه مرشد وقال: أنا لي عنده ثأر وهز في يده عود الزان وطعن قاهر العدا في عنقه خرج الرمح يلمع من قفاه. فوقع قتيلاً وصاح مرشد دونكم الخيل فسبق الأمير مناع على أول الخيل فأبلاها بالويل وما زال الهلاليون يضربون أعداءهم حتى شتتوهم وقتلوا منهم عدداً كبيراً وغنموا مكسباً عظيماً ولما سمع الملك أن ابن أخيه قتل صار الضياء في عينيه ظلاماً وقال: وحق من ولاني على رقاب العباد لا بد أن أفتك فيهم وأمحي أثرهم وأحضر أخا قاهر الرجال وهو الغضبان وأمره بمهاجمة الأعداء وأن يأخذ بثأر أخيه فسار بالجيش إلى برج العمارة واصطف الفريقان وتقابلت الفرسان وقام الحرب على قدم وساق والتقى زيدان بالغضبان وتقاتلوا مقدار ساعة من الزمان انجرح زيدان بعدها في يده ونزل عليه الغضبان بطعن مثل لسع النار إلى أن دقت طبول الانفصال وتوقفوا عن القتال.

(قال الراوي) بينما كان الأمراء جالسين في صيوان السلطان حسن قال دياب لأبي زيد: ما أتى لنا علم عن الأمير زيدان ولا بد من الركوب ونهض من المجالس وصاح بفرسان بني زغبي وأمرهم أن يركبوا خيولهم فركبوا واعتلى دياب الخضرا وسار بتسعين ألفاً وفعل أبو زيد مثل دياب وسار في بني زحلان وهو راكب على الحمرا، ثم ركب القاضي بدير بتسعين ألفاً من بني عامر وركب السلطان حسن بتسعين ألفاً من بني دريد وأمر بضرب الطبل الرجوج فبقيت الأرض تموج وتهوج وساروا يقطعون الفيافي والقفار حتى أشرفوا على العين الباردة فنزلوا لأخذ الراحة، فقال أبو زيد: إن فاضل بن زيد العجاج موجود مع مرشد في نبت الزهور ومرادي أرسل كتاباً إلى زيد العجاج وهو يرسله إلى زيد بن شرهان وهو يرسله للماضي بن مقرب ويكون ملتقاهم على العين الباردة فكتب الكتاب وأعطاه إلى عبده أو القمصان، فأوصله لزيد العجاج فلما قرأه أرسل المكاتيب لزيد بن شرهان وإلى الماضي بن مقرب فركبوا وساروا جميعاً إلى العين الباردة فوجدوا أمراء بني هلال نازلين هناك فبعد أن استراحوا قليلاً أمر السلطان حسن بالركوب فركبوا وجدوا المسير حتى أقبلوا على نبت الزهور فوجدوا زيدان في أشد الضيق فتقدم أبو زيد بفرسانه وهجم دياب بأبطاله وزيد العجاج وزيد بن شرهان برجاله والماضي بن

مقرب والقاضي بدير والسلطان حسن وصاحوا بالأعداء أصواتاً ارتجت لها الوديان والجبال، وضربوا العدو من جميع الجهات وحصل الكر والفر وطبقت الخيل على بعضها والرؤوس تتساقط مثل أوراق الشجر في أيام الخريف، فلما رأى الغضبان ما حل بقومه أرسل لعمه صخر يقول له: إن بني هلال فتكوا بعساكرنا وما أبقوا على أحد فلما وصل الخبر للملك صخر صار الضياء أمامه كالظلام وأمر بركوب العساكر وركب هو على جواد أشهب وجدوا المسير حتى أقبلوا على برج العمارة فصاح الملك صخر بأعلى صوته أين تذهبون يا بني هلال؟ وصار هو وجنوده يجندلون الرجال ويدحرجون الرؤوس فوق الرمال. ثم وقف في الميدان وطلب مبارزة الفرسان فانحدر إليه أبو وطفا الأمير دياب ووقع الكر والفر والضرب والطعن والكسر ومن عظم الضرب انقطع سيف الملك صخر قطعتين وارتمى عليه دياب كأنه الصاعقة وطعنه بصدره فجرحه وتألم منه ودقت طبول الانفصال وعند الصباح نزل الملك صخر إلى الميدان فانحدر إليه أبو زيد وانطبق عليه وتقاتلا وتضاربا حتى كلت منهما السواعد، وقام الملك صخر في عزم الركاب وهز بيمينه عود الزان وطعن به أبا زيد فغطس أبو زيد تحت بطن الحمراء راحت الطعنة خائنة ثنى عليه بالسيف أخذها في ترس البولاد وجرح أبو زيد، عند ذلك انسحب أبو زيد من الميدان فنزل زيد العجاج وتقاتل مع صخر مدة ساعة من الزمان. أما زيد بن شرهان والماضي بن المقرب والقاضي بدير فقد خافوا على زيد العجاج فانحدروا إلى الميدان يضربون صخراً، فرد عليهم بطعن جريء وضرب أليم وهجمت عساكره وجنوده على بني هلال وردوهم سبع مراحل إلى الوراء وكان ينزل صخر إلى الميدان ويطلب مبارزة الفرسان فما أحد يقدر عليه فأرسل يقول لبني هلال:

يقول الملك صخر فيما قد جرى ... كم فارس أتاني وراح عادم
يا غادياً مني على متن ضامر ... تسبق هبوب الريح مثل النسايم
سبعة ليالي ما أتى معكم خير ... ولا بان منكم يا هلالي علايم
يا حيف ظعن هلال يغدي في الفلا ... ويا حيف تبقوا في البراري هزايم
أين هلال أين دياب كم ... أين أبو زيد وكبار العزايم
أنا مطلوبي دياب يجيء لعندي ... ومقصودي خضرة دياب الغانم
مرشد يجيبها ذليل وخاضع ... يخش الحمى يكون في البيت خادم
أنا صور الزينات أنا قاهر العدا ... ما أظن أخلي ابن يومين سالم

ثم أرسل الكتاب إلى زيد العجاج فلما قرأه ذهب لديوان السلطان حسن وأعطاهم الكتاب فقرأه أبو زيد على الجميع، فقال دياب: إن تركناه يتبعنا إلى نجد

ويخرب ديارنا ولكن النصر من اللّه تعالى وقال أبو زيد: أنا أرى أن نركب غداً والناس نيام فيركب دياب ويضرب البلاد من جهة الشرق وأنا أركب من جهة الغرب ويركب الماضي بعساكره من الشمال والسلطان حسن والقاضي بدير من الجنوب وزيد العجاج وزيد بن شرهان يضربان سراية الملك والأمير زيدان يضرب الخيام. فقالوا: هذا رأي صائب وعند انتصاف الليل ركبوا وكبسوا العدو وتعالت الأصوات وحملت الرجال وجرى الدم وسال وقتل من عساكر العدو ما لا يعد ولا يحصى. وفي الصباح اجتمع الأمير دياب بالأمير أبي زيد وطلعا لخارج المدينة وإذا بزيدان هاجم على خيام الملك الغضبان فأقبل الأمير دياب على المقدمة من اليمين وصار يضرب الرقاب ويدحرج الرؤوس وفعل أبو زيد مثله وكان زيدان قد وصل إلى الغضبان وضربه بالسيف قطعه نصفين ودام الضرب والطعن مدة من الزمان وهو على هذا الحال طلع صخر بن علقم على بلاد نبت الزهور، ولما رأى الغضبان مقتولاً هاج وماج وقصد زيدان فأمسكه من أطرافه وخبطه على الأرض رضرض عظامه وأراد أن يكمل عليه فهجم عليه دياب على ظهر الخضرا وطعنه بالرمح بين بزيه خرج يلمع من بين لوحيه وثنى عليه بالسيف قطع رأسه وغارت بنو هلال على الأعداء مثل الأسود فقتلوا منهم خلقاً كثيراً فدخلوا بلاد نبت الزهور ووضعوا حاكماً من تحت أمرهم بشرط أن يرسل لهم عشر المال في كل عام. أما مرشد فذهب إلى قصر الست ريما وشد لها هودجاً فأخذت خفيف الحمل غالي الثمن وعاد الأمراء إلى ديارهم كاسبين غانمين ووزع السلطان حسن الخلع وعمل الولائم ولما وصلوا إلى نجد استقبلتهم الجازية مع بنات بني هلال بالرقص والزغاريد ورأت الجازية مرشداً قابضاً زمام ناقة الست ريما فقبلته وأخذت زمام الهودج وأدخلته صحبة سيدات بني هلال فأحضروا القاضي بدير بن فايد وعقدوا عقد الست ريما على مرشد ثم دخل عليها وباتوا بالأفراح والليالي الملاح.

قصة بدر النعام بنت الملك صادر وما جرى لها مع محبوبها جبر المزيدي

(قال الراوي) بعد أن تزوج الأمير مرشد بالست ريما وداموا في أفراح وسرور ورقص وغناء وكانت الشعراء تتوارد على مجلس السلطان حسن يمدحونه بالأشعار وينالون منه الجوائز الحسان، وكانت الجازية أخت السلطان حسن مرة في الديوان تسمع مديح الشعراء والدق على الرباب فرآها أحد الشعراء فمدحها مدحاً بليغاً وأنها أجمل فتاة رآها في حياته ثم مدح بدر النعام بنت الملك صادر وبالغ في حسنها وجمالها وقدها واعتدالها وأدبها وعفتها وحلاوة لفظها ومنطقها، فقالت الجازية بنفسها أنها تصلح لابن أختي جبر المزيدي ولما انفض الديوان ذهب السلطان إلى غرفة نومه ونام فرأى في منامه غراباً أسود دخل نجداً، ثم ذهب وعاد ومعه أغربة مثل الجراد وانتشرت في أرض نجد فأكلت الأثمار والزهور والأعشاب وأصبح أهل نجد بضيق فرحلوا من أوطانهم فانتبه السلطان من نومه منزعجاً ولما جلس في الديوان وحوله الأكابر والأعيان وحكى لهم ما رآه في المنام في هذه الأبيات:

يقول الفتى حسن سرحان أبو علي صرف الليالي زايدات غيوبها
رأيت مناماً هد حيلي وقوتي أريد أهل العلم تشرح فنونها
رأيت غراب أسود اللون باشع أتى يمي وما خشي من عيونها
وغاب عني ثم عاد بسرعة ومعه غربان مثل الفحم لونها
أتتنا عقبان مثل جراد وأكثر وبازاتنا من نجد غايبونها
وساقوا جميع الظعن يا أهل عامر ومالي ورزقي العدا أخذونها

فلما فرغ السلطان حسن من كلامه عرف أبو الليث تفسير المنام ولكنه ما أراد أن يفسره بالشر والضرر فأشار لأبي زيد أن يفسره فعندها بدأ أبو زيد يفسره فقال:

أما الغراب الأسود فهو جاسوس دخل الحمى رأى رجالنا ونساءنا ولما غاب عاد ومعه ملك الأعداء وجيوشه وعاثوا في الأرض فساداً وسبوا النساء والبنات

وبعد العز نصير أذلاء لا سمح اللَّه وسبب ذلك أن بعض شبابنا يشتد به الغرام بحب إحدى بنات الملوك ويرمينا بالأهوال والحروب. فقال السلطان حسن: واللَّه ما أبقيتم لنا صاحباً ولا صديقاً في الدنيا ومرادكم تملكوها بالطول والعرض وتسبوا نساءها فلا تلوموني إن تركت لكم بلادي وسافرت لعند ابن عمي زيد العجاج، فقالوا له: تخاف من الأعداء ونحن نفديك بأرواحنا ويقول الناس: إنك خفت من المنام وانهزمت من البلاد فقال حسن: صبر جميل وباللَّه المستعان، أما زيدان فكان في الصيد ومعه مئة فتى من الشباب فرأوا شرذمة من الفرسان فهجمت الشباب عليهم وضرب جبر بن مزيد عقيل الخيل فقتله وغنموا خيولهم وعادوا مسرورين وكان في بني هلال أربعة شباب في غاية الحسن والجمال وهم جبر المزيد ومرشد بن دياب وعلي بن أبي العوف وعلي ابن السلطان حسن فلما عاد الشباب من الصيد استقبلوهم باحتفال عظيم وبنوا براجيس الخيل أمام صيوان السلطان حسن ونزل الأمراء الشباب إلى الميدان فنزل السلطان حسن وأبو زيد ودياب والقاضي بدير وعرندس وطي بن مالك والرياشي بن مفرج من جانب ونزل زيدان ومخيبر وعكرمة وجبر المزيد ومانع وتامر وسنان من جانب آخر وصار ضرب الجريد بينهم ونزلت الجازية ومعها البنات بالغناء والمزاهر وهن فتنة وغنة وريا وجمال الظعن والمارية وكانت الجازية توصف البرجاس بهذه الأبيات:

تقول الجازية أخت المكنى حسن سلطان على جملة هلال
حسن ملك القبايل كلها غرب وشرق وقبلي وشمال
ومن بعده الفتى الهلالي أبو زيد شيال الحمال
والزغبي دياب بن غانم مردي الضد في دز العوال
أبو درغام يوم الكون فارس بسوق الحرب ليس له مثال
مخيبر ابن أبو زيد أتى بسعد الرجا وذاق الهوال
ومرشد ابن الأمير دياب غزا وجاب ريما بنت الدلال
وحسن المزيدي راح لحسنا جابها لها وجه يضوي كفي هلال

فلما فرغت الجازية من كلامها قالوا لها: بارك اللَّه فيك. أما جبر المزيد فقال: إن الجازية وصفت شباب بني هلال ولم تذكر اسمه وذهب لعند الجازية وقال لها: لأي سبب ما ذكرت جبر؟ قالت له: إني وصفت الأبطال الذين حاربوا وانتصروا وأتوا بالبنات، أما أنت فاجلس عند أمك حتى تصير رجلاً وبعدها تعال عندي حتى أصف لك بدر النعام. فقال لها: أوصفيها لي الآن فقالت له: يا ابن أخي إن بدر النعام تربت في بلاد النعام وأنا أصفها لك كما وصفها الشعراء تماماً:

قالت بنت سرحان الدريدي ونار العشق زادتني سعار
جيت أخبرك وأنت قادر على بدر النعام بنت صادر
أصيلة من أهل قوم أكابر بديعة ومن سلالة حراير
لها قامة كعود الزان وأحلى خطيب إن شافها ساح في الفلا
إذا بدر النعام وقفت قبالك عقلك والصبر يا جبر ولا
اذهب يا جبر وشد حيلك تصلح لك وما تصلح لغيرك
اغزي جيوش الملك صادر وبدر النعام تكون حليلتك

فلما فرغت الجازية من كلامها ودعها وذهب وقال في نفسه: حرام عليّ أن أسكن في أرض نجد إذا لم أر بدر النعام وأتمتع بحسنها وجمالها وقدها واعتدالها ثم شد على ظهر جواده وسار إلى أن أشرف على وادي المعمر فرأى عكرمة بن أبي زيد ومعه عشرون خيالاً فسلم عليه فرد السلام وقال له: أخبرني إلى أين ذاهب فأنشد جبر يخبره بهذا القصيد:

يقول جبر الخيل خليفة مزيدي النار في قلبي تهب وتوقدي
يا عكرمة الجازية أم النقاب تمدح أبو زيد والزغبي دياب
ثم زيدان مع باقي الشباب مخيبر ومرشد وحسن المزيدي
سألتها يا خالتي ما هو الخبر قد وصفت الكل ما قلت جبر
ردت عليّ ثم قالت يا جبر مانك من الفرسان حتى تنشد
وبختني يا ابن عمي بالكلام قائلة أسرع إلى بدر النعام
بنت الملك صادر إذا زاح النقاب ألف عاشق مثل جبر ممددي

قال له عكرمة: روحي فداك ولا تشمت بك أعداك ثم أرسل ورقة بيضاء باسمه واسم جبر إلى الأمير زيدان قائلاً: اقرأ لنا الفاتحة ثم سار جبر وعكرمة وأخذوا معهم ابن أبي القمصان أما عنان فأعطى كتاب عكرمة إلى زيدان ففتحه وإذا هو أبيض ومكتوب اقرأ لنا الفاتحة. عند ذلك أمر الشباب بالركوب. أما جبر وعكرمة فجدوا بالمسير ومعهم ابن أبي القمصان قاصدين بلاد الملك صادر الذي يحكم على مائة ألف خيال وهو يحكم من تحت أمر الملك الجبار صور بن زرد من بني قحطان يحكم على عساكر لا تعد ولا تحصى وكان يعبد النار وأين ما سمع ببنت أمير أو ملك يرسل من يأتي بها رغماً عن أبيها وقومها، فدخل عليه رجل وقال له: البشارة يا مولاي فقال له: قل ما عندك من الأخبار، قال: إني رأيت فتاة رائعة في الجمال والقوام فصيحة اللسان أديبة لبيبة نادرة من نوادر الزمان لم يوجد مثلها في سائر البلدان وهي بدر النعام بنت الملك صادر فقل لأبيها أن يرسلها لك

بالحال فقال له الملك: لقد سمعت بمحاسن هذه الفتاة وأبوها صادر من أتباعنا وفي كل عام يرسل لنا عشر المال على كل لقد ذكرتني بها فخذ هذه بشارتك وأعطاه مالاً جزيلاً ثم كتب رسالة إلى الملك صادر يطلب منه أن يرسل له بدر النعام وأنشد:

يقول الفتى صور حاكم الورى يوم الوغى أخلي الشجاع ذليل
نعم أيها الغادي على متن ضامر تسبق هبوب الريح حين تشيل
جد السرى من فوق جواد سابق وانزل عند صادر في تعجيل
وقل له الملك صور يقول لكم أرسلوا عشر المال بلا تطويل
وأرسل لنا ألف مهرة أصيلة وألفين شقرة وألفين فيل
وألفين بيضاً من خيار بناتكم دوالع مكحلات من دون ميل
وأريد بدر النعام تكون حليلتي شاعل بورد خدها قنديل
وإياك تهمل كل شيء ذكرته فيجري فيكم القتل والتقتيل

فلما فرغ صور من كلامه أرسل الكتاب إلى الملك صادر، فلما قرأه تغيرت ألوانه وقال للوزراء: إن الملك صور طالب منا عشر المال وطالب ألفي بنت من بناتكم وبنتي بدر النعام، فهاجوا وماجوا وقالوا: هذا لا يمكن أبداً فعند ذلك ضربوا العبد وطردوه فلما عاد دخل على الملك صور وهو يبكي فقال له: من ضربك وأهانك فأنشد يخبره بما جرى عليه بهذا القصيد:

قال مسعود الشقي المحزون دمعي جرى من مقلتي وعيوني
بجنح الليل سافرت لبلاد النعام على الملك صادر بالحال دلوني
قبلت يديه ثم ناولته الكتاب بعد أن قري كتابكم ضربوني
أمر علي بألف جلدة يا ملك استجرت فيهم فما جاروني
قال الذي صابته سهام النيا بضربات العصي قد كسروني

فلما سمع الملك ما جرى على العبد أمر أن يشدوا على الخيل فركب الوزير عامر وركبت الفرسان وساروا إلى بلاد النعام يقطعون البراري والآكام. أما الملك صادر فأمر بإرسال بدر النعام والبنات اللواتي عليهن الاعتماد إلى قصر البنات وهو يبعد عن البلاد مقدار خمسة أيام ثم قال: نحن نقاتل الأعداء فإن انتصرنا عليهم نبقى في بلادنا وإن انكسرنا نجعل طريقنا على قصر البنات فنأخذهن معنا وركبت بدر النعام وركبت معها البنات وساروا بهن إلى قصر البنات وحطوا عندهن الجواري يخدمنهن وتحضروا للحرب وصد العدوان وكانت فرسان الوزير عامر قد وصلت واصطفت العساكر وانحدر الوزير عامر إلى الميدان فبرز إليه الملك صادر

وتجاولا في الحرب والقتال وتضاربا بالسيوف والنصال فيا لهما من أسدين درغامين وبطلين همامين، ودام القتال بينهما للمساء افترقا على سلام. أما جبر وعكرمة بن أبي زيد فساقتهم التقادير على قصر البنات الذي فيه بدر النعام فنزلوا عن خيولهم عند العين فجلسوا تحت شجرة نخل فخرجت جارية من القصر، لتملأ جرتها فنهض جبر ومشى نحوها وسلم عليها فردت عليه السلام فسألها عن اسمها قالت: زهر الروض قال: هل عندكم لبن؟ قالت: نحن فقراء وغرباء فقال لها: كيف تركتم أوطانكم وبلادكم وسكنتم في البر؟ قالت: ركب علينا الأعداء وطردونا من بلادنا ثم بكت ولطمت خدها فلما رآها تبكي بدأ يخفف عنها ويطيب خاطرها بهذه الأبيات:

يقول المزيدي جبر المكنى ورمحي طعن كل فارس معدود
زهر الروض يا بنت الأكابر شريفة الآباء ثم الجدود
زهر الروض يا فتنة الليالي مليحة الوجه ناعمة الخدود
سلطاننا يسمى حسن الدريدي ولد سرحان على الأعدا يسود
أبو زيد المكنى أبو مخيبر له في ملتقى الفرسان صمود
والزغبي دياب ابن غانم يخلي دما الأعدا عالثرى يجود
زهر الروض أريد تعلميني عن بدر النعام بارزة النهود
لأجلها أنا أجرد حسامي أبري رقاب أعداها والحسود

فلما فرغ جبر المزيدي من كلامه ابتسمت زهر الروض وقالت له: سمعت رفقائي يذكرون اسمها ويتحدثون عنها فانتظر هنا قليلاً حتى أعود إليك بالخبر الشافي، ثم إنها ملأت الجرة وذهبت فلما وصلت سألتها بدر النعام عن سبب تأخيرها على العين فقالت لها: رأيت شابين ومعهما عبد فتقدم أحدهما وكلمني بلطف وأدب وألفاظ تسر الخاطر وتشرح الصدر وقد سألني عنك ثم أنشدت تقول:

زهر الروض غنت في نظامي ونار الشوق في قلبي ضرامي
يا ستي مرادي تسمعيلي أخبار الصدق تأتيك علامي
لما نزلت أنا لعين الميه شفت زولهم مقبل علي
شب مليح قال يا بنية ما هو الاسم قولي بالتمامي
قلت له زهر الروض يا سيدي يا خياه قل لي ما تريدي
قال من بهذا القصر أفيدي أظنه فقير ما عنده أغنامي
لما رآني هلت دموعي على الخدين تجري كالنبوع
قال أبشري زين المعاطر أنا المعروف جبار الخواطر

وحق الذي إليه الحج زاير لزيح الضيم عنكم بالحسام
وجيت أنا يا ستي لعندك وقده يا مليحة مثل قدك
تمنيت أنه يقطف ورد خدك بنت الجيد لابن الكرام

فلما فرغت زهر الروض من كلامها قامت بدر النعام هي ورفيقاتها إلى الشباك فتحت بدر النعام نافذة قصرها وأطلت لترى منها جبر المزيد ثم قالت لجاريتها: اذهبي إلى جبر وأحضريه حتى أسأله عن سبب مجيئه لبلادنا ولا تقولي له سيدتي في القصر فنزلت الجارية وقالت له: ستي طلبتك وهي تدلك على بدر النعام فمشى إلى القصر والتفت إلى أعلى فرأى حورية من حواري الجنة عنقها عنق الغزال صدرها بلاط الرخام نهداها رمان خدها تفاح شامي فلما رآها جبر قال لابن عمه: نحن مرادنا نرى بدر النعام فحظينا في هذه الخلقة البهية والمحاسن الظريفة فإن كانت هذه بدر النعام تم المرام وإن لم تكن هي حرام علي أن أفتش على بدر النعام فقالت له: صباح الخير أيها الشاب الظريف فقال لها: صباح الخير والرضا فقالت له: ما سبب مجيئك إلى بلادنا؟ فأخبرني بالصدق فأنشد يغني وهي تسمع:

يقول الفتى جبر الحزين الهايم النار في قلبي تزيد شعالي
جرح الهوى ما له دوا هد القوى والحب غير حالي
لي خالة تسمى الجازية مدحت بدر النعام بقصيد عالي
رايد تعطيني الأخبار السالفة عن أهلك وأبطال الرجال

ولما سمعت مقاله بدأت تخبره عن حالها بهذه الأبيات:

قالت فتاة الحي فيما قد جرى أنا أميرة من فروع طوال
يا جبر أنا بدر النعام بذاتها بنت الملك صادر صاحب الأفضال
كانت لي هيبة أصبحت غريبة أبي قوته ضعيفة في النزال
راكب علينا يا جبر قرم عنيد صور بن زرد الفتى المتعالي
رايد يأخذني يا أمير غصيبة يقول بدر النعام واللّه حلالي
قام أبي من خوفه نفاني وحطني في هذا الحصن مأوى لي
لا أدري ظعون أبي كيف أحوالها يا جبر لا تعطي قفا يا غالي
الشب مثلك يا أمير جبر يشهر حسامه للقا وأنزال
فاقتل الملك صور في ساحة الوغى تبقى بدر النعام الك حلالي

فلما فرغت بدر النعام من كلامها فرح الأمير جبر واستبشر بالخير وصاح اللّه أكبر على من يعادي أباك. وفجأة سمعوا الصياح ورأوا الخيل هاربة والفرسان سايبة وذلك أن عساكر الملك صور تغلبت على عساكر صادر وشتتوهم في البراري

والقفار. فلما رأت بدر النعام أباها في هذه الحالة صاحت بأعلى صوتها يا جبر اليوم يوم المروءة والشجاعة وذبح الأعداء فصاح لعينيك يا بدر وانحدر هو وعكرمة على القوم ودخلوا بين الملك صادر والوزير ومالوا عليهم بضرب السيوف وطعن الرماح حتى ردوا الأعداء إلى الوراء مسافات، وكان قد أمسى المساء فافترقوا عن بعضهم واستقبل الملك صادر جبر وعكرمة بالأحضان وقبلهما وشكر فضلهما وشجاعتهما، ثم قال: تكرما عليّ بأسمائكم لعلنا نكافئكم ونقضي لكم حاجتكم فقال جبر: نحن من بني هلال وأنا اسمي جبر المزيدي ورفيقي عكرمة بن أبي زيد أتانا شعراء فذكروا لنا بدر النعام، فأحببت أن أنال الشرف بطلبها من جنابكم زوجة لي فقال صادر: هي لك يا ولدي وأنا ليس لي قدرة على قتال الملك صور ووزيره وعساكره لا تعد ولا تحصى، فإن كان باستطاعتكم محاربة أعدائنا والنصر عليهم فافعلوا. فقال عكرمة: أنا أشور عليكم أن ترسلوا كتاباً إلى بني هلال وتطلب من السلطان حسن وأبي زيد ودياب وزيدان أن ينجدونا ويخلصونا من الأعداء فطاب خاطر الملك صادر واستبشر بالنصر وكتب يستجير ببني هلال في هذا القصيد:

يقول الملك صادر على ما جرى له ... وهموم قلبي شاعلات نيران
أيها الغادي على متن ضامر ... تسبق هبوب الريح بالوديان
ادخل إلى صيوان الأمير أبو علي ... حسن المكنى ولد سرحان
قل له يا سيد الناس كلهم ... يا من حوى الجود وعز وشأن
راكب علينا عدو ابن حرام ... صور ابن زرد من قحطان
وفي يوم من الأيام أتانا فوارس ... جبر المزيد وعكرمة أبو شيبان
لهم همة إذا جالت الخيل للقا ... حموا جيشنا والبوش والنسوان
لأن هذا الخصم ما نحن قده ... واقع عليكم تنجدونا يا إخوان

فلما فرغ الملك صادر من كلامه أرسل الكتاب مع عبد عكرمة إلى بني هلال فركب ناقة عشارية وجد السير فاجتمع بالأمير زيدان فسأله عن جبر وعكرمة، فقال: بخير وهما تحت خطر العدو الملك صور ثم ناوله الكتاب فلما قرأه صاح بالشباب الخيل يا ركابها والعدا يا طلابها فركبت الشباب وركب الأمير زيدان. أما جبر المزيدي فنزل إلى الميدان فنزل إليه نمر الجارح فاستقبله جبر بضرب السيف أطاح رأسه فانحدر أخوه فجاءه عكرمة وطعنه بالرمح في صدره خرج يلمع من ظهره فانحدر الوزير فنزل إليه جبر المزيدي فانعقد الحرب بينهما إلى المساء افترقا على سلام. أما بدر النعام فقالت لجاريتها زهر الروض: صار لجبر أربعة أيام غايب عنا وأخاف أن يغلبه الوزير ويقتلوا أبي ويأخذوني سبية وشقت ثوبها وأرخت

لثامها ولطمت على خديها وبكت وفاح مسكها وبان نهدها فقالت لها زهر الروض: اصبري حتى أجيب لك الخبر الشافي، فانحدر زهر الروض فذهبت لعند جبر وقالت له: صار لك أربعة أيام غائباً عنا فانشغل بال بدر النعام عندك فقال لها: روحي خابري ستك وطيبي خاطرها فذهبت زهر الروض وركب جبر وانحدر إلى الميدان فانحدر الوزير إلى جبر وصار يهد عليه ويقول:

قال الفتى عامر من فؤاد أنشدا ... النار في قلبي تهب وتلهب
ما شفت ما قد صار قبلك بالعدا ... صادر وربعه من لقانا هارب
إن كنت قاصد إلى حربنا ... أين تغدو من سيفي الأحدب
رد جبر الخيل ما فينا خبا ... نحنا رجال الحرب وفيها نرغب
سلطاننا حسن الهلالي أبو علي ... حكمه مطاع في شرقها ومغرب
سيفي بيدي مثل نسف الصاعقة ... وسنان رمحي مثل لسع العقرب

فلما فرغ جبر من كلامه هجم على الوزير عامر واشتد بينهما القتال وتكامشوا على ظهور الخيل ثم وقعوا على الأرض فانحدر صقر الرقاد عن الملك وضرب جبر أصابه في فخذه، فانحدر عكرمة إلى صقر وضربه بالسيف أرداه قتيلاً وهجمت الفرسان على عكرمة وجبر ليأخذوهما بشفار السيوف ولكن ما بال رؤوسهم تتطاير عن أجسادهم والخيل تجفل والفرسان تقع تحت حوافر الخيل، فالتفت عكرمة فرأى بني هلال وفي مقدمتهم الأمير زيدان هاجمين على الأعداء يقطعون الرؤوس ويطعنون في الصدور إلى أن وصلوا إلى عكرمة وخلصوه من الأعداء وضمدوا جرح جبر وربطوا فخذه وكان قد أمسى المساء فدقت طبول الانفصال وافترقوا عن بعضهم. أما بنو هلال فأخذهم الملك صادر إلى دار الضيافة وترحب بالأمير زيدان غاية الترحيب أما وزير الملك صور لما رأى جيشه على وشك الاندحار أرسل يخبر الملك صور بهذا القصيد:

يقول الفتى عامر على ما جرى له ... شفنا أهوال الحرب شفنا عجايب
أيها الغادي على متن ضامر ... جد السرى في برها والكتايب
إذا جيت إلى صور بن زرد فقل له ... وزيرك عامر ذاق أعظم مصايب
شبَّين جونا عندما أغرب المسا ... ضرباتهم تلسع مثل العقارب
من بعدهم جونا قروم عوابس ... فتيان ما فيهم رجل شايب
فإن جيتنا يا صور نلنا مرادنا ... وإن لم تجي غدونا هرايب

فلما فرغ الوزير عامر من كلامه أرسل الكتاب إلى الملك صور، وفي الصباح انحدر جبر إلى الميدان فبرز إليه الوزير وضربه بالسيف أخذها بترس البولاد فوقع

السيف على رقبة الجواد فقطعها، فأسرع زيدان وصاح بالوزير صوتاً كأنه الرعد فترك الوزير جبر والتفت إلى زيدان والتقى البطلان كأنهما جبلان أو أسدان درغامان وتقاتلا قتالاً شديداً حتى انكسر سيف الوزير فصاح به زيدان وضربه بسيفه شقه نصفين فوقع الوزير على الأرض قطعتين، أما زيدان فأشار إلى الفرسان أن يهجموا فتسابقت الخيل وكثر البلاء والويل ولم يزل الحرب عاقداً حتى خيم الظلام فرجع بنو هلال كاسبين منتصرين فرحانين فأمر الملك صادر بذبح الأغنام وعمل الولايم ولعب جريد وأمر زيدان بالركوب إلى نجد ففزع الملك صادر فزعاً شديداً وقال لزيدان: قطعت ذنب الحية وتركت رأسها غداً يحضر الملك صور ويملك بلادنا وصار يحشمه وينخيه، فعندها قال للملك: اطمئن فإننا لن نذهب الآن ومرادنا نكتب إلى أبي زيد يجينا بالأبطال فكتب زيدان يقول:

يقول الفتى زيدان ولد غانم ... ولا عاش من يحوي الردى بلاش
أيها الغادي على متن ضامر ... تقطع أراضي برها وحراش
خش نجد العدية وأرضها ... سلم على أبو زرد في الحرب هواش
نحن في بلاد النعام وأرضها ... في حي صادر كم يتيم عاش
راكب علينا ضد يسمى بكنيته ... صور ابن زرد الفارس الهواش
أبو زيد إن وجهت الظعن صوبنا ... أخذنا غنائمهم وكل قماش
وأن تعطينا قفا يا سلامه ... لا تقول واحد من أولادك عاش

ثم طوى الكتاب وأرسله إلى أبي زيد أما الملك صور فأتاه خبر أن بني هلال صاروا في بلاد النعام فغضب غضباً شديداً وجمع العساكر والجنود ثم أتاه خبر أن ابن وزيره قتل وهلك جيشه، فهاج وماج ثم قال لمسرور بن جابر: أنا كنت أقسمت أن لا أدخل إلى بلاد النعام حتى أستولي على نجد كلها فالمراد منك الآن أن تدور لنا بلاد نجد وتعرف جميع أبطالها وفرسانها وتدلني على أسهل طريق لاحتلالها والملتقى بيننا في وادي المعمر فشد مسرور ناقته وودع الملك وجد السير، أما الملك صور فركب في جيوشه وعساكره ونزلوا بوادي المعمر ينتظرون مجيء مسرور الذي دخل نجد وصار يتجول في شوارعها وبين الدور والبيوت ودخل صيوان السلطان حسن فرآه مرفوعاً على مئتي عامود مزينة بالحرير الأخضر مما يدهش النظر وكانت الموائد لا تنقطع للضيوف من رز ولحم والسلطان حسن جالس على عرش مرصع بالجواهر واليواقيت والمرجان وعلى رأسه تاج يلمع مثل الذهب والألماس، أبو زيد عن يمينه ودياب عن شماله وبنو هلال صفوف صفوف ودخل فتاح عبد زيدان وقبل يد السلطان حسن وأعطى كتاب زيدان إلى أبي زيد

فقرأه ثم أخفاه في عبه وقال: هذه مكاتبة بيني وبين زيدان فقال السلطان حسن: إحك لنا بالأمر الواقع فأنشأ يقول:

يقول أبو زيد الهلالي سلامه وكم علة تأتي على غير خاطر
أتاني خبر ما عاد لي صبر فكم خيال غاير وكم سيف شاهر
جبر ابن مزيد وابني عكرمة لأجل بدر النعام واقعين بالمخاطر
وفي ضيق وشدة عظيمة وإلا أبو درغام زيدان حاضر
وبعدها بدت علايم شنيعة الملك صور هاجم بالعساكر
ولما وصلت الأعادي لصادر كتب أبو درغام مكتوب ظاهر
يا أهل الحي ويا سلامه هذا اليوم يوم هلال وعامر
وإن كان ما تجونا جميعاً وإلا غدونا في لحود المقابر

فلما فرغ أبو زيد من قراءة المكتوب قال السلطان حسن: إن المنام الذي رأيته في العام الماضي بدأ يتضح ويظهر ثم أنشأ يقول:

يقول الفتى سرحان أبو علي لكل زمان دولة ورجالها
قد حالت الدنيا كفى اللَّه شرها توطي كبار القوم ترفع نذالها
أنتم تريدوا تلحقوا أولادكم فنوقع بشدة ما نلاقي دوالها
يجي إلينا ابن زرد بقومه يسبي حريمنا ويقتل رجالها

فلما فرغ السلطان حسن من كلامه قال دياب: اسمحوا لي بالذهاب والذي يسير معي فأهلاً به والذي لا يريد أن يحارب معي فهو معذور ثم إنه أمر بني زغبي بالركوب فاجتمعت الفرسان والأبطال وركب دياب على الخضرا وتقدم إلى باب الديوان وأنشد يطلب الإذن من السلطان ويرغب الأبطال والفرسان بالحرب والقتال:

يقول الزغبي دياب بن غانم اسمع كلامي يا عقيد هلالها
فرسان حولك تحمي نجد والحمى ما منهم واحد ردي لخالها
وأنت تفزع من ملاقاة العدا وتقول بنومك نظرت هوالها
مين يزاحم نجد في يوم اللقا وأبو مخيبر في الوغى خيالها
بدر ابن غانم بالمعارك يرتمي اللَّه أكبر إذا انحدر زيدانها
دق طبلك وانشرح يا بو علي نحن إلى كل العدا مغوارها

فقال حسن: جدوا المسير اللَّه ينصركم ويعيدكم سالمين ثم أمر بدق طبل الرجوع فعادت الفرسان تهوج وتموج وركب الأمير أبو زيد بقومه وساروا مع دياب إلى بلاد النعام، ووصلت البشائر إلى الملك صادر وركب هو والأمير زيدان

واستقبلوهم في عراضة عظيمة لعب جريد وغناء ورقص وأمر الملك صادر في إحضار الموائد وبعد أن أكلوا وحمدوا المولى قعدوا ينتظرون قدوم الملك صور بن زرد. أما مسرور بن جابر فحين رأى ركوب دياب وأبي زيد انسل من نجد وأسرع إلى وادي المعمر يجد الخيل في الوادي والملك صور بانتظاره فتقدم وقبل يديه وقال له: البشارة يا ملك الزمان فقال له: هات ما عندك من الأخبار فأنشد يقول:

على ما قال مسرور بن جابر ... وسعدك يا ابن زرد طلا
لما دخلت إلى نجد العدية ... شبه سواح قلت العقل ولا
سلطانهم حسن الهلالي ... حاكم في أراضي نجد كلا
تسعين ألف ركوبة سلامة ... وضده يلتقي منه المذلا
دياب الخيل يكنى ابن غانم ... راكب فوق خضرا قد تعلى
زيدان ابن غانم عند صادر ... يحارب في الوغى عمره ما تولى
أنا يا أمير في نجد العدية ... ركب أبو زيد ودياب تعلا
وساروا نحو زيدان الغانم ... على بلاد النعام الكل جمله
وجئتك يا ملك طالب بشاره ... بهم زينات تضي مثل الأهله
اركب في جيوشك يا ملكنا ... بجنح الليل خليهم أذله

عند ذلك أمر صور بالركوب فركبت العساكر وانتشرت البيارق وساروا ومسرور دليلهم، فلما وصلوا إلى نجد دخلوا عليها من أربع جهات فعلا الصياح وكثر النواح والبكاء وقام الحرب بينهم وتغلب العدو لكثرته وأسروا السلطان حسناً وأبا ليث الكندي وطي المالك وعرندس وغانم الرياحي وبدر الغانم والقاضي بدير وجميع الأمراء وغنموا نجد بما فيها من مال ونساء وبنات وساقوا الجميع، وأمر صور أن يعرضوا عليه الأسرى وهو يقول: وحياة رأسي ما أنا عاتق أحداً منهم أما الأمير حسن فقال لعبده راشد: احفظ هذه الأبيات واقرأها أمام أبي زيد ودياب:

يقول الفتى سرحان أبو علي ... ونيران قلبي زايدات لظاه
غدرني زماني وبدموع بكاني ... هدم تخت عزي وحرمت ضياه
ألا أيها الغادي على متن ضامر ... تقطع فيافي برها وفلاه
ودي كتابي للأمارى جميعاً ... أبو زيد انظر لعقلي تاه
أبو زيد احكي لدياب بن غانم ... دياب أنجدني ما قطعت رجاه
طبق علينا صور من كل جانب ... وحاشونا مثل الغنم بالعصاه
فأول ما مسكوا الهلالي أبو علي ... وضيق الصدر عاناه يا ويلاه

وبـدر خـالـك يـا ديـاب أنـشـده وبـدر بـن غـانـم بـالـحـبـل ذاق أذاه
تـسـعـيـن أمـيـر جـذبـونـا جـمـيـعـاً وسـاقـوا مـواشـيـنـا فـي الـفـلاه
وقعت بنا نكبة وضجة عظيمة زمـانـنـا الـذي مـضـى يـا مـحـلاه

فلما أنهى السلطان حسن الرسالة حفظها العبد وانسل بخفة وركب ناقة عشارية وجد السير وكتب غانم الرياحي رسالة إلى زيد العجاج وإلى زيد بن شرهان قال أبو زيد الرياحي: صرنا في ذل وبراح. ما بقي لي حيل انهض. من ألم عظم الجراح. جد سيرك يا رسولي. وجوز وديانها والسهول. خش حمى نجد وجولي. غانم أبو بدر الرياحي. راحوا بلاد النعام. صاير على صادر زحام. ربطونا بالحبال بعد عز ودلال. لو تشوف حسن الهلالي. محصور من أربع نواح. صور قد كبس حمانا. ما بطل حاضر معانا. تعال انظر نسانا. في البكا ثم النواحي.. فلما فرغ غانم من الرسالة سلمها لعبده فأخذها وجد في السير حتى وصل إلى زيد العجاج وكان زيد بن شرهان في ضيافته فناولهما المكتوب، فلما قرأوه بكوا على أسر السلطان حسن والنسوان فلما وصل الخبر لزوجة العجاج أتت إلى الديوان وبدأت تشجعهم على الحرب والطعان وفك السلطان حسن من الذل والهوان فأنشدت:

تـقـول أم الـسـعـود أبـيـات مـلاح ونـــار الأســـى زادت شـــعـــالا
أبـو فـاضـل اسـمـع يـا مـكـنَّـا ودايـم أنـت شـيـال الـحـمـالا
اركـب وانـجـد الـسـلـطـان عـنـا حـسـن يـا زيـد شـدوا لـه الـحـبـالا
أبـو فـاضـل لا تـحـطـهـا وطـيـه اركـب وسـيـر لـنـجـد الـعـديـه
وإن كـان خـايـف ردهـا عـلـيّ بسوق الحرب يا محلى المجالا
أنـا لا صـور أهـدم تـخـتـه وصـوره وأخـرب بـلاده وأهـدم قـصـوره
يـا زيـد الـعـجـاج الـمـوت أحـلـى ولا تـطـلـب عـز بـعـد الـهـلالـي
يـجـوا الـعـدا لـنـجـد يـمـلـكـوهـا ونـصـيـر بـعـدهـا بـسـوء حـال

فلما فرغت أم السعود من كلامها هبت مروءة الرجال برأس زيد العجاج وقال لزيد بن شرهان: قد صرنا معيرة للنساء فقم اجمع رجالك وفرسانك وأنا كذلك ونجد السير ونهجم على عساكر صور ونخلص السلطان حسناً والأسرى واللَّه تعالى ينصرنا على الأعداء فنهض زيد بن شرهان وأمر في الركوب فركبت العساكر وركب زيد العجاج وساروا. أما عبد السلطان حسن فإنه أوصل الكتاب إلى أبي زيد فلما قرأه على الجماهير المحتشدة هاجوا وماجوا وصاحوا بصوت واحد اللَّه أكبر وركبوا حالاً وأطلقوا الغارة وساروا ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا إلى وادي

الصباح فاجتمعوا بزيد العجاج وزيد بن شرهان وبعد السلام ساروا مجدين إلى أن وصلوا الوادي المعمر فهجموا على الأعداء من جميع الجهات ضرباً بالسيوف وطعناً بالرماح حتى وصلوا إلى قرب السلطان حسن والأسرى فسمعوا البكاء والنواح وكان حسن يندب حظه ويقول:

حسن الهلالي شكا من وقعة كأنها سم السقطري مزج البين مشروب
وقعة عظيمة ارتحي من خالقي تخرج همومي وهموم كل مرعوب
لا تقطع رجانا يا إلٰهي هات أبو زيد مثل الريح وهبوب
ودياب من فوق خضرة محنجلة والسيف في يده يكون مسحوب
دياب لو شفت بدر ابن والدك مع بدير يصيح مغلوب
وبناتنا نايحه لأجل فرسانها غانم مكتف ورزق الخيل مجذوب

فلما سمعوا صوت حسن صاحوا جئناك بالفرسان والأبطال فتهللت وجوه النساء والرجال والتقى الجيشان بالحرب والقتال وطبق أبو زيد ودياب على الميامن والمياسر، ثم فكوا الأسرى وخلصوا البنات من الأسر والاعتقال، وكان الملك صور قد وصل بجيوشه وعساكره وانحدر إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان فنزل إليه زيد العجاج ولم يزالوا في ضرب سيف وطعن رمح إلى الظهر عند ذلك صاح زيد على أمراء بني هلال فنزل أبو زيد وصاح على الملك صور والتقى البطلان كأنهما جبلان وظلا يتقاتلان ويتكامشان حتى وقعا على الأرض والخيل غايرة والفرسان متبادرة ثم نهضا وافترقا على سلام. وفي الصباح نزل صور إلى الميدان فنزل إليه دياب وهز في يده عود الزان حتى التوى الكعب إلى السنان ثم أنشد يقول:

قال دياب أبو وطفا الزغبي من أماق العين الدمع فاض
فاض دمعي لما شفت الناعمات راخيات جعودهن وسالبات
والعدا حاشوا العذارى والبنات فذوي ورد البها والبياض
وهاج أبو وطفا على العدوان هاج شبه نار شاعله وسط الرياض
كم ملك مثلك قصد نجدنا مات من ضرب قوي من دياب

فلما فرغ دياب من كلامه هجم على صور هجوم الذئاب فاستقبله صور بضربات متواليات وجرى بينهما قتال عنيف وهجمت العساكر على بعضها. فالرؤوس طائرة عن الأبدان والخيل شاردة في الوديان إلى المساء افترقوا عن بعضهم أما الملك صور فقال لقومه: أنا طول عمري ما لقيت أقوى من دياب ولا أفرس منه في الحرب والقتال ولكني سأبذل جهدي غداً وأقتل دياب، وفي الصباح

نزل دياب إلى الميدان وطلب الملك صور. فنزل إليه والتقى البطلان كأنهما جبلان وصاح دياب بالملك صور واعتدل على الخضرا وضربه بالسيف على هامه ألقى رأسه قدامه وأشار إلى بني هلال فصاحوا صيحة واحدة اللّه أكبر وصالوا على الكفار ولحقهم زيد العجاج وزيد بن شرهان ومالوا عليهم بضرب السيف حتى أدخلوهم إلى بلادهم بعدما قتل منهم خلق كثير وغنموا أموالهم ونساءهم، ثم سلطنوا الملك صادر في بلاد الملك صور ورجع بنو هلال إلى بلادهم وقعدوا بأحسن حال وبعد ذلك زفوا بدر النعام على الأمير جبر المزيد وحضرت الأمراء والسادات وذبحوا وأولموا الولائم ووضعوا الموائد فأكلوا حتى شبعوا ثم لذوا وانطربوا ودقت الطبول ونفخت الزمور ورقصت النساء والبنات واستمر الحال على هذا المنوال في فرح وسرور وغبطة وحبور مدة من الزمان فطلب زيد العجاج وزيد ابن شرهان الإذن من السلطان حسن بالمسير إلى بلادهم ثم ركبوا وساروا مع عساكرهم وجنودهم وعاشوا مرتاحين من الحروب والأهوال.

قصة جوهرة العقول

(قال الراوي) بعد أن تم عرس جبر المزيدي على بدر النعام وهم في بسط وانشراح ولعب ومزاح وفي أرغد عيش وأحسن حال إلى أن اشتاقوا لسماع الآداب وقصائد المديح والحب والغرام يتلوها عليهم الشعراء اللمعاء أرباب الفصاحة والبيان المطلعون على أحوال الملوك والأمراء وعلى جمال الفتيات الحسان. وفيما هم ينتظرون جماعة منهم إذ دخل عليهم أربعة شعراء إلى ديوان السلطان حسن فسلموا عليه وقبلوا يديه وسلموا على الأمراء والأعيان ثم جلسوا وأخذوا يتناشدون الأشعار ويتحاورون في القصائد البليغة إلى أن ذكروا أنه يوجد ملك عظيم الشأن ذو عز وسلطان وخدم وأعوان وهو سهيل بن سيان له ولد اسمه مزيد وبنت واحدة كأنها البدر التمام اسمها جوهرة العقول وقد تعلمت سائر العلوم، وكانت أديبة لبيبة ذكية أخلاقها حسنة وصفاتها مستحسنة ذات عقل وافر وأدب باهر تهوى المنادمة برقائق الأشعار ونوادر الأخبار فأحبها ابن عمها الأمير بولاد وقد عشقها وازدادت رغبته فيها وطلب من أبيه الملك دولاب الذي يحكم على جبل التمر والهضاب الحمر أن يخطبها له من عمه فقال له أبوه: اركب يا بني في ألف فارس من الأبطال وخذ معك ما تريد من المال وقدم له الفضة والذهب والخيل الحسان والعبد والغلمان مهراً لجوهرة العقول، فإن أبى وامتنع فأنا آخذها لك غصباً عنه ففرح الغلام وأيقن ببلوغ المرام وركب في جماعة من صناديد الرجال وسار في تلك الأطلال وهو ينشد الأشعار ويتغزل بجوهرة العقول ويغني ويقول:

أهيم في غمرات لا انقطاع لها ... ولم أجد مسعفاً يا قوم يسعفني
وكم أبيت وجنح الليل منسدل ... أكرر النوح في سري وفي علني
ولم أجد لي سلواً عن محبتها ... وكيف أسلو وصبري في الغرام فني

ولما اقترب من بلاد عمه أرسل مبشراً لعمه بقدومه ففرح عمه بزيارة ابن أخيه وخرج لاستقباله مع جماعة من ذوي الفضل والعلم، ولما رآه رحب به وعانقه وأدخله إلى القصر باحتفال مهيب وبعد مرور ثلاثة أيام بالضيافة قال لعمه: إنه يرغب أن يتشرف بطلب جوهرة العقول زوجة له فلم يمانع عمه بل قال له: ذلك غاية مرادي ولكني يا ابن أخي كنت قبل أن أرزق هذه البنت قد رأيت حلماً هائلاً

أقلقني، رأيت في منامي شرارة خرجت من ظهري وارتفع دخانها وملأ البراري والجبال والوديان وأنا خائف أن يتفسر حلمي بزواجها فقال له بولاد: إن هذه إلا أضغاث أحلام وما يراه الإنسان في نومه لا يؤخر أعماله ولا يغير شيئاً من أموره وأحواله، أما المنام الذي تظهر نتائجه في اليقظة فهذا نادر والنادر لا حكم له وما زال يقنع عمه بمثل هذا الكلام حتى أنعم عليه وأجاب طلبه فزينوا جوهرة العقول بأحسن زينة وأحضروا القاضي والشهود وكتبوا كتاب بنت الملك سهيل على ابن عمها بولاد وفرحت الأحباب وعملوا الولائم والدعوات ولما دخل عليها وجدها جوهرة ما ثقبت وكانت بديعة الحسن والجمال فكانت لياليه من أحسن الليالي وأيامه من أبهج الأيام وبعد ذلك طلب من عمه أن يسمح له بالعودة إلى وطنه مع بنت عمه جوهرة العقول، فجهزها أبوها أحسن جهاز وأركبها في تخت من الذهب مرصع بالدر والجوهر وركبوا معها لوداعها ثم أمر أبوها ابنه مزيد أن يسير مع أخته إلى أوطان عمه في جماعة من الأبطال، ولما عزم الملك سهيل على الرجوع مع زوجته زهية أوصى ابن أخيه بولاد على ابنته وتقدمت أمها وعانقتها وأنشدت تقول:

تقول زهية أم مزيد أيا لوعتي ... أجفان عيني هاطلات دموع
على جوهرة العقول أين غدت ... وجوهر عقلي غدا مصروع
يا ليتني قد مت قبل فراقها ... أنا صار جسمي والحشا ملدوع
مزيد جد السير مع ابن عمك ... واحذر بني هلال يخلوك موجوع
يا لك من زيدان تغفل وتلتهي ... بنو هلال أعداء لابسين دروع

فلما فرغت زهية من كلامها رجعت مع زوجها الملك سهيل إلى الديار. أما زيدان الهلالي فكان في الصيد مع مئة فارس فلما رأى بولاد ومن معه طمع بهم وأنكر أمرهم وسمع جوهرة العقول تقول لبولاد: دونك هؤلاء الأنذال أبطش بهم في الحال فعند ذلك صاح بهم بولاد من أنتم أيها الفرسان ومن أي قبيلة من العربان فأجاب زيدان نحن من بني هلال صناديد الرجال، فقال بولاد: أنتم لنا من ألد الأعداء وهجم على زيدان هجمة الأسد فثبت أمامه زيدان وقال له: سر في طريقك ولا تتعرض لنا فتندم ولا تسبب الأذى والضرر لجوهرة العقول والبنات الأبكار ونحن لا نريد منكم شيئاً لا نساء ولا مال ولا ترم نفسك في الذل والعار وإن كان لا بد لك من القتال، فإنا مستعدون لقتالك وسبي جوهرة العقول والبنات فقال بولاد: وقعتم بيدي فاستسلموا لنا قبل أن نأخذكم على حد السيوف ثم انطبقا على بعضهما البعض وأخذا في العراك والصدام وكان الأمير زيدان أقوى من بولاد،

فضربه بعرض السيف ألقاه على الأرض فصاح مزيد أخو جوهرة العقول على رجاله وهجم بقلب أقسى من الصوان وسحب بولاد من الميدان وأركبه على الجواد ولم يزل الحرب يعمل والدم يبذل والرجال تقتل والتقى عكرمة بن أبي زيد ببولاد فأشار يقول:

بولاد اثبت أمامي بعزم شديد والقي ضروبي وانظر مطار يدي
بفكرك تنال المفاخر عند الفوارس وتظن أنك لأبطال هلال تصيدي
أنا عكرمة مفتاح حرب الهلالي ويوم المعامع بطل عنيدي
بولاد رايد هذا اليوم تملكنا وخلفك بنات دلع كلهن غيدي
جوهرة العقول ابن العم حارسها الوجه يضوي وعالقناديل يزيد
والعنق ريما جل اللَّه خالقها مثلها ما ربي بقصور العواميد
لا بد ما جيبها قهراً من العدا وخلي الدما تجري بالفلا والبيد

فلما فرغ عكرمة من كلامه أجابه بولاد يقول:

يقول الفتى بولاد عما جرى له ودموع عيني عالخدود بدودي
على فقد خلاني وباقي رفقاتي قلبي عليهم والحشا مكمودي
أما جوهرة العقول فمحروسة بولاد حاميها من كل فتى عنيدي
لنا عندكم ثارات سالفة حان الوفا بقتل فرسانكم والجنود

ثم التقيا في ساحة المجال وتضاربا بالسيوف وتطاعنا بالرماح إلى أن اختلف بينهما ضربتان فاصلتان كان الأمير عكرمة أسبق وأخبر بمواقع الضرب فأتت ضربته على رقبة الجواد فوقع بولاد على الأرض فهجم أبطاله على عكرمة من كل مكان وصاح زيدان بالأبطال والشجعان والتقت الرجال بالرجال وتقطعت الأوصال وحملت عبيد بني هلال على عبيد بولاد وما زال السيف يسل والدم يبذل والرجال تقتل حتى استظهرت بنو هلال على الأعداء، فهربوا وهجم بنو هلال على خيامهم فسبوا النساء والبنات ورأى الأمير درغام جوهرة العقول راكبة في الهودج والعبد يقود زمام ناقتها ومراده يهرب بها فضربه بالسيف قطع رأسه ورجع كل واحد من بني هلال ومعه بنت بكر، أما مزيد أخو جوهرة العقول فقال لبولاد: أنت رميتنا بهؤلاء القوم فاكتب لأبيك حتى يساعدنا فنأخذ بثأرنا ونخلص البنات فكتب لأبيه يقول:

يقول بولاد عما جرى له بدمع جرى من مقلة العين نازلي
يا ريح ودي كتابي وقصتي وسافر بها يا ريح للجو واعتلي
إلى بلاد كربج جد سيرك يا فتى اسأل على صيوان بولاد وانزل

جبنا جوهرة العقول بخدرها لقينا شباب هلال بالصيد راحلي
طمعنا بهم وقلت هدول مكسبي أجيبهم أسرى إلى وسط منزلي
هجمنا عليهم بسيوفنا ورماحنا غاروا علينا وخلونا بمعذل
وحاشوا النسا منا وفرفحوا وجوهرة العقول راحت هرولي
دولاب جد السير إياك تمهل واضرب بني هلال بالوغى لا تهمل

فلما فرغ بولاد من كلامه أرسل الكتاب إلى الملك دولاب فلما قرأه دقوا الطبول وركبوا الخيول وركب الملك دولاب ونشرت فوقه الرايات ثم أرسل يطلب النجدة من أخيه سهيل قال:

يقول الملك دولاب عما جرى له بدمع جرى من مقلة العين سالها
يا غادياً مني على متن ضامر تطوي الفيافي سهلها وجبالها
أقري سهيل الأخ مني تحية وأعطيه كتاباً ينبي عما جرى لها
لاقوا رجالنا شباب هلال في الفلا على منهل من الماء صافي زلالها
انحدر بولاد عليهم من فوق ضامر مثل جلمود صخر انحدر بجبالها
وازدحموا الجيشين في حومة الوغى انكسرت عساكرنا وربحوا هلالها
أخذوا جوهرة العقول بخدرها وميتين بنت ما في مثالها
اركب ولاقيني بأرض الروح عاجل هيئ رجالك يا ملك وأبطالها

ثم أرسل الكتاب إلى أخيه سهيل مع نجاب أما أبو زيد فسأل عن زيدان فقالوا له: ذهب إلى الصيد منذ عشرين يوماً عند ذلك أنشد يقول:

قال أبو زيد الهلالي يا دياب شاب رأسي من أمور الدهر شاب
دق طبلك هيا أسرع للقا انده بني زغبي وبقية الشباب
نحو أرض الروح سافر بالعجل يمكن واقعين بالوغى يا دياب
آخذين جوهرة العقول سبية وأمور الدهر غدراته عجاب

فلما فرغ أبو زيد ركب في تسعين ألفاً من بني زحلان وركب دياب في تسعين ألفاً من بني زغبي وبقي السلطان حسن والقاضي بدير في البلاد يحفظونها من الأعداء وركب الشاب وساروا على غير طريق وسبقوا العساكر. أما الأمير زيدان ومن معه من الفرسان فبرز إليه بولاد وأخذا في القتال والصدام وكان بولاد قد كل ومل وضعف عزمه وانحل فضربه عقل على رأسه شقه نصفين فوقع قتيلاً، فعند ذلك حملت الشباب على اليهود فضربوهم بالسيوف ويطعنونهم بالرماح فلم يستطيعوا الثبات فولوا هاربين وكانت عساكر بولاد قد وصلت فالتقى بالمنهزمين فسألهم أين بولاد؟ فقالوا: قتله هلال وكسروا عساكره وجنوده فحلف دولاب أنه لا

يبقي من بني هلال دياراً ولا من ينفخ ناراً ثم صاح بالعساكر عليهم أيها الأبطال خذوا بثأر الجنود الذين قتلهم بنو هلال فهجموا على بني هلال من اليمين والشمال، وفي ذلك الوقت وصلت الشباب فرأوا التحام العساكر والحرب قائمة على قدم وساق فاقتحموا المعارك وطعنوا صدور الأعداء وقاتلوا أشد قتال وما زال السيف يعمل والدم يبذل إلى أن رأت جوهرة العقول أن بني هلال قد ضعفت مقاومتهم وكانت رغبت في عبادة رب الأنام وكرهت عبادة الأصنام فبدأت تشجع بني هلال في هذه الأبيات:

تقول جوهرة العقول بما جرى ونيران قلبي زايدات لظاه
يا أبو درغام أنا بحيكم نازلي أنجدوني بعزمكم يا أهل السخاه
يا عكرمة أنت الفتى عند اللقا وأخوك مخيبر بطل لا أنساه
عقل بن هولا كاسر الخيل بالوغى مثل ديب سارح بالفلاه
مناع لك صولات ما شفت مثلها كما نار هبت بجنح الدجاه
عليك سلام اللَّه يا خير هادي شفيع المذنبين والرب أعطاه

ثم صاحت جوهرة العقول ببني هلال أنا بعرضكم لا تفوتوني. فلما سمع الشباب نداءها صاحوا يا عزيز يا وهاب وهجموا على الأعداء وصاح الأمير زيدان اليوم ولا كل يوم ثم غاروا على اليهود يميناً وشمالاً وكثرت القتلى وصارت الخيل تتعثر بالجثث. وصاح دولاب على القوم ومالوا على الفرسان بضرب السيف وطعن الرمح، وكان قد قتل من اليهود مائة ألف وقتلوا خمسين فارساً من عساكر زيدان وتجرحت أكثر الشباب. أما الملك سهيل فلما قرأ كتاب أخيه جمع العساكر وسار طالباً نجد بأربع كرات وأرسل الوزير روفائيل بأربع كرات فسار يطوي الفيافي والقفار حتى أشرف على أرض الرمح يجد العساكر والملك دولاب والشباب في أشد قتال، فحمل الوزير وحملت فرسانه فتلقاهم الأمير زيدان وانحدر إلى الميدان فانحدر إليه روفائيل والتقى البطلان يتقاتلان في ساحة الميدان وصاحت الشباب في الأمير زيدان اليوم يومك يا فارس الفرسان. فعند ذلك ضرب زيدان الوزير بسيفه البتار أخذه بترس البولاد ثنى عليه بالرمح صابه في فخذه ووقع إلى الأرض فعند ذلك حمل الملك دولاب وحملت عساكره واشتد القتال وعظمت الأهوال فللَّه در عقل فإنه دحرج الرؤوس وطعن الصدور وكان عدد الأعداء عشر كرات وبني هلال ستين ألف وإذا بالغبار قد علا وثار وبان من تحته عساكر بني هلال وفي مقدمتهم أبو زيد الهلالي والأمير دياب فلما رأوا الحرب يعمل والدم يبذل والرجال تقتل صاحوا من كل مكان وردوا اليهود عن الأمير زيدان ومن معه من الفرسان وفعلوا

أفعالاً تعجز عنها مردة الجان وعفاريت سيدنا سليمان فالرؤوس مقطوعة والدماء مسفوكة والأبطال ثابتة والجبناء هاربة والتقى أبو زيد بالملك دولاب فراح يهد عليه ويقول:

لما قال أبو زيد الهلالي سيفي يجر هامات الرجال
أنا أبو زيد تشهد لي العذارى حامي البيض زينات العوالي
وقعت اليوم في بحر عميق أنا باز أصول وأنتم حجالي
هجمنا عليكم يا دولاب جميعاً بخيل تسبق ريح الشمال
شباب هلال نطاحة رجال بحد السيف ورماح طوال
أنا أبو زيد ياما لي وقائع على حمرا شبه الباز عالي
ولا بد أخليكم لجايا بالوديان تضيعوا تحت الجبال

فلما فرغ أبو زيد من كلامه حصل بينهما حرب وقتال يشيب رأس الأطفال ولم يزالا في أخذ ورد وقرب وبعد إلى أن كلت منهما الزنود وكان قد أمسى المساء فافترقا على سلام أم الملك سهيل، فسار طالباً أرض نجد بذلك الجيش الكبير فلما أشرف على أرض بني هلال رأى نعماً وخيرات لا تعد ولا تحصى فعند ذلك غارت الفرسان على الأهالي وقام سوق الحرب وكان معهم المدافع فأطلقوها دفعة واحدة وأحاطوا ببني هلال ونهبوا الأموال وسبوا الحريم وقتلوا مقدار عشرة آلاف من بني هلال وأسروا خمسين ألفاً والباقون تشتتوا في الجبال والوديان، فبكى السلطان حسن على الأهل والوطن وكيف وقع في الأسر والهوان فطلب من الموكل به أن يسمح له بكتابة رسالة فأشفق عليه وقال له اكتب ما تريد فكتب يقول:

ياريح اطوي جبال الأرض مثل سحاب خذ كتابي وخبرهم بما كان
سلم على الأسمر المعروف ثم دياب وقل لهم طير البوم قد جاني
جانا سهيل بجيش متل فيض سحاب صوت المدفع يرج الأرض والحيطان
أكثر الناس راحت بالفلاة هراب أخذ حريماً لكم وبنات نعساني
الست عليا تنادي سبع الغاب غابت رجالي وأولادي وخلاني
ميا تنادي أين راح الأمير دياب وعدلا تقول يا عكرمة ما عدت تلقاني
سعد الرجا يا مخيبر عقلها قد غاب والست ريما صادوها صيد غزلاني
جبر ابن مزيد مارس ما يرتاب بدر النعام غدت في أول أظعاني
زيدان بنتك حسنا عرضها قد ساب إن كان ما تجيها تروح خسران
يا أمير أبو زيد عجل على الدولاب أسرع إلينا وخلصنا من العدوان
ولا تنسى ترسل للأمير دياب يجيب شباب زغبي وكل الفرسان

حسن سرحان يا أبو زيد عقله غاب من صريخ أطفال ومن صريخ نسوان

ثم أرسل الكتاب إلى أبي زيد أما الملك سهيل فوضع الأسرى بالسجن وأحضر النساء بين يديه واختار منهن سبعة وهن بدر النعام وزينب بنت حماد وسعد الرجا وزين الدار وثمرة بنت الملك سيقع ووطفى بنت دياب والست ريما وسلمهن إلى الخدم، ثم ساروا إلى مرج الزهور أما أبو زيد لما قرأ الكتاب أعاد قراءته على الجنود والعساكر فضجوا وصاحوا اللَّه أكبر وقال زيدان: أنا أكفيكم شر الملك سهيل، فصاح دياب واللَّه لا يذهب إليه غيري فقال زيدان: خذ معك الأمير عقل وعكرمة ومناع وحسن بن مزيد وفايد بن القاضي فأخذ دياب المذكورين وسار ببني زغبي إلى مرج الزهور وإذا بالعبيد سائرين وساحبين الهوادج. فهجم عليهم فضرب الأول بالسيف قطعه نصفين فزغردت بدر النعام ثم ضرب العبد الثاني فقتله وإذا بالهودج الست ريما ثم كمل على العبيد وخلص البنات ففرحن بخلاصهن من الأسر فقال: ما الذي جرى عليكن؟ فقالت ميا تخبره:

تقول فتاة الحي ميا التي شكت بدمع جرى فوق الخدود بدود
كسبنا سهيل بن الهزير بجيش ومعه مدافع تلفظ البارود
وحاشوا إلى الزينات من كل ناعسة بنات مهفهفات راخيات جعود
رد الفتى الزغبي بن غانم أنا قاهر الفرسان وبالحرب معدود
خلصت بالسيف بناتنا كلهم وقتلت عبيد سهيل السود

ثم أطلق الخضرا نحو عساكر اليهود وحملت معه الأبطال والفرسان واشتد القتال والحرب والنزال من اليمين والشمال ثم تقدم الأمير عكرمة وعقل وحملوا على اليهود ومزقوا الكتائب وأظهروا العجائب وصاحوا صيحات مرعبة، فاتسع المجال على دياب وقاتل قتال الجبابرة إلى المساء دقت طبول الانفصال فافترقوا عن بعضهم. وفي الصباح نزل الملك سهيل إلى الميدان فنزل إليه دياب وتقاتلا قتالاً حير الأبطال والفرسان وصارت الشباب تشجع دياب فصاح بالملك سهيل خذها من يد دياب وضربه بالسيف شقه نصفين ووصل السيف إلى الجواد. فاختلطت جثة سهيل بجواده فلما قتل سهيل حملت اليهود على دياب فالتقتهم بنو هلال وحكموا فيهم السيوف والنصال وما ولى النهار حتى استظهرت بنو هلال على اليهود وشتتوهم في البراري والقفار وتقدم دياب وفك السلطان حسناً والأسرى وهنأهم بالسلامة فشكره السلطان على شجاعته. أما دولاب وأبو زيد فقد التقيا في ساحة الميدان وأخذا في الضرب والطعان ساعة من الزمان بعد ذلك ضرب أبو زيد بسيفه الملك دولاب شقه نصفين، ثم هجموا على اليهود وفتكوا فيهم فتك الذئاب

بالغنم وما زال السيف يعمل والدم يبذل إلى أن هرب اليهود وتبعتهم بنو هلال حتى فرقوهم بالبراري والقفار ثم جمعوا الأموال والنوق وعادوا إلى نجد وهنأوا بعضهم بالسلامة والنصر ثم أقاموا عرس جوهرة العقول على الأمير درغام بن زيدان، فاحتظى بالحسن والجمال وقامت الأفراح والليالي الملاح ثم أرسلوا مزيد إلى بلاده واتفقوا معه على أن يرسل لهم الجزية كل عام ولما وصل إلى بلاده أجلسوه على تخت الملك وأتته الهدايا من كل زمان.

قصة الست عدلا
مع حبيبها الأمير مفلح

(قال الراوي) بعد زفاف الأمير درغام على جوهرة العقول كان الأمير زيدان في الصيوان وحوله الجنود والفرسان إذ دخل عليهم شاعران اسم الأول نادر من قبيلة عامر واسم الثاني مروان من قبيلة قحطان فسلما على الحاضرين فردوا عليهما السلام، وأجلسوهما وهم يقولون لهما: حلت علينا البركات ثم أحضروا لهما الطعام والشراب، فأكلا حتى اكتفيا ثم ارتجل مروان هذا القصيد:

قال الفتى مروان من ألم الحشا ... النار في قلبي تزيد وقيد
دستوركم يا أهل المكارم اسمعوا ... أريد أحكي قصتي بنشيد
بنت النذل أوصيك لا تقرب لها ... ولو كان معها أموال ثم عبيد
إن شح عنها الخير يوم واحد ... ترميك في ضيقة يا فتى أكيد
لو كنت أوصف فعلها وخصالها ... لطال فيها الشرح والتعديد
الجيدة بتزيد في أفعالها ... عن الذهب والدر النضيد
ومن يروم الحسن يقصد عدلا ... بنت الملك خطاف قرما عنيد

فلما سمع الأمير مفلح كلام الشاعر عزمه أن يضيف عنده فقبل دعوته وصار يوصف له الست عدلا بهذا القصيد:

قال الفتى مروان عما قد جرى ... تا أخبرك يا أمير في صدق المقال
لها قامة كالغصن وخدود مورده ... والوجه مشرق كأنه نور الهلال
شفت الذوايب كأنها خصال الحرير ... مثل سواد الليل زادتها جمال
والحواجب نون من فوق العيون ... والعيون السود تجرح كالنصال
والسنان لولو شبه البرد ... والشفاف ريحان مع ريق العسال
والخصر ممشوق بيميل يسبي الفؤاد ... كل من شافها أضحى خيال

فقال له مفلح: كيف توصلت لمعرفتها؟ قال: كنت ماراً تحت قصرها وبيدي رباب كنت أدق عليها فاستدعتني وطلبت مني أن أدق أمامها الرباب ففعلت ولكني لم أقدر أن أحقق النظر بها لفرط جمالها وعظم بهائها، ولما انتهيت من الإنشاد

أنعمت عليّ ببذلة من الحرير وجوادين. أما الأمير مفلح فزاد به الشوق والغرام وقال لخادمه مسعود: أنت رفيقي اركب جوادك فركب العبد جواده حسب الأمر وركب مفلح المهر وساروا في البر الأقفر ولم يعلموا أحداً إلى أن وصلوا إلى بلاد السجاف فنزلوا خارج المدينة على نهر ماء فرأوا جملة من الرعيان وكان كبيرهم يسمى منصور فسأل مفلح عن اسمه وبلاده، فقال له: أنا الأمير مفلح من بلاد نجد ثم تذكر مفلح أهله وبلاده فصار يودع نجد وأهلها بهذه الشروقية:

قال مفلح ودمعات العيون حدور ... فوق خدي شبيه النهر بتسيلي
والنار بالقلب كالدولاب بتدور ... جوا حشاي وحرقت المفاصيلي
ريح الصبا روح يم البلاد وزور ... واهدي سلامي إلى أهلي المفاضيلي
أهدي سلامي بنفح المسك والكافور ... لا يم ربعي مع باقي المنازيلي
وقبل أيادي كل شخص شبه بدور ... يا من يصلي بوقت الصباح يدعيلي
ربعي وإخوتي والأهل والجمهور ... زيدان يوم الوغى شوفك تناديلي
لعل يا ترى أرجع أنا مسرور ... شباب هلال يبقوا يلاقولي
يا رب يسر يا رحمان أنت الغفور ... سهل لنا الأحوال يا رب تسهيلي
لعلي أصطاد وأرجع في دجا وسحور ... صيدة ثمينة أصيدها بأول الليلي
لا بد عنها لو كانت بقلعة أو صور ... كرمال عدلا أظهر مراجيلي
وأهجم هجمة الباشق على العصفور ... في حد سيفي أنا لكردس الخيلي
ولو كانت الخيل تملي برها وبحور ... في عون ربي أقطع منهم الحيلي
من صغر سني على الشدات منصور ... قدام عدلا لأصبغهم أنا بالنيلي

ثم اجتمع الرعيان حول المائدة فقال أحدهم لمنصور: إذا حلفناك بحياة عدلا أنك لا تأكل فما تعمل؟ فقال: أعيش بلا طعام، فقال له مفلح: لأجل عدلا تهلك نفسك وهل هي زائدة بالحسن والجمال، فقال له: أخاف عليك إذا رأيتها أن تسوح في الدنيا لأجلها فقال له مفلح: صف لي عدلا كما تعرفها تماماً فقال:

قال الفتى منصور وعبراتي سكيب ... والنار في قلبي يزيد لها لهيب
على خشف مر عايش بالفلا ... حارت الأفكار لوصفه أن تجيب
إن أقبلت تمشي وتتبختر غوى ... يا وجعتي بالقلب ما لها طبيب
في قدها مع خدها مع ندها ... جرح الهوى واللّه شيء غريب
الرأس شبه الكاس والورد بخدود ... والجدايل عالكتاف تكوي اللبيب
والحواجب كأنها سيف صقيل ... صنعة الخلاق لا شخص الحبيب
والعيون السود من غير تكحيل ... تقول نجم سهيل وقت المغيب

ريقها ترياق من أرض العراق دوا للمشتاق من جروحه يطيب
والنهد رمان قد يسبي العقول والبطن طي الحرير للمستفيد
والخصر ممشوق بيميل للنسيم يا هنا من حازها فهو السعيد

فلما فرغ الراعي منصور من وصف الست عدلا انسر منه الأمير مفلح وأكرمه، ثم قال له: أنا من قبيلة بني هلال وأمير زغبة وأنا قاصد أن أذهب إلى الست عدلا فهل تساعدني على رؤيتها وعلى الاجتماع بها؟ لأن مرادي أن أتزوجها وأنا أعطيك عطاء من لا يخشى الفقر فقال له: وهل أحضرت لها معك هدية؟ فقال مفلح: هذا عقد جوهر يسوى ملك الدنيا، فأخذه منه ودهش من منظره ثم قال له: إن عدلا تخرج كل يوم جمعة للجنينة فضع هذا العقد أمام باب الجنينة فتأخذه عدلا وتتأمل فيه وتندهش من مرآه. ولا بد أن تقرأ اسمك المكتوب عليه فاستصوب مفلح كلامه ووضع العقد عند باب الجنينة. ولما أقبلت عدلا كان معها ست وصائف وثلاث سراري فرأت عدلا العقد فتناولته وانبهرت من حسنه ولمعانه ثم قرأت اسم الأمير مفلح فسألت الوصيفات من هو صاحب هذا العقد؟ فقلن لها: لا ندري فلما رجعت عدلا من نزهتها انشغلت أفكارها وتمنت أن تعرف صاحب العقد من هو يا ترى ولما نامت رأت في منامها طيراً جلس معها ينادمها ثم سافرت هي وإياه وتبعتها الطيور لتقتل الطير فارتد ذلك الطير على الطيور ينتف ريشها فارتعبت عدلا وأفاقت من النوم فحكت لجاريتها عبلة ما رأت في منامها ففسرت لها المنام بأنه يحصل حرب وصدام وبعدها حب وغرام فحصل لعدلا ضيق صدر وجلست في نافذة قصرها تشم رائحة الورود مع النسيم العليل فرأت ناراً تشب على العين فقالت لعبلة: خذي القربة واملئيها من العين وانظري من هناك يوقد النار فذهبت عبلة إلى العين وسلمت على مفلح فرد عليها السلام، فقالت: من أين أنت أيها الأمير؟ فقال لها: أنا من بلاد نجد واسمي الأمير مفلح وقد اكتوى قلبي من الحب فقد سمعت الشعراء يمدحون الست عدلا وإنه لا يوجد لها مثيل في الدنيا فقالت: أنا خادمة الست عدلا وسأخبر سيدتي بأنك الأمير مفلح صاحب العقد وأسأل اللَّه أن تنال مبتغاك ثم تركته وملأت القربة وعادت إلى القصر وقالت لسيدتها عدلا: لما وصلت للعين رأيت فتى جميل الطلعة باهي المحيا شاباً شديد البأس بحواجب مقرونة وعيون سود وخدين مثل الورود فسألته عن اسمه فقال: أنا الأمير مفلح من بلاد نجد وحكى لي عن مقصده وسبب سفره، وهو أنه يحبك ويهواك وهو صاحب العقد، فقالت لها: وما هو رأيك يا عبلة؟ قالت: اجتمعي به وتعرفي عليه: لأنه قاصدك من بلاد بعيدة ولم يعشق بنتاً غيرك فقالت لها: أحضريه إلى الجنينة فذهبت عبلة وبشرته بأن ستها تريد أن تجتمع به في الجنينة فدخل مفلح إلى الجنينة وغلامه

معه ولما حضرت عدلا إلى الجنينة استقبلها مفلح بشوق وهيام وسلموا على بعضهم سلام الأحباب وجلسوا يتسامرون طول النهار فقال لها: وكيف نكتب الكتاب؟ قالت: اذهب إلى بلادك وأحضر أكابر قومك يطلبونني من أبي فإن أبى نبقى ندبر حالنا فلم يقبل مفلح ذلك الرأي وقال: أنا لا أذهب إلا وأنت معي ولما رأته مصمماً على رأيه طلعت إلى القصر وأخذت ما فيه من خفيف الحمل وغالي الثمن ولبست لبس الرجال وألبست عبلة لبس خادم ونزلت إلى الإسطبل وأخذت أربعة جياد وأعطت السايس خمسين ديناراً وركب الأربعة الخيول وهم مفلح وعدلا ومسعود وعبلة وجدوا المسير حتى وصلوا لعند منصور الراعي فقالوا له: اذهب معنا فذهب معهم وساروا قاصدين ديار بني هلال ولما وصلوا إلى وادي الغرور نزلوا على العين فأكلوا وشربوا وناموا. أما جواري الست عدلا فإنهن انتظرن أن تصحو الست عدلا من النوم فلم تنهض ومضى نصف النهار وما أفاقت من نومها وأبواب القصر مغلقة فذهبت جارية إلى السيدة فتنة أم عدلا وأخبرتها بأن ابنتها لم تنهض من النوم إلى الآن ولا ندري ما هو السبب. فأسرعت فتنة ملتاعة إلى قصر ابنتها وفتحت الباب فلم تجد بنتها عدلا فسألت الجواري أين ذهبت ستكم؟ فقالوا: لم نعرف أين ذهبت فصاحت والدتها ولطمت خديها وندبت ابنتها وقالت: يا ترى أين ذهبت وما أصابها فهل وقعت من النافذة وصارت تقول يا دار أين عدلا ثم بكت وانتحبت وذهبت إلى زوجها وأخبرته بأن عدلا مفقودة فغضب غضباً شديداً ثم استدعى أكابر قومه واتهمهم بالمؤامرة على خطف عدلا لأنه لم يزوجها لأحد منهم فقالوا له: ليس لنا علم بها وأنت عندك نعمان الرمل فأحضره وهو يعرف ما جرى عليها، فأمر بإحضاره فلما حضر أمره أن يضرب الرمال ويعرف أين ذهبت عدلا وكان الرمال دائماً يتجسس الأخبار ويكتم الأسرار ويبينها عند اللزوم ليظهر براعته وليكسب الأموال بتدجيله وهو يعلم أن عدلا قد ذهبت مع مفلح؛ لأنه رآهم لما ركبوا الخيل فلما أمره الملك بضرب الرمل فتح الكتاب وقرأ ودمدم وولد البنات من بطون الأمهات ثم قال: مولاي، إن الرمل يدل على أن الست عدلا ذهبت لجهة الشمال إلى نواحي بلاد هلال مع أمير اسمه م ف ل ح يعني مفلح ونجم المريخ يدل على أنهم نائمون عند عين السباع لأخذ الراحة، فأدركهم يا مولاي قبل أن يجتازوا الحدود عند ذلك أمر الملك ابن أخيه الهدار وابنه نمر الغدار أن يأخذا ألف فارس ويلحقوا الست عدلا ويأتوا بها مكبلة بالقيود هي ومن معها من الشباب. فركبوا خيولهم وساروا مجدين إلى أن وصلوا إلى عين السباع فوجدوا آثارهم ولم يجدوهم لأنهم سافروا قبل وصول الهدار ونمر الغدار مع العساكر الذين أسرعوا في طريق نجد فنظرت عدلا إلى الوراء، فرأت العساكر

مسرعة نحوهم وعرفت أخاها نمر الغدار وابن عمها الهدار فعضت على إصبعها وقالت للأمير مفلح: انظر هذه عساكر أبي فقد لحقونا ليقبضوا علينا فدعنا نهرب فقال لها: أنا لا أهرب لأني إذا هربت فيلحقني العار إلى الأبد ثم إنهم حصنوا حالهم وشدوا خيولهم وقالوا لعدلا: اطلعي أنت على هذه الرابية واختفي هناك وانظري حرب بني هلال فقالت: اللّه ينصركم عليهم، ثم إنها أخذت جاريتها واختفت بين الصخور ولما وصلت عساكر الملك خطاف بقيادة نمر الغدار وابن عمه الهدار تقدم الأمير مفلح وغلامه مسعود ومنصور وفتحوا في المعسكر سوقاً مثل الميدان حتى صالت الدماء وتقابل نمر الغدار مع الأمير مفلح وتجاولا في الميدان ساعة زمان، ولما ولى النهار رجعت فرسان الملك خطاف وهي في حالة التلف يشكون ما أصابهم فهذا مجروح وهذا مطعون أما الأمير مفلح فإنه ذهب للمكان الذي فيه محبوبته عدلا فاستقبلته بالترحاب، ثم قالت له: أنا أخاف عليك من كثرة الجيش فأعلم بني هلال بواقعة الحال حتى أكون مطمئنة البال فاستصوب كلامها وكتب إلى بني هلال:

يقول الفتى مفلح عما جرى له ... الدهر دولاب علينا مال
أيا غادياً مني على متن ضامر ... اقطع فيافي سهلها وجبال
ادخل على حسن الهلالي أبو علي ... وقبل أياديه باحترام وكمال
وقل له يا فارس القوم في الوغى ... بادر بتجهيز الجيش وتعال
أبو زيد ودياب وشيخ الشباب ... والقاضي بدير يا سادة الأبطال
مفلح غدا في حالة الضيق والعنا ... وإن لم تدركوه بسرعة زال

ثم إنه أرسل الكتاب مع غلامه مسعود وسار قاصداً بني هلال، وفي الصباح ركب مفلح ونزل إلى الميدان فصال وجال وقال: أين الفرسان تنزل إلى الميدان؟ فنزل إليه الهدار وصاح به أين ابنة عمي عدلا أحضرها بالحال قبل أن تذوق الأهوال؟ فقال له مفلح: اخرس يا جبان:

ايش أنت والف مثلك بالوغى ... أظن عقلك راح منك واندرى
هدار قدامك مفلح يا ردي ... لا بد ما خليك تزور المقبرا
أنا آخذ عدلا بسيفي والقنا ... وأدعي فوارسكم تروح مكسرا
لما تجي فرساننا وقرومنا ... أبو زيد والزغبي دياب الأشقرا
وتشوف أبو درغام شيخ شبابنا ... زيدان بوقت الكون لا يرجع ورا
رد الفتى الهدار وناري بالحشا ... يا حيف مثلك أن يكون معثرا
شارت عليك عدلا بشور خايب ... والجيد عمره ما يشاور مرا

الألف والألفين ما أحسب لهم والحرب عندي ليس شيء يذكرا
ابكي على عمر انقضى بالهنا يا حيف عمرك عن قريب يقصرا
وعدلا ترى بعد منك تقهرا لأشرب من دمها حتى أسكرا

ثم التقى البطلان كأنهما جبلان واشتغل بينهما ضرب السيف وطعن الرمح، أما مفلح فاعتدل على ظهر الحصان وطعن الهدار بالرمح فغطس تحت بطن الجواد فجاء الرمح في عنق الجواد فوقع الهدار على الأرض، فغار نمر الغدار على مفلح وتقاتلا قتالاً حير عقول الفرسان وتمكن مفلح من نمر وضربه بالسيف فاستلقى السيف بالترس، فزحل السيف على فخذه وجرحه حتى كاد أن يقطعه ووقع على الأرض عندها غار مفلح ومن معه على الأعداء وقتلوا منهم مئة خيال وفي المساء افترقوا عن بعضهم. أما مفلح فذهب إلى عدلا فقالت له: مثلك تكون الرجال يا فارس الصدام، وفي الصباح نزل منصور إلى الميدان فصال وجال فنزل إليه نمر الغدار فطعنه منصور بعود الزان ظن أنه قاتله لكن ضربته راحت خائبة بعد ما كانت صائبة وغار نمر على منصور وسد عليه أبواب الحرب والقتال فاستغاث منصور بالأمير مفلح فهجم مفلح على نمر وأخذا في الصدام وهجم الهدار على مفلح ليغدر به فصاح منصور احذر يا مفلح لكن الهدار كان وصل إلى مفلح وضربه بالسيف فخلى عنها فقطعت عنق الجواد فوقع مفلح على الأرض وغارت عليه الفرسان وغار منصور يجندل الفرسان وفي هذا الوقت تعكر الجو وهجمت على الميدان فرسان ليس لها عد وفي مقدمتهم زيدان شيخ الشباب وخلصوا الأمير مفلح من بين الدشمان وأنزلوا بالعدا الذل والهوان فالرؤوس طائرة والدماء جارية، أما مسعود فذهب إلى الست عدلا وبشرها بقدوم فرسان بني هلال الصناديد فقالت: قد رأيتهم فقل لي على أسمائهم فقال: الذي راكب الحرا هو الأمير زيدان شيخ الشباب والذي وراءه عكرمة بن أبي زيد وهذا دياب وذاك مناع وعقل بن هولا، ففرحت عدلا بقدومهم وأملت بالنصر. أما قوم الملك خطاف فإنهم باتوا تلك الليلة في أوشم حال مما أصابهم من بني هلال وفي الصباح ركب الأمير زيدان وصاح بالأمراء دونكم وإياهم ونزل إلى الميدان والتقى بالهدار والتقى عكرمة بنمر الغدار فهجم زيدان على الهدار فسبقه مخيبر وضرب الهدار بالسيف أطار رأسه عن جثته، أما زيدان فهجم على نمر واقتلعه من بحر سجره وخبطه على الأرض، فصاحت عدلا هذا أخي اتركه يا زيدان ثم هجمت الفرسان من جميع النواحي وشتتوهم في الجبال والوديان فلما وصل الخبر إلى الملك الخطاف غضب غضباً شديداً وصاح في وزيره الدرغام قائلاً: خذ مائتي ألف فارس واهجم على هؤلاء العربان وأنا أتبعكم ببقية الفرسان ثم ركبوا الخيول وساروا ثلاثة أيام. وفي اليوم

الرابع أقبلوا على الشباب فوجدوهم كاسبين غانمين ومعهم نمر أسير فصاحوا عليهم إلى أين ذاهبون بعدلا هل ظننتم أنكم ناجون منا ومن سيوفنا وهجموا على بني هلال فاستقبلهم زيدان والشباب يضرب السيوف وفي النشاب، واشتدت المعارك والمعامع بينهم والتقى الدرغام وزير الخطاف بالأمير زيدان وتقاتلا قتالاً مريراً ودافعا عن أنفسهما دفاعاً مجيداً إلى المساء افترقا على سلام. وفي الصباح نزل إلى الميدان فهد ابن عم الملك فنزل إليه زيدان والتقى البطلان كأنهما جبلان أو بحران متلاطمان ومن شدة القتال والضربات المتواليات انكسر سيف فهد اليمن فعند ذلك حمى زيدان الحصان وطعن فهد اليمن بالرمح في حلقه نفذ من قفاه، فوقع إلى الأرض يتخبط بدمه فنزل فارس يقال له: نفاذ فقتله زيدان ولم يزل يقتل فارساً بعد فارس حتى قتل عشرين فارساً وبعد ذلك دقت طبول الانفصال، وفي الصباح نزل الدرغام إلى الميدان فنزل إليه زيدان وصاح به:

أنا الفتى زيدان أنا شيخ الشباب فارس الفرسان في يوم القتال
اليوم رأسك من حسامي طائر وجثتك تلقى على وجه الرمال

فغار عليه الدرغام بقلب أقسى من الصوان وكان الوزير ساحراً ماكراً يدمدم في الكلام ويختفي ولا يبان فما رآه زيدان إلا وهو مكتوفاً بين يديه فصاحت عدلا بالشباب أن يخلصوا زيدان من الاعتقال وقالت لمفلح: اليوم يومك دونك والأعداء ثم غنت حروبي فغار الشباب على الأعداء وفي أولهم الأمير مفلح وصاحوا اللَّه أكبر على من طغى وتجبر وتلاطمت الخيل بالخيل ووقع في عساكر اليمن الذل والويل. وكان زيدان قد وصل إلى السلطان حسن فقرأه ثم أعطاه لأبي زيد فقرأه على جميع الأمراء فلما سمعه الرياشي مفرج أبو مفلح بكى فقال له أبو زيد: لماذا تبكي يا مفرج؟ لا تشغل بالك من جهة ولدك مفلح فلن نتركه يحارب وحده ثم صار دياب ينخي الفرسان وينشد الأشعار.

فصار يدافع عن نفسه ولما رأى أنه ليس له منهم خلاص هرب منهم فلحقه هازم الأبطال وكان حصان درغام قد تعب فوقع على الأرض فهجموا عليه وأسروه وساقوه إلى الملك، فقال له: ما حملك على قتل العبيد وغيرهم من الفرسان؟ فقال: لقد كنت جائعاً ومنذ أربعة أيام ما ذقت الطعام، فوجدت الرعيان يأكلون، فجلست معهم لأسد رمقي من الجوع فضربوني فانتقمت منهم فقال له: أين رفيقك الذي كان معك؟ لأن العبيد أخذوا منك جوادين، فقال درغام: إن الجوادين لي؛ لأني سمعت بجواد أصيل اشتريته من بلاد اليمن. والآن راجع إلى بلادي فقال له الملك: لا بد لك من السجن وتذوق فيه العذاب الشديد فقال درغام: وماذا تريد مني حتى تطلق سراحي؟ فقال: أريد ألف مهرة وألف رمح وألف سيف فقبل درغام

وكتب رسالة لبني هلال يستنجد بهم ويطلب منهم الخيل والرماح والسيوف بهذه الأبيات:

يقول الفتى درغام على ما جرى له بدمع جرى من مقلة العين ساكب
ألا يا هبوب الريح بلغ رسالتي إلى نجد وزور أهلي والقرايب
سلم على أمي الحزينة وقول لها تبدل ليل الصفا بليل المصايب
وسلم على أبو زيد سلامة وسلم على الزغبي دياب المحارب
وسلم على زيدان والدي شيخ الشباب ومعطي الرغايب
وسلم على حسن الهلالي أبو علي وقل له جهز الجيش وشد الركايب
أتاني محمود كاسب الحمد والثنا وأخبرني عن قصده والمطالب
وصلنا إلى بلاد العمور وأرضها فراح محمود يجيب الحبايب
نجم السحور ومحمود في رغد وهنا ودرغام في الحبس ذاق المصايب
دخيل عليكم أدركوني بسرعة بليل يشع فيه ضو الكواكب

ثم طوى الكتاب وأعطاه للنجاب فأوصله إلى بني هلال، فلما قرأوه أمر السلطان بضرب طبل الرجوج فاجتمعت بنو هلال وحضر الأمير زيدان والشباب وصاحوا: لعينيك يا أبا ضرغام وركب زيدان بقومه الستين ألفاً وهجم أبو زيد على الدرغام الذي تلقاه بالرمح، فمال عنه أبو زيد وراحت الضربة خائبة وثنى عليه بالسيف أخذها في ترس البولاد فانكسر السيف فثلث عليه بالدبوس فخلى عنها. فعندها تعدل أبو زيد وهجم على الدرغام وظن أنه ظافر به فدمدم الدرغام بكلمات الاختفاء فما رآه أبا زيد وأراد الدرغام أن يمسك أبا زيد فقرأ أبو زيد آيات كريمة فما قدر عليه ثم إن أبا زيد ضرب الدرغام بسيفه البتار فقتله بالحال وهجم بنو هلال وقتلوا الأعادي وفكوا الأمير زيدان وركبوا خيولهم. أما الملك خطاف لما وصلت إليه الأخبار زاد به الهم وجمع أرباب دولته والفرسان مقدار أربعين كرة وكل كرة مائة ألف وله وزير اسمه الغطاس وله ولدان واحد اسمه كاسر والثاني اسمه دمار وركبت الفوارس وركب الملك وساروا حتى أشرفوا على بني هلال وصاحوا فيهم: إلى أين تغدون يا أنذال؟ وظهر بأول الخيل الملك خطاف ووزيره الغطاس واستعدت بنو هلال للحرب والنضال ووقفت العساكر تجاه بعضها فنزل الغطاس إلى الميدان فالتقاه دياب وأنشد:

مقالات الفتى دياب بن غانم ونار القلب زايدات شعيل
أنا اليوم جيتكم في حسامي على خضرا كالنسيم العليل
فكم درغام ذبحته بسيفي وكم فارس غدا مني قتيل

أنـا اسـمـي ديـاب بـن غـانـم أصيد القوم بالسيف الصقيل
فـأيـن تـروح يـا مـسـكـيـن مـنـي وعـقـلـك راح مـنـك يـا هـبـيـل

ثم التقى البطلان في قتال شديد ما عليه من مزيد فضربه الغطاس بالرمح فقلب دياب تحت بطن الخضرا وثنى عليه بالسيف أخذه بترس البولاد وثلث عليه بالدبوس فما نال منه مراده، فعند ذلك غار عليه دياب وطعنه بعود الزان فجاءت الطعنة في فخذه وثنى عليه بالسيف قطع رأسه فنزل إليه كاسر ابن الملك وضرب في فخذه وسال دمه، فأسرع دياب ونزل إلى الخطاف وظل يحاربه عشرة أيام، وفي هذه المدة التحم جرح أبي زيد وزال عنه الألم فنزل إلى الخطاف وهو مقهور منه وغضبان عليه وطعنه بالرمح بين بزيه أرداه قتيلاً عند ذلك التحمت الجيوش والعساكر ببعضها وجرت الدماء وكثرت القتلى وبعد جهد جهيد تغلبت بنو هلال على عساكر الملك الخطاف فكسروهم شر كسرة فولوا هاربين فلحقوهم ودخلوا بلادهم واحتلوها فأحضر السلطان حسن نمر الغدار أخا الست عدلا وسلمه الأحكام وأوصاه بالعدل والإحسان ثم أمر السلطان حسن بالرجوع إلى الأوطان فنشروا البيارق والرايات وعادوا إلى الديار بالفرح والانتصار ثم أقاموا الأفراح بعرس الأمير مفلح على الست عدلا فذاعت الأخبار وعلم زيد العجاج فتكدر من بني دياب فجرحه ثم ضربه دياب فجاءت الضربة في رأس الجواد فوقع كاسر على الأرض فهجم أخوه دمار على دياب فضربه أبو وطفا أطاح رأسه عن جثته فنزل أبو زيد إلى الميدان وقال لدياب: سلمت يداك فارجع أنت الآن وأنا أكفيك شر هؤلاء الملاعين فعاد دياب من الميدان وصاح أبو زيد هل من مبارز لا يبرز لي كسلان ولا عاجز ثم أنشد هذه الأبيات:

يـقـول أبـو زيـد عـمـا جـرى لـه أنا فارس الهيجا أنا الجحجاح
أنـا أبـو زيـد الـهـلالـي سـلامـة مـن طـول عـمـري أقـبـض الأرواح

فنزل إليه الملك وطعن أبا زيد بالسنان فخاب أمله ثم ضربه بالسيف فجرحه هلال؛ لأنهم لم يدعوه فقال له ولده: من الصواب أن نأخذ لهم هدية ونهنئهم ونظهر ودادنا لهم ويكون لنا الحق عليهم فاستصوب أبوه رأيه فجهزوا بعض العساكر وساروا ولما وصلوا استقبلوهم بالترحاب والإكرام وسلم زيد العجاج على السلطان حسن وعلى أبي زيد ودياب وباقي الأمراء وهنأوهم بالفرح والانتصار وبعد شهر أتى نمر مع بعض الفرسان وسلم على السلطان حسن وعلى جميع الأمراء فضربت النوبات وغنت البنات وعم الفرح والسرور مدة شهر ثم استأذن نمر بالعودة إلى بلاده فركب معه زيدان وعجاج وفاضل وعقل بن هولا وعدد من الجنود وساروا مع نمر وقومه يودعونهم فحلف عليهم بالرجوع إلى الديار فودعوهم وعادوا إلى الأوطان.

قصة نجمة السحور

(قال الراوي) بعدما زفوا الأمير مفلح على الست عدلا واستراحت بنو هلال من الحروب والأهوال كان الأمراء جالسين في الديوان عند السلطان حسن فقال لهم دياب: لقد مضى علينا تسعون يوماً لم نغز فيها عدواً ولم نحارب، وإذا تركنا الغزو والجهاد فإن الأعداء يغزوننا ويحتلون بلادنا فعلينا أن نتغدى بهم قبل أن يتعشوا بنا فقال السلطان حسن: أنتم يا بني زغبي لا تطربون إلا بسفك الدماء فقال دياب: ليس هذا قصدي، إنما المراد أن نقيم الأفراح والليالي الملاح بخطبة أمير وأميرة لتزول عنا الغموم فلماذا اتهمتنا بسفك الدماء على كل حال إن سفك دماء الأعداء الذين يتربصون بنا الدوائر هو فخر لنا فقال أبو زيد: يمكننا أن نقيم الأفراح بدون حرب أو سفك دماء وذلك بأن نخطب سميا بنت السلطان حسن لابني عكرمة ونعمل فرحة كبيرة لها قدر وقيمة وقد خطرت على البال هذه الأبيات:

يقول أبو زيد الهلالي سلامة ... يا حسن يا سلطان كل العرب
هذا دياب الخيل يفرج همنا ... ويزيل الأحزان عنا والكرب
لولا دياب الخيل ما ملكنا نجد ... ولا غنمنا كل المواشي والسلب
تسعين يوم صار لنا قاعدين ... لا أحد تزوج ولا أمير خطب
يا أبو علي دعنا نقيم الفراح ... بخطبة سميا لعكرمة أحسن نسب
تفرح هلال كبارها وصغارها ... والهدايا تجي من دمشق ومن حلب
ثم ننزل نحن نلعب بالجريد ... والفتى زيدان قرم ما انغلب
تشبع العربان من خير أبو علي ... وندق على الأوتار ونحظى بالطرب

فقال السلطان حسن: لم أجد من أصاهر أحسن من ابنك عكرمة يا أبا زيد لأنه من خاص الأمراء والأبطال ثم إنهم أحضروا القاضي بدير وتمموا خطبة الأميرة سميا للأمير عكرمة وكانت سميا من أحسن بنات بني هلال فذبحوا الأغنام وأولموا الولائم وبعد ذلك بمدة خرجت فرقة من بني هلال للصيد والقنص منهم موسى ومحمود ولدا دياب وعكرمة ابن الأمير أبي زيد فقال موسى لعكرمة: يا ابن العم صار لك خاطب سميا مدة طويلة، ولماذا لا تأخذها؟ إن كنت لا تأخذها أنا آخذها، فقال عكرمة: نحن نشاورها فإن رضيت بك فأعطيك إياها ولكن من

يكشف لنا عن البنات هل هن على العين أو عدن إلى بيوتهن فقام محمود ابن الأمير دياب وقال: أنا أذهب لأرى أين البنات موجودات وشد على الشقرا بنت الخضرا وسار نحو العين فوجد البنات في جنينة السلطان حسن فرأينه وقلن لوطفا هذا أخوك محمود فقالت الجازية: لنصرخ صوت حروبي وننظر ما يجري فيه من الجهل، وصاحت البنات صوت حروبي فتقدم محمود حتى أقبل على البنات وسلم عليهن، وقال للجازية: أنا دخيلك أن تدبري لي عروساً من هؤلاء البنات فقالت: مرحباً بك يا محمود ثم قالت للبنات: من منكن تأخذ الأمير محمود فما أحد أجابها بجواب فقالت الجازية لمحمود: من تريد أن تأخذ من البنات، فقال محمود: أريد سميا فلما سمعت سميا منه هذا الكلام غضبت عليه وصاحت به اذهب من أمامي أما تعرف بأني مخطوبة للأمير عكرمة وإذا لم تعجبك واحدة من هذه البنات فاذهب إلى بلاد العمور وجيب نجمة السحور بنت الملك صادم لأني سمعت بأنها أجمل بنت من بنات الملوك عند ذلك قال محمود: لا بد لي من أخذ نجمة السحور ولو قامت القيامة وسأتزوجها رغماً عن كل من يمنعها عني، ثم إنه ترك البنات وأطلق لجواده العنان واجتمع في طريقه بابن عمه درغام ابن الأمير زيدان فسلم عليه وحكى له أنه ذاهب لإحضار نجمة السحور، فقال له: وما السبب في ذلك؟ ألا تعجبك بنت من بنات هلال؟ فقال: طلبت سميا فأبت وبهدلتني ودلتني على نجمة السحور وصممت على الذهاب إليها ولو ذقت الأهوال فقال له: أنا لا أدعك تذهب وحدك وأنا سأذهب معك ثم ساروا قاصدين بلاد العمور لأجل نجمة السحور بنت الملك صادم الرجال وكان أبوها قد بنى لها قصراً فريداً بقرب عين الغدير وكان مفروشاً بالفرش الثمينة ومحلى باللؤلؤ والمرجان ومعلقاً بأعلاه أربع طابات من الذهب تنير البر مسافة خمس ساعات وكان أبوها يحبها محبة زائدة لأنها بديعة الحسن والجمال، وقد سمع بصيتها الملك عنان فركب بعسكره الجرار وأتى إلى بلاد العمور ليخطب نجمة السحور ولما وصل استقبله صادم ووزراؤه باحتفال باهر ثم سلموا على بعضهم. وبعد إتمام الضيافة قال عنان: لقد جئت راغباً بأن أخطب ابنتك نجمة السحور فأجابه بالسمع والطاعة ثم أخبر ابنته بقدوم الملك عنان وقصده أن يخطبها وأوصاها أن تستقبله عندما يأتي إلى قصرها ولما أتى الملك عنان خرجت لاستقباله، فلما رأته صارت الدنيا في عينيها ظلام من منظر الملك عنان لأنه كان أشنع خلق اللّه رأسه كبير عيناه غائرتان في وجهه وقد شاخ وتساقطت أسنانه. فلما رأته بهذه الهيئة الكريهة غابت عن الصواب ودخلت إلى غرفتها ولازمتها حمى شديدة فلما رأتها جاريتها بهذه الحالة قالت لها: يا ستي قولي لأبيك لا أريد عنان أن يكون زوجي، فقالت: إن أبي

قاس جداً وقد وعده بي وأنا ما كنت أعرف أنه بهذه الصورة البشعة وعمره ستون عاماً وعمري أنا عشرون عاماً. أما الملك عنان فسأل عن نجمة السحور فقالوا له: إنها منحرفة الصحة ولكنهم تمموا خطبة عنان على نجمة السحور بالرغم منها وبعد يومين أمر الملك عنان بالرحيل لأجل تحضير جهاز العروس أما نجمة السحور فكانت تنام قلقة ملتاعة وكانت ترى في نومها أحلاماً مزعجة ومرة رأت طيراً أتى لقصرها وألبسها ريشاً فصارت طيراً وذهبت معه، ثم أتت طيور تريد الأخذ بالثأر ثم حكت المنام لنعمان الرمَّال فقال لها: إن هذا المنام يدل على بشرى عظيمة لك وإن سعدك مقبل عليك فالطير هو فتى جميل الطلعة يهواك ويحبك كثيراً وأنت تذهبين معه وتأتي العساكر ويحصل حرب ولكن نحسك ولى وأقبل سعدك وكفاك فخراً، إنك تتخلصين من عنان البشع وبعد ثلاثة أيام يصل فتاك المنتظر ولما ذهب الرمال اشتغل قلب نجمة السحور بالغرام وبعد ثلاثة أيام رأت رجلين على العين فقالت لخادمتها: خذي الجرة واملئيها ماء واكشفي لي خبر الرجلين اللذين على العين فلبست أفخر ثيابها وتعطرت وتكحلت وصارت كأنها العروس وأخذت طاسة وجرة وذهبت للعين وهي تميل كغصن البان فلما رآها محمود قال: ما قولك بهذه الجارية درغام، قال: إنها جارية نجمة السحور فمشى محمود نحوها وسلم عليها قالت: ماذا تريد يا ابن الكرام؟ قال: أريد شربة ماء فملأت الطاسة وناولته إياها فشرب وحمد المولى فقالت: هنيئاً يا. . . . فقال: اسمي محمود وأنت ما هو اسمك؟ قالت: زهر البساتين ثم قالت له: على أي شيء تفتش فأنشد:

على ما قال محمود الهمام ... وناري بالحشا زادت ضرامي
عشر أيام داير في البراري ... وسائر في الليالي والنهار
أدور أنا على نجم السحور ... دخيلك أخبريني بالتمام
دخيل اللَّه دليني عليها ... أكاد أسوح من شدة هيامي

ثم قال: يا زهرة إذا اجتمعت بنجمة السحور على يدك أغنيتك بالمال فقالت: على الرأس والعين ثم حملت جرتها وذهبت تبشر ستها بقدوم محمود وابن عمه درغام، فلما وصلت رأت نجمة السحور على وجهها علامة الفرح والسرور فاستبشرت خيراً وسألتها من هما هذان الشابان، فقالت لها: واحد اسمه محمود وهو الذي يحبك حباً جماً والثاني اسمه درغام وهو ابن عم محمود فقالت لها: ارجعي إلى العين وأحضريهما حالاً، فذهبت زهرة إلى العين وقالت: تفضلوا لعند ستي فقال درغام: اذهب أنت لعند محبوبتك وأنا أبقى عند الخيل وأظن أنك تلتهي عندها وتنساني وأنا صار لي ثلاثة أيام ما ذقت الطعام فقال محمود: أنا أتفق معها

على موعد وأجيب لك الطعام ولا أتأخر عنك وذهب محمود مع زهرة فلما وصل محمود استقبلته نجمة السحور بشوق واحترام وأجلسته على ريش النعام وأحضرت له الطعام فأكل بلذة وفرح وسرور، وظل عندها أربعة أيام ونسي ابن عمه درغام الذي كان ينتظره وأقبلت عليه رعيان الملك صادم فسقوا المواشي وأحضروا الحليب والطعام وجلسوا يأكلون فتوجه نحوهم وسلم عليهم، فقالوا: ماذا تريد؟ فقال: ألا تكرمون الضيف ومد يده وأخذ يأكل فقاموا إليه يضربونه عند ذلك سحب سيفه وقتل منهم عدة أشخاص وهرب الباقون فرجع درغام إلى المائدة وأكل الطعام وشرب الحليب حتى شبع، أما العبيد فذهبوا إلى الملك صادم وهم يصرخون وأخبروه عن الفارس الذي فتك فيهم. فقال الملك للقائد كامل: خذ فرسانك واذهب إلى عين الغدير وأحضر ذلك الفارس الذي تعدى على العبيد فذهب القائد كامل ومعه فرسانه فلما وصل إلى العين رأوا درغام متكئاً على الرمح فسأله أحد الفرسان هل رأيت من تقاتل مع الرعاة وفتك فيهم، فقال: أنا تقاتلت معهم فقد كنت جائعاً ووضعوا الطعام فلما جلست معهم لأسدّ رمقي من الجوع تكاثروا عليّ وضربوني فانتقمت منهم فقالوا له: لأجل اللقمة ترمي بهم هذه النقمة وهجموا عليه فطعن أحدهم بالرمح بين بزيه خرج يلمع من بين كتفيه ثم مال عليهم وقتل منهم عدة رجال والباقون ولوا الأدبار ودخلوا على الملك صادم وقالوا له: إن ذلك الفارس لا يقهر وقد قتل منا عدة فرسان وما قدرنا عليه، فغضب الملك غضباً شديداً وكان له أخ اسمه هازم الأبطال لا يخاف الموت فأمره أن يركب بمائة بطل وأن يحضر ذلك الفارس مكتوف اليدين فركب هازم الأبطال بالفرسان وساروا إلى عين الغدير فوجدوا درغام راكباً على الحصان، فصاحوا به ويلك يا نذل العربان وهجموا عليه من اليمين والشمال فالتقاهم بضرب الحسام فتكاثروا عليه فصار يدافع عن نفسه ولما رأى أنه ليس له منهم خلاص هرب منهم فلحقه هازم الأبطال وكان حصان درغام قد تعب فوقع على الأرض فهجموا عليه وأسروه وساقوه إلى الملك فقال له: ما حملك على قتل العبيد وغيرهم من الرجال؟ فقال: لقد كنت جائعاً ومنذ أربعة أيام ما ذقت الطعام فوجدت الفرسان الرعيان يأكلون فجلست معهم لأسد رمقي من الجوع فضربوني فانتقمت منهم فقال له: أين رفيقك الذي كان معك لأن العبيد أخذوا منك جوادين، فقال درغام: إن الجوادين لي لأني سمعت بجواد أصيل اشتريته من بلاد اليمن. والآن راجع إلى بلادي فقال له الملك: لا بد لك من السجن وتذوق فيه العذاب الشديد فقال درغام: وماذا تريد مني حتى تطلق سراحي؟ فقال: أريد ألف مهرة وألف رمح وألف سيف فقبل درغام

وكتب رسالة لبني هلال يستنجد بهم ويطلب منهم الخيل والرماح والسيوف بهذه الأبيات:

يقول الفتى درغام على ما جرى له بدمع جرى من مقلة العين ساكب
ألا يا هبوب الريح بلغ رسالتي إلى نجد وزور أهلي والقرايب
سلم على أمي الحزينة وقول لها تبدل ليل الصفا بليل المصايب
وسلم على أبو زيد سلامة وسلم على الزغبي دياب المحارب
وسلم على زيدان والدي شيخ الشباب ومعطي الرغايب
وسلم على حسن الهلالي أبو علي وقل له جهز الجيش وشد الركايب
أتاني محمود كاسب الحمد والثنا وأخبرني عن قصده والمطالب
وصلنا إلى بلاد العمور وأرضها فراح محمود يجيب الحبايب
نجم السحور ومحمود في رغد وهنا ودرغام في الحبس ذاق المصايب
دخيل عليكم أدركوني بسرعة بليل يشع فيه ضو الكواكب

ثم طوى الكتاب وأعطاه للنجاب فأوصله إلى بني هلال فلما قرأوه أمر السلطان بضرب طبل الرجوج فاجتمعت بنو هلال وحضر الأمير زيدان والشباب وصاحوا لعينيك يا أبا درغام وركب زيدان والشباب وصاحوا لعينيك يا أبا درغام وركب زيدان بقومه الستين ألفاً وسبقوا العساكر، أما درغام فكان يقاسي العذاب في السجن ويتذكر أيام الهنا والسرور وفجأة دخل عليه نعمان الرمال وسلم عليه وبشره بخلاصه من السجن، فشكره درغام وأثنى على حسن اهتمامه ثم تركه وذهب لعند نجمة السحور ففتحت له زهر البساتين ودخل فسلم على محمود وعلى نجمة السحور ثم قال لهما: إن درغام في السجن يقاسي الأهوال فنهض محمود ونظر من النافذة إلى جهة الغدير فما وجد ابن عمه درغام ولا وجد الخيل ولا عدة الحرب فأنشد يقول:

مقال الفتى محمود عما جرى والنار في قلبي يزيد لها ضرام
انقطع عزمي وحالي كالعدام يا ست نجمة ما بقالي حيل أقوم
آه يا درغام لو كنت حاضر لأهلك الدشمان بحد الحسام
آه يا سيفي ودرعي والقنا والحصان يكون في رأسه اللجام
لكنت أركب على الأعادي أبيدهم وأهلك الفرسان في يوم الزحام

فقال نعمان الرمال لمحمود ونجمة السحور: سآتيكما الليلة بجوادين فكونا على حضر فجهزت نجمة السحور خفيف الحمل غالي الثمن وفي ظلام الليل أحضر الرمال لهما جوادين، فركبا وسافرا وأما زهرة البساتين فإنها دخلت على

نجمة السحور في الصباح فما وجدتها فعرفت أنها سافرت مع محمود فأعلمت الملك صادم بأن ابنته نجمة السحور مفقودة فأحضر الرمال وقال له: انظر لنا نجمة السحور بأي مكان. فبعد أن دمدم في كتابه قال: إنها في الطريق إلى بلاد نجد مع أحد الأمراء عند ذلك أمر الملك أخاه هازم الأبطال أن يركب بمائة ألف خيال ويلحق هؤلاء الأنذال ويرجع نجمة السحور فركب وركبت معه الفرسان وساروا يجدون السير حتى وصلوا إلى جسر كبير، فرأوا محمود ونجمة السحور جالسين عند الجسر فصاح هازم الأبطال آه يا نذل أين تغدو بنجمة السحور من أمام هذه الفرسان وكان محمود قد اعتلى على جواده وغار عليهم وضرب فيهم بالحسام فقتل منهم خمسين فارساً وبينما هو في أشد الضيق إذا بصياح قد انعقد في تلك البطاح وهو يقول: أتاكم درغام ثم إنه غار على الفرسان ونزل عليهم بضرب السنان وغار على هازم الأبطال وتقاتلا وتضاربا إلى السماء دقت طبول الانفصال فافترقوا عن بعضهم وسأل محمود درغام كيف نجوت من السجن قال: إن نعمان الرمال دخل السجن وفكني من القيود وأخرجني سراً من السجن لخارج البلد وأحضر لي جواداً وسلاحاً فوعدته بالخير الجزيل وجئت حتى لحقت بالقوم وجرى الذي جرى.

وفي الصباح برز هازم الأبطال إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان فبرز إليه درغام وأخذا في الحرب والصدام وضرب درغام هازم الأبطال ضربة فراحت خائبة وضربه هازم الأبطال فوقعت الضربة على رأس الجواد، فأبرتها كما يبري الكاتب القلم فوقع درغام على الأرض وغار محمود على هازم الأبطال وجرى بينهما قتال حير الأبطال وكان محمود قد تعب من ملاقاة الرجال فصار يدافع عن نفسه فأحاطت به وبدرغام الأبطال من كل جانب وإذا بزيدان شيخ الشباب وقومه هاجمون على الأعداء وصاحوا عليهم صوتاً رجت منه الجبال والوديان ونزلوا فيهم ضرباً بالسيف وطعناً بالرماح إلى المساء انفصلوا عن بعضهم. أما زيدان فسأل محمود عن نجمة السحور فقال: إنها على الرابية فذهبوا إليها وأحضروها فسلمت عليهم، أما هازم الأبطال فكتب إلى الملك صادم كتاباً قال فيه: لحقنا نجمة السحور وأردنا أن نقتل محمود فأتانا درغام وبعده أتى زيدان شيخ الشباب وعساكره وجرى بيننا حرب وقتال لم يكن يخطر لنا على بال فأرسل لنا الأبطال والشجعان بأسرع وقت وإلا رحنا بحد السيوف ثم أرسل الكتاب إلى الملك صادم، فلما قرأه أقسم أن يركب إلى بلاد نجد ويخربها ثم كتب كتاباً إلى وزيره الغطريف يأمره بالركوب ثم أمر صادم بدق الطبول وتجهيز العساكر فركبوا وركب الملك صادم وساروا يقطعون الفيافي والقفار، وأما هازم الأبطال وعساكر بني هلال فإنهم

جددوا الحرب والقتال وبرز الأمير زيدان إلى الميدان فنزل إليه هازم الأبطال واقتتلا قتالاً يحير الأفكار وأخذا في كر وفر وقرب وبعد حتى تعب هازم الأبطال وأراد أن يهرب فما مكنه زيدان ومد يده إليه واقتلعه من على ظهر الحصان كأنه عصفور وخبطه بالأرض أدخل طوله بالعرض. فلما رأت عساكر هازم الأبطال ما حل بمقدمهم ولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار وتبعهم الجهال يضربونهم بالسيف إلى أن فرقوهم بين الروابي والتلال ثم جمعوا الخيل الشاردة وجمعوا الغنائم والأسلاب ثم وضعوا الطعام وأكلوا وشربوا وباتوا إلى الصباح، وإذا بالغبار قد علا وثار وانكشف عن فرسان وجيوش لا تعد ولا تحصى وصاحوا بزيدان وقومه أن تغدوا ونحن لكم طالبون ارموا سلاحكم وارفعوا أيديكم فلما رآهم زيدان قال لقومه: أدركتنا العساكر فاحموا أنتم ظهري ثم حمل وحملت معه الفرسان والأبطال والتقت الرجال بالرجال وعظمت الأهوال وجرى الدم وسال وتكدست القتلى مثل التلال وفي المساء دقوا طبول الانفصال فرجع زيدان وقومه وهم مخضبون بالدماء، وقالوا: إن لم تأتنا نجدة من بني هلال هلكنا لا محالة؛ لأن عساكر أعدائنا كثيرة لا تعد ولا تحصى فمرادي أن أكتب للسلطان حسن وأبي زيد ودياب نعلمهم بهذه الأحوال فكتب هذا القصيد:

قال الفتى زيدان كياد العدا ... النار في قلبي تزيد لهابي
ركبنا إلى أرض العمور بجيشنا ... نبغي خلاص أولادنا الأنجاب
حملنا على الأعداء نريد قتالهم ... وطعناتنا ترمي العدا بنكاب
قتلنا الأمير هازم وهو كبيرهم ... وقومه راحوا في البراري هراب
وثاني الأيام يا ما قد جرى ... أتانا الملك صادم كسبع الغاب
فقوموا أدركونا بالعجل ... فإن لم تجوا رحنا طعن حراب

فلما وصل الكتاب للسلطان حسن قرأه على الجميع ثم أمر بدق الطبول فركب أبو زيد وحسن ودياب والقاضي بدير بأربع تسعينات ألوف وجدوا بقطع القفار والسهول والأوعار ولما وصلوا لمكان المعارك والمعامع رأوا بني هلال في ضيق شديد فهجم أبو زيد ودياب والقاضي بدير بالعساكر والجيوش وحملت الرجال على الرجال والفرسان على الفرسان وعظمت الأهوال والتقى أبو زيد بالملك صادم وهو ينخي الفرسان على الثبات في الحرب والطعام فحمل عليه فأنشد يقول:

على ما قال صادم في بيوت ... وناري بالحشا زادت وقادي
أخذتم نجمة السحور بغدركم ... في جنح ليل والعيون رقادي

لا بد أفني جموعكم بمهندي وأرميكم بالشر والأنكاد
رد عليه أبو زيد وقال له أنا أبو زيد قهار الأعادي
فلا بد عن قتلك وقهرك وأفرق جمعكم في الفلا والوادي

ثم التقى البطلان كأنهما جبلان وتقاتلا قتالاً عظيماً والتقت الرجال بالرجال وجرى الدم وسال فانحلت عزائم عساكر الملك صادم وكانت قد وصلت عساكر عنان العظيم الشأن حاكم بلاد الديلم؛ لأنه لما بلغه ما جرى على عمه الملك صادم وسبي ابنته نجمة السحور وقتل هازم الأبطال أخذ يستعد ليأخذ منهم بالثأر ويخلص نجمة السحور بالسيف البتار وصار يجد السير حتى التقى بهم وهجم على عساكر بني هلال من اليمين والشمال وانتشل عمه صادم واشتد القتال وعظمت الأهوال فكانت وقعة عظيمة قتل فيها كثير من الأبطال حتى انكسرت بنو هلال وارتدت إلى الوراء وأرجعهم قوم الملك صادم وقوم الملك عنان سبع مراحل وفرح الملك عنان بالنصر، ولكنهم لم يتمكنوا من خلاص نجمة السحور لذلك أرسل صادم كتاب تهديد إلى بني هلال، قال لهم فيه: يجب عليكم أن ترموا سلاحكم وتستسلموا لقادتنا حتى نرفع عنكم الحرب وأول عمل تقومون به هو إرسال نجمة السحور وإذا لم تفعلوا ما نطلب منكم لا نرفع عنكم القتال حتى لا نبقي منكم من يحمل السلام، ثم إنه أرسل لهم الكتاب فلما قرأه السلطان حسن اسودت الدنيا بعينيه فجمع الأمراء واستشارهم بهذا الأمر فقال أبو زيد: الرأي عندي أن نكبسهم في الليل من أربع جهات واتفقوا على هذا الرأي ثم فرقوا العساكر. فأبو زيد مع بني زحلان من الشرق ودياب مع بني زغبي من الغرب وحسن مع بني دريد من الشمال والقاضي بدير مع بني عامر من الجنوب وزيدان يمسك عليهم الطريق حتى لا ينجو منهم أحد ثم إنهم تفرقوا وكبسوا أعداءهم في ظلام الليل، وفتكوا فيهم فتك الذئاب في الغنم؛ لأنهم كانوا غافلين وما هم حاسبين هذا الحساب فنهضوا طالبين القتال وكان أبو زيد يجول في ساحة الميدان ويمدد الفرسان وإذ التقى بالملك صادم فتجاول معه ساعة من الزمن حتى تمكن أبو زيد من خصمه وضربه ضربة شقه نصفين وكان دياب قد التقى بالملك عنان، وقد رجح عليه وطعنه بالرمح في صدره خرج يلمع من ظهره ولم تستطع عساكرهم الثبات فولوا هاربين وتبعتهم بنو هلال وقد أخلوا منهم الديار ثم رجعت بنو هلال كاسبين غانمين يهنئون بعضهم بالنصر وبالغنائم وجدوا المسير إلى أن اقتربوا من بلاد نجد فرأوا الهوادج والعبيد يسحبونها وفيها النساء والأطفال ومن ورائهم الخيول والفرسان وعليا تصيح أين أبو زيد وبدر النعام، والست ريما وعدلا وزين الدار كن يصرخن أين الشباب والفرسان يخلصوننا من الذل والهوان وذلك أن الغطريف وزير الملك

صادم أقسم أنه لا يبقي من بني هلال لا كبير ولا صغير وهجم على أحياء بني هلال وبطش بهم وأسر نساءهم. ولما رأى أمراء بني هلال هذه الأعمال قتلوا العبيد وخلصوا النسوان وكان جيش الوزير متأخراً يجمع الأموال والغنائم وقد وصلت إليهم بنو هلال فنزلوا عليهم بضربات تهد الجبال وقد زغردت النساء والبنات وزادت الفرحات وقد انكسرت عساكر الغطريف شر كسرة فقد حملت عليهم عساكر دياب وعساكر بني زحلان وقوات الأمير زيدان والأمير محمود والأمير درغام. واشتبك ضرب السيف بطعن السنان وهلكت الأبطال ومات في ذلك اليوم خلق كثير لا يحصى لهم عدد وبينما أبو زيد يجول في الميدان التقى بالوزير الغطريف يفتك بفرسان بني هلال وهو ثابت في القتال ويصيح بعساكره خذوهم على أسنة الرماح، فهجم عليه أبو زيد وتقاتل معه قتالاً مريراً فما نال منه ما يريد وحملت الرجلة على الرجال وما زال الدم يبذل ونار الحرب تشتعل حتى تضايقت بنو هلال وقاست الأهوال فجعل السلطان حسن يحثهم على القتال بهذه الأبيات:

يقف الفتى حسن الهلالي أبو علي وسيفي يبري رقاب العدا والجماجم
تأسفت على الأبطال وما جرى لهم خلاهم الغطريف يولوا هزايم
يغير على الفرسان يولوا شرايد فأين شباب هلال أهل العزايم
عتبي على أبو زيد حامي ظعونها كأنه ولد في سريره نايم

فانطبقت الرجال على الرجال وبذلت بنو هلال الجهود وأظهرت كل شجاعتها وبسالتها وقاتلت قتال الجبابرة، وأما أبو زيد فأثر فيه توبيخ حسن له فقاتل وناضل ودافع وكافح مع بني زحلان وكذلك دياب مع بني زغبي فإنهم فتكوا بالأعداء فتك الذئاب بالغنم وكذلك الأمير محمود وهو يصيح لعينيك يا نجمة السحور والتقى درغام بالغطريف فحمل عليه بضربات تهد الجبال الراسيات وسنحت الفرصة لمحمود فطعن الغطريف في صدره طلع الرمح يلمع من ظهره وكمل عليه دياب قطعه نصفين، وللّه درّ الأمير حسن وعرندس وعقل وجبر وعكرمة فإنهم قتلوا من عساكر الغطريف المئات والألوف وأجبروهم على الفرار وشتتوهم في البراري والقفار. ولما تم الانتصار لبني هلال هنأوا النعمان وأجلسوه ملكاً على بلاد سعدا ومسعود وفرضوا عليه الجزية كل عام ثم رجع بنو هلال إلى أوطانهم وفرقوا جميع المكاسب والغنائم وأقاموا الأفراح والليالي الملاح بتتميم عرس محمود على نجمة السحور وبزفاف سميا بنت السلطان حسن على عكرمة ابن أبي زيد، فأمر السلطان حسن بنصب صيوان من الحرير الأخضر محبوك باللؤلؤ

والمرجان الأحمر مرفوع على عواميد من الذهب الأصفر وأحضروا الست سميا مزينة بالملابس الفاخرة ومعطرة بالروائح الزكية وأحضروا نجمة السحور بجمال تخجل منه البدور، وأحضروا العريسين إلى ذلك الصيوان وأجلسوهما وجلس معهما الأمراء والسادات وذبحوا النوق والأغنام وحضر زيد العجاج وزيد بن شرهان والقاضي بدير وحضر جميع بني هلال ضيافة الأمير أبي زيد والأمير دياب وحضر الماضي بن مقرب والملك صادر ملك بلاد النعام وما زالوا في فرح وسرور ورقص وغناء مدة عشرة أيام، وقد نحر الأمير أبو زيد ودياب خمسة آلاف من الفصلان وسبعة آلاف من رؤوس الأغنام وكان جمهور من الشباب يلعبون في الدبكة على نغم الدربكة وهم يترنمون بهذه الأبيات:

ميجانا عا الميجانا عا الميجانا يا ظريف الطول يا عيوني أنا
شفت أنا الريم عالبسطه يبيع بين الحاجب والغرة نبت الربيع
يا حبيبي إنني عندك وقيع حطني بجيبك بدال المحرمة
ميجانا يا ميجانا يا ميجانا يا ورد مفتح جوات دارنا
يا ظريف الطول وقف تا قلك رايح الغربة بلادك أحسن لك
خايف يا محبوب تروح وتتملك تعاشر الغير وتسلاني أنا
ميجانا يا ميجانا يا ميجانا ديري خدك لتذوق طعم الهنا

ثم تقدمت الجازية أم محمد مع البنات وبدأت ترقص وتغني:

هلا بالورد يا يما هلابا تعي وحدك ولا تجيبي حدابا
فيا اللّه منها غصن بان لها ألحاظ سببت الخرابا
سبت عقلي بجيدكما للجين حلا تذهيبه بدموع عيني
وعقل مثل أوصاف الأمين لقد فانت دراريه النجابا
هلا بالورد يا يما هلابا ودمع العين جاري كالسحابا
غرست الحب منكم في فؤادي فلم يثمر سوى ذاك البعاد
وأنتم كيف ما كنتم مرادي على الحالين وصلا واجتنابا

وما زالوا في هناء وسرور وغبطة وحبور مدة أربعين يوماً وبعد نهاية العرس أتتهم التحف والهدايا من جميع الجهات، ثم طلب الضيوف الإذن من السلطان حسن بالسفر وسافروا إلى بلادهم وبعد ذهاب الضيوف اجتمع الأمراء عند السلطان حسن وهنأوا الأمير عكرمة والأمير محمود بكل فرح وسرور.

قصة الملك الزحلان

(قال الراوي) بعد أن تم الفرح بزواج عكرمة بعروسه سميا بنت السلطان حسن وزواج محمود بنجمة السحور استراح بنو هلال من الحروب والقتال مدة من الزمان، وكانوا يجبون أموال الجزية من كل البلاد التي تكون تحت حكمهم وقد أرسل السلطان حسن الجباة إلى الأمير نمر ابن الملك خطاف ليحصلوا منه على ما استحق عليه من المال، وكان الأمير نمر قد اتفق مع وزيره والأمراء في الديوان أن يمتنع عن دفع الأموال إلى بني هلال؛ لأنهم أخذوا أخته الست عدلا وقتلوا أبا نمر أما نمر فسافر إلى خاله الملك الزحلان فاستقبله بالبشاشة والإكرام ثم سأله عن أموره وأحواله، فقال له: غزانا قوم من نجد بقيادة أبي زيد ودياب وزيدان وقامت الحرب بيننا وبينهم وحصلت مذبحة فينا تشيب الأطفال وقتلوا والدي وسبوا شقيقتي عدلا فغرت عليهم في حصاني لأنتقم لوالدي فألقوا القبض عليّ والآن مرادهم أن يأخذوا الجزية ويعتدوا علينا ويقع بيننا حرب لا تبقي ولا تذر فهل تساعدنا يا خالي بجنود وأبطال تحارب معنا لعلنا ننتصر على بني هلال. فلما سمع خاله الزحلان منه هذا الكلام تأثر جداً وقال: كيف يجري هذا ولم تعلموني؟ كأني لا قيمة لي أو كأني من جملة الأموات ثم قال له: كن مرتاح البال فسوف ترى ما أفعل بهؤلاء الأنذال لأن حديثك كدرني في غاية الكدر والرأي عندي أن تذهب إليهم على سبيل الزيارة وعند رجوعك أحضر معك الأمير زيدان فتأتي معه الشباب وأنا على الباقي فأسرع نمر الغدار بالسفر إلى بني هلال، فلما وصل استقبلوه باحتفال مهيب فشكرهم على حسن استقبالهم له ثم دخل إلى الديوان وقبل يد السلطان حسن ودعا له بالنصر ثم توجه نمر الغدار مع زيدان لأنه ضاف عنده وأتت أخته عدلا وسلمت عليه وأقام نمر عند بني هلال مقدار شهر وهو في عز وأمان وبعد ذلك عول على السفر، فأمر السلطان حسن أن يركب عدد غفير من العسكر ليودعوه فشكره على هذا الاهتمام وعند ذلك أمر السلطان حسن بأن يودع الأمير نمر بالأبطال والفرسان فطلع معه زيدان وباقي الرجال مدة عشرة أيام فوصلوا إلى أرض نمر الغدار وأرادوا الرجوع فحلف عليهم أن يسيروا معه إلى الوطن فساروا معه ونالوا خيراً بالضيافة عنده.

بعد ذلك ودعوه وعادوا قاصدين الأوطان فوصلوا إلى أرض صعبة المسالك وإذ طلع عليهم عسكر جرار وهم ينادون أين تغدون يا بني هلال من الموت فصاح زيدان بقومه قائلاً: دونكم وهؤلاء الكلاب فأنتم أبطال بني هلال قد تعودتم على الحرب والقتال، ثم إنهم ارتدوا عليهم بالسيوف والرماح فوقع بينهم الحرب وكثر الفنا وتطايرت الرؤوس وجرى الدم فللّه در بني هلال كم قتلوا من الأعداء الأنذال وباتوا تلك الليلة على وجه الرمال بأوشم حال وفي ظلام الليل قسم زيدان رجاله أربع فرق، وكبسوا العدو من أربع جهات وعلا الصراخ من كل مكان فانذعر الأعداء وضاقت بهم الأحوال وأخذوا يضربون بعضهم تحت غسق الظلام ظانين أنهم يضربون الأخصام ثم تركوهم وساروا على غير طريق ولما أشرق الصباح لم يروا أحداً من بني هلال فلحقوهم على الآثار فأدركوهم وكان بنو هلال قد ارتاحوا. فعند ذلك ارتدوا عليهم وداموا في حرب وصدام فضاق المجال على بني هلال فكتب زيدان كتاباً للسلطان حسن طلب منه أن يمده بالأبطال والفرسان وأرسله مع غلامه مفتاح. أما السلطان حسن وبنو هلال فإنهم قلقوا على زيدان ومن معه من الفرسان لطول غيبتهم عن الوطن وإذ دخل الديوان مفتاح وسلمهم الكتاب وهو يبكي ويندب زيدان ومن معه فركبت الفرسان في الحال. أما عساكر الزحلان فتكاثرت على بني هلال ونزل هداد بن الزحلان إلى الميدان فنزل إليه زيدان وانصب عليه انصباب السباع وتحاربا إلى المساء دقت طبول الانفصال، وفي الصباح ركبوا الخيول واصطفت العساكر فنزل زيدان إلى الميدان فنزل إليه هداد فانطبق عليه زيدان وطعنه بالرمح جرحه فوقع على الأرض فانقضت عساكر الزحلان على زيدان وانطبقت الرجال على الرجال وجرى الدم وسال، فكان عجاج وعقل بن هولا يحمون ظهر زيدان وهو ينثر الرؤوس عن الأبدان وكان هداد وأخوه شعلان ينخون عساكر صخر بن علقم لأنهم من الأبطال الأشداء وبرز هداد إلى الميدان فنزل إليه عكرمة وصار بينهما قتال مرير، أما هداد فأصابت ضربته حصان عكرمة فقتلته ووقع عكرمة على الرمال وهجم قومه فاختطفوه في الحال وقدموا له جواداً فركبه وانحمق من هداد وطعنه بالرمح صابه في زنده وجرحه. وهجمت الأبطال على الأبطال وجرى الدم وسال وقد هلك كثير من رجال الزحلان وقلت رجال زيدان. وفي الصباح نزل هداد إلى الميدان فنزل إليه زيدان ورماه عن الحصان فأدركه شعلان وانتشله من الميدان ورجع به ثم عادوا إلى القتال والتقى عجاج بهداد وضربه بسيفه البتار أطاح رأسه على الرمال، فنزل شعلان إلى الميدان ليأخذ بثأر أخيه هداد فالتقاه عقل بن هولا وتقاتلا إلى المساء وكان الملك الزحلان

أرسل جيوشاً أخرى فانطبقوا على بني هلال مثل الوحوش الكاسرة وقتلوا منهم عدة أبطال وفي الصباح برز زيدان إلى الميدان فنزل إليه شهران بن بهران وضرب زيدان بعامود من البولاد فقتل جواده ووقع زيدان على الأرض فتراكضت إليه الفرسان وخلصوه من الموت وكان شهران يضرب الرجال بالعامود ويرميهم على الرمال فغار عليه ابن هولا وضربه بسيفه البتار أطار رأسه عن بدنه وأخذ منه العامود وانقض على الأعداء فأبلاهم بالمصائب وكان لشهران ابن عم يقال له قرضاب مركوبه الأفيال وسلاحه عامود من البولاد فنزل بين الصفين ثم غار على زيدان ولم يقدر على الثبات وهجمت بنو هلال على قرضاب ورشقوه بالحراب فما نالوا المنال، وأخذ يفرقهم يميناً وشمالاً وخسر بنو هلال خسارة عظيمة وباتوا في ذل وخوف من الدمار وقالوا: لقد تأخرت عنا جيوش السلطان حسن وأبي زيد ودياب، فإن لم يدركونا هلكنا كلنا ولما أشرق الصباح تجدد الحرب والكفاح والتقى زيدان بقرضاب فكان قرضاب أبرع وأقوى من زيدان فضربه بعامود البولاد رماه على المهاد، فخلصه بنو هلال وكان عقل بن هولا يعارك شعلان بن الزحلان فقوي عليه وشده كتاف وقوي منه السواعد والأطراف وأسره وما زال الحرب يعمل والرجال تقتل والعساكر تأتي من عند الزحلان بقيادة ملاطم وأرجوان قائلين: غداً نقتل بني هلال ونذهب إلى نجد نخرب الديار ونسبي النساء، ثم جددوا الحرب والكفاح فبرز زيدان إلى الميدان فنزل إليه قرضاب فالتقاه زيدان وأنشأ يقول:

يقول الفتى زيدان قهار العدا ... النار في قلبي يزيد شرارها
نحنا رجال هلال في يوم اللقا ... سباع الكواسر هابين غبارها
كم فارساً من حربنا فوق الثرى ... هداد مع شعلان ذاقوا مرارها
واليوم مثلهم تغدو مائتاً ... قوتاً لوحش الفلا وأطيارها

ثم تعاركا وتضاربا بالسيوف وتطاعنا بالرماح فخاف بنو هلال على زيدان فصاحوا يشجعونه على قتل خصمه قائلين له: إنه جبان، فثارت في رأسه نخوة الأبطال وضرب قرضاب طير رأسه إلى السحاب ثم سمعوا صوت دياب يقول: أبشروا يا بني هلال فقد أتتكم الأبطال ومال على العدا وسقاهم كأس الردى وكان قد وصل السلطان حسن وأبو زيد وبقية الأمراء وهجموا على الأعداء وكسروهم شر كسرة، وهنأوا زيدان على الثبات وطول الحياة ونزل دياب إلى الميدان وكان أرجوان قد جمع العساكر وأتته النجدات من الزحلان فنزل إلى دياب فمد يده دياب وأراد أن يقلعه من بحر السرج فكان ثقيلاً كالصخر ومد أرجوان يده وقبض دياب ودياب قابض عليه وتصارعا مصارعة الصناديد ثم سقطا معاً على الأرض وأخذا في

الملاكمة وكان الوزير أرجوان قد تعب وضعف عزمه، وانحل فصاح بالأعجام عليهم أيها الأبطال فلطمه دياب على رأسه وكانت وصلت إليه الفوارس فتركه دياب واعتلى على الخضرا بسرعة ورجع من الميدان وبات بنو هلال في عز وانتصار. أما أبو زيد فدخل بالليل بين عساكر الأعجام وفي الصباح نزل إلى الميدان فنزل إليه عكرمة فطعنه أبو زيد في كعب السنان قلبه عن الحصان فنزل عقل بن هولا فغلبه أبو زيد وكتفه وصار يأسر من بني هلال ويعطيهم إلى الهنود ويقول لهم: لا تقتلوهم بل اربطوهم بالحبال. فنزل دياب إلى أبي زيد وأخذ معه في العراك والصدام ورشق الرماح فحيرا الأبطال بالمعارك والقتال ثم نزلا عن الخيل يتصارعان مثل الأسود، فعند ذلك دقت طبول الانفصال وحضر أبو زيد أمام الوزير أرجوان فقال له: من أي طائفة أنت من الأعجام؟ فقال له: أنا من الدخان أتيت أنا وأولادي العشرة لنأخذ من بني هلال بالثأر فلما سمع الوزير كلامه شكره على اهتمامه وقال له: سأقدمك على العساكر وتكون أنت القائد الآمر وقدم له درعاً من البولاد وسيفاً يبري الأجساد وقدم لأولاده العشرة، وقال له: قد وكلتك فافعل ما تريد فأخذ مرداح يرتب العساكر إلى فرق وأقام أولاده قادة عليهم ووصاهم بالصبر والجلاد وأن لا ينزل أحد إلى الميدان سوى الذي أشير إليه بالسنان. وعند الصباح برز مرداح فصال وجال فبرز إليه عجاج فأسره مرداح بقوة السلاح وبرز إليه زيدان فتقاتلا بالسيوف وتطاعنا بالرماح إلى المساء فافترقا على سلام وكان أبو زيد (مرداح) قد أرسل إلى السلطان حسن أن يرسل العساكر ويضعها في طريق الأعجام ويضربوا كل العساكر التي تأتي من هناك لنجدة الوزير أرجوان ففعلوا ذلك أما أبو زيد صاحب الكر والكيد فإنه اجتمع بالوزير وتفاوض معه بشأن هذه الحرب واتفقا على تقسيم العساكر إلى فرقتين فرقة تحت قيادة الوزير أرجوان وفرقة بقيادة مرداح وأن يجعلوا بني هلال في الوسط ويبيدهم عن آخرهم وأعلم أبو زيد بني هلال سراً بما تم عليه من الاتفاق. وسار أبو زيد بعساكره إلى الوادي فانطبقت عليهم بنو هلال وارتفعت الأصوات ودارت على قوم مرداح الدائرة وما نجا منهم إلا من استطاع الهرب وأخبروا الوزير أرجوان أن مرداح هو أبو زيد وهو الذي دبر هذه المكيدة. أما أبو زيد فرجع إلى بني هلال فوجدهم في حرب مع أرجوان فشهر الحسام على عساكر أرجوان واستظهرت بنو هلال على الأعجام ورأى الوزير نفسه ذليلاً منهاراً، فأيقن بقرب الهلاك وقال: إن أبا زيد أهلك أبطالنا وصرنا ضعفاء فإذا لم ترد لنا النجدات من الملك الزحلان هلكنا جميعاً في هذه الفلوات، أما الملك الزحلان فإنه لما طلب من وزيره أن يمده بالعساكر جمع عدداً غفيراً بإشراف قادة

دهاة فركبوا الخيول والأفيال وساروا قاصدين مواقع الحرب والطعان ثم استنجد الملك الزحلان بالدعاس وزير الملك الغضبان وبعبده لأنهما من الأبطال وكان عراف التقى بقوم زيدان وصاح بهم لقد وقعتم في يدي أيها الأنذال، وهجم عراف على زيدان وضربه بالحسام فخلا عنها فراحت خائبة وضربه زيدان على هامه ألقى رأسه قدامه وصاح زيدان بقومه استعدوا للحرب واهجموا هجمات الأسود والموت بعز خير من الحياة بالذل، فقالوا: إن أرواحنا فدى لبلادنا وأهالينا وهجمت العساكر على العساكر واشتغل السيف والرمح في الأجساد وفيما هم في أشد القتال أقبل الوزير دعاس مع عساكره فوجد أن عساكر الزحلان محصورة ومغلوبة على أمرها، فأمر عساكره بالهجوم فغاروا على بني هلال فاستقبلوهم بجز الرؤوس وقطع الأعناق وقتل من الفريقين عساكر لا تحصى.

وفي المساء افترقوا عن بعضهم وبات دعاس مكموداً متأسفاً على مصرع عراف أما دياب وأبو زيد فإنهم ظلوا يحاربون أرجوان حتى انتصروا وكسروا عساكر أرجوان أشد انكسار وغنم منهم بنو هلال ذخائر وعدداً وخيولاً ورجعوا إلى الأمير حسن، فشكرهم وقال لهم: يجب أن نسير إلى زيدان فساروا قاصدين زيدان وسبقهم أبو زيد وبرفقته عشرة آلاف من الفرسان، أما الوزير أرجوان فالتقى بدعاس فأخبره بما جرى عليه من بني هلال وكيف أنهم قتلوا الأبطال وما بقي من عسكره إلا القليل فتأسف الوزير دعاس وصمم على أن يبيد بني هلال ويقتل زيدان ومن معه من الأبطال والفرسان ونزل إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان فنزل إليه عجاج وتضاربا بالسيوف والنبال، واختلفت بينهما ضربتان قاتلتان كان السابق دعاس فأصابت الضربة رأس الجواد فوقع عجاج على الأرض فنزل إليه دعاس وكتفه، وهجم عليه زيد بن شرهان ليخلص عجاج وضربه بالسيف فخلا عنها وغار على زيد بن شهران وكتفه بعدما اقتلعه من ظهر الجواد. فعند ذلك انطبق الرجال على الرجال وكانت وقعة من شر المعارك على بني هلال والتقى دعاس بزيدان فاستقبله بطعنة من الرمح خرقت الزرد ووصلت إلى الجسد فحس بالألم وطار من عينيه الشرر وانصب على زيدان كالقضاء النازل وكان بينهما ساعة ترعب الفرسان والشجعان. وكان الوزير أرجوان يضرب في بني هلال ويجندل الفرسان على الرمال. وفي المساء افترقت الجيوش عن بعضها وبات زيدان بالذل والهوان ولكنه لم ييأس وصاح بقومه اثبتوا يا شباب في القتال ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم صادقين وفي الصباح تسابقت الفرسان إلى الحرب والطعان وأحاطت قوات الملك الزحلان ببني هلال فخافوا على أنفسهم وأرادوا أن يهربوا فما وجدوا لهم

طريقاً ينفذون منه فضاق بهم الحال وأيقنوا بالهلال وطلبوا الفرج من القادر الجبار إله الناس، وشددوا عزائمهم وقاتلوا قتال المستميت وثبتوا في الميدان إلى نصف النهار، وكانت قد وصلت بنو هلال الكرام فبدأوا يجزون الرقاب ويطعنون الصدور فأذاقوا الأعداء الذل والنكال وخلصوا العجاج وزيد بن شرهان من الأسر. أما الذين انهزموا من عساكر الوزير أرجوان فإنهم وصلوا إلى الزحلان ونعوا إليه مصرع ولده هداد وأسر شملان وهلاك الفرسان، فقام وقعد وأرغى وأزبد وقال: أنا أحكم على عشر كرات من الفرسان تقهرني طائفة قليلة من بني هلال وتقتل ولدي وفي الحال لبس درعاً ثقيلاً وتقلد بسيف صقيل ورمح طويل وحمل معه قوساً ونشاباً وحراباً وركب جواده الأشهب وركب معه عدد غفير من الفرسان وخفقت فوقه الرايات وكان له غلام اسمه ظهران لم تقهره الأبطال، فقال له: اسبقني بعشرة آلاف من رجالك واضربوا بني هلال الضربة القاضية. أما الوزير دعاس والوزير أرجوان فإنهما لما وصلت إليهما قوات بني هلال خففا الضغط عن الأمير زيدان وقاتل أبو زيد قتالاً أشد وكان قد أقبل عليهم دياب والأمير حسن وبنو هلال والتقى دياب بالوزير أرجوان فأنشد دياب يقول:

يقول أبو وطفا الفتى الوثاب أنا الأمير دياب حذاف الرقاب
لا بد ما أفني جميع رجالكم وأقطع لرأسك من قبل الغياب

ثم إنه غار على أرجوان وطعنه بالسنان أرداه قتيلاً ثم انطبقت العساكر على بعضها وقام الحرب على قدم وساق، فخسرت الأعجام وولوا الأدبار والتقى أبو زيد بالوزير دعاس وأخذا في المعارك والصدام ودز الرمح وضرب الحسام وظلا في قتال إلى المساء. دقت طبول الانفصال فافترقوا عن بعضهم إلى الصباح وعادوا للحرب والكفاح فخسرت الأعجام أكثر جنودها فانغبن دعاس ونزل إلى الميدان وصاح أبرزوا فارس لفارس واتركوا العساكر الباقية تأخذ راحتها فنزل إليه أبو زيد وهدده بقوله:

يقول أبو زيد الهلالي سلامة لي قلب أقسى من حد القواضب
أكر على الأعدا إذا قام سوقها أخلي الدم عالثرى دوم ساكب
ولا بد هذا اليوم تبقى في هفا تموت وما يدري فيك صاحب
وعدلا أخذناها لنحو بلادنا ومن أجلها كانت رجالي تحارب
وخنتم بنا لا بد نهلك جموعكم عليكم تنوح الأهل ثم النوادب

ثم إنه هجم على الوزير مثل الأسد والتقى البطلان كأنهما جبلان ولما

تقطعت بينهما السيوف وتكسرت الرماح تكامشا بالأيدي فتقابضا على ظهور الخيل، حتى قل منهما الحيل فوقعا على الأرض وهما متقابضان. ولما دقت طبول الانفصال افترقا على سلام. وفي الصباح تجدد الكفاح فنزل أبو زيد للميدان فنزل إليه دعاس فاستقبله أبو زيد بضرب السيف على هامه أطاح رأسه قدامه وعند ذلك هجمت الأبطال على الأبطال والفرسان على الفرسان وجرى الدم وسال وحل في عساكر العجم الدمار. أما دياب فركب بالليل مع أخيه زيدان وبني زغبي الشجعان وساروا قاصدين الزحلان؛ لأنه أتاهم خبر أن الزحلان أرسل ظهران بعشرة آلاف فارس ليقضوا على بني هلال فالتقوا بهم بسهل واسع فنزل ظهران إلى ساحة الميدان وعليه درع لا تعمل فيه السيوف فطلب مبارزة الفرسان فنزل إليه فارس فقبضه ظهران وقذفه في الجو فصار يبرم في الهواء كالدولاب. فلما رآه دياب أسرع إليه واستلقاه على ظهر الخضرا وأخرجه من الميدان وأركبه جواده وارتد إلى ظهران وأخذ معه في الحرب والقتال فأراد أن يقبض على دياب ويرميه في السحاب ومد يديه ليقبض عليه فضربه دياب بالحسام على صدره فوقعت الضربة على درع البولاد فلم يبلغ منه المراد، ثم إنه طعنه بالسنان فانكسر الرمح فحينئذ رمى نفسه عليه وتكمش به ليرميه على الأرض فوقعا معاً وأخذا بالمصارعة أمام الفرسان وخاف بنو هلال على دياب وكان زيدان قد رجع إلى وعيه فأمر الفرسان بالهجوم على الأعداء فغاروا عليهم وقام ضرب السيوف وطارت الرؤوس عن الأبدان ووقعت الأعجام في الذل والخسران فقتل أكثرهم وهرب الباقون، وكان الأمير دياب في العراك مع ظهران وقد وصل الملك الزحلان بجيوشه ورد بني هلال عن الأعجام وفي المساء افترق دياب عن ظهران وابتعدت العساكر عن بعضها، أما ظهران فقد واجه الملك الزحلان فسأله عن بني هلال فقال له: أقبلت للميدان فجاءني زيدان فتحاربت معه ساعة من الزمان ثم قبضت عليه واقتلعته من على ظهر الحصان ورميته على الرمال فأقبل رفيقه راكباً على خضرا تسبق هبوب الريح. تحاربت أنا وإياه ساعة أغلبه وساعة يغلبني حتى ضاقت نفوسنا إلى المساء افترقنا عن بعضنا ولكنهم أبطال وعندهم صبر وجلد على القتال فقد قتلوا أولادك والوزير أرجوان والوزير دعاس وجندلوا الأبطال، فلما سمع هذا الكلام حلف أن يبيد بني هلال وما يخلي منهم إنساناً. أما أبو زيد والسلطان حسن فقد هجموا على الأعجام وشتتوهم في البراري وكسبوا منهم ذخائر كثيرة وتبعوا دياب في تلك الشعاب وأقبل عليهم صادر من بلاد النعام ومعه الأبطال فسلم عليهم سلام الاشتياق، وكان يدفع الجزية والخراج لبني هلال ويمدهم بالجنود؛ لأن بني هلال ساعدوه في حربه مع صور بن زرد كذلك

أتى الزحلان، وساعد بني هلال على قتال الزحلان أما ظهران فنزل إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان فبرز إليه الأمير زيدان وقلبه ملآن من الغيظ على ظهران فضربه بعود الزان أصابه في كتفه ووقع على الأرض والرمح مشكوك فيه فهجم ابن عمه كاسر العدا ليخلصه فخاف دياب أن يبقى ظهران حياً فأسرع وجز رأسه بالحسام فصاح كاسر الرجال بالهجوم على الأعداء وانطبق على بني هلال وردهم إلى الوراء. أما دياب فأخذ درع ظهران ولبسه وغار على الأعداء كالأسد وجعل القتلى تلول تلول حتى وصل إلى الأمير زيدان ففرق عنه الصفوف عند ذلك نزل الزحلان إلى الميدان وغار على الأمير دياب من الوراء وأخذه أسيراً وقاده ذليلاً حقيراً، وقال له: اليوم آخر أيامك وسلمه إلى رجاله ورجع إلى المعركة يجز الرؤوس عن الأبدان وأقبلت عساكر صادر مع بني هلال وبذلك انفرجت بنو زغبي والشباب وأخذوا يفتكون بالأعداء فتك الذئاب بالغنم واحتدمت المعارك بشدة إلى المساء افترقوا عند اشتداد الظلام فسأل أبو زيد أين دياب؟ فأخبروه أنه أسير مع مائة من الأمراء والفرسان، فاحمرت عيناه وصاح كيف جرى هذا المصاب ثم إنه أحضر عقل بن هولا وعشرة من الصناديد وصبغهم بلون العبيد وألبسهم لبس الأعاجم وسار بهم في الظلام حتى قربوا من عساكر الأعداء فأعطى كل واحد منهم قضباناً من البنج وسار كل واحد منهم في فرق من الفرق ودخلوا بين الأعجام، فجال أبو زيد وجماعته بين عساكر الزحلان وهم يظنون أنهم من الأصدقاء ومشوا إلى السجن في شدة الظلام فبنج أبو زيد الحراس، وفك دياب ومن معه من القيود والتقى أبو زيد بنمر الغدار فقتله وأخذ منه الدرع وألبسه إلى دياب ثم قتل كاسر العدا وأخذ درعه ورجعوا إلى الخيام فشكره دياب، وفرحت بنو هلال بخلاصهم من الأسر. ولما عرف الزحلان بأعمال أبي زيد تكدر وتنغص عيشه وتمرمر وبكى على ابن أخته نمر الغدار وعلى كاسر العدا ولما أشرق الصباح نزل الزحلان إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان فنزل إليه السلطان حسن وكان من الجبابرة العظام الذين تعودوا ضرب الحسام وأنشد يقول:

يقول الفتى حسن الهلالي ... الحرب والندى من الولايم
لا بد ما أسقيك كأس الردى ... يبقى دمك على الثرى عايم
نحنا تعودنا على ذر القنا ... سيوفنا تبري رقاب وجماجم
أيام سعدك أبوابها أقفلت ... والنحس أتاك وصار لازم

فانطبق عليه الزحلان بدون كلام وتعاركا وتقاتلا حتى كلت منهما الزنود فأشار حسن إلى قومه بالهجوم فانحدفت عساكر بني هلال على عساكر الأعجام

وأذاقوهم كأس الحمام وتكدست القتلى وغرقت أرجل الخيل بالدماء وهجم الأمير أبو زيد على الزحلان ليساعد السلطان حسناً عليه فترك الزحلان حربه مع السلطان حسن، والتفت إلى أبي زيد وتقاتل معه قتالاً مريراً وكاد يتغلب عليه فلما رآه دياب يرجح على أبي زيد هجم عليه كالأسد الرئبال وضربه بالحسام قطع يده ووقع طرف السيف على أبي زيد فجرحه ووقع على الأرض فتسابقت إليه بنو هلال وسحبوه من الميدان يضمدون جرحه وتأسف دياب لما حصل لأبي زيد وأراد أن يكمل على الزحلان، فلما رآه فقد ولى هارباً والدماء تسيل من زنده المقطوع، أما أبو زيد فكان مغمى عليه فلما أفاق سألهم ماذا جرى فقالوا له: إن دياب خاف عليك من الزحلان فهجم عليه وقطع يده وكنت أنت والزحلان في أشد القتال والالتحام فبعد أن انقطعت يد الزحلان أصابك طرف السيف فجرحك والحمد للَّه على سلامتك.

وفي الصباح انحمق الزحلان من قطع يده ونزل إلى الميدان، فنزل إليه دياب وكلما سدد إليه الضرب يختفي الزحلان ثم يعود ويقاتل دياب ويضربه بالحسام فيحتمي دياب بترس البولاد إلى أن انكسر السيف في يد الزحلان فخاف على نفسه وأراد أن يختفي ويزوغ من دياب فما مكنه بل ضربه بالسيف قطعه هو والجواد عند ذلك هجمت بنو هلال على الأعاجم وذبحوهم كالأغنام عند ذلك صاحوا وطلبوا الأمان وألقوا السلاح فانكفت بنو هلال عن الحرب، واستلموا سلاح الأعاجم وساروا إلى بلاد الزحلان وغنموا الأموال والتحف غالية الأثمان وأرسلوا الأخبار إلى البلاد التي كان يحكمها الزحلان وأجبروهم على الطاعة وأقاموا عليهم ملكاً من بني هلال يحصل لهم الخراج كل عام، ثم رجعوا إلى نجد فاستقبلتهم النساء بالرقص والغناء ثم ودعهم الملك صادر ورجع إلى بلاده بعد أن حملوه هدايا كثيرة وأموالاً غزيرة وعفوه من الخراج ورجعوا إلى ما كانوا عليه من الأفراح وإحياء الليالي الملاح.

قصة طير زيدان

(قال الراوي) بعد أن انتصر بنو هلال على الملك الزحلان وأقاموا الأفراح وأحيوا الليالي الملاح وكانت الأيام أيام عيد، ودار بينهم لعب الجريد وإلا مقبل عليهم خيال اسمه مفلح السقار وعلى يده طير جميل اسمه الأسيري فتقدم إلى زيدان وسلم عليه وقال له: إن الأمير همام حاكم بلاد الشيخ والأرض البيضاء أرسل لك هذه الهدية، فأخذ زيدان منه الطير فرآه من أحسن الطيور وريشه ملون بأحسن الألوان ففرح به زيدان غاية الفرح وفرق الخلع على الشباب وأعطى مفلح السقار عشرة رؤوس من الخيل الجياد ومائة ناقة لأجل الأمير همام الذي أهداه الطير، فأخذ مفلح الهدايا وعاد إلى بلاده وصار زيدان يركب كل يوم للصيد والقنص ويصيد كثيراً من الطيور والحجلان والغزلان بواسطة هذا الطير وفي يوم من الأيام وهم سائرون في البر رأوا ناقة شاردة، فأرسل زيدان طيره خلفها وغارت الخيول وراءه فلما وصلوا إليه وجدوه قد ذبح الناقة من الوريد إلى الوريد فتعجبوا من عمل الطير الغري وبعد أيام خرج زيدان إلى الصيد ومعه مئتان من الشباب فرأوا سرباً من الغزلان فأطلق زيدان الطير على الغزلان ثم أطلقوا الخيل وراءه وفتشوا عليه فما وجدوا له أثراً فانقهر زيدان عليه وكأن صاعقة من السماء نزلت عليه وأقسم أنه لا يعود إلى نجد حتى يجد الطير المكنى بالأسيري، وظلوا يفتشون عليه مدة أربعة أيام في كل مكان فما رأوه ولا سمعوا عنه أي خبر عند ذلك أخبروا زيدان على الرجوع إلى الأوطان فقالا: لا حول ولا قوة إلا باللَّه ورجعوا إلى نجد وبقي زيدان لا يأكل ولا يشرب. فقال له السلطان حسن: كف عن الزعل يا زيدان والدنيا مليانة طيور فاقتنِ غيره وتسلَّ به ولعل اللَّه سبحانه وتعالى يرد عليك طيرك فقال زيدان: لقد تولعت كثيراً بهذا الطير وحزني على فقده كبير وإني مستعد أن أدفع لمن يأتيني به ألف ناقة وأعطيه مهري وما يريد؛ لأنه سلطان الطيور عيونه مثل البرق صياد ماهر وقد ذبح الناقة مثل بني آدم عند ذلك أمر السلطان حسن الأمير دياب ومناع أن يأخذوا معهما الجنود والعساكر ويفتشوا على الطير بكل البلاد ويردون إلى زيدان، فقال دياب لأبي زيد: إني أرى همتك باردة أما تريد السفر معنا؟ قال له: إن الدهر خوان وليست المغامرة محمودة وينبغي على الإنسان أن لا

يقدم على عمل حتى يستشير من هو أعلم منه فقال السلطان حسن: وما هو رأيك يا أبا زيد بهذا الأمر؟ قال أبو زيد: من أين جاء الطير؟ أجاب زيدان من بلاد الشيخ من عند همام وهو من عند منيف حاكم نهر البارود والأرض البيضاء، فقال أبو زيد: ليركب مناع وجبر المزيد ومرشد ومخيبر وحسن وعقل بن هولا ويأخذوا خمسمائة شاب من الذين عليهم الاعتماد ويجدوا السير إلى بلاد همام ولا أحد منهم يذهب إلى منيف بل همام يبعث من يدور عليه في تلك البلاد وأوصيكم أن لا تدخلوا من حدود خيبر وهم أربعة ملوك منهم الملك المشهور حاكم بلاد الشحوط والملك منصور حاكم الجزاير والملك رعد بن حنظل حاكم بلاد خيبر وهؤلاء المذكورين عندهم كرات ألوف من الأبطال، فقال السلطان حسن: لنرسل معهم من يعرف الطرق السليمة ويدلهم عليها حتى لا يذهبوا إلى البلاد التي قلت عنها فتجري أمور وأحوال نحن في غنى عنها، فتقدم بدر بن غانم وعقل بن هولا وقالا: نحن نذهب معهم فشكرتهم الأمراء وركبوا على الخيل فراح زيدان يكتب إلى همام عن الطير وختم الكتاب بهذا القصيد:

قال زيدان ابن غانم في مقام ... نار قلبي بالحشا زادت شعال
ضاع مني الطير مدري أين راح ... بحثت عنه في الفيافي والقفار
أريني جودك يا زين الملاح ... في رجوع الطير من فوق التلال

ثم طوى الكتاب وأرسله إلى الهمام مع بدر إلى الديوان نهض همام قائماً واستقبله استقبالاً لائقاً وأجلسه على يمينه وتقدم غلام زيدان وأعطى الكتاب لهمام فتأسف على فقدان طير زيدان وأمر بركوب العساكر وبالمسير إلى بلاد منيف، وقال همام إلى بدر: ابقوا أنتم هنا إلى أن أعود إليكم ثم ركب مع جماعته وساروا إلى بلاد منيف ولما وقعت العين على العين سلموا على بعضهم سلام الأحباب إذا كانوا غياباً وأكرمهم غاية الإكرام وأنزلهم في أعز مكان ثم قال همام: لقد أتى إلينا أمير من أمراء بني هلال اسمه بدر بن غانم، وقال: إن الطير الذي أرسلته له فقد منه فقال له منيف: إكراماً لكم سنفتش عليه بأربعة أقاليم الأرض وفي كل البلاد، والآن أنا مشغول البال بخصوص الوزير مبشع أتى إلى بلادنا وطلب ذخيرة وأرسلناها له مع ولدي مبلغ بعد قليل يحضر ولدي ونركب وندور على الطير فقال همام لمنيف: بارك اللّه فيكم وأقبل مبلغ وسلم على همام ومن معه ثم سأله والده منيف عن الوزير مبشع وعن مقدرته فقال: إنه سلطان ودولته عظيمة وعنده طير ليس له نظير سمعت أن غلامنا عنقا لقطه من البرية وأعطاه للوزير مبشع، فقال منيف: إن الطير الذي ذكرته هو سبب مجيء همام لزيارتنا وهو طير زيدان قد ضاع

منه منذ أيام فعلينا أن نطلبه منه بالمعروف فإن أبى نخبر بني هلال وسار منيف ومعه مئة فارس إلى الوزير مبشع فترحب بهم فقال له همام: إن الطير الذي أتى به غلامنا عنقا هو طير حسن سلطان بني هلال الذين فتحوا البلاد وانتصروا على سائر الملوك فالأمل أن ترده لهم فلما سمع مبشع ذلك الكلام قال له: أتخوفني بعساكر بني هلال وسوف أريك ما أفعل بهؤلاء الأنذال ثم ألقى القبض على منيف وابنه مبلغ وعلى همام ووضعهم في السجن وأرسل قومه ليصادروا أرزاق منيف فوصل الخبر إلى الأميرة نجلا فأمرت بالرحيل هي وقومها فلما وصل قوم الوزير ما رأوا لهم أثراً.

أما شباب بني هلال الذين هم مع بدر وهم مناع وعقل بن هولا ومرشد بن دياب ومخيبر بن أبي زيد وحسن المزيدي والشباب البالغ عددهم مائتين فقال لهم مناع: هيا بنا نسير إلى همام؛ لأن غيبته قد طالت فركبوا الخيول ولم يعلموا بدراً وساروا فرأوا في طريقهم نجلا مع حريم منيف فقالت لهم: إن منيف وهمام ومبلغ ذهبوا لعند الوزير مبشع ليأخذوا منه الطير فألقى القبض عليهم وسجنهم، فلما سمع شباب بني هلال ذلك الخبر هاجوا وماجوا وقالوا لها: أبشري بالخبر وبخلاصهم من الأسر والعذاب وأخذ مناع يكتب إلى بدر يعلمه بالأمر الواقع، قال له: إن همام ومنيف ومبلغ ذهبوا ليأخذوا الطير من الوزير فألقى القبض عليهم وسجنهم وهم بأوشم حال ثم أرسل الكتاب إلى بدر فلما قرأه تنغص عيشه فقال له الشباب وجماعة همام: ما الخبر؟ فأخبرهم بما جرى فحينئذ هاج القوم وعلت الضجات، فقال لهم بدر: الخيل يا ركابها والعدا يا طلابها ثم إن بدر أرسل يعلم بني هلال بهذا القصيد:

يقول الفتى بدر الأمين بما جرى ... ونيران قلبي زايدات شعال
أيا غادياً مني على متن ضامر ... إلى حسن سلطان كل هلال
لما ركبنا من حمى نجد يا ملك ... وحزناً قرى سهلها وجبال
وصلنا إلى نزل الأمير همام الفتى ... فعاد يسألنا عن قوم هلال
فقلت طير زيدان ضاع واختفى ... وطلب بلاده يا أمير بالحال
وجانا الرياحي بدر ابن غانم ... قاصد بلادنا وصحبته جهال
يا أمير أبو مبلغ فكن مساعد ... واجمع رجالك بالعجل للنزال
قالوا الطير عند مبشع أميرهم ... فراحوا لعنده يضربوا الأمثال
طلبوا منه طير الهلالي أبو علي ... فحط الوفد في قيود ثقال
وأرسل إلى منيف ليخرب بلاده ... فهربت عياله إلى بين التلال

أبـو زيـد يـا كـاسـب الـبـر والـثـنـا أقـبـل إلـيـنـا بـجـمـلـة الأبـطـال

ثم إن بدر أرسل الكتاب إلى بني هلال فقرأه السلطان حسن على الأمراء ثم إن أبا زيد صاح الخيل يا ركابها وقال دياب: هبوا يا فرسان الوغى وضربت الطبول وصارت العرب تهوج وتموج وركب دياب في بني زغبي ورياح وركب أبو زيد ببني زحلان، وصاح زيدان بالجهال أن يركبوا فقال أبو زيد للقاضي بدير: ابق أنت هنا مع السلطان حسن لحمى الأوطان، ثم إنهم شدوا مائة هودج للنساء ومعهن الجازية ليشجعوا الجنود والعساكر وكتب أبو زيد كتاباً إلى زيد العجاج وزيد بن شرهان أن يسيروا إلى وادي غيلان فلما قرأه زيد العجاج وزيد بن شرهان دقت الطبول وركبت الفرسان وساروا حتى التقوا ببني هلال. أما الأمير مناع وجماعته فأرسلوا كتاباً إلى مبشع وطلبوا منه الطير والذين في السجن فلما قرأ الكتاب، قال للرسول: قل لهم ما عندي جواب غير السيف القرضاب فعاد الرسول وأخبرهم فركبوا جيادهم وأمر الوزير مبشع أخاه صبرة بالركوب فركبت الفرسان وطلبوا ساحة الميدان وبرز صبرة وطلب مبارزة الفرسان فبرز إليه مناع والتقى البطلان كأنهما جبلان وحان عليهما الحين وزعق فوقهما غراب البين، وصاحت الجهال على مناع اليوم يومك يا سبع الرجال فانتخى مناع وقال لخصمه: ما بقي لك خلاص من يدي وهجم صبرة على مناع وأطلق عليه عود الزان فزاغ عنها مناع فراحت خائبة فضربه بالسيف أخذها بترس البولاد فنزلت على رقبة الجواد برتها كما يبري الكاتب القلم، فوقع مناع على الأرض، فغار عليه الشباب وأركبوه جواداً فأراد أن يجدد الصراع مع صبرة لكن سبقه عقل بن هولا وصار بينه وبين صبرة قتال ونضال مدة أربع ساعات فقوي عقل على صبرة وضربه بالسيف على هامه ألقى رأسه قدامه. فلما رآه قومه قتيلاً هربوا وحكوا للمبشع عن مصرع أخيه صبرة فقال لأخيه حداف: أبرز إلى الميدان وخذ بثأر أخيك، فانحدر حداف إلى الميدان فنزل إليه حسن المزيدي وأخذا في الكر والفر وعلت بينهما الصرخات وهاج الشباب وهلهلت البنات وغار حسن المزيدي على حداف وضربه بعود الزان بين البزين خرج يلمع من بين اللوحتين والتقت الرجال بالرجال ووقع بينهم حرب يقصف الأعمار إلى المساء افترقوا عن بعضهم فدفن مبشع أخويه ثم أمر بطلاً يقال له غواص أن ينزل إلى الميدان فنزل وصال وجال فغار عليه مناع وضربه بالحسام فشقه نصفين وما زال مناع يقتل الفرسان حتى قتل خمسين فارساً، ولما رجع من الميدان شكرته الأميرة نجلا وأثنت عليه وثاني الأيام نزل مبشع إلى الميدان فالتقاه الأمير مناع فأشار مبشع يقول:

مـبـشـع قـال مـن قـلـب حـزيـن وزنـدي صـار كـالـصـخـر الـمـتـيـن

بغيتم يا رجال على رجالي قتلتم إخوتي وكذا رجالي
وهمام ابن عامر في حمانا فيا ويل من يبغي لقانا
فسافر بالعسكر إلى بلدكم بحد السيف نمحي خبركم
أتاري الطير غاية طلبكم خسئتم والفنى منكم تدانى
أنا مناع منكس كل عالي رجوت اللَّه أحظى بالأمالي
فقوموا خيبرية يا نذالى لكم مني يميناً في يمين
لأدعي أرضكم يا قوم قفرا ونأخذ للنسا وكل عذرا
ومن حفر إلى إنسان حفرة يقع في بحور الماكرينا

فلما فرغ مناع من كلامه انطبقا على بعضهما البعض مثل السباع الكواسر فانكسرت السيوف وتقصفت الرماح فتكامشا على ظهور الخيل ثم وقعا على الأرض وغارت قوم مناع إلى الميدان وأعطوه جواداً وكذلك الوزير قدموا له جواده، وأشار مبشع لقومه بالهجوم فغاروا على بني هلال وغار مبشع على مناع وضربه بالسيف أخذها بترس البولاد فنزلت على يده جرحته وطمع مبشع في الجهال وهجم عليهم وإذا بخيل أقبلت بقيادة بدر بن غانم الرياحي ووراءه عسكر الأمير همام والشباب فصاح بدر اللَّه أكبر على من طغى وتجبر وقاتلوا قتال الجبابرة حتى أرجعوا الخيبرية إلى الوراء. أما الوزير مبشع فربط منيف وولده على ظهر الجمل وأنزلوهما إلى الميدان وهما مكتفان، وأما نجلا أم مبلغ لما رأت ولدها نزلت وراء الأبطال ومعها عشرون بنتاً فلما رأى مبلغ أمه بكى وأنشد يقول:

يا من عليك الجبر يا سامع الدعا يا من أرجع يوسف إلى يعقوب
أيا غادياً مني خذ لي رسالة إلى نجد العدية قبل غروب
سلم على حسن الهلالي أبو علي وأبو زيد سلامي له محسوب
وأهدي سلامي للشباب جميعهم سلام معطر ومزخرف المكنوب

فلما فرغ مبلغ من كلامه سارت أمه لعند دياب وصاحت بصوت حروبي ورمت نفسها من على الجمل إلى الأرض ولطمت نفسها وحثت بالتراب على وجهها، وصارت تنخي الشباب فتقدم بدر وضرب قائد الجمل وفك مبلغ من على ظهر الجمل وأركبه جواداً وسلمه لأمه وعاد إلى الميدان أبلاهم بالذل والهوان ثم صاح أين الوزير ينزل إلى الحرب والطعن والضرب فانحدر مبشع والتقى البطلان وتقاتلا بالسيوف وتطاعنا بالرماح وهز بدر بيده عود الزان حتى التوى الكعب إلى السنان وأطلقه على الوزير فخرق صدره ونفذ من ظهره، فلما رآه قومه قتيلاً ولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار فتبعتهم عساكر بني هلال وشتتوهم في البراري والقفار ثم

جمعوا الخيل والعدد. أما الأمير همام فقد عمل لهم ضيافة عظيمة ثم أمر بدر بالركوب فقال له منيف: أيها السيد أتقطع ذنب الأفعى وتبقي رأسها وتخلي سبيلها لقد قتلت الوزير ونحن في بلاده، فأين نذهب من رعد بن حنظل لسوف يأتي إلينا يقتلنا ويسبي نساءنا وينهب أموالنا فقال بدر للعساكر: خذوا راحتكم الآن حتى تضع الحرب أوزارها، أما الذين انهزموا من القتال فوصلوا لعند الملك رعد بن حنظل وأخبروه عن مصرع الوزير فصاح على الفرسان وكان تحت يده الملك المنصور والملك المشهور فركب الملوك الثلاثة وعساكرهم وساروا إلى بلاد الأمير منيف. فلما وصلوا رتب الملك المشهور العساكر وبرز إلى الميدان فبرز إليه الأمير بدر بن غانم والتقى البطلان واستمرا في القتال مدة ساعتين ثم افترقا على سلام وانطبقت عساكر الملوك على بدر والجهال بضرب مثل زخ المطر وكانت قد وصلت فرسان بني هلال بقيادة الأمير زيدان شيخ الشباب الذي هجم على الملك رعد ولطمه لطمة تهد الجبال، فالتقاه المشهور بقلب أقوى من الصوان فراح زيدان يهد عليه بهذه الأبيات:

يقول الفتى زيدان ولد غانم ... ولي قلب أقوى من حجر صوان
أنا مرعب الفرسان في ساحة الوغى ... أنا حامي الأظعان والنسوان
وسيفي لرقاب العدو قاطع ... واليوم شكالي وقال عطشان
ويا ما قتلنا قروما على الثرى ... هدمنا منازلهم على السكان

ثم التقى البطلان كأنهما جبلان متلاطمان وتقاتلا حتى كلَّ تحتهما الجوادان، ثم قفز الأمير زيدان وضرب الملك مشهور بسيفه البتار شقه إلى نصف قامته فبرز إليه ثان وثالث فقتلهما وما زال يقتل كل من يبرز إليه حتى قتل خمسين فارساً وكان قد دب الظلام فرجع زيدان من الميدان، وفي الصباح نزل عكرمة فبرز إليه طعام ابن الملك مشهور وصار بينهما كر وفر وأخذ ورد وضربه عكرمة على هامه حط رأسه قدامه فنزل أخوه زغمان فألحقه فيه والتقت الرجال بالرجال وجرى الدم وسال والتقى الملك منصور بالأمير زيدان والأمير عكرمة والتحمت الأبطال ببعضهما وكان زيد العجاج قد وصل بعساكره مع زيد بن شرهان ووراءهم أبو زيد والأمير دياب والفرسان بعدد الرمال. أما زيدان فهجم على الملك مشهور وطعنه بالرمح في صدره خرج يلمع من ظهره والتقت الرجال بالرجال وكثرت المعارك والملاحم وسالت الدماء وكثرت القتلى والتقى الملك منصور بزيد العجاج فأنشد هذه الأبيات:

يقول زيد العجاج الفاضل ... أنا مبيد الجيش يوم طراد

سلطان كل هلال أبو مرعي سعده على كل الفوارس زاد
قيدوم طعن هلال يوم الوغى أبو مخيبر قاهر الفرسان والأعناد
وأما الفتى الزغبي دياب بن غانم حاكم على زغبي الكرام أمجاد
والفتى زيدان شيخ الشباب ستين ألف عزوته كلها أسياد
لا بد نقتلكم ونأخذ مالكم وسيوفنا تبري الرقاب عن الأجساد
ونأخذ منكم الزينات بالقنا وأيام النصر عندنا أعياد

فلما فرغ زيد العجاج من كلامه غار على الملك منصور فخاف الملك رعد على منصور وغار على بني هلال وصار يجز الرقاب فقطع عليه أبو زيد ودياب طريقه وحصروه في الوسيط ونزلوا عليه ضرباً مثل لذع النار وأطلق زيد العجاج عنان الجواد وغار على الملك منصور وطعنه بالرمح في صدره أرداه قتيلاً، فغار رعد على زيد العجاج وضربه على طاسة البولاد، فنزل السيف على كتفه وجرحه فهجم عليه أبو زيد وقال له: خذها من يد أبي شيبان وطعنه بالرمح في صدره خرج يلمع من ظهره فلما رأت عساكره مصرعه ولوا هاربين فتبعتهم بنو هلال حتى أدخلوهم بلادهم وما يزال السيف يعمل فيهم حتى طلبوا الأمان وأرشدوهم لمكان الطير فوجدوه بعيداً عنهم مسافة عشرة أيام وعنده ألف فارس تحفظه، فقتلوهم وأخذوا الطير وأعطوه إلى زيدان وصار الملك منيف سلطاناً على بلاد خيبر وجعلوا هماماً وزيره ورتبوا عليهما الجزية كل عام، وعادوا إلى نجد بالغنائم والأموال فاستقبلهم السلطان حسن والقاضي بدير وبقية الأمراء وهنأوهم بالسلامة ودخلوا الأحياء في عراضات وأفراح وفرق زيدان عليهم الخلع الثمينة ابتهاجاً برجوع الطير وداموا في أرغد عيش وأنعم بال.

قصة الست صبحا
محبوبة عقل بن هولا

(قال الراوي) بعد أن انتصر بنو هلال على الأعجام وأرجعوا الطير لزيدان وأقاموا الأفراح والليالي الملاح كانت تلك الليالي جافة بالنسبة لغيرها والسبب في ذلك أنه ليس فيها حب ولا غرام ولا عروس ولا عريس ولا زواج ولا نكاح. فاشتاق الشباب إلى إقامة أفراح يكون فيها رقص وغناء وخطبة وزواج ولكن من هو السيد الذي سيأخذ فتاة الزمان ونادرة العصر والأوان وتشاور الجهال فيما بينهم فوقع نظرهم على عقل بن هولا فارس الفرسان البطل الذي لا يقهر، وقالوا له: أما عنّ على بالك الزواج؟ أما سمعت ببنت من بنات الملوك تكون فتاة أحلامك؟ فقال: قد سمعت ببنت فائقة الحسن والجمال ولكن سبب تأخيري عن جلبها، والزواج بها هو أنني لا أريد أن أرمي بني هلال في حرب ضروس تأكل اللحم وتشرب الدم وتفتك بالشباب والفرسان فصاح الشباب نحن فداك وأرواحنا بين يديك، فقل لنا من هي حتى نغزو أباها ونأتي بها ولو كانت في قبة الفلك ثم حلفوه بالسلطان حسن وبأعز أحبائه أن يقول لهم عن اسمها واسم أبيها فأجاب هي صبحا بنت الملك البرهمان، فقد قال لي من رآها أنها تصلح لي لأنه لا يوجد مثلها في الدنيا فأحببتها ومال قلبي إليها ميلاً عظيماً وكنت أسهر الليالي وأنا أفكر فيها ولكني كنت أكتم الحب في قلبي ولا أظهره لأحد حتى لوالدتي، وقد رأيت صبحا مراراً في نومي وغنيت أمامها الأشعار الغرامية فأحبتني حباً جماً وهامت بي حتى الجنون فقالوا له: بما أنك رأيتها فصفها لنا لنرى أنها تصلح لك كما تقول أم لا تصلح فأنشد يقول:

عقل ابن هولا ابتدى في نظام ... عاللي رأيته بنومي عا تمام
صبحا زادت بالحسن عا كل الملا ... وفاقت عالبشر من أنثى وغلام
يا إلٰه العرش يا رب الفلق ... بت طول الليل غالبني القلق
شفت نهدها الزين من تحت الحلق ... متل بيض الوز أو بيض النعام
طولها يا ربع كغصن الجريد ... في مكان الحرب أو لعب الجريد
كم دعت واللّه مثلي فقيد ... راح وما تهنى بعيش ومنام

جبينها قنديل من بعد المغيب والحواجب نون كاتبهم لبيب
والأنف ماضي كما سيف الرهيب يبري عنق العدو بري الحسام
خدودها كالورد مالو نظير صدرها بستان نزهه للبصير
بطنها للغي طي الحرير قتيلها مالو دوا يشفي الغرام
عنقها يشبه إلى عنق الغزال ريقها يشفي العليل من الخيال
من رآها عاف أهله والعيال بنيته صبحا وعلى الدنيا السلام

فلما فرغ عقل من وصف محبوبته صاح الشباب إلى الخيل أيها الفرسان فقال عقل: لا لزوم إلى ركوبكم لأني سأذهب وحدي أولاً وأرى صبحا إن كانت تحبني وتأتي معي وهل يرضى أبوها أن يزوجني إياها أو يمنعها عني، ثم قال لغلامه: شد لنا الخيل فذهب الغلام وشد على الخيل ثم ركب هو وغلامه وسارا إلى أن وصلا إلى عين ماء أم غيلان فنزلا يستريحان ثم أكلا وشربا، فقال عقل: اغلِ لنا القهوة حتى أطلع على هذا التل لأشرف على الطريق فصعد عقل على التل فرأى رجلاً في زي درويش فسلم عليه فرد السلام وسأله إلى أين يا وجه العرب؟ فقال له: أنا عقل بن هولا من بلاد نجد العدية ثم جلس هو والدرويش يتحادثان وكان عقل له عدة أيام ما غفل ولا نام فشعر بالحاجة إلى النوم فاتكى قليلاً فنفل ونام ورأى نفسه عند صبحا في قصرها يتمتع بالنظر إليها وهي تسأله عن بلاده وأهله. أما غلام عقل فقد أحضر له القهوة فرآه يغط في نومه ويشير بيديه فقال له الدرويش: هل لسيدك عادة أن يحكي بنومه؟ فقال: ليس له عادة فلما أفاق عقل من نومه سأله الدرويش عما رأى في نومه فقال:

يقول الفتى عقل بن هولا عانقا بدمع جرى فوق الخدود تقطير
ونار الأسى جوا حشاي وقودها لها في الضماير والضلوع سعير
رأيت منام شفت منه عجايب دخلت قصر صبحا من بكير
وهي على فراش الحرير قاعدة والوجه يآضي مثل بدر منير
فقالت لي من أي القبائل يا فتى وما الذي جابك لقصري يا مير
فقلت لها نجد العدية بلادنا واسمي عقل بن هولا بلا تنكير

فلما فرغ عقل من كلامه قال له الدرويش: خيراً رأيت وستبلغ مرادك إن شاء اللَّه فقام عقل هو وغلامه مسرور وودع الدرويش وسارا حتى وصلا إلى عين مرج الزهور، فنزلا على العين أما الست صبحا فقالت لجاريتها ندى: خذي الجواد واذهبي إلى العين وانظري من هناك فقالت لها: يا ستي أخاف أن يكون هناك رجال، فقالت لها: خايفة على حسنك وجمالك، اذهبي حالاً فركبت الجواد

وذهبت إلى العين وسألت عقل من أنتما وما تريدان؟ فقال عقل: أنا من نجد واسمي عقل بن هولا وأبي بدر بن غانم وعمي دياب وزيدان وخالي السلطان حسن وأنت ما هو اسمك؟ قالت: ندى وأنا جارية الست صبحا بنت الملك البرهمان عند ذلك فرح وأمل بنوال مبتغاه وقال لها: اذهبي إلى ستك وقولي لها وجدت على العين شاباً جميلاً قال: إنه يحبك ويهواك فطيبت خاطره وعادت راكبة على الجواد فلما دخلت على سيدتها قالت لها: يوجد على العين فتى جميل الطلعة بخدود وردية اسمه عقل بن هولا من بلاد نجد وقال: إنه يحبك ويهواك ومراده يتمتع برؤياك فقالت لها: كنت أحضريه معك حتى أراه فعادت ندى وأحضرته إلى القصر فاستقبلته صبحا بشوق وأجلسته أمامها تتمتع بشبابه وجماله وفتوته ثم قالت له: أنا أحبك وأهواك أكثر مما تحبني وتهواني ولكني خائفة عليك من أبي البرهمان فقال لها: لا تخافي، فإني أكيد الأعادي بسيفي ورمحي وأخلي دماءهم تجري كالأنهار فقومي اذهبي معي إلى بلادنا وهناك نتزوج فقالت: الأحسن أن تطلبني من أبي. فإن امتنع نبقى ندبر أمرنا فقال لها: رأيك مناسب وسأطلبك من أبيك ولما أراد الذهاب تقدمت إليه وعانقته فقال لها: ابتعدي عني واصبري حتى نتزوج فإن من يبيع جنة عرضها السموات والأرض بقيراط من اللذة لقليل المعرفة بالساحة فضحكت من كلامه وقالت له: ولكني لا أريد غيرك فقال لها: إلى اللقاء وعاد إلى العين. وفي الصباح دخل ديوان الملك البرهمان فسلم عليه فترحب به وأمر له بالجلوس ثم سأله عن اسمه وهل له حاجة يروم قضاءها فقال له: أنا الأمير عقل بن هولا من بلاد نجد العدية أبي بدر بن غانم وخالي حسن سلطان بني هلال جئت أتشرف بخطبة الآنسة صبحا كريمتكم فهل تتكرمون عليّ بأن تكون عروسة لي؟ فلما سمع الملك هذا الكلام ظهر الغضب في وجهه وعبس ولكنه كظم غيظه ثم قال له: لقد سبقك الكثيرون إلى طلبها مني وإني إلى الآن لم أعتمد على أحد لزواجها منه وعلى كل حال أرى أن تفتش لك عن فتاة غيرها، فقال عقل: تعجبني صراحتك يا مولاي وأسأل اللّه أن يوفقكم لفتى يكون كفؤاً لها ثم استأذن من جلالة الملك بالذهاب فأذن له فذهب وهو مصمم على أخذ صبحا مهما كلفه ذلك وذهب إلى قصر صبحا وقال لها: إن أباها امتنع من إعطائها له وقد ظهر الغضب على محياه ثم قال لها: نحن متفقان على الزواج وسنتزوج بالرغم من كل معارض ثم ودعها وذهب إلى العين وصار هو وغلامه يختفيان بالنهار ويشلحان المارين بالليل، فشاع الخبر في الهند بأن اثنين رابطين على العين يشلحان الناس، فوصل خبرهما للملك فصاح بولده فهد قائلاً: خذ معك مئة فارس واذهب إلى مرج الزهور تجد

اثنين غريبين كتفهما وأحضرهما إليّ فأخذ فهد مئة فارس وتوجه إلى مرج الزهور فوجد عقل بن هولا أمامه فصاح به فهد من أنت أيها الرجل؟ وماذا تريد من المارين حتى تعتدي عليهم وتسلب أموالهم؟ فقال له: أنا عقل بن هولا من بلاد نجد فارجع عن قتالي قبل أن أجعلك قطعتين بهذا السيف وقد أعذر من أنذر عند ذلك هجم عليه فهد والتقى البطلان في ساحة الميدان وتقاتلا قتالاً عظيماً وكان عقل أفرس من فهد وأعلم بمواقع الضرب فقوي عليه وضربه بالسيف على هامه حط رأسه قدامه ومال على الخيل أبلاها بالذل والويل، فوصل الخبر إلى البرهمان فغضب غضباً شديداً وأمر وزيره غيلان أن يركب على أدهم ويقتل الفارسين الموجودين في مرج الزهور أو يأسرهما فأسرع الوزير بتجهيز حملة من الأبطال وركبوا وتوجهوا إلى مرج الزهور، أما زيدان شيخ الشباب فسأل هل أتانا خبر من عقل بن هولا وماذا جرى معه فقد انشغل بالنا عليه فقالوا: لم يأتنا منه جواب فأنشد:

يقول الفتى زيدان أنا ولد غانم ... أنا مهلك الأعداء يوم الوقايع
ترى يا قوم تاري وسط قلبي ... وعقلي على عقل صار ضايع
فإن كان بضيق نركب نجيبه ... على خيل تشبه للزوابع
نقتل عدانا وننصر ولدنا ... ونهدم قصور عاليات مواقع
ومن يموت منا فهذا يومه ... يوم الوغى واجب علينا نسارع

فقال عكرمة: عندنا خبر أنه سافر إلى الهند لأجل محبوبته صبحا بنت الملك البرهمان ولا نعرف ما حصل معه، عند ذلك صاحت الشباب هيا إلى الهند اركبوا يا أبطال لنرى ما حل بعقل بن هولا، فركبوا وساروا إلى أن وصلوا إلى مرج الزهور فرأوا عقل وغلامه متهيئين للقتال وكان الوزير غيلان قد وصل بعساكره، فأطلق عكرمة الغارة على الأعداء فصدمه الوزير بقلب لا يهاب وتقاتلا بالسيوف وتطاعنا بالرماح وحان عليهم الحين وزاد عكرمة على الوزير غيلان وضربه بالسيف على هامه حط رأسه قدامه ومال مع بني هلال على عساكر الوزير، فقتلوا كثيراً منهم وهرب الباقون فوصل الخبر للملك بمصرع الوزير غيلان فجن جنونه وقام وصار يمشي في الديوان وهو في غضب شديد وأمر بدق الطبول واجتماع الجيوش والعساكر ثم سار بهم إلى الميدان، فنزل إليه زيدان والتقيا في حرب وصدام وقتال وخصام إلى أن قوي البرهمان على زيدان ورماه عن الحصان وأراد أن يأسره فغار الشباب على البرهمان وقومه بضرب السيوف وطعن الرماح وتمكنوا من إنقاذ زيدان وشالوه وأركبوه على جواد وعندها حميت المعركة واحتدم القتال وجرى الدم من أعناق الفرسان إلى المساء دقت طبول الانفصال فتفرقوا عن بعضهم، أما أبي زيد

فقال للسلطان حسن: يجب علينا أن نعزز قوات الأمير زيدان بجيوش كثيرة حتى نضمن النصر ونقهر الأعداء فأمر السلطان حسن بركوب الخيل بقيادة الأمير أبي زيد فركبوا وجدوا في المسير إلى بلاد الهند ولما وصلوا لمرج الزهور رأوا المعارك على قدم وساق والقتال بين الفريقين على أشده فهجم أبو زيد مع العساكر على البرهمان في حومة الميدان وتقاتلا قتالاً عظيماً حير عقول الفرسان إلى المساء، افترقا على سلام. وفي الصباح نزل البرهمان إلى الميدان فنزل إليه دياب حذاف الرقاب فراح البرهمان يهدده بهذه الأبيات:

يقول البرهمان ولد علقم أبيات حماسة مثل بركان
على ما جرى فينا وما أصابنا أمر مدلهم وحرب طول الزمان
ضاقت عليك الأرض يا دياب والفلا لأدعيك مرمي على الثرى منهان
وبعدك أبو زيد الهلالي أشيلو وسلطانكم أرميه بالأحزان
وآخذ عطور الجيد وآخذ غيرها وأسبي بنات كأنها الغزلان
رد الفتى الزغبي دياب بن غانم أنا وحق الذي كون الأكوان
لأفعل فيكم فعال الزير بالوغى وأمحي بسيفي رقاب الفرسان
وأقطع رأسك وآخذ الروح منك وأرميك فوق الثرى عدمان

فلما تفرغ دياب من كلامه التقى هو والبرهمان في حرب إلى المساء فضرب بينهم طبل الانفصال فعادا إلى محلهما. وفي الصباح نزل البرهمان إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان فنزل إليه حسن بن سرحان فبدأ البرهمان يحذر حسناً بهذه الأبيات:

يقول البرهمان وليد علقم لازم أشبحك بأربع شباحي
لأرويك الأهوال يا بن شما ورأسك من حسامي الآن طاحي
أبو زيد الهلالي ذاق حربي دعيته طير مقصوص الجناح
وأنت اليوم آتي تحاربني فلازم أجعلك قتيل رماحي
وأهفيكم بسيفي يا هلالي وأدعي نساكم تبكي نواحي
رد عليه أبو علي وقال له كلامك يشبه قول المزاحي
أنا المعروف أبو مرعي في كفاحي شرق وغرب مع كل النواحي
فاثبت للقا يا ابن علقم لأرويك طعن سني ورماحي
وآخذ بنتك صبحا لابن هولا وأدعي لحمكم أكل الشواحي
وآخذ لأموالك مع المواشي وأغنم خيلكم مع السلاح

فلما فرغ حسن من كلامه التقى البطلان كأنهما جبلان وتقاتلا وتضاربا ساعة

من الزمان وإذا السلطان حسن ضرب البرهمان فأصاب رأس الجواد براها كما يبري الكاتب القلم فوقع البرهمان على الأرض فغار قومه عليه وخلصوه وأعطوه جواداً ومال الفريقان على بعضهم ولا يزال الحرب عاقداً إلى أن دب الظلام فضرب طبل الانفصال فعادوا إلى أمكنتهم أما قوم حسن فسألوه عن حرب البرهمان فأنشد هذه الأبيات:

يقول الفتى حسن الهلالي أبو علي أمراً جرى لي يشيب الأطفال
تكاونت أنا وياه في حومة الوغى ورميته على الثرى بقوة الأبطال
وردت أميل عليه بالسيف أضربه اجوني فوارس مدرعه ورجال
خدوه مني غصب يا أبو مخيبر وشالوه على خيال أصال
أبو زيد يا حبوب يا كاسب الثنا أيا من إلى خيل العدا قتال
وديباب كم بالكون لك فعل ماهر يا راعي الهمات يا مفضال
أيا دياب ماله غيرك مخاصم وطعناته مثل لظى وشعال
فإن كان فيكم عزم شدوا واركبوا لنسلم من الشدات والأهوال
أخاف يغلبنا ويسبي عيالنا ويجعل دمانا عالثرى سيال

عند ذلك هاج دياب وماج كأنه بحر عجاج، وقال: أنا خصمه وغداً أنزل إليه وفي الصباح دقت طبول الحرب والكفاح فنزل البرهمان إلى الميدان فبرز إليه دياب واشتغل بينهما القتال إلى العصر عند ذلك ضربه دياب بالسيف على هامه حط رأسه قدامه ومالوا على الخيل أبلوها بالذل والويل، ثم لموا الخيول الشاردة ومالوا إلى القصر وأخذوا الست صبحا مع الغنائم وعادوا إلى نجد العدية وطلع أهلهم إلى لقاهم في يوم ينعد من الأعمار ثم أقاموا الأفراح وزفوا عقل على الست صبحا ودامت الأفراح أربعين يوماً، فدخل عقل على صبحا وتملى بحسنها وجمالها وعاشوا في أطيب عيش.

قصة الملك الصمصام

(قال الراوي) كان الملك الصمصام بن خيبر حاكم بلاد النيروز يعبد الأصنام وكانت عساكره عشرين كرة من الفرسان والعساكر، أما ابنه خيبر فكان فارساً مر المذاق وله ابن آخر يسمى مروان له وزير اسمه برصوم وله أخ يقال له الدمام، فكان الصمصام يعتمد على هؤلاء الأربعة فرسان وكان متزوجاً بأربعين بنتاً من بنات الملوك يأخذهن بالقوة والاقتدار وكان يوجد ملك في بلاد الحقطان اسمه أبو الفتوح له ولد يقال له الهشام فهؤلاء تحاربوا مع بني هلال فانكسروا وانطفت أخبارهم وملكت بنو هلال ديارهم وكان أبو الفتوح عم الملك الصمصام. وفي يوم من الأيام دخل على الصمصام شاعر فسأله من أين قدومك يا شاعر؟ فأجاب من بلاد الحقطان فقال له: كيف أهلنا وحال البلاد؟ فأنشد يخبره عما جرى في تلك البلاد:

يقول الأديب مزيد عما جرى له ... بدمع جرى من مقلة العين سايل
يا حيف دار العز تخلى من أهلها ... وتبكي على رجال الوغى والفضايل
أما ولد عمك هشام يا حسرتي ... هجمت عليه عساكر هلال بالمعاول
قتلوا الملك هشام راح مجندل ... نهبوا بلاد الهند وخيل الأصايل
أبو زيد والزغبي دياب ابن غانم ... قروم هلال لهم كل المراجل

فلما سمع الصمصام هذه الأخبار غضب غضباً شديداً وقال: سوف أبيد بني هلال عن بكرة أبيهم فقال للدمام ابن أخيه وابن عمه النعمان ووزيره برصوم: يجب عليكم أن تركبوا بالعساكر والجنود وتغزوا بني هلال وتأخذوا منهم بالثأر فقد قتلوا عمي أبا الفتوح وملكوا بلاده وسبوا نساءه وبناته فقالوا له: أرسل أطلب منهم عشر المال فإن أرسلوه كان خيراً وإلا نركب عليهم ونضربه ضربة قاضية لأخذ الثأر فقال: لقد تكلمتم بالصواب فكتب هذه الأبيات وأرسلها إلى بني هلال:

قال صمصام ابن خيبر الفتى ... حاكم بلاد نيروز البهيا
أبو الفتوح قتلتوه افتراء ... دعيتوه على الغبرا هفيا
أخذتم رزقه وسبيتم عياله ... وملكتم بلاده شرقاً وغربيا
وقتلتم الملك هشام بعده ... أبو حاييم كان برجاً قويا
فيا دياب أرسل لنا ألف مهرا ... من الخيل الأصايل بالسويا

يا أبو زيد أرسل لنا سيوفا وعود الزان ألفين وميا
وهاتوا عشر ما تملك يداكم من المال والمواشي البريا
وهاتوا لنا الزينات وريما وكل بنت من فروع زكيا
وهاتوا وطفا بنت أبو موسى لها وجه كما الشمس المضيا
إن خالفتم قولي يا هلالي أتاكم الويل والفنى جليا

(قال الراوي) إن بني هلال كانوا قد جددوا الأفراح وأحيوا الليالي الملاح بعرس عقل بن هولا وكانوا يرقصون ويغنون. أما عقل فكان يغني لصبحا بهذه الكلمات:

يا صبحا هاتي الصينية صبي الشاي لكي وليا
والهوى يصبحا طاب يصبحا طاب يصبحا طاب
يا صبحا هاتي الكتاره تاندق على الأوتاره
يصبحا العمر سيكاره والهوى يصبحا طاب
يصبحا طاب يصبحا طاب

فبينما بنو هلال في فرح وابتهاج إذ أتاهم كتاب من الملك الصمصام، فلما قرأه السلطان حسن أعطاه لأبي زيد فقرأه على الجميع فقال دياب: أنا أرسل له الجواب فكتب يقول له: أيها الملك الصمصام وصل كتابك ولما قرأناه فرحنا غاية الفرح لأنك طلبت فيه الأموال والبنات والخيل الأصايل والمواشي فكل ما ذكرته موجود عندنا ومنتظرون قدومك بالجيوش والعساكر لنعطيك ما طلبت فأسرع بالمجيء يا قليل العقل والأدب يا حمار في صورة إنسان، أسرع لنبري عنقك بالحسام ونفني عساكرك بحرب لا تبقي ولا تذر ثم ختموا الكتاب وأعطوه للرسول، فلما وصل الكتاب للملك الصمصام قرأه فتغيرت سحنته وازرق واحمر واصفر وقال: أنا لا أرجع عن بني هلال حتى أصليهم بالنار وأبري رقابهم بالبتار ثم كتب المكاتيب وفرقها على بلاد نيروز وبلاد النقيع من أربعة أقاليم وأرسل يستنجد في حنا ملك ريم المداين وبوزيره شمعون وكانت بلاد جزائر البحور تحت حكمه. وبعد مضي عشرين يوماً أقبلت العساكر من جميع الجهات من هنود وعابدين الأصنام وأقبل الريم حنا في قومه فأضافه الصمصام ورغبهم في شنّ الغارات على بني هلال ثم ضربت الطبول وركبت الفرسان ظهور الخيل بكرات وألوف قاصدين بلاد نجد العدية فوصلت أخبارهم إلى بني هلال فصاح السلطان حسن بالأمراء والأبطال قائلاً لهم: هذه الوقعة ما لها إلا السيف والشجاعة والبطولة والتضحية والخدعة والحذر من مكر العدو، ثم أمر بضرب الطبول فرجت الجبال

والوديان واجتمعت بنو هلال مثل الجراد المنتشر وصاحوا إلى الخيل يا ركابها وإلى العدا يا طلابها عليهم أيها الأبطال قبل أن يصلوا إلى الديار واضربوهم قبل أن يستريحوا من مشاق الأسفار. فركب السلطان حسن وركبت خلفه أربع تسعينات ألوف وسبقهم زيدان بستين ألفاً من كل بطل وفارس وما بقي في الديار غير النساء والرعاة فصاحت بهم الجازية أما تخافون على نسائكم ومواشيكم ألم تعتبروا بما جرى عليكم من الحروب فيما مضى؟ فقالوا لها: من تريدين أن يبقى في البلاد؟ قالت: عكرمة ومرشد وكل واحد عنده خمسون ألفاً فقالوا لزيدان: إن الجازية طلبت عكرمة بن أبي زيد ومرشد بن دياب أن لا يغادروا البلاد مع كل واحد خمسون ألفاً فقال: إن عكرمة مفتاح الحرب ونحن لا نذهب بدونه، ولكن يبقى هنا فايد ومرشد مع كل واحد خمسون ألفاً واتفقوا على ذلك ثم سارت بنو هلال إلى آخر نجد، أما الملك الصمصام فأرسل جاسوساً اسمه رومان لينظر أحوال بني هلال فسار يجد السير حتى أشرف على بني هلال ودخل إلى صيوان السلطان حسن مع الناس وظل ثلاثة أيام يتنسم الأخبار. أما أبو زيد فرأى في نومه ثعباناً دخل بلادهم وصار يضرب الواحد يجعله رماداً فصار أبو زيد يدور بين الناس لعله يعرف من يتجسس عليهم حتى اشتبه بالجاسوس رومان، فقال له: كيف حال سيدك الصمصام والريم حنا والعساكر؟ أما بعثك الصمصام تأخذ له الأخبار؟ فقال له: اللَّه يسامحك يا أبا زيد أنا رجل من أرض الحجاز وحجيت سبع حجج تجعلني عابد أصنام فكشف عليه أبو زيد فإذا هو إفرنجي فقال دياب: لازم نطهره فأحضر أبو زيد سكيناً ماضية وقطع أذنيه وخلاهم معلقين على خديه وأكثر له الجروحات في جسده وقال له: قل لسيدك أن يسرع إلينا.

فذهب رومان مسرعاً إلى الصمصام وهو على آخر نفس ووقع في الديوان فأتى الطبيب وضمد له الجراح فلما ردت روحه إليه قال: كلهم استعدوا للقتال وبقي في نجد مرشد بن دياب وفايد بن بدير مع كل واحد خمسون ألفاً فقال الصمصام للريم حنا: خذ فرسانك واكبس نجد واجعلهم فرقتين فرقة للمواشي وفرقة للعيال حتى يقع الصوت على النزل فتركب فرسانهم ولا يبقى غير الحريم اكبسهم مع الصباح وأنا أخادعهم بالكلام حتى تجيني أخبارهم، فركب الريم حنا ووزيره شمعون وركبت الفرسان أربع كرات وساروا بغير طريق إلى أن وصلوا إلى الحدود فأرسل الريم حنا وزيره بكرتين قائلاً له: اربط قرب النجع حتى يندب الصوت ونركب نحن حتى يصلوا إلينا وأنتم اضربوا النجع واسلبوا المال والعيال فسار شمعون لقرب النجع أما الريم حنا فساق المواشي والأغنام فلما وقع الصوت ركبوا الخيول وساروا إلى المواشي وردوها وصاحوا إلى أين تذهبون وقد أتتكم

الأبطال ولطموا سابق الخيل والتحم القتال وطارت الرؤوس عن الأبدان فصاح حنا بقومه يشجعهم وانطبق على القوم وفرقهم يميناً وشمالاً كل هذا يجري بين الرعيان وبين عساكر الصمصام.

فلما وصل الخبر إلى مرشد وفايد ركب فايد بعساكره وبقي مرشد بجنوده لأنهما عرفا أن العدو يخدعهم، أما حنا فنزل إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان فنزل إليه عجاج السيار والتقى البطلان كأنهما أسدان كاسران وحكم ضرب حنا على جواد عجاج فوقع هو والجواد على الأرض فأدركه قومه وشالوه أما الرعاة والعبيد فما تحملوا هذه الحرب وصاروا يطلبون الفرج من اللَّه عز وجل وكان فايد بن بدير قد وصل بفرسانه وهم يهللون اللَّه أكبر على من طغى وتجبر ورأوا الرعيان والعبيد في حالة التلف. فغارت العساكر على الأعجام وجندلوهم بالسيوف والرماح والتقى حنا بالأمير فايد وتقاتلا قتالاً حير الأفكار وتكامشوا على ظهور الخيل وانطبق فايد على حنا وضربه بسيفه القرضاب فجاء السيف على زند حنا جرحه، ثم طبقت الرجال على الرجال وعاد السيف يعمل والرمح يخرق في الصدور وغاصت الخيل بالدماء فصرخ حنا بفايد وغار عليه وأراد أن يخطفه من على ظهر الجواد فسبقه فايد بالسيف على هامه حط رأسه قدامه. فلما رأى قومه ما جرى بملكهم داروا رؤوس الخيل إلى الوراء وأرادوا الهرب فصاح فايد سدوا عليهم الدروب وامحوهم عن آخرهم فسدوا عليهم الطرق ومالوا عليهم بالضرب والقتل والذبح وما سلم منهم إلا فئة قليلة استطاعت الهرب وعادوا يلمون المكاسب والخيل الشاردة. أما الوزير شمعون فكان قد أرسل جاسوساً يكشف له أخبار بني هلال في البلاد فلما عاد إليه قال له: البرى أيها الوزير فقال: ما تقول؟ فأجاب صيدة ثمينة، فقد رأيت القوم يركبون ويذهبون لقتال حنا ولم يبق في البلاد غير النساء والأطفال فسار شمعون بعساكره ليحتل المدن وينهب الأموال أما مرشد ابن دياب فقد أرسل ألف خيال تحافظ على البلاد والعيال من أربع جهات فلما صار الهجوم على أحياء بني هلال ظهرت فرسان بني هلال مثل النار من جميع الجهات، أما الجازية والبنات فركبن الهوادج على الجمال وصرن يشجعن بني هلال ويرفعن أصواتهن بالزغاريد وانطبق الفريقان على بعضهم والتقت الرجال بالرجال وعظم النزال وجرت الدماء من الأعناق ووقفت جمال الظعن وعطور الجيد وفتنة وصحن بمرشد مثلك تكون الأبطال يا قاهر الأعداء اليوم يومك. فحمل على الأعداء حملة الأسود وصارت وقعة عظيمة والتقى الوزير شمعون بالأمير مرشد وتقاتل قتال الجبابرة وضرب شمعون مرشداً بالسيف أخذها بترس البولاد وثنى عليه بالرمح غطس تحت بطن الجواد واعتدل مرشد على جواده وصاح

بشمعون أين تغدو من بين أبطال بني هلال ثم طسه بالسيف على عنقه أطار رأسه من بين كتفيه، والتحمت الرجال ببعضها فالسيوف تلمع والزنود تقطع والرقاب تخلع والخيل تخوض في الدماء أما قوم شمعون فإنهم ذاقوا كاس المنون ولم يجدوا أمامهم إلا الهرب وسارت بنو هلال وراءهم في الطلب وصاح فايد من قدام وأعطاهم الحامي بضرب السيف البتار ومرشد من وراءهم يطعنون ظهورهم بالنبال وما سلم منهم إلا كل طويل عمر وتحته حصان سريع في الهرب وغنم بنو هلال أموالاً لا تعد ولا تحصى، ولما وصل الخبر لعند حسن وأبي زيد ودياب فرحوا بالنصر، أما الملك الصمصام فأمر بالركوب فركبت الفرسان وضربت الطبول وركبت بنو هلال واصطفت الصفوف وترتبت المئات والألوف فانحدر عكرمة إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان فنزل إليه خيبر بن الصمصام فأخذا في الكر والفر.

أما الأمير مرشد وفايد لما رجعوا لنجد قال مرشد لفايد: النجع صار بأمان وأنا رايح لعند الشباب فصاحت الجازية شدوا الهوادج حتى نسير مع مرشد فركبت الجازية وعليا ووطفا وجمال الظعن وعطور الجيد وريما مع مائة بنت من خواص بنات هلال وركب مرشد بألفي خيال وساروا إلى بني هلال، وكان عكرمة وخيبر في قتال شديد وضرب ما عليه من مزيد وكان الأمير مرشد قد وصل ووراءه البنات ودخل في صفوف بني هلال وأشرفوا على الميدان فلما رأت عليا ابنها عكرمة بالميدان صاحت صوت حروبي وقالت: مثلك تكون الفرسان لأنك ما تهاب من الأبطال فغاب عكرمة عن الصواب وغار على خيبر وطسه على هامه فتدحرج رأسه قدامه فلما رأى الملك مصرع ولده غار على القوم يجز الرقاب فانتخت الأبطال وكثر الطعان فالخيول غائرة والرؤوس والدماء جارية ولله در الأمير أبي زيد والأمير دياب حداف الرقاب فإنهما غاروا على الأعداء وفتكوا فيهم فتك الذئاب بالغنم وأما القاضي بدير والأمير زيدان وعكرمة ومرشد فصاحوا بالجهال والعساكر عليهم أيها الشباب وصاروا يأخذون القوم بالسيوف ويجعلونهم أكواماً أكواماً وأظلمت الدنيا من كثرة الغبار وقتل من الفريقين رجال كثيرون والتقى الأمير أبو زيد بالملك الصمصام وانطبقا على بعضهما البعض وداموا في كر وفر والتقت الفرسان بالفرسان وعلا الصياح وزلغطت البنات وعلت الصيحات وداموا في حرب وقتال إلى المساء ودقت طبول الانفصال، فانفصلوا عن بعضهم واجتمع الصمصام بابن أخيه الدمدام وابن عمه الملك مروان ووزيره برصوم قال للدمدام: خذ خمس كرات واكبس القوم من الشرق وقال لمروان: خذ خمس كرات واكبس الأعداء من الغرب وقال لبرصوم: اكبس القوم من الجنوب وأنا أكبس القوم من الشمال وركبوا في الليل الدامس. وساروا أما أبو زيد فكان قد أرسل رجلاً يتجسس أخبار العدو وعاد

الرجل مسرعاً نحو أبي زيد وحكى له عما صمم عليه الصمصام وأنه سيكبس بني هلال من أربع جهات، فعرف أبو زيد ما دبر الصمصام من المكر والخداع فقال حسن: هذه حيلة خبيثة عند ذلك قال أبو زيد لدياب: اركب بقومك وسر ناحية الشرق لأن فيها الدمدام وهو فارس مر المذاق ما له غيرك أما الأمير حسن إذا أراد يركب لجهة الغرب فيلتقي بالملك مروان ثم قال لبدير: اركب بقومك لناحية الجنوب وفيها الوزير برسوم وأنا أتجه بقومي للشمال أقاتل الصمصام وأما زيدان وعكرمة والجهال فيبقوا عند النساء فركبوا كما تقرر وكل واحد طلب خصمه فلما أصبح الصباح طبقت العساكر والجيوش من جميع الجهات والتقت الأبطال بالأبطال فما عدت تسمع إلا دوي الطبول وصهيل الخيول وصارت ساعة تحير العقول وتقصف الأعمال فقال عكرمة لزيدان: خذ معك ثلاثين ألفاً وساعد السلطان حسناً ونحن لا ندع أحداً يقرب نحو النساء. فقسم زيدان الجهال إلى قسمين أخذ النصف وغار نحو السلطان حسن وزيدان لحق القاضي بدير يلاقيه على حالة يرثى لها من كثرة ما جاهد وناضل فغار زيدان على الأعداء مثل الشهاب وحمل من جانب وزيدان من جانب فالسيف عمال والرمح شلال وسنحت الفرصة لبدير فطعن برسوم بالرمح في صدره خرج يلمع من ظهره وفتك زيدان بالعساكر ودخل بينهم مثل السبع الكاسر وفي المساء افترقوا عن الحرب والقتال فقتل من رجال الوزير نحو مائة ألف خيال والباقون ولوا هاربين إلى أن وصلوا لعند الصمصام وأخبروه عن قتل وزيره فغضب غضباً شديداً وأما بدير وزيدان فلموا المكاسب والمغانم، وأما مروان فانحدر إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان فنزل إليه السلطان حسن وصدمه صدمة عنيفة فثبت أمامه وتقاتلا بالسلاح وتقاربا وتباعدا ولما طال بينهما القتال التقت الفرسان بالفرسان وجرت الدماء وثبت الشجاع وهرب الجبان ودارت على بني هلال الدائرة وصاروا بحالة الضيق، ولو لم يدركهم الأمير عكرمة لولُّوا الأدبار وركنوا إلى الفرار وصاح عكرمة بالأعداء أين تذهبون قد أحاط بكم البلاء وغار على الخيل أبلاهم بالذل والويل وهجمت الجهال مثل الأسود الكاسرة وكان السلطان حسن يتقاتل مع مروان متكامشين على ظهور الخيل فغاب عكرمة عن الصواب وقال: لا ينبغي للسلطان أن يحارب ويقاتل ثم إنه أسرع إلى مروان وضربه بالسيف على وسطه قسمه نصفين ومالوا على الأعداء حتى بقي الدم يسيل كالماء فالرؤوس طائرة والدماء فائرة ودارت على قوم مروان الدائرة فولُّوا الأدبار وركنوا إلى الهرب والفرار ولحقتهم بنو هلال حتى شتتوهم بتلك القفار وجمعوا الخيل الشاردة ولموا المكاسب والغنائم وعادوا فرحين مستبشرين حتى أشرفوا على عساكر زيدان والأمير فايد وعكرمة ووصلوا إلى الميدان الذي يحارب

فيه أبو زيد فوجدوه متكامشاً مع الملك الصمصام، فصاح الأمراء على أبي زيد قائلين: مثلك تكون الفرسان وزلغطت النسوان وحمي الميدان وهجم زيدان وهجمت وراءه العساكر وانطبقوا على الأعداء وجرى الدم وسال وقتل من الطرفين خلق كثير. وفي الصباح برز الصمصام للميدان وطلب مبارزة الفرسان فنزل إليه أبو زيد وأنشد يهدده بهذه الأبيات:

قال أبو زيد الهلالي فارساً عند القتال
ملك صمصام يا ملعبج انتبه واثبت قبالي
جيت لنا بالعساكر ما لها أول من آخر
مثل موج البحر زاخر فاض من أربع مجال
تريد أخذ التار منا خاب فالك ثم ظنا
شوف هالرمح المحنا حربته دوما تلالي
اثبت أمامي للقا زال همي والشقا
أكيد صمصام ما بقي تنظر بلادك والعيال
قم وادي عشر مالك لا تضيع أنت حالك
من حسامي ما بقالك تعرف يمين أو شمال

ثم التقى البطلان وتحاربا وتقاتلا وصاحت الجازية وعليا وجمال الظعن بأصوات رقيقة قائلات مثلك تكون الفرسان يا راعي هلال ونحن نشهد لك بالشجاعة والبطولة، فخاف الصمصام أن يزيد عليه أبو زيد في القوة وشدة البأس فضرب أبا زيد بالسيف أخذها بترس البولاد وثنى عليه بالرمح غطس تحت بطن الحمرا وثلث عليه بالدبوس خلا عنه عند ذلك هجم عليه أبو زيد مثل النمر وضربه بالدبوس غطس الصمصام تحت الجواد ثم اعتدل وولى هارباً نحو قومه فرماه أبو زيد بحربة ماضية في ظهره نفذت من صدره ـ عند ذلك صاحت بنو هلال اللَّه أكبر وهجموا على قوم الصمصام يجزون الرؤوس عن الأبدان وأتى الأمير دياب وقومه الأنجاب وغلامه سعيد حامل رأس الملك الدمدام على سنان الرمح ومكتفين خمسمئة أسير من الأعداء وغاروا على قوم الصمصام وقطعوا عليهم الدروب وفتكوا فيهم فتك الذئاب بالغنم، فمن استطاع الهرب نفذ بروحه أما الباقون فرموا السلاح وطلبوا الأمان فأسروهم وحطوهم مع أسرى دياب ثم لموا الغنائم والخيل الشاردة واجتمعوا مع بعضهم يتصافحون ويهنئون بعضهم بالسلامة والنصر، ثم أطلقوا الأسرى مقابل فكاكهم بالأموال وعادوا إلى بلادهم كاسبين غانمين.

قصة ورد الروض

(قال الراوي) بعد أن انتصر بنو هلال على الملك الصمصام استراحوا من الحروب والأهوال وصاروا ينصبون البرجاس ويتسابقون على الخيل يلعبون بالجريد وفي يوم من الأيام كان الشباب مجتمعين عند الأمير زيدان فصاروا يتحادثون عن الحروب التي خاضوها وعن بنات الملوك التي أتوا بها وصار كل واحد يفتخر بنفسه بأنه جلب محبوبته بالقوة والبطولة والثبات على الأهوال والمشاق. وكان بينهم شاب اسمه نصير بن منقد فلما سمع كلام الشباب عن جهادهم وبطولتهم خجل خجلاً عظيماً لأنه ما عمل شيئاً يفتخر به فقال في نفسه: هل أنا جبان حتى لا أستطيع أن أعمل كما رفقائي وأفتخر مثلهم بأني جلبت بنت أحد الملوك بشجاعتي وبطولتي وحركته نخوته ومروءته ولعب به الهوى وصار يتمنى أن يسمع ببنت ملك تكون آية في الجمال ليتزوجها إما بالرضا من أبيها أو بالقوة والشجاعة. وفي إحدى الليالي خرج يتنزه في ضوء القمر وهو مشغول الفكر عند بنات الملوك فأي بنت تكون من نصيبه يا ترى ثم إنه أنشد هذه الأبيات:

يقول الفتى نصير من ألم الجوى ونار الهوى بين الضلوع لهاب
غرامي بقلبي إلى من أبيحه ولا يباح الهوى إلا إلى الأحباب
أيا ريح خبرني أيا ريح دلني هل هي بأرض الشرق أم من الأغراب
وإن كان حولها ألف فارس أفنيهم بضرب الرمح والقرضاب
لا بد أن أصطاد بكفي بديعة ما حظي بها جبر ولا ابن دياب

ولما كان ينشد هذه الأبيات سمعه أبوه منقد، قال لزوجته: أنا خائف على ولدنا نصير فقد سمعته يغني على هواه ويتمنى أن يجلب فتاة كما فعل غيره من الشباب ولولا خوفي عليه قلت له عن فتاة لا يوجد لها نظير في الدنيا كأنها حورية سمح لها رضوان بالخروج من الجنة فسألته زوجته عن اسمها واسم أبيها فقال: هي ورد الروض بنت الملك غضنفر صاحب بلاد حماه فقالت له: ولماذا تخاف على ابنك فدعه يذهب إليها ويأت بها ومن عادة الشباب أن يتعاونوا ويصلوا الحرب لأجل فتى واحد فقال لها: ومن يضمن ذلك ربما يقولون لماذا تهور وخاطر بنفسه، فيه ولا فينا كلنا فسكتت ثم ذهبت لعند ابنها نصير لتراه فقد خافت عليه من

شدة الغرام أكثر مما تخاف عليه من الحرب والصدام فسمعته يناجي القمر ويطلب منه أن يدله على محبوبته وجعل يغني:

يا قمر السما أخبرني أين أخوك حتى أزيد في مدحك وثناك
أنا أسير في البر منفرد وأصطاد ريم الفلا بالأشراك
أصطاد ريم كالبدر حسنه لو كان في أرض الروم والأتراك

فسمع صوت أمه تناديه فسكت وتقدم نحوها وقال: نعم يا والدتي، فقالت له: ما بك يا بني قل لي ولا تخْفِ عني شيئاً فقد سمعتك تناجي القمر فما تريد منه؟ قال: يا أماه كل يوم عندما يجتمع الشباب كل واحد يفتخر بنفسه وأنا أكون بينهم مثل الجبان ولو كنت أعرف بنتاً تليق بي وأفتخر بها بين الشباب لأتيت بها مهما كلفني الأمر فأشفقت عليه وقالت له: إن ورد الروض بنت الملك غضنفر بأرض حماه هي أجمل فتاة في الوجود خدها يزري بالورود، عنقها أبيض محلى بالجواهر صدرها جنة رضوان ثدياها بيض النعام وهي توافقك تماماً وتفتخر بها على أولاد الملوك فلما سمع منها هذا الكلام سر سروراً عظيماً وقبل يد أمه وقال لها: سأذهب إليها لأراها وأخطبها من أبيها فإن أبى فيكون مصيره كمصير كل من يتمسك ببنته ويمنعها عمن تحبه ويحبها، ثم قال لأمه: إذا مضى علي شهران ولم يأتكم خبر عني فأخبري عقل بن هولا عن قصتي، فقالت له: اذهب فأنا لا أخاف عليك وفقك اللَّه لنيل مبتغاك. عند ذلك تقلد بسلاحه وأخذ معه كل ما يحتاجه بسفره وركب جواده وأخذ معه غلامه بلال وسارا معاً يقطعان البراري والقفار إلى أن وصلا لقرب مدينة حماه فنزلا عن الجوادين وجلسا يأكلان ثم ارتكى نصير قليلاً ونام وغلامه يحرسه. ولما أفاق من نومه نام الغلام فجعل نصير يفكر كيف يعمل ليرى ورد الروض فرأى ثلاثة قادمين على الطريق ومع كل واحد منهم ربابة فعلم أنهم شعراء فسلم عليهم وسألهم إلى أين ذاهبون؟ قالوا: إننا ذاهبون إلى الملك غضنفر نمدحه وننال منه العطاء ثم نذهب إلى قصر ورد الروض ونمدحها ثم نوصف لها شباب بني هلال فتشتاق لرؤياهم وتتمنى أن يكون فتى أحلامها أحد أبطالهم، فقال نصير: بما أنكم تعرفونها فقولوا لي عن أوصافها على التمام بدون مبالغة فارتجل الشاعر نصار هذه الأبيات يوصف بها ورد الروض كما رآها:

يقول الفتى نصار والقول صادق شاعر قدير دوم ينظم الأشعار
أدخل أنا عند الملوك جميعاً أمدحهم والمدح عندي كار
وفي كل عام أزور الملك غضنفر أقبض منه عطا زايد المقدار
وما بعده نزور بنته الفريدة محاسنها تسلب العقل والأفكار

ورد الروض أحلى بنت للغوى لها وجه يشبه الأقمار
لها شعر مثال الليل أسود لونه إذا وقفت على الأرض عشر أشبار
جبينها يضوي كما النور في الدجا وتحته قوسين مرسومة على البيكار
وعيونها كما عيون الفهد لكنها نواعس ذوابل تسلب الأعمار
وخدود كالتفاح صافي ولونها أبيض ومن فوق البياض احمرار
وعمرها ما حطت خطوط وحمرة سبحان ربي الخالق الستار
خايف عليك تشوفها يا مير مرة تسوح وتختفي بسهلها واقفار

فلما سمع نصير أوصاف ورد الروض زاد عشقه وهواه والأذن تعشق قبل العين، وقال للشاعر: يمكنك أن تكون واسطة اتصال بيني وبينها حتى أجتمع بها وأراها ولك مني ما تريد فقال له: مرحباً بك اخلع ثيابك وارتد ثياب شاعر واحمل ربابة فتمدح الملك ثم تذهب لعند ورد الروض وتمدحها فتراها وتراك فشلح نصير ثيابه وتزيّا بزي شاعر وحمل الربابة وترك جواده عند الغلام وساروا حتى دخلوا على الملك الغضنفر فسلموا عليه فأمر لهم بالجلوس فجلسوا ومدحوا الملك ولما جاء دور نصير عدل الربابة وارتجل هذه الأبيات:

يقول نصير الشاعر واللَّه عالم أتيت نحوك يا ملك قاصد
أتيت نحوك أريد مكارمك فمن يقصد حماك نال المحامد
أريد مهرة يا أمير مسلسلة كريمة أصيلة من خيول المطارد
عسى تسمح بها وتجبر خاطري يا ليت عمرك على أعمار الخلق زايد

فلما فرغ نصير من كلامه قال له الملك: انزل إلى إسطبل الخيل واختر لك جواداً أو مهرة أصيلة وبعدما انتهوا من ضيافة الملك قصدوا ورد الروض ودخلوا غرفة الضيوف. أما الأمير نصير فصارت عيونه تضرب إلى الباب وهو لا يصدق أن يراها ويقول في باله: هل أراها وأنظر جمالها وأنشق روائحها الزكية؟ وصار قلبه يخفق مثل جناح الطير وفجأة دخلت ورد الروض وكأنها القمر في ليلة أربعة عشر عليها ثياب من الملس الناعم وفي عنقها عقد جوهر ومعها ثلاث جوارٍ وأدارت نظرها بالضيوف فرأت نصيراً جميل الصورة بهي الطلعة صبوح الوجه ما رأت طول عمرها أجمل منه لا من بنات ولا من شباب وحست أن قلبها تكهرب وانجذب نحوه، ورأته يحدق النظر إليها ويكاد يلتهمها التهاماً ودليل العشق والهيام لائح على وجهه فالتفتت إلى الشاعر نصار وقالت له: أنا أقول بأن رفيقك أمير وليس بشاعر فقل لي الحقيقة هل هو مرعي الذي اشتهر بالحسن والجمال وإلا عقل بن هولا قل لي ولا تخْفِ عني شيئاً فإن كان أميراً وابن أمير فإني أكون زوجته. فوقف نصار

بين يديها وقال لها: إنه من أمراء بني هلال اجتمعنا به في الطريق وأحب أن يرافقنا فأتينا به معنا فإن رضيت عنه تكوني جبرت خاطرنا وإلا فسامحينا حتى نرحل فقالت: أهلاً وسهلاً ومرحباً بكم أما الأمير نصير لما رأى حسنها وجمالها ثم رضاءها عليه وأنها تحبه كما يحبها أنشأ يقول:

يقول الفتى نصير من قوم أكارم ... النار في قلبي تزيد ضرايم
أردت أن أسمع بذكر صبية ... ظريفة عفيفة من خيار العوالم
تفوق ريما بالجمال وسعد الرجا ... ونجمة السحور وبدر النعايم
فوصفت لي أمي كل محاسنك ... فصرت سايح في البراري وهايم
وجينا ليم أبوك حتى نمدحه ... وطلبت مهرة تسبق ريح النسايم
فلا بد آخذك رغماً عن العدا ... ويجتمع شملنا ونقضي اللوازم

فلما سمعت ورد الروض ما قال نصير انشرح صدرها وزال عنها الهم وقالت: أنا موافقة أن تكون زوجي، فدبر الأمر بمعرفتك فقال لها: نسافر بعد ثلاثة أيام فاجمعي ما يخصك من خفيف الحمل وغالي الثمن فقبلت ما قال لها، ثم ودعتهم وعادت إلى غرفتها، وأرادت أن تنام فما قدرت وكيف ينام العاشق والحبيب قريب منها ونائم في قصرها وصارت في أفكار ثم صارت تترنم بهذا القصيد:

نار قلبي من يقدر يطفيها ... لهيباً أشعل مهجتي اليوم كاويها
فؤادي اشتعل بالهوى لما رأى ... شاباً ظريفاً صفات الحسن حاويها
له قامة مثل الرشاوي رقيقة ... وحبيبته ما في أحد حواليها
يا ليته يكون عندي أضمه ... ويبقي الليالي معي يمضيها

وفجأة سمعت نقرة على الباب فخافت أن يكون سمعها أحد ثم قالت في نفسها: لا بد أن يكون حبيب القلب قد أتى وقامت وهي شبه عارية وفتحت الباب وإذا هو حبيبها نصير ففرحت به غاية الفرح وإذا به يعانقها وهي تعانقه، فقالت له: كيف حضرت إلى هنا؟ أما خفت أن يراك أحد؟ فقال: لقد قلقت وجفاني النوم وأنا أفكر بك وألهج بذكرك فقلت: إن كانت سهرانة مثلي أدخل لعندها ونتسلى معاً وإن كانت نائمة أرجع إلى فراشي ووقفت على الباب فسمعت غناءك العذب وتمتعت بصوتك الحنون وطرقت الباب ففتحت لي وإني أسهر معك ولا أدنو منك حتى نكتب الكتاب فقالت: وأنا كذلك ولكني لا أريد أن تكون بعيداً عني وأحب أن تبقى بجانبي ليلاً ونهاراً. وكان للملك غضنفر وزير اسمه حنظلة وله ولد اسمه الهدار من الفرسان الصناديد، فأحب الوزير أن يخطب ورد الروض لابنه وكانت

ورد الروض تبغضه لبشاعة منظره فلما رأى الوزير الشعراء ورأى معهم نصير تمعن فيه فما خفي أمره لما سمع قوله للملك أريد مهرة تكون أصيلة عرف المعنى وقال: إن صدق ظني يكون هذا أميراً ومراده يخطب بنت الملك لذلك قال للملك: هذا ليس شاعراً وإن المهرة التي يريدها هي فتاة عذراء لا يريد غيرها ولو أعطيته ملكك كله. وكان الوزير أهدى جارية للملك لتخدم ورد الروض وأوصى الجارية أن تخبره بكل ما تفعل ورد الروض وبكل من يأتي لعندها فسمعت الجارية طرقاً على الباب فنظرت فإذا الطارق الأمير نصير وفتحت له ورد الروض ودخل وبقي الباب مفتوحاً فرأتهما يتعانقان فانسلت من مكانها وذهبت بسرعة إلى بيت الوزير، فقالت له: رأيت بنت الملك تعانق الشاب وهو الآن في غرفتها فسار الوزير والجارية معه إلى قصر الملك وقال له: تعال انظر بنتك والشاعر في غرفتها، فلما سمع الملك هذا الكلام غضب ونهض قائماً ولبس ثيابه وأخذ سيفه وخرج وهو لا يعرف طريقه، ولما دخل غرفة ورد الروض صاح بها يا خائنة لا بد من قتلكما معاً، فمن هذا النائم عندك وسحب السيف وأراد أن يضربهما معاً فهبت ورد الروض مذعورة قائلة: ماذا عملت يا أبي حتى تقتلني ولما نهضت من فراشها انكشف الغطاء عن النائمة جنبها فرآها الملك فإذا هي فتاة وليس رجلاً كما قال الوزير، والتفت إلى الوزير وقال له: يا فاسق أين الرجل الذي قلت عنه إنه في غرفة ابنتي؟ فارتعب الوزير وقال: إن هذه الجارية قالت لي ذلك الكلام، فقال له: انظر هذه جاريتها نائمة عندها تسليها وتخيط لها الثياب فقالت الجارية: إني نظرته بعيني دخل عندها ونام معها فخافت على حبيبها نصير وصارت تكذب الوزير وتقول لأبيها: إن الوزير كذاب منافق يريد أن ينتقم مني ويرميني بالتهم الباطلة لأني لم أقبل أن أتزوج بابنه وأنت تعرفني يا أبي عفيفة. أما الملك فتذكر أن الوزير خطبها لابنه فرفضته وعمل هذه الحيلة لينتقم فقال للوزير: إنك اتهمت بنتي وأزعجتني من منامي في الليل فأنت تستحق العذاب الصارم، أما الآن فإني أعفو عنك فقال الوزير: إن الحق على هذه الجارية هي التي أخبرتني.

(قال الراوي) إن الأمير نصير كان موجوداً في غرفة ورد الروض ولما ذهبت الجارية لتخبر الوزير شعر بها الشاعر نصار فعرف أنها ذاهبة تفضح ورد الروض عند الوزير أو عند أبيها فأيقظ نصير وورد الروض وقال لهما: إن الجارية انسلت من غرفتها وربما ذهبت لتفضحكما. فلما سمعت ورد الروض هذا الكلام خطرت في بالها الجارية فذهبت لغرفتها فلم تجدها فتأكدت من الخبر وقالت للشعراء ولمحبوبها نصير: ناموا أنتم في غرفتكم وكأنكم ليس لكم علم بشيء وأنا أنيم

جاريتي عندي وأخلص نفسي فذهبوا لغرفتهم وأقفلوا الباب وناموا ونامت ورد الروض هي والجارية التي تمشطها وتكتم أسرارها ولما حضر الملك والوزير وجدهما نائمين، ثم إن الملك غضنفر نزل لينظر إذا كان الشاعر هو الأمير نصير من بني هلال وهل قصده يخطف ورد الروض كما قال الوزير، وطرقوا الباب على الشعراء ففتح الشاعر الباب ورأى الملك والوزير، فقال لهما: خير إن شاء اللَّه كيف زرتم عبدكم في هذا الليل؟ فقال له الملك: أيها الشاعر اللبيب قل لي الصحيح هل هذا ابن عمك أو هو أمير من أمراء بني هلال؟ فقال له: لا تسمع كلام الوشاة يا مولاي فهذا وحيد أمه وأبيه وليس من بني هلال وأقسم لك على ذلك فقال الوزير: إن الشاعر يكذب فاحبس الشعراء عندك لئلا يهربوا وأرسل جاسوساً لبني هلال يسأل عن نصير الشاعر عند ذلك أمر الملك بوضع الشعراء بمكان وحدهم وقدموا لهم ما يحتاجون ومنعوهم من الذهاب لأي مكان حتى يعرف حقيقة الأمر وفي الصباح أرسل جاسوساً ماهراً لبني هلال يفتش عن الأمير نصير يتنسم الأخبار فذهب الجاسوس، أما الشاعر الذي كان بصفة خادم فإنه بقي في الغرفة وما أحد افتكر فيه فقالت له ورد الروض: كيف تركوك؟ قال: إن الأمير نصير لبس ثيابي وأنا لبست ثياب خادم فما اعتنوا بي فقالت: قصدي اكتب مكتوباً إلى بني هلال فقال: اكتبي فكتبت رسالة إلى بني هلال فأخذها الشاعر وذهب للمكان الذي فيه الشعراء فسمح له الحارس بالدخول فقال للأمير نصير: اكتب كتاباً إلى بني هلال فكتب هذه الرسالة:

يقول نصير ابن منقد بما جرى له ... ونيران قلبي زايدات وقيد
ونار الهوى كل ما أقول تنطفي ... تضرم بأحشاء المحب وتزيد
أنا كنت قبل اليوم لا أدري الهوى ... فحل بي وخلاني بلا ترشيد
سمعت بورد الروض بنت غضنفر ... ملك حماه فارساً وعنيد
دخلت على الملك غضنفر مدحته ... فظن أني شاعر بالتأكيد
لمحت ورد الروض كالبدر في الدجا ... من فاز بها طول عمره سعيد
أخذوني إلى حبس وصرت بضيقه ... حتى يعرفني غضنفر الصنديد
وأرسل يفتش إن كان هذا مؤكد ... يعود يقتلني وأصير فقيد
أيا عزوتي يا هلال انجدوني ... ولا تتركوني للعدا أن أبيد
أبو زيد يا حامي الحمى يوم الوغى ... وديباب مثل سباع البر والبيد
زيدان أبو درغام شيخ شبابنا ... وعكرمة ومخيبر وجبران مزيد
اللَّه أكبر إذا كرت أولاد هولا ... نصر وعقل الفارس الصنديد

أنـا عـقـل أنـجـدنـي وخـبـر رفـاقـي نصير في الأسر قاسى الهم والتنكيد

ثم طوى الكتاب وأعطاه للشاعر فذهب الشاعر إلى غلام نصير وأعطاه المكاتيب فركب الجواد وسار إلى نجد، أما الأمير منقد أبو نصير فسأل زوجته أين ولدنا نصير فحكت له أنه سافر ليأتي بورد الروض فقال لها: ويلك قد رميت ولدنا في بحر ليس له قرار ولا بد أن يقع في الأخطار ويذوق أشد العذاب والآن أسرعي وأخبري عقل بن هولا لعله يلحقه وتضطر بنو هلال أن تخلصهما معاً، فأرسلت خبراً إلى عقل أن يحضر فلما أتى أخبرته بأن ولدها سافر إلى حماه لأجل ورد الروض ثم بكت أمامه وجعلت تنخيه فقال لها: لا تبكي فأنا ألحقه في الحال ثم إنه ذهب وأخبر نصر وعكرمة ومرشد وقال لهم: اركبوا معي فركبوا معه في الحال يقطعون البراري والآكام حتى وصلوا إلى عين ماء باردة فنزلوا يستريحون وإلا رأوا العبد بلال فعرفهم وسلم عليهم وشرح لهم واقعة الحال فقالوا له: أسرع وأعط الكتابين للأمير زيدان وقل له: إننا أصلينا نار الحرب ثم ركبوا خيولهم وساروا إلى حماه فقال عقل: أنا أريد أن أخلص نصير في هذا الليل قبل أن يعرفونا ويقتلوه. فأرسل غلامه يتجسس ويعرف المكان الذي محبوسين فيه الشعراء فدار الغلام في البلد فرأى قصراً كبيراً ورأى جارية فسلم عليها وسألها لمن هذا القصر؟ فقالت: لورد الروض بنت الملك فقال لها: أخبريها سراً بأني أريد مقابلتها فذهبت وقالت لسيدتها: إن غلاماً غريباً يطلب أن يراك فقالت لها: أدخليه حالاً. فأتت به فسلم عليها وقال: أنا غلام عقل بن هولا فقالت: أهلاً وسهلاً أين هو؟ فقال: هو خارج المدينة ومعه عكرمة ونصر ومرشد ومرادهم يخلصوا نصير ويأخذوكما معاً فقالت: لا لزوم لذلك وأنا أعمل حيلة وأهرب أنا والأمير نصير قل لهم ينتظروننا حتى نخرج ونركب كلنا سوا، فعاد الغلام إلى عقل وأخبره بما قالت ورد الروض. أما الشاعر الذي كان يذهب إلى نصير بصفة خادم فقالت له: اذهب إلى الأمير نصير والبس ثيابه وأعطه ثيابك فيخرج بها وأنت اجلس مكانه ففعل الشاعر كما قالت له: ونجحت الحيلة وخرج نصير من سجنه وأتى إلى ورد الروض فحكت له عن وجود عقل ورفاقه ففرح غاية الفرح وقال: مرادي أولاً أن نخلص الشعراء من الحبس قبل أن يقتلوهم. فأخذ خنجراً وذهب إلى السجن فضرب الحارس بالخنجر قتله وأخذ المفتاح وفتح الباب وقال لهم: أسرعوا فحملوا حوائجهم ومشوا معه ولما وصلوا إلى القصر وجدوا ورد الروض أحضرت كل ما يلزمها من خفيف الحمل وغالي الثمن، ثم ساروا إلى المكان الذي فيه الأمير عقل ورفاقه فسلموا على بعضهم ثم ركبوا وسافروا. أما الملك غضنفر فنزل إلى الديوان فأتاه الخبر بأن الحارس الذي يحرس الشعراء مقتول والشعراء هربوا فطار صوابه ثم أتاه خبر أن ورد الروض غير

موجودة فعظم عليه الأمر ولام نفسه لأنه لم يقتل نصير الذي يتصف بصفة الشعراء ثم قال للوزير: الحق معك أما الوزير فإنه ارتجل هذه الأبيات:

يقول الوزير حنظلة ابن صبرا ... ياما لقيت من الزمان عجايب
هذه بنتك خانت أبوها وأهلها ... وراحت مع نصير والعرض سايب
راحت إلى أرض الهلالي أبو علي ... أمير بلاد نجد وكل الأعارب
أبو زيد سحار مكار علمه واسع ... يولد سباع البر من بطون العقارب
وأما دياب فارس هلال جميعاً ... حامي حماة البيض يوم المضارب
زيدان أبو درغام شيخ شبابهم ... ستين ألف ما فيهم قط شايب
إن طعتني أرسل حالاً عساكرك ... جيب بنتك واطفي اللهايب
اقتلها واقتلهم امحي أثرهم ... وخلي دماهم على الأرض ساكب

أمّا الغضنفر فكان له ابن عم اسمه أبو عيطة قال له: خذ معك عشرة آلاف فارس وسر في طريق نجد واحضر بنتي ورد الروض ومن معها لأحرقهم بالنار فركب من ساعته مع عشرة آلاف فارس وجد السير. أما عقل ورفقاؤه فقد قطعوا مسافة طويلة ثم نزلوا بمكان واسع وفيه أشجار كثيرة ووضعوا مائدة الطعام فأكلوا وشربوا وانبسطوا وناموا. وفي الصباح اعتلوا ظهور الخيل والتفتوا خلفهم فرأوا الغبار قد ثار فصاح عقل هذه خيل الملك غضنفر وصلت عند ذلك أطلعوا ورد الروض على رابية وأخفوها هناك، أما الشعراء فابتعدوا عن المكان وأرادوا أن يقصدوا بني هلال فيخبروهم بأحوال الحرب لعلهم يأتون بجيوشهم وعساكرهم ولما أقبلت فرسان الملك غضنفر أمرهم أبو عطية أن يدوروا حول الشباب ويأخذوهم على رؤوس الحراب فحملوا عليهم وتقاتلوا قتالاً مريراً وقام الحرب واشتغل الضرب وصار عقل يأخذ الخيل كراديس كراديس وعكرمة جعل القتلى فوق بعضها البعض. أما نصر فخلى الدماء تتدفق من الأعناق والأمير نصير أبلاهم بالذيل والويل ثم افترقوا عن بعضهم. وفي الصباح تجدد الحرب والكفاح ورأى أبو عطية أن أكثر فرسانه قد قتلوا فصاح بقومه عار عليكم خمسة فرسان تفعل بكم هذه الأفعال ثم كتب مكتوباً إلى حماه يخبر الملك بما صار في العساكر ثم أعطى المكتوب إلى ساع يوصله للملك ثم رجعوا إلى الحرب والطعان وانتصب بين الفريقين الميدان وتدفقت الدماء كالغدران وصبغت الفرسان، بلون الأرجوان وقد قتل كثير من الأبطال وغار عقل من جهة وعكرمة من جهة ونصر ومرشد دخلوا في قلب المعركة ونصير خلف الجميع يحمي الطريق خوفاً من أن يصل أحد إلى ورد الروض والتقى عقل بأبي عطية وصاح عليه وتقاتلا ساعة من الزمان ثم ضربه عقل

بسيفه فأرداه قتيلاً ثم هرب الباقون فلحقهم الشباب وأنزلوا بهم العذاب ثم لموا الخيول والأسلاب فاستقبلتهم ورد الروض بالزغاريد والغناء ثم حملوا وساروا إلى بلادهم وركبت ورد الروض في هودجها. وكان دليلهم الشاعر نصار فمال عن الطريق فتبعوه وهم لا يعرفون ولما طلعت الشمس رأوا حالهم في براري وسهول واسعة فسألوا الشاعر فقال لهم: هذه الطريق أوفق لنا فنرتاح بها من الحروب والقتال فلا يظن الأعداء أننا أتينا من هنا وكل الدروب توصل إلى الطاحون. أما الملك وهو جالس في الديوان إذ دخل عليه مرسال أبي عطية وأعطاه الكتاب ففضه وقرأه فاسودت الدنيا في عينيه وازرق لونه واصفر وقال لوزيره حنظلة: خمسة أولاد من بني هلال تكسر عساكرنا وجنودنا ولكن لا بد لي من الزحف على نجد فأقتل الفرسان وأيتم الأطفال، ثم قال للوزير: اجمع العساكر واركب في الصباح مع ولدك وسيروا إلى نجد وخلصوا أبا عطية والذين معه فاجتمعت العساكر من جميع الجهات وسمعوا ضجة فرأوا عساكر أبي عطية المنهزمين قد عادوا بأسوأ حال وأخبروه بقتل ابن عمه وتشتت الباقين فعظم عليه الأمر وركبوا في الحال يلحقون شباب بني هلال وكان عدد عساكره عشر كرات وركب الوزير حنظلة وابنه الهدار وسافروا على طريق نجد فوصلوا إلى الأرض التي صارت المعارك فيها فرأوا القتلى ورأوا أبا عطية جسداً بلا رأس فأمر الملك بدفنهم ثم ساروا إلى أن وصلوا للمكان الذي سار منه بنو هلال فوقف الوزير حنظلة، وقال: أظن أن بني هلال هربوا من هنا فقال الملك: إذن ننقسم إلى قسمين قسم يسير فيه ابنك الهدار خلف بني هلال وقسم أسير فيه أنا وعساكري على الطريق العام والملتقى قرب الحجاز فانقسموا إلى قسمين وساروا. أما الغلام الذي أخذ مكتوب ورد الروض ومكتوب نصير فإنه أوصلهما إلى بني هلال وسلمهما للسلطان حسن فأعطاهما لأبي زيد فقرأهما على الجميع وبعد أن فرغ من قراءة المكتوبين، قال الأمير دياب: أنا أركب وأسير ببني زغبي فقال أبو زيد: ليذهب الأمير زيدان ويباشر الحرب فإن احتاج لعساكر رحلنا كلنا فقال زيدان: أنا لا أسافر حتى آخذ أخبار عكرمة وعقل ونصر ومرشد فأخاف أن يقعوا في مصيبة وأنا مشغول بالحرب لا أقدر أن أساعدهم عند ذلك قال العبد بلال: اعلموا أن هؤلاء الأربعة رأيتهم ذاهبين إلى حماه ليساعدوا الأمير نصير وقالوا لي: قل للأمير زيدان يصلي الحرب فعندها نهض الأمير دياب وأنشد:

يقول أبو موسى دياب ابن غانم ... قد شاب رأسي من نزول البوايق
ولي سيف يقطع البولاد حده ... قديم مدخر نصلته من الصواعق
أنا أبوك يا وطفا إذا الخيل أقبلت ... أمزقها والغبار بالجو لاحق
فما عاد بدها إهمال يا جماعة ... يا أبطال الوغى في المغارب والمشارق

فقال الأمير حسن: واللَّه يا سادات ما تأتي النكبات إلا من تحت رأس البنات وصار من اللازم أن نحارب الآن ونبقي في البلاد خمسين ألف فارس عشرة من عساكري، وعشرة من عساكر الأمير بدر وعشرة من بني زغبي وعشرة من شباب زيدان ويبقى الأمير بدر بن غانم والأمير عرندس ونحن نسافر على بركة الرحمٰن وفي الحال انتخبوا خمسين ألف فارس وأبقوهم في البلاد، ثم ركبت بنو هلال ورفعت الأعلام وساروا قاصدين مدينة حماه فوصلوا إلى أرض واسعة فنزلوا ليرتاحوا وإلا رأوا الغبار قد علا وثار وانكشف عن فرسان وأبطال بعدد الرمل وكانوا قوم الملك غضنفر فنزلوا ونصبوا الخيام ودقت طبول الحرب وبرز للميدان فارس اسمه أبو عين فبرز إليه الأمير مناع وتجاول معه ثم ضربه بالسيف ألقاه قتيلاً ثم برز إليه آخر فقتله ولما أمسى المساء كان قتل عشرة فرسان. وفي الصباح هجمت الفرسان على بعضها وعظمت الأهوال وهجم أبو زيد كالصاعقة وصار الدم يجري كالسواقي. وعند المساء دقت طبول الانفصال فرجعوا عن الحرب والطعان. يرجع الكلام إلى الشباب ظلوا سائرين حتى وصلوا إلى نجد وبعثوا بالبشائر ودخلوا بعراضة عظيمة واستقبلتهم الجازية والبنات بالزغاريد والغناء وأخذن ورد الروض وعانقنها وترحبن بها واستقبل الأمير بدر وأولاده وسلم عليهم وأرسل الأمير عرندس غلاماً من غلمانه يخبر السلطان حسناً بقدوم الشباب مع ورد الروض وأقاموا الأفراح وأحيوا الليالي الملاح، وفجأة طلت الفرسان وبانت عساكر حماه بقيادة الهدار ابن الوزير فصاح الأمير بدر الخيل يا ركابها والعدا يا طلابها. لأن الهدار سار في الطريق خلف الشباب فما قدر يلحقهم؛ لأن الأرض كانت موعرة وصعبة المسالك فلما وصلوا أرسلوا جاسوساً يجس الأخبار فدخل الجاسوس إلى نجد ودار فيها وعرف أن فرسانها غائبون فعاد وأخبر الهدار فقال: لا بد أنهم يتلاقون مع الملك في الطريق وأنا غداً صباحاً أهجم على الحلة فأنهبها وأغنم نسوانها وبناتها وعند الصباح ركب وتقدم إلى نجد وقبل أن يصل إليها خرجت الفرسان من كل ناحية وحملوا على بعضهم وغنى السيف في الصدور والرقاب وغار الأمير عقل ونصير ومرشد وعكرمة وعرندس على عساكر الملك وبطشوا بهم وبقي الحرب عاقداً والدم دافقاً إلى المساء دقت طبول الانفصال وبات بنو هلال في هم ونكد. وفي الصباح تجدد الحرب والكفاح فقال بدر: لازم نبرز إليهم فارس لفارس ونقتل الهدار فمتى قتلناه تهرب العساكر ونبطش بهم وفي اليوم الثاني برز عكرمة إلى الميدان فبرز إليه الهدار وانطبق الفارسان على بعضهما كأنهما أسدان كاسران وشخصت نحوهما العيون واختلفت بينهما طعنتان قاطعتان، أما طعنة

عكرمة فراحت خائبة وأما طعنة الهدار فأصابت فخذ الأمير عكرمة جرحته ولكنه أظهر الجلد وإذا بالأمير مرشد انحدف على الهدار واشتد بينهما القتال إلى أن شك الأمير مرشد الهدار بعود الزان فغطس تحت بطن الجواد فراحت خائبة وضرب الهدار بالدبوس مؤخر الحصان ووقع مرشد إلى الأرض فأسرع الأمير عقل بن هولا ورد الهدار عن مرشد بضرب مثل لهيب النار فصاحت الجازية تنخي الأبطال هي والبنات فلما رآهن عقل راخيات الشعور كاشفات الوجوه تحركت فيه نخوة الرجال وأشار يقول:

صاح عقل الخيل ابن بدر بلا خفا ... ردوا البراقع وغطوا بدور التمام
ردوا براقعكم وامسحوا عيونكم ... وابدلوا البكا يا بنات بالابتسام
عقل أنا ونصر ابن والدي ... وبدر أبوي وعمي أبو غنام
ويوم الذي جاءت لي امرأة منقد ... تقول ابني عاد بالحب منضام
فزيت بالحال وأخذت رفاقتي ... ورجعت إلى حماه وديرة الشام
رحلنا ورد الروض معنا غنيمة ... ما لها مثيل بالترك والأعجام
لحقنا أبو عطية ومعه فوارس ... هجمنا عليهم بالصارم الصمصام
قتلنا أبو عطية وبددت شمله ... وذبحنا عساكره كذبح الأغنام
وعدنا وعاد النصر يخدم ركابنا ... وسرنا إلى نجد على خير وسلام
وبعدها جاءنا الهدار غاير ... ومعه عساكر لا تحصيها الأقلام
فيا خالتي ردي البنات وارجعي ... أنا حامي الزينات أنا الدرغام
أنا لا بد إن عانني ربي وخالقي ... لأقتل الهدار في هذا الحسام
وأفني عساكره أشتت شملهم ... وأجعل مقابرهم بطون الهوام

عند ذلك أخذت البنات ورجعت إلى الصيوان ولما أشرقت الشمس خرجت الفرسان تستعد للحرب والطعان وجاءت الجازية ومعها البنات وصارت تنخي دياب:

اليوم يوم الحرب غنوا يا بنات ... وانظروا عقل حامي المحصنات
عقل من فوق أدهم راكب ... سيفه بيده بالدشمان ضارب
يا دمع عيني على الخدين ساكب ... لا يمسحه غير عقل المكرمات
يا عقل انظر بنت خالك ... وبنت عمك وبنت هلالك
مثل البدور راكبين قبالك ... ينادوا اليوم يومك يا ابن السادات
انظر وطفا ونجمة ثم ريما ... جمال الظعن والمارية الفهيما
بدر النعام وفتنة وسليما ... دموعهن فوق الخدود جاريات

عـقـل أنـا أخـت الـهـلالـي والـبـنـات كـمـا الـبـدور تـلالـي
يـا حـيـف الـعـدا تـنـظـر جـمـالـي أنـت ونـصـيـر تـحـمـوا الـزيـنـات
ونـصـر مـن خـلـفـك مـثـل فـهـد يـغـيـر عـلـى الـعـدو مـا يـخـاف أحـد
ومـرشـد يـا عـيـونـي إن راح يـهـد تـقـول رجـال الـعـدا راحـت شـتـات

ولما فرغت الجازية من كلامها زادت النخوة والمروءة عند دياب ونوى على قتل الهدار وكان قد هجم على بني هلال وقتل عدة رجال وأراد أن يرجع إلى ساحة الميدان وإذا بعقل صدمه صدمة جبار وأخذ معه في القتال والصدام ودار بينهما الأخذ والرد والقرب والبعد والكر والفر حتى تقصفت بيدهما الرماح، وخافت الجازية على عقل فساقت هودجها ومن خلفها البنات دالعات فازعات وزلغطت زلغوطة النصر بصوتها الحنون فلما فرغت الجازية والبنات من الزلاغيط تقدمت فرسان بني هلال ودبت النخوة في رأس دياب وصاح بخصمه صوتاً ارتجت له الوديان وضربه بالسيف على كتفه شقه لدكة لباسه فوقع قتيلاً فصاحت البنات لا شلت يداك يا فارس الزمان ثم هجمت الأبطال والفرسان واختلطوا ببعضهم البعض وكانت وقعة عظيمة وكان عقل يقتل الفرسان ويدحرج الرؤوس عن الأبدان فولت قوم الأعداء وطلبوا النجاة فتبعوهم وفرقوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وعادوا كاسبين غانمين، وقامت الأفراح وعادوا مسرورين بهذا النصر العظيم.

أما الأمير حسن وشباب نجد فإنهم تقاتلوا مع الأعداء عدة أيام وكان الملك غضنفر من الفرسان المعدودين وقد وقف في وجه بني هلال ثم وصلت إليه العساكر التي هربت من نجد وكانت مع الهدار وأخبروه بما جرى على ابن الوزير فطار صوابه وتكدر وبكى الوزير حنظلة وصار يلطم خدوده ثم ركب الملك غضنفر وبرز إلى ساحة الميدان وطلب مبارزة الفرسان فبرز إليه الأمير أبو زيد وهجم عليه الغضنفر واشتد بينهما الطعن والصدام إلى المساء دقت طبول الانفصال فافترقوا على سلام وعند الصباح نزل دياب إلى الميدان ولعب الخضرا فنزل إليه الغضنفر وتحاربا وتقاتلا حتى كلت منهما السواعد وبقي القتال عاقداً والريق جامداً إلى قرب العصر، فأطلق الملك السنان على الأمير دياب فما أصابه عندها أطلق دياب الرمح على الغضنفر فخرق صدره طلع يلمع من ظهره فلما رأى أبو زيد مصرع الغضنفر هجم على قومه وهجم الأمير حسن وزيدان. وهجمت الفرسان ودار بينهم القتال وصار قوم الغضنفر بويل عظيم وشر جسيم، وعندما أقبل الليل تفرقوا وتشردوا في البراري والقفار تاركين جمالهم وأغنامهم ورجع بنو هلال في حظ وأفراح، وعند الصباح اجتمع الأمير حسن ببني هلال وقال لهم: صار واجب علينا أن نرجع إلى

الأوطان ثم إنهم ركبوا ورجعوا يتسابقون على خيولهم وقبل أن يصلوا إلى بني هلال وصل خبرهم إلى عرندس وبدر وباقي الأحباب، فخرجوا لاستقبالهم وخرجت النسوان بالدفوف والمزاهر وبشروا السلطان حسناً فقال: الحمد للّه على السلامة وصار من اللازم أن نهتم بعرس الأمير نصير، وأقاموا الأفراح وذبحوا الأغنام وعملوا الولائم مدة سبعة أيام ودخل الأمير نصير على ورد الروض وعاشا في هناء وسرور وملذات وحبور وأنجبا بنين وبنات وداموا في بسط وانشراح.

قصة نرجس الروض

(قال الراوي) بينما بنو هلال في بسط وانشراح وإقامة الأفراح بعرس الأمير نصير على ورد الروض، إذ دخل عليهم ساحر وعليه هيأة السفر الطويل فترحبوا به وأجلسوه وبعد أن أكرموه، قال له زيدان: هات لنا شيئاً من ألعابك السحرية فأتى ببعض أشياء تحير العقول فقال عرندس: إن هذه الألعاب معروفة ويعمل أبو زيد مثلها وأزود، فقال الساحر: وما هو أبو زيد إنه لا يعرف شيئاً بالنسبة لما أعرفه أنا انظروا هذا خيط ورماه على عرندس فإذا هو حية ملفوفة على رقبة عرندس فارتعب منها عرندس ويبست يداه فضحكوا عليه فقال زيدان: لا تؤاخذ عرندس وخلصه من الحية قبل أن يختنق فأشار إلى الحية فعادت خيطاً وتحركت يداه وأخذ الخيط يتأمله فرآه خيطاً ثم أخرج الساحر علبة نشوق فسألوه ما هذا؟ فقال: دواء للرشح فأخذوا منه وصاروا يشمونه ثم انقلبوا في الأرض كالأموات، أما عكرمة فما أصابه شيء؛ لأنه لم يشم منه وسحب السيف وأراد أن يقتل الساحر فيبست يده وجمدت رجلاه في الأرض وقال له الساحر: ترفع يدك عليّ يا ولد وأنا يا ما حملتك على كتفي وأنت صغير وما نيمت هؤلاء الشباب إلا لأجل غرضك وأشار بيده نحو عكرمة، فتحركت يده ووقع منها السيف وانطلقت رجلاه وقال له: ولكن من أنت حتى حملتني وأنا صغير؟ فقال له: أنا اسمي بدران وخالي أبو زيد وهو الذي علمني هذه اللعب ولكني زدت عليه وقد سمعت في بعض الأيام بالماضي بن مقرب أنه كريم ويجود على الشعراء، فسرت عدة أيام وإذا أنا على ساحل بحر ورأيت قارباً فخرج جماعة وأخذوني أسيراً ورموني في القارب ثم نقلوني إلى مركب كبير وفيه أسرى كثيرون باعوا منهم والباقي أخذهم الملك علقم صاحب قلعة البهرجان وبلاد الكيمان وكان لهذا الملك بنت ليس لها نظير في الجمال وكان يحبها أبوها ووضعها في قصر خاص بها فطلبت بنت الملك الست نرجس الروض من والدها أسيراً لأجل الخدمة فاختاروني لخدمتها فلما رأيتها كنت في بلاء وأحزان فصرت في سرور وأمان وصرت عندها من أفضل الخدم وسلمتني المصروف وجعلت لي غرفة خاصة بي وكنت أحفظ سوراً من القرآن الكريم، فكنت في بعض الأوقات أتلو هذه السور فدخلت عليّ وأنا أقرأ فنهضت قائماً فقالت: لا بأس

عليك فإني كنت أسمعك تقرأ فما هذا الكلام الذي تقوله؟ فقلت لها هذا كلام رب العالمين خالق الكون والناس أجمعين فقالت: أريد منك أن تقرأ أمامي جهراً فصرت أقرأ أمامها فرأيتها تنسر من القراءة وينشرح صدرها ثم سألتني عن بلدي وأهلي فأخبرتها أني من نجد وحكيت لها عن نساء بني هلال وعن الشباب والفرسان وعن عاداتهم وديانتهم ثم علمتها الصلاة والصوم وبعضاً من آداب الإسلام، فأسلمت وصرت أطبخ لها الحمام المحشي بالرز والبهارات وعملت لها حلويات ومعجنات وما عادت تأكل إلا من طبخي وكان لها بنت عم اسمها زهر الأزهار أتت تزورها ومعها جارية وكأنهما حوريتان من الحور العين ولكن رأيت نرجس أحلى منهما وأجمل بكثير ثم أحضرت الآلات وضربت عليها البنات أنغاماً تقول: إن القصر يرقص من الطرب وقامت نرجس وصارت ترقص والبنتان تغنيان إلى الصباح. وفي اليوم الثاني قالت لي: أعد علي ذكر بنات نجد وشبابها فذكرت لها أشياء كثيرة ومدحتك لها يا عكرمة مدحاً بليغاً حتى مالت إليك وتمنت أن تراك ثم قالت لي: أنت سبب إسلامي وأريد منك أن تسير إلى نجد وتعود ومعك عكرمة حبيبي. ثم أمرت القبطان بالسفر وقالت له: سر به إلى ما يريد فودعتها ونزلنا في المركب وسافرنا ثم دخلت إلى بلد زيد العجاج وأرسلت كتاباً إلى الست نرجس مع القبطان ثم أتيت إليكم وهذه صحة الأخبار فقال عكرمة: مرادي أن أذهب إلى نرجس الروض وآخذها زوجة لي، ولكن من يكون رفيقي في هذا السفر؟ فقال: ما لها غير عقل بن هولا فقال عكرمة: غداً نستشيره ثم فيق الساحر الشباب النائمين وذهبوا لبيوتهم وفي الصباح حكى عكرمة لعقل عما جرى له وقال: أنت تكون رفيقي في هذا السفر فقبل عقل أن يسافر معه. أما نرجس الروض فلما فارقها بدران لم يعد لها اصطبار من شدة الغرام فبكت ونزلت دموعها على خديها، ولما رآها أبوها تبكي سألها عما بها فقالت له: كنت أقرأ فشعرت كأني في زيارة للقدس الشريف فمرادي أن أزور القدس وأتمتع بأنوارها فقال لها: غداً أرسل معك أخاك صبر ومعه ستون ألفاً يحفظونك إلى أن تزوري وترجعي بأمان ثم أمر ابنه أن يأخذ أخته إلى القدس الشريف، فأحضروا الذخائر والمؤن في المركب ونزلت الفرسان وكانت نرجس قد أحضرت لوازمها ونزلت في المركب فودعهما أبوها وسار المركب يمخر عباب الماء إلى أن وصلوا لمدينة حيفا فربطوا المركب وطلعت نرجس وأخوها ونصبوا لهما صيواناً لأجل الراحة وكان قد سمع بجمال نرجس ملك من ملوك المجوس اسمه شهلب فأرسل وزيراً من وزرائه اسمه نفر أرسله إلى الملك يطلب منه نرجس، فامتنع أبوها وأرجعه بالخيبة فرجع وقال للملك: لقد

امتنع من زواجها وهي قد سافرت في زيارة إلى القدس الشريف ومعها ستون ألفاً يحرسونها عند ذلك صاح شهلب على نسيم ابن أخته وقال له: خذ مائة ألف بطل وأحضر نرجس الروض بالقوة والحرب والقتال فقال: سمعاً وطاعة وأخذ الجنود والعساكر وساروا إلى أن وصلوا لمدينة حيفا فأرسل جاسوساً يجس الأخبار فذهب الجاسوس وعاد وقال لنسيم: إنهم غافلون، فأسرع نسيم وكبس عليهم في الليل والتقت الفرسان بالفرسان وهجموا كالذئاب الكاسرة ودارت بينهم الحرب بضراوة وصبر ابن علقم وقتل منهم ألف فارس وصاح بهم صيحة دوت لها الجبال والوديان وانطبق يميناً وشمالاً يجندل الفرسان وما زال في ضرب وطعان حتى كثر جيش الملك شهلب على جيش صبر وحل بهم البلاء وبكت نرجس وخافت أن يأخذها المجوس ولا زال قومها وقوم نسيم في حرب طاحنة، وزاد الحرب عليهم فتراجعوا عن أماكنهم فلما رأت ذلك نرجس كتبت كتاباً وأعطته إلى غلامها (سريع) وقالت له: أوصله إلى بني هلال. فأخذ الكتاب وسار يقطع السهول والأوعار حتى وصل لعين ماء وكان عندها عقل وعكرمة فلما رآه عقل بن هولا وهو مسرع سأله إلى أين ذاهب وما هو اسمك؟ قال: اسمي سريع وأنا ذاهب إلى بني هلال في مهمة مستعجلة فأرجو أن لا تؤخروني عن المسير، فقال له عقل: نحن من بني هلال فهل معك كتاب؟ قال: نعم وناولهما الكتاب وإذا هو يحتوي على خصلة شعر مثل الحرير وقصيدة من نرجس الروض هذا نصها:

تقول فتاة الحي نرجس الحزينة ... دمع عيني على خدي غزار
أيا أمير جد السير بلا بطا ... اقطع فيافي في البر ليل ونهار
سلم على حسن الهلالي أبو علي ... وقيعة عندك يا معز الجار
وسلم على أبو زيد الهلالي سلامه ... أبو زيد أنت على الحرب صبار
وسلم على الفتى دياب بن غانم ... فارس الفرسان هما المغوار
وقيعة على زيدان شيخ الشباب ... بيوم الوغى ما ظن مثله صار
وسلم على الجهال جملة وقلهم ... الأجواد عند العدو ما تحتار
وفي قصد المجوس أن يملكوني ... لأني على دين النبي المختار

وبعد أن قرأ الكتاب أعطاه إلى غلامه وأمره أن يوصله إلى نجد ثم ركبوا مع سريع وساروا. أما الأمير صبر فرتب قومه وأمرهم بالاستعداد للقتال فدارت بينهما الحرب وبدأوا بقطع الأعناق وبتر الأيدي وخرق الصدور وصاح صبر فيهم صوتاً مرعباً وجندل الأقران والفرسان وما زالوا في حرب وصدام حتى كل (صبر). وتفرقت عساكره في القفار من كثرة الأعداء فحار صبر في أمره ولكنه صاح بقومه

اثبتوا على حرب أعدائكم فما سمعوا منه بل ولوا الأدبار فلحقهم خوفاً من العطب وكان عقل وعكرمة وسريع سائرين فرأوا قوم الست نرجس هاربين وفرسان شهلب لهم تابعين عند ذلك انحدروا على ريشة القوم وضربوهم وأبلوهم بالويل ومالوا فيهم بضرب الشواكر إلى المساء، افترقوا عن بعضهم أما صبر فاستبشر خيراً وفرح فرحاً عظيماً وتقدم من البطلين وعانقهما وقبلهما وشكرهما ثم سألهما عن سبب مجيئهما إلى هذه البلاد فأعلموه بكل ما جرى وجاءت نرجس وشكرتهما وقالت لهما: خلصتماني من الأعداء، فقال عكرمة: نحن جئنا لأجلك فكوني براحة بال فالهم عنك زال ولا بد أن يأتي زيدان ومعه الفرسان ومن بعده يأتي أبو زيد ودياب تحت الخضرا مثل الغزال فلما أصبح الصباح ركب نسيم وقومه وركب عكرمة وعقل ونزلوا إلى الميدان وانحدر نسيم إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان فانحدر إليه عكرمة وأنشد هذه الأبيات:

يقول الفتى عكرمة عما جرى له ورمحي في صدور العدا طعان
إن كان شهلب طغاك بجهله لتأخذ نرجس ست النسوان
اثبت أمامي يا نسيم وشوفني أنا عكرمة ابن أبو شيبان

ثم التقى البطلان كأنهما جبلان وتقاتلا قتالاً عظيماً وما نال أحدهما من الآخر شيئاً، وجاء خبر إلى صبر أن الملك شهلب الغدار محاصر أباه وعندما سمع صبر ونرجس هذه الأخبار خافوا على أبيهم واحتاروا ما يعملون فقال لهم عقل وعكرمة: لا بد ما نهلك أعداءكم فاطمئنوا ولا تخافوا. أما زيدان وبدران كانوا في الديوان وإذ دخل العبد وأعطى الكتاب إلى السلطان وإذا به خصلة شعر وقصيدة وهو مرسل من نرجس الروض، فقرأه على العموم وإذ دخلت الجازية رأت الوجوه متغيرة فقالت: ما الخبر يا شباب؟ فأعطوها الكتاب وخصلة الشعر فقرأته ثم قالت: ما بالكم ساكتين؟ قالوا: أنت صاحبة رأي حسن ونحن دائماً نستشيرك في المسائل المهمة فما هو رأيك؟ فقالت: أرسلوا كتاباً إلى زيد العجاج ونحن نستعد من الآن ثم التفتت فرأت موسى بن دياب فقالت له: أنت تقول دائماً خليني لوقت الضيق والآن خذ هذا الكتاب إلى زيد العجاج وكتب الأمير حسن كتاباً فلما أخذ المكاتيب ركب وسار ثم قالت للأمير زيدان: هيا بلا إهمال فنهض واعتلى على الحصان وركبت معه الجهال ودقت الطبول ودق أبو زيد طبله، أما بدران لما فهم الكتاب طلبوه ما وجوده وركب دياب وبنو زغبي وركبت الزينات ظهور الجمال وساروا يقطعون البراري والقفار ولما وصل موسى لزيد العجاج أعطاه الكتاب فلما قرأه سأل موسى هل ركب الأمراء؟ قال له: نعم ركبوا ودقوا الطبول أما فاضل بن زيد

العجاج فرأى الهمة باردة فأقام الضجة وصاح بالشباب دقوا الطبول واركبوا خيولكم وركب معهم بستين ألفاً، أما عقل وعكرمة فصاروا يغيرون كل يوم على نسيم وكان أعلم خاله الملك شهاب عن بني هلال فلما أتاه المرسال صار في أسوأ حال وأرسل مئة ألف مقاتل وكان قد أرسل المراكب وحاصر علقم، أما نسيم فكان يحارب عقل وعكرمة فلا يقدر عليهما ثم التقت الفرسان بالفرسان وعميت الأبصار وغاصت الجهال بين المجوس وفتكوا فيهم فتكاً ذريعاً وسمعوا صوت الطبول تدق وإذا هي طبول بني هلال بقيادة الأمير زيدان فوجدوا القوم في الحرب والكفاح فأرخوا لخيولهم العنان إلى أن أدركوا الفرسان وصاح زيدان صوتاً أرعب الفرسان وعمل بعساكر المجوس الحسام البتار وصاح احملوا عليهم فطبقت الفرسان على الفرسان حتى جرى الدم كالسواقي وعند المساء دقت طبول الانفصال فافترقوا عن بعضهم واصطف الشباب حول الأمير زيدان ودار بينهم الكلام ودخلت الست نرجس وقدمت لهم شراب الليمون والسكر ثم قالت لزيدان: أريد أن يكون عكرمة زوجي ويبقى يحفظني من الأعداء فقال له: إن نرجس تريدك أن تكون عندها في الصيوان وهي خائفة عليك من غدرات الزمان فكيف تقول؟ حط يدك بيدها واقرأوا الفاتحة ثم دخلت هي وعكرمة وجلسوا على فراش الحرير والسيف بينهما ودار ظهره ونام. وفي الصباح أمر زيدان بدق الطبول فقال زيدان لعقل وعكرمة وصبر: احفظوا أنتم نرجس ونحن نحارب ثم ركبوا الخيول وسحبوا السيوف أما نسيم لما رجع من الميدان بات في غم وأحزان وفي أسوأ حال ولكن أتاه كتاب يقول فيه إن عمه أرسل له مائة ألف خيال فزال عن قلبه الهم. وفي الصباح ضربت طبوله وانحدر بقومه إلى الميدان فنزل زيدان إلى الميدان وطلب الفرسان فنزل إليه نسيم والتقى البطلان كأنهما أسدان وغار عليه زيدان وحك الركاب بالركاب وضربه بالدبوس على رأسه طبق الخوذة لحد أضراسه، فوقع نسيم على الأرض فارتمى عليه زيدان وكتفه وهجمت الفرسان على بعضها والتحمت الطائفتان وتقطعت الرقاب وبترت الأيدي ووقعت الخيل بفرسانها وصارت معركة هائلة انتصر فيها زيدان والشباب وتركوا رجال نسيم في أسوأ حال وجال الأمير عقل بين فرسان نسيم يقطع الرؤوس وهو يقول: اليوم يوم المنية اليوم يعرف الشجاع من الجبان أما قوم نسيم فولوا هاربين وزيدان والشباب لاحقينهم بضرب يقصف الأعمار حتى أدخلوهم الخيام وأخذ عقل وعكرمة نسيم وهو مكتف وعاد بنو هلال واجتمعوا في الصيوان وأتاهم الزاد والحلويات فأكلوا وانبسطوا وقد أتتهم الأخبار عن مجيء الأمير فاضل فاستقبلوه وسلموا عليه ثم عادوا إلى الصيوان أما الملك شهاب فأتته

الأخبار أن نسيم في الأغلال وقد انكسر جيشه فقال شهاب لعبد دخان وعبد نار: اعملا حيلة على نرجس وهاتوها وفكوا نسيم من الأسر ثم أمر بالركوب فركبت الفرسان وكان عددهم خمس كرات ودقت الطبول وساروا ليأخذوا بالثأر أما قوم نسيم المنهزمون فقد التقوا بالوزير، فأخبروه بما صار أما عبد دخان فوصل إلى نسيم وفكه من القيود وحمله وسار به إلى الوزير وصحاه وأما عبد نار فدخل على الست نرجس فرآها نائمة وجنبها عكرمة فحملها وانسل بها فلما أفاقت من نومها رأت عبد نار أمامها أما بدران فإنه سار بالليل ليرى الملك شهاب في أي مكان فرأى عبد دخان حاملاً نسيم ووضعه عند الوزير وتركه وسار فصاح به بدران قف يا ابن اللئام فلم يقف فضربه بحجر من الصوان فتح ثغرة في صدره فشهق ومات ورجع بدران، أما عكرمة فنهض في الصباح فلم يجد نرجس فأعلم بدران بأن نرجس مخطوفة فقال بدران لفاضل وعقل: أن يركبوا ويفتشوا على نرجس فركب عكرمة وبدران وعقل وفاضل وساروا يفتشون عليها فوصل بدران إلى شط البحر فرأى نرجس مربوطة ومرمية على الشاطئ بانتظار مركب يأخذها ففكها بدران وأردفها خلفه ورجع بها إلى المنزل. وفي ثاني الأيام تجددت الحرب وذلك أن عساكر شهلب قد وصلت ودقت الطبول فصاح زيدان بالشباب وصار ينخي الفرسان، واصطفت الصفوف وترتبت المئات والألوف فبرز إلى الميدان فاضل بن زيد العجاج فنزل إليه الوزير فطعنه في صدره أرداه قتيلاً وبرز إليه فارس آخر فألحقه بالأول ولم يزل يقتل فارساً بعد فارس حتى قتل ستين فارساً عند ذلك حملت العساكر على بعضها، وجرت الدماء من الأعناق والتقى شهلب بالأمير زيدان وامتشق دبوساً من البولاد وضرب به زيدان طبق الخوذة على رأسه فوقع زيدان على الأرض فهجمت بنو هلال وأنقذوه من الهلاك وأركبوه على جواد وهجم فاضل من الأمام وعقل وعكرمة من اليمين. فعند ذلك حملت العساكر على العساكر أما نرجس فصارت تبكي وتشجع الفرسان وقد قتل من بني هلال عدة أبطال وتأخروا عن الميدان وما بقي فيه إلا عقل ونصر ومرشد وعكرمة وفاضل ومناع وجبر ومخيبر وزيدان وصبر إلا والغبار علا وأقبلت عساكر مثل البحر الزاخر وأقبل الأمراء والسادات وخلفهم أربع تسعينات ألوف بقيادة أبي زيد ودياب، فصاح أبو زيد بالفرسان وأطلق العنان للحمرا وحمل دياب وبنو زغبي فكان هجوم أبي زيد وقومه على اليمين وهجم دياب على الشمال وطبقت الأربع تسعينات على الأعداء وانقض أبو زيد على شهلب وصاح فيه اليوم تنظر فعل الرجال وتقاتلا قتالاً عنيفاً مخيفاً وهجمت الفرسان على بعضها البعض، وصارت الرؤوس تتساقط مثل

ورق الشجر أيام الخريف وفي المساء دقت طبول الانفصال فافترق الجيشان وكان بنو هلال أركزوا الصواوين وبنوا الخيام وجلسوا حول السلطان حسن وحضر أبو زيد وديباب وزيدان وحضر صبر أخو نرجس وعانقهم وسلم عليهم وفرح بقدومهم وحضرت الجازية ومعها نرجس وتقدمت نرجس وقبلت يد السلطان حسن فبشرها بالسلامة وباتوا إلى الصباح فضربت طبول الحرب واصطفت الصفوف ونزل شهلب إلى الميدان فصال وجال وطلب مبارزة الفرسان، فنزل إليه أبو زيد وصاح فيه قائلاً: هذا اليوم آخر أيامك وكان قد وصل زيد بن شرهان مع عساكره وجنوده وحملوا على الأعداء وحملت معهم بنو هلال وطبقوا على العساكر مثل البحور والزواخر فلما رأى شهلب ما حل بقومه ترك أبا زيد وصار يشجع رجاله على الثبات وهجم على بني عقيل يضرب فيهم بالحسام وكان أبو زيد له بالمرصاد فضربه بسيفه البتار فوقع على الأرض قطعتين. فلما رأى قومه مصرع ملكهم ضعفت قواهم فولوا هاربين وبنو هلال لهم تابعين حتى أفنوهم وبعدها عملوا يوماً عظيماً وأفراحاً عامة من غناء ورقص ودبكة وبرجاس مدة أربعة أيام وأراد الملك علقم أن يأخذ ابنه صبر وبنته نرجس، فقالوا له: إنها أسلمت وخطبت الأمير عكرمة ومرادنا أن نزفها إليه فتكدر لما سمع هذا الخبر وسأل نرجس هل ترجع إلى وطنها أم تذهب مع بني هلال وتتزوج عكرمة فأطرقت برأسها حياء وخجلاً فعرف أبوها أنها تحب عكرمة فبارك لهما بالرغم منه ثم ودعهم ورجع إلى بلاده أما بنو هلال لما وصلوا إلى بلادهم كتبوا كتاب نرجس على عكرمة وأقاموا الأفراح ودخل عليهما الهناء والسرور.

قصة الست لميا

(قال الراوي) بعد أن تزوج الأمير عكرمة بنرجس الروض وقعدت بنو هلال في فرح وسرور وغبطة وحبور كان يوجد ملك من الملوك العظام يقال له حماد بن غلاب حاكم بلاد جعفر وهو من المجوس وعنده عساكر وأقوام يكل عن وصفها اللسان له بنت اسمها لميا وهي من الفتيات المتألقات والمتأنقات وفضلاً عن حسنها وجمالها وقدها واعتدالها فقد كانت شفوقة رحيمة لا ترد سائلاً بدون عطاء وكانت تتكرم وتجود على الجمعيات الخيرية لتربية أطفال الفقراء من أي ملة كانت، فذاع صيتها وأحبها الجمهور حباً جماً وصارت تأتيها الخطاب من جميع الجهات يطلبونها من أبيها فيقول لهم: لقد خطبها ابن عمها الملك هطال الحاكم على نهر الزيق وتلك الأطلال وبعد أيام أرسل الملك هطال وزراءه وبعض العساكر إلى بلاد عمه ليزفوا له بنت عمه إليه حاملين معهم الجهاز، فلما علمت بذلك الست لميا تنغص عيشها لأن ابن عمها كان كبير السن ظالماً مؤذياً بخيلاً يعبد المال والنار، فاختلت بأمها وقالت لها: أنا لا أريده الموت أفضل منه، فقالت لها: وكيف قبلت به وكتبنا الكتاب فماذا نقول لأبيك؟ قالت: ما كنت مطلعة على أحواله الشائنة وبخله وظلمه وعمره يزيد عن عمري عشرين عاماً فقالت لها: هذا نصيبك فاصبري ألا تخافي غضب أبيك، فقالت لها: سأتزوجه بالرغم مني إرضاء لأبي ففرحت أمها برضائها وظنت أنها قبلت به ولكن الست لميا ذهبت إلى غرفتها وجلست تفكر كيف تتخلص من ابن عمها وكانت قد سمعت عن بني هلال وقرأت قصصهم وكيف حكموا البلاد وأطاعت لهم جميع العباد وعن شبابهم وما خصهم اللَّه من الحسن والجمال، وكانت تعرف شاعراً يمدح الملوك والأمراء لينال منهم الجوائز الحسان فحكت له قصتها وقالت له: أنا أعطيك ما تريد فخلصني من هذه الوقعة، ولو كان في فتى من بني هلال فقال لها: أنا كنت ناوياً على السفر إلى نجد والآن سأذهب لأجلك وأضرب عصفورين بحجر.

وبالحال ركب ناقته وسافر إلى نجد ودخل على بني هلال وصار يمدح الأمراء وينال الجوائز فكان يرى أكثر الشباب متزوجين ودار بين الفتيان، فرأى فتى جميل الطلعة وعرف أنه غير متزوج فضاف عنده وصار يوصف له البنات الفاتنات

ثم وصف له الست لميا بنت الملك حماد وقال له: هذه أجمل وأحلى من كل الفتيات التي وصفتهن لك فقال: أعد علي وصفها فقال حباً وكرامة:

قال الفتى المسمى مروان أبيات شعر كامل الأوزان
ألا يا مير زيان أبشر بلميا بنت الفتى حماد سلطان
كل من شافها قال يا سلام مثل البدر نور الأكوان
الشعر أسود والعيون نواعس وخدود ورد والثدي رمان
وريقها يشفي العليل رضابه والعنق يشبه عنق غزلان
لو شفت بطنها بسرة معطرة بالمسك والعنبر والعطر شان
فروح يا أمير انظر جمالها كم فتى في حبها غدا ولهان
هذا القول مختصر يا مير الملا خايف أكمله يصيبك جنان

فلما انتهى الشاعر من وصف الست لميا زاد بالأمير زيان الغرام فقال له مروان: إن كنت تريدها فأسرع وخذها لأن ابن عمها طالبها وهي لا تريده، وأنا أذهب معك وأساعدك وأمدحك عندها وأرغبها فيك فقال له: سأذهب إليها مصطحباً معي ابن عمي علي ابن السلطان حسن وأقول لبني هلال يلحقونا بالحال ثم إنه أكرم الشاعر فشكره وسافر ليبشر الست لميا بمحبوها المنتظر ولما وصل إليها بشرها بأنه اجتمع بفتى من خيرة شباب بني هلال ومدحها أمامه فأحبها حباً جماً وعن قريب يكون عندها فأكرمت الشاعر وصرفته. أما وزير الملك هطال فقال لوالدة لميا: أسرعوا بتجهيز لميا. فقالت له: انتظر حتى تأتي ببدلاتها من عند الخياطات وصارت الست لميا مرة تعمل حالها مريضة ومرة نسيت تروح لعند الخياطة وكل يوم تخلق الأعذار التي لم تكن تخطر على بال ولما طال المطال نفد صبر الوزير وقال: الآن أريد لميا بأي صورة كانت بلا ملابس بلا خياطة بلا زينة وحالاً أمر النساء بأن يزينوها ويركبوها في الهودج. فدخلت عليها أمها وبعض الماشطات فزينوها وأحسن قماش لبسوها ثم ركبوها الهودج وساروا بها بسرور وأفراح وهي تبكي وطلع أبوها وقومه فودعوها ولما وصلوا إلى عين البها ووادي الملتهى نزلوا في ذلك المكان ليرتاحوا، أما الأمير زيان فاجتمع بعلي ابن السلطان حسن وقال له: من يوم الذي أتى الشاعر مروان لعندنا ومدح لي الست لميا ما نمت ولا ذقت الطعام من شدة الحب والهيام ولوعات الغرام فحالاً شدوا الخيل واعتلوا عليها وأخذوا معهم العبد يخدمهم وساروا ليلاً ونهاراً حتى وصلوا إلى عين البها ووادي الملتهى فرأوا وزير الملك هطال وجماعته ومعهم عروس راكبة بالهودج، قالوا: هذه هي الست لميا فقال زيان: وما العمل؟ فقال: ما عندنا إلا

السيف ثم هجموا على القوم هجمة الذئب على الغنم ووقعت الصيحات وعلت الضجات وصاح الوزير بزيان قائلاً: ماذا تريدون منا؟ فقال له زيان: اتركوا الست لميا واسلموا بأرواحكم، فما كان من كاسر الخيل إلا وضرب زيان بالسيف التقاها بترس البولاد راحت خائبة. أما زيان فهز بيده عود الزان وطعنه فيه بين بزيه خرج من ظهره فوقع قتيلاً ومالوا على بقية القوم روحوهم شرايد وكسبوا أموالهم وخيلهم وجمالهم وأخذوا الست لميا وعادوا قاصدين بلادهم. أما المنهزمون فإنهم دخلوا على الهطال بحالة يرثى لها وحكوا له عما جرى معهم فقال لوزيره علقم: اركب وخذ معك ألفي فارس وجيب لنا لميا ومن معها بدون إمهال فأخذ الوزير الفرسان وساروا قاصدين يجيبوا لميا أما زيان وعلي فسلموا على لميا ففرحت بهم إذ خلصوها من الظلم ثم ركبوا الخيول وساروا مدة ثلاثة أيام وإذا الخيل تسرع في أثرهم فصاحت لميا أدركتنا الخيل وهذا الوزير علقم قد أتى بالعساكر فقال للعبد: خذ لميا وابتعد بها عنا واحرسها من العدوان وانحدر علي وزيان إلى حومة الميدان وصدموا الخيل صدمة هائلة فقال لهم الوزير: أعطونا الست لميا واسلموا بأرواحكم وعليكم الأمان، فقالوا: ما عندنا إلا السيف والرمح وانطبقوا على بعضهم في أخذ ورد وقرب وبعد وسنحت الفرصة لزيان فضرب الوزير علقم على هامه حط رأسه قدامه ثم انقض على القوم من اليمين وعلي من الشمال في ضرب السيف وطعن الرمح خلوهم يهربوا. ولما وصلوا لعند الملك هطال حكوا له عن مصرع الوزير وبعض الجنود فصار في حساب وأمور صعاب فأرسل لعمه أبي لميا يقول له: إن لميا أخذها بنو هلال وقتلوا الوزير كاسر والوزير علقم وعساكرهم عدا الذين هربوا فحين وصول كتابي هذا إليكم جهزوا العساكر والجيوش واركبوا وسيروا إلى نجد ونحن كذلك نجهز عساكرنا وجنودنا ونسير إلى نجد ونهجم نحن وأنتم على بني هلال نخرب ديارهم ونغنم أموالهم ونسبي نساءهم. فأخذ العبد الكتاب وأوصله إلى الملك حماد فلما قرأه وعرف أن بنته خطفها بنو هلال كاد أن يجن وصاح الويل لبني هلال سنسحقهم سحقاً وحالاً أمر بتجهيز الجيوش والعساكر وساروا قاصدين نجد. أما الأمير زيان وابن عمه علي لما قتلوا علقماً ورجاله أخذوا خيلهم وأسلابهم ورجعوا إلى بلادهم نجد مجدين السير حتى وصلوا إلى برج يقال له: المعلق فقالوا: لنحاصر هنا قبل أن يدركونا في الطريق ويقتلونا ويأخذوا لميا فإذا كنا في هذا البرج وانكسرنا نحاصر فيه ونرسل لقومنا أن يدركونا فدخلوا إلى البرج ثم إن الأمير زيان كتب إلى بني هلال كتاباً قال فيه: سلامي على السلطان حسن وعلى أبي زيد ودياب وزيدان وباقي الأمراء والشباب. وبعد فإن

الشاعر مروان قد مدح أمامي الست لميا فعشقتها على السماع وحرمت النوم ولذيذ الطعام ولذلك سافرت إلى بلاد العجم ومعي ابن عمي علي ابن السلطان حسن وتعرفت على لميا واتفقنا معاً على السفر لنجد وسافرنا بعد حروب ومشقات والآن نحن محصورون في برج المعلق على الطريق فإذا لم تدركونا بالجنود والعساكر وتفكوا عنا الحصار. فإنا إما نستسلم للأعداء فيذبحوننا وإما أن نموت جوعاً وعطشاً فالبدار البدار يا أهل الشهامة والمروءة والسلام عليكم.

ثم أعطى الكتاب إلى العبد مرجان فأخذه وجد في السير إلى أن وصل لبني هلال وأعطاه للأمير أبي زيد وقرأه على الجماهير، فهاجوا وماجوا أما حسن فطار عقله على ولده علي وأما الليث الكندي أبو زيان فكاد يجن على ولده زيان بستين ألفاً من الشباب وركبوا وسبقوا الجميع وساروا مجدّين حتى أقبلوا على برج المعلق فرأوا الأعداء عاملين حصاراً حول البرج فصاح الأمير زيدان بصوت كالرعد القاصف: ارجعوا عنهم أيها الأنذال، وهجموا على الأعداء هجوم الذئاب على الغنم وقلبوا الميامن على المياسر وأزعجوا القوم وفعلوا أفعالاً ما جرت في التاريخ لأنهم فاجأوهم بضرب السيف وطعن الرمح بسرعة عجيبة فأبعدوهم عن البرج وزلغطت الست لميا فرحاً لأنهم كانوا على آخر نفس والسبب في مجيء الأعداء ومحاصرتهم البرج هو أن الملك حماد أرسل وزيره جندع أن يركب بالعساكر ويقتل لميا ومن معها فحضروا وتقاتلوا معهم. ولكنهم لم يستطيعوا دخول البرج، ولما أجلاهم زيدان عن البرج صاح الوزير جندع بفرسانه استعدوا لنهجم عليهم ونبيدهم عن آخرهم فالحرب سجال يوم علينا ويوم لنا ونحن لولا المفاجأة لما تأخرنا وكنا انتصرنا فنحن أكثر عدداً وأقوى ساعداً وأمضى سلاحاً وبعد أن شجعهم وبشرهم بالنصر نزل إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان فنزل إليه زيدان والتقى البطلان كأنهما أسدان كاسران واعتدل زيدان على ظهر الجواد وطعنه بعود الزان في صدره خرج من ظهره وغارت شباب بني هلال على الدشمان ونزلوا بهم ضرباً مثل لدغ النار فولت قوم الوزير هاربين وغنم بنو هلال المكاسب والأموال. أما قوم الوزير جندع المنهزمون وصلوا إلى بلادهم وأخبروا الملك حماد عن انكسارهم وعن مصرع الوزير فجمع قومه من جميع البلاد واستنجدوا بعمه الملك الدهمان وكان في نهر الريف بأطراف العجم. قال له: إن بني هلال سبوا بنتي لميا وقتلوا وزيري جندع وأكثر من خمسة آلاف جندي وقد جهزت الآن حملة من جنودنا البواسل لإرجاع لميا أو قتلها فحين وصول كتابي هذا إليكم أرسلوا لنا قوات تساعدنا على حرب بني هلال والملتقى عند برج المعلق ثم أرسل الكتاب إلى ابن عمه الدهقان

فلما وصل الكتاب إليه قرأه، ثم قال لوزيره: اقرأه فقرأه وزيره برصوم فقال له: ابن عمك فزعان من بني هلال ثم كتب الكتاب وأرسله إلى الملك حماد بأن الملتقى يكون عند برج المعلق كما تريدون وركب الملك حماد بعساكره وركب الدهقان بجيوشه وطلعوا يجدون السير حتى أقبلوا على برج المعلق واصطفت الصفوف وترتبت المئات والألوف وبرز إلى الميدان برصوم وزير الدهقان فنزل إليه عكرمة فتقاتلا وتضاربا قتالاً شديداً. وقدحت حوافر الخيل النار وهم في هذا الحال هجمت عساكر الدهقان وعساكر حماد على بني هلال وداموا في حرب وقتال مدة عشرة أيام إلى أن تعبت بنو هلال وصاروا في أسوأ حال وخافوا أن يتغلب عليهم الأعداء. أما السلطان حسن فأمر بتجهيز الجيوش وألحقها بعساكر زيدان فضربوا الطبول وركبت العساكر من جميع الجهات بقيادة السلطان حسن وأبي زيد ودياب والقاضي بدير وساروا مجدّين حتى وصلوا إلى البرج المعلق وجدوا الأعداء محاوطين بني هلال ونازلين عليهم ضرباً من جميع الجهات. فهجم السلطان حسن بجنوده من اليمين والقاضي بدير بعساكره من الشمال وأبو زيد ودياب في الوسط وعملوا دائرة على الأعداء ونزلوا فيهم ضرباً بزنود قوية وسيوف مجلية وخف الضغط على زيدان وعساكره فارتدوا على الأعداء يذبحون فيهم ذبح الغنم وانتقموا منهم أعظم انتقام والتقى الملك حماد بالسلطان حسن وضربه بالسيف، فتلقى الضربة بترس البولاد راحت خائبة فخاف الأمير غانم على السلطان حسن وهجم على الملك حماد وطعنه بعود الزان في صدره خرج يلمع من ظهره والتقى الملك هطال خطيب الست لميا بالأمير أبي زيد وتحاربا وتضاربا إلى أن كدهم العرق وكل خصم على خصمه قد انطبق وعندها صاحت الجازية أم محمد من ظهر الهودج هي وعليا يا مالك عوايد يا أبا زيد وغنوا البنات صوت حروبي، فانقض أبو زيد على الهطال وطسه بالسيف على هامه ألقى رأسه قدامه وطبقت بنو هلال على الأعجام يذبحون فيهم ذبح الجزارين بالغنم ولما وصل الخبر إلى الملك الدهقان حاكم العجم بقتل الملك حماد دق الطبول وجمع قومه وسار بمئة ألف مقاتل إلى أن أدرك الأعجام وهم مولين الأدبار، فصاح فيهم لا تخافوا ارجعوا ونزل إلى الميدان وصاح أين الفرسان فنزل إليه دياب بن غانم فتقاتلا مثل السباع الكواسر وهجم زيدان على الدهقان وضربه بالسيف فتلقاها بطارقة البولاد فانكسر سيف زيدان. وأراد الدهقان أن يضرب زيدان فكان دياب له بالمرصاد ومنعه عن زيدان وكان قد أمسى المساء، فدقت طبول الانفصال وافترقوا عن بعضهم. وفي الصباح انحدر الدهقان إلى الميدان فانحدر إليه أبو زيد وانطبقا على بعضهما انطباق

الليالي على الأيام وصار بينهما حرب شديد يفك الزرد النضيد انجرح أبو زيد على أثره وأدركه دياب بسرعة البرق فترك الدهقان أبا زيد والتفت لدياب وأخذا في الحرب والصدام وضرب الدهقان دياب فجرحه في فخذه ودقت طبول الانفصال. وفي الصباح نزل إليه السلطان حسن والقاضي بدير وزيدان وبقية الشباب وصاروا يبارزونه ثم يهربون ويتراجعون ولم يزل يضرب في بني هلال حتى ردهم إلى الوراء عندها تقدمت الست لميا وأشارت تشجع بني هلال بهذه الأبيات:

تقول فتاة الحي لميا الحزينة بدمع جرى فوق الخدود سجايم
رماني الهوى في حب أمير منتخب هد القوى بعد تلك العزايم
تغربت عن وطني وذابت مهجتي وانقتل كاسر وأخوه علاقم
سمع أبي حماد فلم رجاله وأرسل إلى الدهقان لم العوالم
وتلملموا الأعجام جونا جميعاً وأتى الهطال من أجلي يلاطم
أبو زيد سلامة يا كاسب الثنا انده إلى الزغبي دياب ابن غانم
واجمعوا يا قوم كل أبطالكم وافتكوا بالعدا خلوهم هزايم

فهاجت الرجال وصاحوا: لا بد ما نقتل الدهقان، وشالوا عليه فرد غاره وداموا في حرب وقتال ونزلوا عليه في ضرب يهد الجبال ولله در دياب فإنه طعنه بالرمح في صدره خرج يلمع من ظهره، وانطبق بنو هلال على الأعجام فولوا هاربين وغنمت بنو هلال غنائم عظيمة ورجعوا إلى نجد فاستقبلتهم البنات بالأفراح والرقص والغناء وأدخلوا الأمير زيان على محبوبته الست لميا بعد الاحتفال بكتب الكتاب فاحتظى بالحسن والجمال والقد والاعتدال.

قصة الست حسنا

(قال الراوي) بعدما أدخلوا الأمير زيان على الست لميا وهم في هناء وأفراح إذا بثلاثة شعراء دخلوا إلى الديوان وسلموا على السلطان حسن وعلى الأمراء الجالسين حوله ثم جلسوا ينشدون الأشعار البليغة على جميع الأنغام حتى صار الديوان يرقص طرباً فانسر السلطان وأعطاهم حتى أرضاهم، ثم داروا على الأمراء يمدحونهم وينالون الجوائز الحسان ولما ضافوا عند حسن بن مزيد سألهم عن أحسن بنت سمعوا بها فقالوا له: أحسن بنت هي الست حسنا بنت الملك راشد بن جارح في بلاد الصين فأنشد يوصفها ويقول:

جرحت فؤادي حينما خطرت على ... قلبي فأصبحت روحي لها فدا
الشعر منها مثل ليل حالك ... يحكي غراباً في المزارع أسودا
والوجه منها مثل بدر طالع ... وجبينا يزري سناه الفرقدا
وعيونها كعيون ظبي شارد ... فكأن فيها صارماً ومهندا
وخدودها ورد الربيع إذا زها ... تفاح لونه أحمر وموردا
والصدر مثل لوح في يد كاتب ... والثدي رمان في صدرها قديدا
إن فزت منها يا أمير بنظرة ... هام الفؤاد بحبها وتوددا

فلما سمع حسن وصف حسنا لعب به العشق والغرام ثم إنه أكرم الشعراء وصرفهم، ولما نام أهله تقلد الرمح والحسام وركب جواده وسار في البراري حتى أشرف على رياض مفتحة الآكام تزهو فيها الأثمار وتجري تحتها الأنهار وتغرد على أغصانها البلابل والأطيار، فنزل حسن في ذلك الروض الأنيق وبعد أن استراح قليلاً سار يقطع القفار فخرج عليه سبع عظيم الخلقة فكشر عن أنيابه وهجم عليه فاستل الحسام وضربه بقلب لا يهاب، فكانت ضربته ووثبة الأسد بوقت واحد فسقط السيف بين عينيه وشقه إلى فخذيه فمات فحينئذ جدد السير في البراري والتلال فرأى الأمير زيدان ومعه عشرة آلاف فارس مسلحين وكانوا يجبون الأموال من الملوك الذين تحت حكمهم، فسلم عليهم وفرح بلقياهم فأمر زيدان العساكر أن تنزل في تلك الأرض وسأل زيدان حسناً عن سبب سيره وحده في تلك البراري والشعاب فأخبره بما جرى عليه من العشق والغرام وقد قاسيت الأهوال في هذا

السفر وخرج عليّ أسد يلتهمني، فأعانني اللَّه عليه فقتلته بالسيف ومات ولا أعرف كيف أصل وحدي لبلاد الصين وكيف أستطيع أن أجيب محبوبتي حسنا وأحظى بجمالها النادر. فقال له زيدان: لا تهتم بهذا الشأن فأرواحنا بين يديك ثم ركبوا جيادهم وساروا طالبين بلاد الصين فلما وصلوا نزلوا في إحدى الرياض يستريحون من عناء السفر أما حسن وزيدان فتركا الجنود والعساكر فدخلا إلى البلاد وهما حائران ورأوا جارية فسأل حسن أتعرفين قصر الست حسنا؟ فقالت: نعم وأنا خادمتها فقال زيدان لحسن: اذهب إلى حسنا واخطبها فإن قبلت فاتفق معها على وقت معين للسفر ولا تطول واحسب حساب تقلبات الدهر وسار إلى قصر الست حسنا ودخل قصرها فلما رأته استقبلته بابتسامة عذبة وسألته عن شأنه وما يريد، فقال: لقد سمعت بحسنك وجمالك فأحببتك حباً لا مزيد عليه وجئت من بلاد نجد لأجلك أنت فهل تقبلين بي زوجاً سعيداً لك؟ فقالت: إني سعيدة جداً إذا حصلت على فتى مثلك وإني مطيعة لك كيفما تريد، فقال لها: إذن يمكنك أن تذهبي معي ونسافر مع رفقائي الذين ينتظرون عودتي وأنت بصحبتي حينئذ قامت ولبست لبس الرجال وتقلدت بالسلاح وسارا معاً ومعها خادمتها بهجة الأيام راكبين على الخيل فاجتمعوا بالأمير زيدان والأمراء والفرسان وجدوا في المسير قاصدين بلاد نجد أما الملك راشد أبو حسنا لما وصل إليه الخبر باختفاء بنته حسنا شعر بضرب أشد من ضرب الحسام وأمر ولديه نمر التمساح وغدار الملاح أن يلحقا بني هلال ويخرجا منهم الأرواح فقالا له: وكيف عرفت أنها هربت مع بني هلال فقال لهما: من عشرين عاماً إلى الآن ما فقدت بنت من بنات الملوك إلا بسبب بني هلال الملاعين هيا أسرعوا واذبحوهم ذبح الفراريج. فاجتمعت العساكر ولحقوا بني هلال بقيادة نمر التمساح وغدار الملاح وأسرعوا بسيرهم مثل البرق وأدركوهم في بعض السهول، فلما رآهم بنو هلال أخفوا الست حسنا مع بعض الجنود لأنها مرتدية ملابس الرجال وأشهروا السيوف والرماح وصاحوا بصوت واحد اللَّه أكبر واستقبلوا الأعداء بضرب يفتت الجماد واشتبكت الفرسان بالفرسان وجرى الدم من الصدور والأعناق وتوسط غدار الملاح الميدان وصاح أين الفرسان فهجم عليه زيدان وجرى بينهما حرب لا تبقي ولا تذر نضال وكفاح وطعن رماح ورأى مخيبر قتال زيدان مع غدار الملاح فصاح بزيدان اتركه لي فأنا أخرق صدره برمحي واهجم أنت على الأعداء. ثم تقدم مخيبر وضربه بعود الزان أخذها بترس البولاد راحت خائبة ثم تماسك الفارسان وأخذا بضرب يهز الجبال ولما طال بينهما المطال هجم عكرمة على غدار ليساعد مخيبر وضربه بالسيف على عنقه طير رأسه. فلما

رأى التمساح مصرع أخيه غدار هجم على بني هلال وهجمت معه الفرسان وجرى الدم وسال وتقطعت الأيدي والأعناق. وفي المساء دقت طبول الانفصال فافترقوا عن بعضهم البعض فكتب نمر التمساح إلى أبيه كتاباً ذكر فيه مصرع أخيه غدار وأوصله إلى الملك جارح، فلما قرأه صاح واولداه واعسكراه وزاد غيظه وبلاه واحمرت عيناه وفي الحال أمر بجمع العساكر والفرسان وكتب إلى أخيه نادر حاكم بلاد المراتع أن يسبقه إلى بني هلال ويشغل فيهم طعن الرماح وضرب النصال.

فأخذ الرسول الكتاب وأوصله إلى نادر حاكم بلاد المراتع فلما قرأه زاد به الهم والتنكيد ثم جمع العساكر والفرسان وأمر بالركوب وساروا يجدون الترحال أما نمر التمساح فإنه واصل الحرب والطعن والضرب وكان الملك راشد قد وصل إلى ساحة القتال وبعده وصل الملك جارح، وصاح أين الفرسان وأين الشباب لا ينزل لي عاجز ولا كسلان؟ فهجمت عليه الفرسان من كل جهة ومكان فما كنت ترى إلا رؤوساً طائرة وفرساناً غائرة وخيولاً داشرة أما حسن بن مزيد فقد هاج وماج وجعل يقطع الأوداج وكانت قد وصلت عساكر أبي زيد وديباب فهجموا على عساكر الأعداء وأبلوهم بالذل والنكال وهجم دياب إلى وسط المجال وفتك بالأعداء فتكاً ذريعاً وغار دياب على الوزير وضربه بسيفه على هامه حط رأسه قدامه وانحدر الملك راشد إلى الميدان فنزل إليه أبو زيد ليث الفرسان وصدمه صدمة جبارة والتقى البطلان كأنهما جبلان وأخذا في الصد والرد فهز أبو زيد عود الزان وطعن الملك راشد في صدره خرج يلمع من ظهره فلما رأى قومه مصرعه ولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار فتبعتهم بنو هلال يضربونهم بالبتار حتى أفنوهم ورجعوا بغاية السرور والابتهاج ونالوا المكاسب والمغانم وسافروا إلى بلادهم نجد، فلما قربوا منها رأوا خيلاً وجمالاً وعبيداً وجواري ونساء وسمعوا صياح الغلمان فصاح أبو زيد واحسرتاه عليكم يا رجال هذه عساكر نادراً أخي راشد غيروا عليهم واذبحوهم ذبح العصافير واطفوا أخبارهم. فأطلقت بنو هلال الأعنة وقوموا الأسنة فمزقوا الكتائب وأظهروا العجائب لأن الملك نادراً لما أتاه الكتاب سار إلى بلاد نجد رأساً وهجموا على بني هلال أما أبو زيد والفرسان فقاتلوا قتالاً شديداً وسمع صوت بنت عمه عليا تقول أين أنت يا أبا زيد؟ وسمع صياح الجازية والبنات فطيب خاطرهن وهجم على الأمراء والعساكر وهجم معه دياب حداف الرقاب واشتغل ضرب السيف وطعن الرماح والتقى أبو زيد بالملك نادر، فصاح به وأرعبه وأتعبه وسد عليه طرقه واقتلعه من على ظهر جواده ورماه إلى الأرض فعندها هاجت فرسان الملك واندفعت على أبي زيد فالتقاهم دياب وبنو زغبي وطعنوا صدور الرجال

وتقدم أبو زيد إلى الملك نادر وضربه بالسيف جرحه في كتفه وجاء أبو القمصان كمل عليه بنبلة قتلته في الحال، وحمل أبو زيد على الأعداء عملة منكرة ونشر الجماجم وما زال هو ودياب وعساكرهم يمزقون الأعداء حتى أفنوهم، وهرب الباقون ثم عادوا جميعاً إلى الأوطان مستبشرين بالنصر والسلامة فانشرحت خواطرهم وزالت عنهم الأتراح ثم عقدوا مجلساً من الفضلاء وكتبوا كتاب حسن ابن مزيد على الست حسنا فبات يرشف بروض حسنها الزاهر ويستنير من بدر جمالها الباهر وعاش في هناء وسرور وغبطة وحبور.

قصة الملكة شمس

(قال الراوي) بينما كان أمراء بني هلال مجتمعين في صيوان الأمير حسن أقبل عليهم ثلاثة شعراء فمدحوا السلطان بقصائد بليغة فأنعم عليهم ووهبهم مالاً جزيلاً وأما دياب فأخذ الشاعر مروان وأضافه عنده وسأله عما شاهده في سفره من العجائب والغرائب فوصف له الملوك والأبطال والبنات إلى أن ذكر له الملكة شمس الضحى بنت الملك مشرف ملك بلاد الشرق فتعلق قلب دياب بشمس وقال له: صف لي هذه الفتاة فقال: على الرأس والعين:

يقول الفتى مروان عما جرى له ... مداح الملوك والرجال الأماجد
نحن نجول الأرض شرقاً ومغربا ... نعرف أمور الناس ثم العوايد
في طول عمري ما عيوني شاهدت ... كشمس الضحى بعيون ونواهد
شمس الضحى بدر منور في الدجا ... تضوي كما الشمس بين الفراقد
لها شعر مثل الليل فوق كتفها ... وخد بلون الورد والريق بارد
لها عنق الريم وأحلى ... تحاكي غزال البر إن كان شارد
فما شاهدت عيني مثل جمالها ... ولا مثلها حوت ملوك وأماجد
تليق إلى الزغبي دياب ابن غانم ... حظية فاقصدها تنال المقاصد

ثم قال الشاعر لدياب: إن أباها بطل كرار يحكم على كثير من البلدان وقد بنى لبنته شمس قصراً عالي الأركان بغاية الإتقان وحوله بساتين الخوخ والتفاح والرمان وأنواع الزهور، وكل يوم تنزل إلى البستان مع جواريها. وبعد المساء تسهر مع أبيها ولا أحد يقدر أن يراها فقال دياب: لا بد لي من المسير إليها وآخذها رغماً عن أبيها ثم إنه أكرم الشاعر وسمح له بالذهاب ثم اعتلى دياب الخضرا بعدما حمل السلاح وسار طالباً محبوبته شمس في بلاد الشرق، ولما وصل لقرب البلد نزل بالقرب من بئر ماء وجلس يأكل ويستريح أما الملكة شمس فرأت مناماً أفزعها رأت رجالاً دخلوا بلادها يريدون أخذها من أبيها فأبى وجرد العساكر وغار على العدا وصارت حروب وأهوال فانتصر الأعداء على أبيها فحارت في هذه الأمور وأخذت تفكر في ذلك الأمير الذي سيأخذها بالرغم من أبيها ثم قالت: لا بد أن يأتي هذا الأمير ليراني فقالت لخادمتها: اذهبي إلى البئر وانظري إذا رأيت عنده غرباء فاسأليهم عن مقصدهم أسرعي.

ذهبت الخادمة لتملأ جرتها فرأت عند البئر رجلاً حلو الشمائل وعليه من السلاح والملبوس ما يذهل العقول فتقدمت إليه وسلمت عليه فرد عليها السلام فسألته عن بلاده وعن قصده ومراده، فأجابها أنه من بني هلال ثم سألها عن الملكة شمس فقالت: أنا خادمتها وهي صاحبة هذا القصر ثم ودعته بلطف وعادت لمولاتها فقالت لها: لقد شاهدت على العين شاباً كأنه البدر في كماله فسألته عن بلاده فقال: من بني هلال وقال: اسمي دياب بن غانم وقد سألني عنك ويظهر عليه أنه يحبك ويهواك، فقالت لها: اذهبي واحضريه حتى أراه فقالت: سمعاً وطاعة وذهبت إلى الأمير دياب وقالت له: إن مولاتي شمس تريد أن تقابلك في هذا المساء في البستان فأجاب دعوتها وقال: عند غياب الشمس أكون عندكم وسار إلى البستان فوجد الجارية هند تنتظره فأدخلته إلى البستان فاستقبلته السيدة شمس زينة النسوان بكل ترحاب وسلمت عليه سلام الأحباب، وأجلسته بجانبها وقالت له: قد تشرفنا يا ابن الأعيان وحضر الطعام والشراب فأكلوا وانبسطوا ثم تبادلا كلمات الحب والغرام إلى الصباح. أما البستاني لما رأى سيدته سهرت مع هذا الرجل إلى الصباح حكمت عنده الغيرة فأعلم أباها بهذه السهرة فاحمرت عيناه وقال: من هذا الذي تجرأ على بنتي وسهر معها طول الليل أما خاف من سطوتي؟ ثم توجه مع بعض الرجال فدخلوا إلى الدار فرأوا الأمير دياب نائماً فكتفوه وشدوا يديه بالمرس فانتبه مذعوراً وضرب الملك ابنته كفاً رماها إلى الأرض، وأراد أن يقتلها فما هان على رجاله أن يقتلها وربما يندم فمنعوه من ذلك ثم أخذوا دياب للمحاكمة والعساكر تشتمه وتضربه وهو مكتف لا يدري ما يعمل حتى أدخلوه إلى الديوان. فصاح به الملك كيف دخلت إلى بلادنا وتجرأت فدخلت قصر بنتي أيها النذل الخائن؟ فأجاب أنا رجل غريب وقد أوصلني إلى هنا سوء حظي وقلة المال وحيث أني فقير الحال ترجيت الآنسة أظن أنها ابنتكم أن تجد لي محلاً أمضي فيه ليلتي فقال له مشرف: أنت كاذب أنت تخفي عنا بلادك خذوه الآن إلى السجن ليذوق مر العذاب فوضعوه في السجن وقيده بالأغلال فبكى على حاله. فبعد العز والفخر يهوى إلى الحضيض بالذل والحبس مع اللصوص والمجرمين وبعد يومين تمكنت شمس من الوصول إليه بالحيلة فأرسلت وراء السجان وأمرته يتلطف مع السجين وكانت ترسل إليه الطعام مع جاريتها هند. أما الملك مشرف فجاءته الأخبار أن عسكراً جراراً حاصر المدينة وقد نصبوا الرايات والأعلام والخيم وذلك أن الملك غرغور صاحب بلاد الكافور سمع ببنت الملك شمس وأنها أجمل فتاة في العالم فأرسل وزيره سميا إلى أبيها الملك مشرف وحمله الجواهر والأموال

وقال: اطلب لي بنته شمس، فإن قبل فادفع له كل ما معك من التحف والأموال وأحضرها لي بالحال وإن أبى فحاربه بثلاثين ألف صميدع واقتل أباها ولا تعد إلا وهي معك فأخذ الوزير العساكر وسار بهم. ولما وصل إلى بلاد الملك مشرف أرسل له أربعة فرسان ومعهم كتاب يشرح فيه الأسباب فلما دخلوا إلى الديوان سلموا عليه وأعطوه الكتاب. فلما قرأه لاحت على وجهه علامة الغضب ثم أمر بقطع رؤوس ثلاثة منهم، أما الرابع فشرم أذنيه وأكثر له الجروح وطرده قائلاً له: ما عندي بنات ما عندي إلا السيف وقطع الرقاب فلما وصل الرسول إلى الوزير والدماء تسيل من جروحه أحضروا له الطبيب فضمد جراحه فلما صحي سأله عن رفاقه فقال: قتلهم المشرف وقال لي: ما عندي بنات وما عندي إلا السيف وقطع الرقاب عند ذلك أمر عساكره بالاستعداد للحرب فركبت العساكر واصطفت الفرسان وتحضرت للضرب والطعان وكان الملك مشرف قد استعد للحرب ونزل إلى الميدان فبرز إليه الوزير سميا والتقى البطلان كأنهما أسدان وما زالا في قتال ونزل إلى أن انجرح الملك مشرف في فخذه. وأسرع رجاله وشالوه من المعركة وهجمت الأبطال على الأبطال وتقطعت الرؤوس وبترت الأيدي وسالت الدماء وانجلى الموقف عن تراجع عساكر الملك مشرف والتجأوا داخل الأسوار، أما الملك مشرف فضمد له الطبيب جرحه ثم اجتمع الملك مع الوزراء والقادة يتشاورون في دفع هذا الخطر الجسيم عنهم فقال الوزير بدر: كنا نسمع عن بني هلال أنهم أبطال في الحروب والمعارك وأن الواحد منهم يدحر جيشاً بكامله فإذا كان هذا السجين من بني هلال فأخرجوه واجعلوه قائداً على العساكر والجنود، فوافق الجميع على هذا الرأي وأمر الملك أن يخرجوه من السجن فذهب الوزير بدر بنفسه إلى السجن وأخرجه منه فشكره الأمير دياب فقال له الوزير: إن الملك الغرغور أرسل جيوشه وعساكره وحاصروا المدينة ومرادهم أن يأخذوا الملكة شمس بالرغم منها ومن أبيها فصاح دياب خسئوا ورب الكعبة وإني سوف أهلكهم إكراماً لك وللملك ولشمس ثم انطلقا معاً إلى الديوان فترحب به الملك مشرف وأمر له بالجلوس فجلس ثم قال للملك: أبشر أيها الملك بالانتصار على الأعداء ودحرهم فقال له: لقد جعلناك قائداً على عموم العساكر تدبر أمور الحرب برأيك وسيفك وعندما طلعت الشمس اصطفت الصفوف وبرز الأمير دياب فنزل إليه الوزير وهجما على بعضهما وتطاعنا بالرماح وتضاربا بالسيوف، فانحطت قوة الوزير فطعنه دياب طعنة في صدره خرجت من ظهره ثم هجموا على عساكر الوزير وأبلوهم بالذل والتعتير فولوا هاربين وإلى النجاة طالبين وتشتتوا في الصحاري والجبال والوديان وعادوا إلى

ملكهم نادبين ورجع دياب وجماعته ظافرين منصورين غانمين فاستقبله الملك وعانقه وقال له: مثلك فلتكن الأبطال وهنأوا الملك بالسلامة والنصر على الأعداء. أما بنو هلال فقد مضى عشرة أيام ما رأوا دياب. وتساءلوا أين هو وماذا جرى له فصار أهله يبكون عليه وبكت بنته حتى غشي عليها من حزنها على أبيها فقال لهم أبو زيد: أنا أؤكد لكم أن دياب حي يزرق واصبروا يوماً أو يومين لعله يأتينا منه جواب أو خبر فصبروا ولكنهم لم يناموا الليل وهم يقولون أين الأمير دياب وبعد يومين أتاهم كتاب من الأمير دياب يطلب منهم النجدة والعساكر وقال: إنه يحارب مع الملك مشرف في بلاد الشرق فلما قرأوا الكتاب أمر السلطان حسن بمساعدة دياب فجهز أبو زيد وزيدان الجيوش والعساكر لمعاونة الأمير دياب في الحرب والكفاح وسار أبو زيد وزيدان أمام العساكر متوجهين نحو الشرق وأما قوم الملك الغرغور المنهزمون فإنهم وصلوا إلى الملك الغرغور وأخبروه عن مصرع الوزير واندحار جيشه، فعظم عليه الأمر وقال: أنا أذهب بذاتي لمقاتلة هؤلاء اللئام ثم أمر بدق الطبول فاجتمعت العساكر وركبوا الخيول وركب الملك أمام الجميع وساروا يقطعون البراري والآكام إلى أن وصلوا لمدينة الملك مشرف وأحاطوا بها من كل جانب فقال دياب للملك المشرف: لا يهمك كثرة الجيوش فعليك أنت أن تقدم الأسلحة والذخائر وسيكون النصر حليفنا إن شاء اللَّه فشكره الملك واطمأن قليلاً ووعده بالجميل إن أتم وعده ثم قال له: إن كفيتنا شر هذا الظالم، فإني أزوجك بنتي شمس أما الملك الغرغور فقد حشد الجيوش والعساكر واقتحم الميدان وصاح لا يبرز لي أحد إلا الملك مشرف فسبقه دياب ونزل إلى الميدان فتصادما وصاحا على بعضهما صياح العقبان. وتقاتلا قتال الذئاب حتى انجرح دياب وحينئذ التقت القوم بالقوم يقتتلون بالسيوف والخناجر فظهرت على قوم مشرف علامات الذل والانكسار وكانت قد وصلت قوات أبي زيد فأخذوا يطعنون الأعداء في الصدور ويبترون الأيدي ويقطعون الرؤوس وبهذا الهجوم الصاعق ردوا قوات الملك غرغور عن دياب وعساكر الملك المشرف وصاروا ينثرون رؤوسهم نثراً وما زالوا في انتصار إلى أن أمسى المساء فدقت طبول الانفصال فتوجهوا لعند الملك المشرف وأكرم وفدهم ووعدهم بالجميل وتتميم قصدهم فشكروه وأثنوا على أعماله، أما الأمير أبو زيد فوعدهم وأكد لهم أنه لا بد أن يقتل الملك الغرغور بإذن اللَّه وعند الصباح نزل الملك الغرغور وهو عابس فنزل إليه أبو زيد وصاح فيه ويلك يا ابن الأوغاد أنا أبو زيد قطاع الرقاب ثم هجم عليه فاستلقاه بقوة قلب وثبات وتقاتلا قتالاً عنيفاً حتى انجرح أبو زيد وهجمت العساكر على بعضها وهجم زيدان بستين

ألفاً من الشجعان من جهة الشمال، وكبس الأمير دياب خيام الملك الغرغور بعساكر الملك المشرف من الشرق وأمر أبو زيد بني الزحلان أن يهجموا دفعة واحدة في قلب المعركة فهجموا وبدأوا بقطع الأعناق وخرق الصدور. وبهذا الهجوم الكاسح من جميع الجهات أحرز بنو هلال النصر وكانت وقعة عظيمة ومعركة جسيمة فللّه در أبي زيد ودياب فإنهما نكسا الرايات وبذلا غاية الجهد في القتال حتى أجلت عساكر الغرغور عن تلك الأماكن وثبت الملك الغرغور يقاتل فهجم عليه الأمير دياب بقلب لا يهاب وضربه بالسيف على عنقه أطار رأسه. ووقع قتيلاً يتخبط بدمه ثم لحقوا عساكر الغرغور وقتلوا منهم الآلاف والباقون تشتتوا في البراري والوديان ودخل بنو هلال سراية الملك الغرغور فأخذوا تاجه وصولجانه وأمواله وجواهره فأعطوا الصولجان للأمير حسن والتاج للملك مشرف وقدموا قسماً كبيراً من الأموال والتحف مهراً للملكة شمس ثم وضعوا القائد منجد ملكاً على بلاد البلور مكان الملك الغرغور بشرط أن يدفع الجزية كل عام إلى الملك مشرف ثم عادوا راجعين إلى بلاد مشرف بالغنائم والأموال وضافوا عنده عدة أيام ثم استأذنوا منه بالرجوع إلى الأوطان. فجهز الملك بنته شمس بالحلي والجواهر الثمينة وكتبوا كتاب دياب على الملكة شمس وأقاموا الأفراح والليالي الملاح.

أما بنو هلال فعادوا إلى بلادهم فاستقبلوهم بالزغاريد والدبكة والرقص ودخل دياب على الملكة شمس فاحتظى بحسنها وجمالها وطاب له الزمان وأتته الهدايا من كل مكان.

قصة الأمير بدران

(قال الراوي) كان في بني هلال أخوان اسم الأول زيد الخيل واسم الثاني عمار وكان زيد الخيل أخذ شيحا أخت أبي زيد ورزق منها غلاماً سماه بدران. وكان لعمار بنت اسمها حسن فلما دنت وفاة زيد الخيل صار يوصي أخاه أن تربي ابني بدران مثل ولدك ومتى كبر زوجه بنتك حسن وقد تركت لكم أموالاً لا تفنى ثم قال لابنه بدران: اسمع كلام عمك يا ولدي ولا تخالفه ثم قال: الوداع وشهق شهقة وفارقت روحه جسده فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه وواروه التراب. أما عمار فحاز على جميع أموال بدران ابن أخيه وشغله برعي المواشي وكان بدران قد تعلق قلبه ببنت عمه حسن وهي أحبته حباً عذرياً وكان بدران يصبر على جور عمه وظلمه وهو يرعى المواشي وكان مخيبر بن أبي زيد يذهب إلى البرية فيجتمع بالأمير بدران يرعى المواشي فكان يعلمه أبواب الحرب والقتال فصار بدران بطلاً ماهراً وكان في بني هلال شاعر يتعاطى الشعر تجارة فيمدح الملوك والأمراء ويربح منهم الأموال. فقصد مرة الملك روق سلطان وادي العباس فدخل الشاعر سلوم عليه وصار يمدحه بالقصائد الحسان فقال له: دعنا من هذه القصائد فإنها تتكرر على مسامعي يومياً من الشعراء وأريد أن تدلني على فتاة عمرها لا يزيد على ست عشرة سنة وتكون آية في الحسن والبهاء جميلة القد موردة الخد فقال الشاعر:

درت عامر وزغبي وريا ... وزحلان ومن بعده وهب
كل قوم هلال شفت بناتهم ... خلقت المولى تعالى عجب
بنت عمار حسن ريم الفلا ... زينة الهندام مرفوعة النسب
الشفايف كالعقيق أحمر يليق ... الضفاير حرير وأحلى من الذهب
والبطن طي الحرير وألين ... أنعم من ريش النعام عز الطلب
بنت كاملة ومكملة للغوى ... من حواها زال همه والتعب
قال روق الشريف بن ترجم ... النار في قلبي يزيد لها لهيب
من أجلها أبذل أموالي كلها ... وأخطب بنت عمار المنتسب
ورغب أبوها بالمال وأدهشه ... وأنت يا سلوم كون لها سبب
أعطيك ما تريد وتشتهي ... عطا ما صار من ترك وعرب

فلما فرغ الشاعر وروق الشريف من الشعر والنظام أكرم الشاعر حتى أرضاه فشكره الشاعر ثم جهزوا ما يلزمهم للسفر وساروا يقطعون البراري والقفار. فلما وصلوا استقبلوهم استقبالاً فخماً ونزلوا عند السلطان حسن فذبح لهم الأغنام وأكرمهم وأخرج الملك روق الهدايا ووزعها على الأمراء ثم طلب من السلطان حسن بنت عمار وهي الست حسن. أما أبو زيد فما هان عليه لأن البنت حسن لها ابن عم اسمه بدران وكان عمه دائماً يقول له: سأزوجك بنتي وشغله طول عمره راعياً وهو يحبها وهي تحبه، فلهذا الأمر ترك أبو زيد المجلس وذهب دون أن يتكلم فعرف السلطان حسن والأمراء أن أبا زيد ليس له خاطر في زواج البنت لروق إكراماً لابن أخته عند ذلك قال السلطان حسن لروق الشريف: إن ما كانت حسن يكون غيرها. فقال روق: أنا لا أريد غيرها فقال دياب: يعني عمار راح يلاقي أحسن من روق الشريف فأرسلوا خلف عمار، فلما حضر قال له السلطان حسن: إن روق الشريف يريد بنتك حسن تكون زوجة له وهو دافع لك أموالاً كثيرة وخيلاً وجمالاً أكثر مما يخطر ببالك فقبل عمار طمعاً بالمال وحرم ابن أخيه بدران وجفاه وكتبوا الكتاب وأرسلوا الأموال والتحف إلى بيت عمار فسألت حسن من أين هذا؟ فقالوا لها: هذا مهرك من روق الشريف. وقد كتبوا كتابك عليه فلما سمعت هذا الكلام بكت وذهبت لعند بدران فرآها تبكي فسألها هل أحد أهانك؟ فقالت له: خطبني روق القريشي وكتبوا الكتاب بدون أن يشاوروني فقال لها: وما العمل؟ قالت: اذهب إلى زيدان ومخيبر وموسى بن دياب واحكِ لهم عن مال أبيك وخدمتك لعمك كراع خمسة عشر عاماً وقل لهم: أنا أريد بنت عمي ولا أطلع عنها فذهب لعند زيدان، وقبل يده فقال له: أهلاً بشيخ الرعيان فبكى بدران وقال: إن عمي عماراً أخذ أموال أبي وشغلني راعياً والآن زوج بنته حسن لروق القريشي وأنا جئت قاصداً إليكم لتقضوا حاجتي برد أموالي وابنة عمي حسن تكون زوجتي وكنت قاصداً كل أمير في بيته والحمد للّه الذي رأيتكم مجتمعين عند الأمير زيدان ثم أنشد هذه الأبيات:

يقول الفتى بدران من ألم الجوى ونيران قلبي زايدات سعير
زيدان يا مير يا كاسب الثنا قوم بنا في جنح الظلام نسير
ونغزو ديار عقيل ننهب أموالهم وننهب خيولهم وعالمواشي نغير
مخيبر حشمتنا وموسى عقيدنا وزيدان قيدوم لنا وكبير
وأنتم سباع البر فريدون بالوغى لكم صيت عند العام شهير
ومن يقصد الأجواد ما يعود خايب ويزول عنه الهم والتكدير

فقالوا له: همك زال يا بدران ونحن نرضي عمك ونقنعه فقال زيدان: يريد بدران أن تغزوا معه فصاحوا على فرد لسان اليوم يوم الجهاد ثم لبسوا دروعهم وتسلحوا وركبوا الخيل وأخذوا العبيد ليسوقوا المواشي وقصدوا يغزون بني عقيل، فلما أشرفوا على مواشي زيد العجاج سارحة بعيداً عن البيوت فرحوا فرحاً شديداً وغاروا على الجمال والمواشي وساقوها بالرماح فصاح الرعاة إلينا إلينا فسمع صياحهم سبعون فارساً فأتوا إلى الرعاة وسألوهم ما جرى عليهم فقالوا: قد أتى سبعة شباب مسلحين وساقوا الجمال والمواشي فلحقهم الفرسان فرأوا أربعة من الفرسان واقفين لهم بالمرصاد ليمنعوهم من الوصول إلى الجمال والمواشي. فتقدم شعلان بن فاضل نحو الشباب وقال لزيدان: أهذا أنت يا زيدان؟ أما تستحي تعمل أعمال اللصوص أتحسب أن مال عقيل داشر فصاح فيه زيد اخرس الغزو للشباب والأبطال فإن كنت بطلاً فرد المال ثم التقى البطلان بنضال وكفاح مدة ساعتين ثم اعتدل زيدان وضرب شعلان بالسيف على هامه حط رأسه قدامه ولما رأى بنو عقيل مصرع أميرهم هجموا على زيدان وهجم نصار أخو شعلان فالتقاهم زيدان ومخيبر وموسى وبدران. فلما حمي القتال صاح الأمير بدران كرمال عيون الست حسن وهجم على نصار وشكه بالرمح في خاصرته قتله بالحال ومالوا على الباقي بضرب يقصف الأعمار حتى أفنوهم عن آخرهم وعادوا إلى بلادهم وقبل أن يدخلوا قالوا: لنسأل أبا زيد إن كان معنا نأخذ العروس حسن لابن عمها بدران. وإن كان ضدنا فيمكن ما نقدر نأخذها فكتب الأمير مخيبر إلى أبيه يقول: سلامي على والدي الحبيب أبي زيد اعلم يا والدي أنه قد أتانا الفتى بدران وهو يبكي وقال: أتيتك دخيلاً وأريد منك ومن زيدان أن تشفوا علتي مع موسى وأولاد سرحان وطلب منا أن نغزو أرض زيد بن فاضل ونهجم عليهم ونغنم مواشيهم وخايف على بنت عمه يأخذها روق القرشي. فسرنا معه وعملنا غارة وسقنا الجمال والمواشي فهجم علينا سبعون فارساً بقيادة شعلان ونصار أولاد فاضل فأبدناهم جميعاً والآن قل لنا أين نحط الجمال والمواشي وكتب موسى إلى أبيه مثل كتاب مخيبر وكتب زيدان كتاباً إلى كل الأمراء يحمسهم ويشجعهم ضد روق؛ لأنه غريب عنهم وبدران لا يترك بنت عمه حتى يقتل روق أو هو يقتل ثم أرسلوا المكاتيب مع العبد بلال وقالوا له: أعطهم إلى أبي زيد وحسن ودياب والقاضي بدير وهات لنا الجواب بالعجل فأوصل المكاتيب إلى الديوان فرآهم مجموعين فأعطاهم المكاتيب وانتظر الجواب فلما قرأوه، قال السلطان حسن: ما هو رأيك يا أبا زيد؟ فقال أبو زيد: أنا أرسل أجيبهم يقبلون يدك وتحاكمهم فإن كانوا مخطئين نجازيهم فكتب لهم أبو زيد كتاباً

وطلبهم أن يحضروا إلى الديوان وعليهم الأمان قبل المحاكمة وأنا كفيلكم فلما وصل إليهم الكتاب فرحوا لأن أبا زيد معهم فركبوا وساروا فاستقبلهم أبو زيد وطيب خاطرهم ثم قال لهم: إن صفح عنكم السلطان ودياب كان خيراً وإلا فغيروا على مواشيهم وانهبوها. أما دياب فقال: البنت لابن عمها فانهضوا نستقبل أبا زيد فقام السلطان حسن والأمراء واستقبلوا أبا زيد وترحبوا به فقال أبو زيد: قد أحضرت معي الشباب الذين تقولون عنهم عاصيون، فإما أن تحاكموهم وإما أن تعفوا عنهم بدون محاكمة فقال حسن: قد عفونا عنهم إكراماً لك يا أبا زيد ثم انفض الديوان وذهب كل واحد في سبيله. وأما الشباب فقالوا لأبي زيد: نريد البنت فقال لهم: اذبحوا ألف رأس غنم وكثروا الرز والسمن واعزموا حسناً ودياب والقاضي وروق وكل العساكر. وبعد الضيافة يكون الكلام فأحضروا كل شيء كما قال لهم أبو زيد، أما أبو زيد فذهب إلى الديوان وجلس بجانب السلطان وبعد قليل أتى بدران وقبل يد السلطان حسن وقال له: أنت وقومك في ضيافتي وخالي أبو زيد وقومه ودياب والقاضي بدير والملك روق وعساكرهم في ضيافتي وذلك في دار خالي أبي زيد فساروا جميعاً لبيت أبي زيد فأكرمهم غاية الإكرام وجلسوا يتناولون الطعام، وبعد الطعام قال روق لحسن: قد طال الزمان فأعطوني البنت حتى أذهب لبلادي فقال عمار أبو العروس: حاضر وأراد أن يجهزها ويعطيها لروق فمسك زيدان عماراً ورماه لباب الصيوان وصاح به ألا تستحي تخلص البنت من ابن عمها ثم التفت إلى روق وقال: اترك البنت لابن عمها وأنتم في ضيافته وبنت عمه حسن لا تريد غيره. فقال روق: إن بدران رجل كريم وقد أنفق في هذه الحفلة والعزيمة أموالاً كثيرة وإني أبارك له في ابنة عمه وكل ما جلبته معي من الأموال والهدايا فهي لهما وعندنا بنات لا تعد ولا تحصى والحمد للَّه الذي رأيتكم سالمين غانمين أما حسن فقال لروق: لا يمكن أن تذهب بدون عروس وإني أزوجك ابنتي تاج الملوك فقبل منه وشكر فضله وكتبوا الكتاب وأعطاها أبوها الشيء الكثير، وركبوها في الهودج وركب روق وجماعته وودعوا السلطان حسناً وأمراء بني هلال وسافروا، أما أبو زيد فقال للسلطان حسن: هذا عمار موجود وبدران يريد بنت عمه فقال حسن: يا عمار هذا ابن أخيك بدران يريد بنتك حسن، وقد قدم لك مال أبيه ومال روق صار له ولحسن وهذا شيء لا بد عنه فمتى تكتب الكتاب فقال عمار: حتى أشاور أمها فقال أبو زيد: سود اللَّه وجهك من بين الرجال يا أوسخ العربان يا نكل أكلت مال بدران الذي خلفه له أبوه وشغلته راعياً خمس عشرة سنة وأخذت مال روق الذي وهبه لبدران وتريد أن تشاور زوجتك،

فقال له حسن: دعه يشاور زوجته لنعرف على من يكون الحق فذهب عمار وشاور زوجته فقالت له: أنا لا أزوجها إلا أن يدفع مهرها فرس زيد العجاج وأرادت أن ترميه في داهية وتخلص منه فذهب عمار وقال لهم: إن مهرها فرس زيد العجاج فسحبوا عليه الخناجر وأرادوا أن يقطعوه فصاح بهم بدران ابتعدوا عنه أنا مستعد أجيب فرس زيد العجاج مهراً لبنت عمي. وبالحال سافر إلى بلد زيد العجاج واختفى وفي الليل الدامس أتى نحو الفرس فوجد عندها أربعين عبداً يحرسونها وهي مقيدة بالجنازير فما قدر يأخذها وفي الصباح دار بين البيوت وصار يطلب الصدقة والإحسان، فأخذوه لعند الدراويش وأتى زيد العجاج لعند الفقراء يزورهم ويكرمهم فتقدم بدران وقبل يده فقال له: من أين أنت؟ قال: من الخليل فقال: مرحباً بك وصار بدران يتحين الفرص ليرى الفرس بدون قيد فاشتبه الحراس به وكمشوه وسلموه لزيد العجاج فسأله ماذا تعمل هنا؟ هل تريد أن تأخذ إحدى الخيول؟ فقال: معاذ اللَّه أن أقوم بهذا العمل وإنما أنا أتفرج وأتنزه فقال للعبيد: اتركوه الآن ولكن احذروا منه وراقبوه حتى نقبض عليه وهو متلبس بجريمته فتركوه وبعد أيام صار فرح ابن زيد العجاج والتهى الناس بالسحجة والدبكة والغناء والرقص ابتهاجاً بعرس ابن زيد العجاج أما بدران فانسل إلى محل الفرس فرآها دون قيد ففك المقود ووضع عدتها عليها وركبها وأراد أن يهرب فيها إلا وامرأة زيد العجاج مسكت لجام الفرس قال لها: من أنت؟ قالت: رأيتك من النافذة تدخل على الفرس، فأسرعت إليك وإني أمنعك من الذهاب بها فانزل عن الفرس واسلم بروحك قبل أن أجمع عليك الشباب فيقتلونك، فقال: لا بد لي عن الفرس ولو جاءني مائة فارس فابتعدي عن الفرس حتى لا تدوسك فقالت: انزل عن الفرس وأنا أخلي زيد العجاج يتكرم عليك ويعطيك إياها بالجودة وعليك أمان اللَّه ورسوله. فنزل عن الفرس وربطها فقالت له: ما هي قصتك احكِ لي عنها لأنك من مدة قتلت رجالنا وأخذت مواشينا واليوم مرادك تأخذ الفرس فحكى لها حكايته من أولها لآخرها فقالت له: أنت استجر بابني فاضل هو يحميك فذهب لفاضل، وحكى له حكايته وقال له: أنا تركت الفرس لأجل والدتك وأنا مستجير بك أن تحميني وتعطيني الفرس فوعده فاضل بذلك وحلف له بشرفه أنه يحميه ويساعده فلما وصل الخبر لزيد العجاج وعرف أنه هو الذي غزاهم وقتل رجالهم ونهب مواشيهم، أمر بقتله فمنعه فاضل وقال: أنا أمنته وإذا كان أحد له عنده ثأر فهذا الميدان فليأخذ ثأره بالحرب والقتال فقال زيد العجاج: أقتلك وأقتله، فقالت أم فاضل: ما هي عادتك هذه الأفعال أنت كريم وأنا ما لي غير فاضل. عند ذلك عفا

عن فاضل وبدران وأعطاهم منديل الأمان وأمر بإعطاء الفرس لبدران بعدتها فأعطوه الفرس بعدتها وأعطاه سيفه وألف دينار وأعطته أم فاضل صيغة وحلياً لأجل محبوبته حسن فحمل الهدايا على الجمل وركب الفرس وودعهم وطلع من البلد. رأى زيد العجاج واقفاً له بالدرب فقال لبدران: أسألك باللّه هل طلب عمك رأسي مع الفرس؟ فإن كان طلب مني رأسي فاسحب سيفك واقطعه فنزل بدران عن الفرس وقبل يدي زيد العجاج وقال له: فتحت ثغرة في الكرم ما أحد يقدر يسدها ليوم القيامة، فقال له: اذهب يا بدران إلى عمك ومهما طلب منك تعال خذه منا ولو كان ابني فاضل فقال له: إن طلب مني شيئاً فإني أسحب روحه من بين جنبيه ثم ودعه وسافر إلى أن وصل نجد. فدخل إلى بيت خاله أبي زيد وقال له: هذه الفرس بعدتها وهذه صيغة العروس والحلي وهذه الهدايا محملة على الجمل ثم حكى له عن كرم زيد العجاج وابنه فاضل فتعجب أبو زيد من كرم زيد العجاج. وفي الصباح أخذ أبو زيد بدران وذهب به إلى ديوان السلطان حسن وحكى له أبو زيد عن رحلة بدران مفصلاً فتعجب حسن من كرم زيد العجاج ومروءته فأرسلوا خلف عمار فلما حضر قالوا له: هذه الفرس بعدتها وهذه الصيغة والحلي والهدايا. فقال عمار: البنت لا يصلح لها إلا ابن عمها بدران فعقد القاضي العقد ودام الفرح شهراً كاملاً ودخل بدران على بنت عمه حسن وداموا في فرح وسرور وغبطة وحبور.

قصة نجم الوضاح

(قال الراوي) لقد حضر حفلة عرس بدران كل الشباب إلا زيدان فقالوا: ما هو السبب يا ترى؟ فقالوا: إنه مريض وطالع له دمل ما وجدوا له دواء، فأرسل السلطان خلف زيدان فحضر فسأله عن ابنه فقال: لم نعرف دواء يشفيه من الدمل فأشار عليهم أبو زيد أن يأخذوه إلى جبال الزاوية ليزور النبي أيوب لعل اللَّه يشفيه، فعملوا لولده سريراً وضعوه فيه وركب زيدان وركبت معه الفرسان ثم ودعوهم وسافروا وجدوا في قطع القفار، فلما وصلوا إلى بلاد النعمان استقبلوهم أحسن استقبال ودخل زيدان وجماعته إلى مدينة المعرة فقالوا للأمير فهد: مرادنا نزور النبي أيوب فالأمل أن ترسلوا خبراً إلى أمير البلاد سلقنطاس ليعطينا الإذن حتى نذهب إلى جبل الزاوية فكتب إلى صديقه في البارة، قال له: إن أحد أمراء بني هلال مراده يزور البلاد فالأمل أن تسمحوا له ولرجاله بزيارة الأماكن التي يريدها ولكم الشكر وأرسل المكتوب مع نجاب فأوصله إلى الأمير سلقنطاس فلما قرأه أخذ النجاب وسار إلى الدرقيس فاستقبله باحتفال باهر فقال له سلقنطاس: إن الأمير زيدان من بني هلال مراده يزور هذه البلاد فالأمل أن تسمحوا له ولرفقائه أن يزوروا الأماكن التي يريدونها وإن عملوا شيئاً أو تعدوا على أحد اقطعوا رؤوسهم. فقال الدرقيس: هؤلاء قوم ما همهم إلا الحرب والقتال وياما هفوا ممالك ودولاً فابن الهراس والنعمان والبردويل وأبو الفتاح وغيرهم كثيرون فهل تريد أن تخرب بلادنا وتسبي نساءنا وتقتل رجالنا وإن كنت تكفلهم فدعهم يتجلوا وإن كان زاروا ثم عادوا إلى بلادهم فقد كفينا شرهم.

عند ذلك أرسل سلقنطاس كتاباً إلى فهد قال له: دعهم يتجولون ويزورون أينما أرادوا على شرط أن لا يتقاتلوا مع أحد ولا يسحبوا سيوفاً ولا أسلحة فلما وصل الكتاب إل زيدان أمر العسكر بالركوب فركبوا وركب فهد وصقر وساروا إلى البارة فاستقبلهم سلقنطاس وترحب بهم وأنزلهم في دار الضيافة، أما نجم الوضاح بنت الملك الدرقيس أخذت البنات إلى البستان وعملن نزهة وسيران، قطفن الورود والزهور وسرن من مكان إلى مكان حتى وصلن إلى عين النبي أيوب أما زيدان ورفقاؤه فركبوا قاصدين النبي أيوب، فلما وصلوا ذبحوا الذبائح وعملوا وليمة

للجميع وبعد ذلك ذهب عكرمة ومعه جملة من الشباب إلى العين الجديدة فلما رأوا البنات دهشوا، فقال عقل بن هولا: إن أحسنت بنت من هذه البنات لأخي نصر وأشار إلى نجم الوضاح ثم تقدم نحو البنات وقال: هل عندكن شربة ماء؟ فقالت له العجوز: تشرب حجرة تكسر سنانك العشرة فصاح فيها عكرمة يا ملعونة الأب والجد فضربها وقال للشباب: كل واحد يأخذ بنتاً فغاروا عليهن وأخذوهن وصعدوا بهن إلى الجبل، فأسرع إليهم زيدان وصاح بهم أيها المغرورون ما هذه الأعمال؟ فقال عكرمة: ما ربحنا غير هذه البنات فقال زيدان: رحنا بلاش فبعد أن أكرمونا بدأنا نأخذ بناتهم فقال له: الحق على البنات لأنهن ما عملن السيران إلا في وجود الجهال فقال زيدان: كونوا رجالاً وقت الحرب وكان عند الدرقيس عبد يسمى هزاع فرأى ما حل بالبنات، فصاح فيهم اتركوا البنات وإلا حلت بكم الويلات فتقدم إليه عقل وضربه بالدبوس أرداه قتيلاً وكان الدرصيب في السرايا والدرقيس في الحرم، فلما وصل الخبر للدرصيب ركب وركبت معه الأبطال وهجم على شباب بني هلال فاستقبله زيدان بالحرب والقتال فكأنهما أسدان كاسران أو ذئبان مفترسان إلى المساء افترقا على سلام. وفي الصباح انحدر الدرصيب إلى الميدان فبرز له الأمير زيدان فضربه الدرصيب أصاب عنق الجواد فوقع زيدان على الأرض وأسرع إليه الجهال وأنقذوه من الموت ونزل إليه عكرمة فتطاعنا بالرماح وتضاربا بالسيوف ثم هجمت عليهم الفرسان من جميع الجهات وتكاثروا على الشباب فتركوا البنات وهربوا وفي الصباح اجتمعوا وقالوا: هذا أكبر عار علينا، أما نجمة الوضاح فأحبت بني هلال. وفي اليوم الثاني لما رأتهم مجتمعين صارت تغني لهم وتنخيهم فدبت الحماسة والنخوة في رؤوس الشباب وغاروا على القوم ونزل الدرصيب إلى الميدان فصاح زيدان لعينيك يا نجمة الوضاح وضرب الدرصيب شقه نصفين وكل واحد هجم على اثنين أو ثلاثة وقتلوهم والتقى نصر بذئب القفار ومسكه من طوقه فصاحت به نجمة الوضاح: هذا أخي اعفوا عنه وهرب المنكسرون إلى الملك الدرقيس وأعلموه بما جرى فقام ولبس درعه وحمل السلاح وركب الجواد ودق الطبل أما بنو هلال فقالوا لبعضهم: إن زيدان والشباب طولوا الغيبة يمكن واقعين في حرب مع العدو فدقوا الطبول واجتمعت الفرسان من سائر الجهات وركبوا ظهور الخيل وساروا قاصدين جبل الزاوية أما الدرقيس فركب بعساكره وهجم على الشباب بطعن مثل لذع النار وعلم على الجميع وما قدروا عليه، فقال له وزيره: إذا كنا نقابلهم فارساً لفارس فلا يبقى عندنا فرسان فاهجموا عليهم هجمة واحدة فهجموا عليهم وتعبت الجهال وتجرحت

وكانت بنو هلال قد وصلت إلى قلب المعركة يتقدمهم أبو زيد فصاح بعكرمة: الأجدر بكم أن تهزوا خصوركم عند الرقص مع البنات وتتركوا الحرب لغديركم وذمة العرب إن لم ترد هذه العساكر وحدك يا عكرمة لأعدمك الحياة، فغار عكرمة على القوم يجز الرؤوس وقال لدياب: الحق زيدان لئلا أحد يغدره فغار دياب على الصفوف وهجم أبو زيد وقومه على الجنود والعساكر وردوهم إلى الوراء والتقى أبو زيد بالدرقيس وتقاتل معه فانكسر سيف أبي زيد فخاف عليه دياب وهجم على الدرقيس وخلص أبا زيد من بين يديه. أما سلقنطاس فذهب بجيش إلى نجد وكبس الأهالي بالليل وأسر السلطان حسناً والقاضي بدير وجملة أمراء وساق المواشي وسار وكان زيد بن شرهان مع عساكره في الصيد فلما رأى الاعتداء على بني هلال هجموا على سلقنطاس ولكنهم انغلبوا على أمرهم وأسرهم وحطهم مع الأسرى، فلما وصل الخبر لأبي زيد بكى وبكى معه الأمراء ثم إن أبا زيد لبس أخضر بأخضر ودهن لحيته وكحل عيونه وأخذ عكازاً وكتباً مسيحية ويهودية وسار إلى أن وصل لسلقنطاس وقال: أنا الراهب بركات من بلاد هيجا وعلجا فالراهب الذي يحكم على جميع الرهبان قال: بدها تصير ضيقة على درقين وعلى سلقنطاس فأرسلني إليكم لأساعدكم وبقي أبو زيد يقرأ باللغة العبرانية مدة ثلاثة أيام حتى حير عقولهم ثم احتال عليهم فخلص الأسرى كلهم بعدما قتل سلقنطاس ومال على القوم أفناهم وشتت شملهم ثم ساروا لعند دياب وساعدوه على الحرب والقتال وقتلوا الدرقيس وانتصروا ثم أركبوا نجم الوضاح على هودج ورجعوا إلى نجد وعقدوا عقد الأمير نصر على نجمة الوضاح ودامت الأفراح والليالي الملاح.

قصة الماضي بن مقرب

كان الماضي بن مقرب ساكناً في نجد عند بني هلال وكان فارساً شجاعاً وبطلاً مغواراً وهو معروف بالكرم مثل حاتم طي، فلما تزوج نصر بن هولا نجمة الوضاح أهداهما مالاً جزيلاً وتحفاً لا تقدر بثمن وكان السلطان حسن يحبه ويمدحه إن غاب وإن حضر فغار دياب منه وبدأ يرمي الفساد بينه وبين السلطان حسن فوقعت العداوة بينهما فأخذ الماضي رجاله ومواشيه وأمواله وسافر إلى بلاد الصعيد فسمع به الملك المظفر ملك البلاد فاستقبله أحسن استقبال وسمح له أن تسرح مواشيه في المراعي ثم سأله عن سبب مغادرته نجد فحكى له عن العداوة التي حصلت بينه وبين السلطان ثم قال: مرادي أن أسكن في جوارك إلى أن يريد المولى ما يشاء قال: أهلاً وسهلاً وعلى الرحب والسعة وكان للملك المظفر بنت اسمها سعدا لم يكن أجمل منها في عصرها فزوجه بها وأقام الماضي عنده مدة في أرغد عيش وأهنأه إلى أن مات المظفر فتولى الماضي مكانه، واستولى على أملاكه ومواشيه وصار يوهب ويعطي فأحبته الرعية وصارت تقصده الفقراء والشعراء فيرجعون شاكرين حامدين فأتاه في أحد الأيام ثلاثة شعراء من اليمن سيف، وسفيان، وسفر. فترحب بهم وأكرمهم فمدحوه بقصائد بليغة فأعطى كل واحد مئة جمل ومئة دينار وجواداً وبذلة قيمة فشكروه شكراً جزيلاً ثم عادوا إلى بلادهم ثم سافروا إلى نجد ليمدحوا السلطان حسناً فلما دخلوا عليه سألهم من أي البلاد أنتم؟ قالوا: من اليمن، قال: أهلاً وسهلاً بكم فمدحوه بقصائد ممتازة فقال لهم: أبشروا بالعطاء مع الضيافة ثم أمر لهم كل واحد بخمسين جملاً وخمسين ديناراً فامتنعوا عن أخذها فقال حسن: لماذا رفضتم هذا العطاء هل أعطاكم أحد أكثر من هذا العطاء؟ فقال سيف الشاعر:

أنت أمير ابن أمير مجرب ... سلطان نجد وفارس الأعراب
وصيتك وصل للسند بالكرم ... عطاك زايد ما عليه حساب
مالك نظير في البلاد جميعها ... ملجأ اليتامى وبغية الطلاب
وأكرم منك الماضي بن مقرب ... فذاك ما مثله في الورى وهاب
أعطانا عطايا ألف ناقة ومثلها ... دراهم وسيوف مع عبيد وثياب

فقال حسن: الحمد للَّه الذي فضلت علينا ابن عمنا وما فضلت علينا واحداً غريباً عنا فقال دياب: لا تصدق كلام الشاعر يا حسن: فإنه يستحق التأديب لاحتقاره بعطاياك، فأمر حسن بتأديبهم وحبسهم فقال أبو زيد: إنهم لا يستحقون ذلك لأن الماضي أكرم منا جميعاً فقال حسن: وأنت تفضل الماضي عليّ أيضاً، فقال له أبو زيد: إذا مدحك الشاعر ماذا تعطيه؟ قال: أعطيه مالاً وجمالاً فقال له: وإذا طلب زوجتك فهل تعطيه إياها فقال حسن: الإنسان يسلم بروحه ولا يسلم بأهله وعرضه فقال أبو زيد: أنا أراهن على أن الماضي يجود بزوجته إذا طلبها منه الشاعر، فقال دياب: هذا لا يمكن أبداً فقال أبو زيد: انتظروا قليلاً وغاب ساعة وعاد فإذا لحيته بيضاء وثيابه عتيقة وحاملاً ربابة على كتفه وهو بصفة شاعر قديم فما أحد عرفه فصار يمدح الأمراء واحداً واحداً فقال: هل يعرفني الماضي بهذه الصورة وبهذا المديح؟ فقالوا: نحن ما عرفناك فلا يمكن للماضي أن يعرفك فقال: أنا أجيب زوجة الماضي هبة منه في هذا الزي ثم ودعهم وسافر إلى بلاد الصعيد ووقف خارج الديوان إلى أن انفض المجلس وقام الماضي وسار إلى بيته وأبو زيد خلفه إلى أن عرف القصر الذي ينام فيه فجاءه بنصف الليل وهو نائم وطرق عليه الباب، ففتح له وقال: من هذا فرأى الشاعر زوجة الماضي نائمة في تخت مرصع بالدر والجواهر وصفاته تبهر النواظر فقال له: أنا شاعر وأخذ يدق على الرباب ويغني عليها أنغاماً شجية أطربت الماضي ولكنه قال له: إنك أتيتنا في الليل وأزعجتنا ورأيت زوجتي في تختها وهذا لا يجوز بدين من الأديان، فقال له: هذا زي بلادنا ودائماً عندنا الرجال تختلط مع النساء وأنا زرت السلطان حسناً وهو نائم مع زوجته فما كسر بخاطري فقال: أنت تكذب، فهذا ابن عمي وأنا أعرفه وأعرف شهامته وغيرته على زوجته فاذهب الآن وتعال بالنهار في الديوان وأراد أن يطرده فقفز أبو زيد ودنا من سعدا زوجة الماضي يستجير بها من ظلم زوجها بهذه الأبيات:

يقول الأديب الذي لسعدا التجا ... النار في قلبي تهب وتلعجا
الماضي اليوم يريد يطردني شريد ... وأنا دخيلك صرت يا سعد الرجا
أمر بطردي وأذيتي ... يا حسرتي يا لهفتي يا لوعتي
تركت أهلي وسائر رفقتي ... وأتيت إليكم أتدحرجا
طمعت أنا بجودكم وفضلكم ... وقفت عن الفراش وشفتكم
وجلست بينكم وبقربكم ... وصرت أنظم للكلام وأهرجا
لما نظرني زاد غيظه والحمق ... وبعينه يا ست نحوي قد رمق

حسيت أن القلب مني احترق أراد في حربته قلبي يبعجا
أنا عتيقك عدت من دون الملا دمعي غدا على خدي مسبلا
ربي يبلغك إلى دار العلا أدعو لك في الصباح وفي الدجا

عند ذلك حنت عليه زوجة الماضي وقالت: يا ابن عمي إكراماً لخاطري أن تصفح عنه وتكرمه فقال له الماضي: اذهب وعليك الأمان فقال: أنا ضيفك وما أكرمتني وأنا مرادي أمدحك وأشكر فضلك أينما ذهبت عند الملوك والأمراء وغيرهم. فأتى الماضي بصرة مال وأعطاها للشاعر فقال له: أنا لا أريد مالاً فقال له: فما تريد؟ قل ولا تخف قال: إذا طلبت منك شيئاً عزيزاً عليك أخشى أن لا تجود عليّ به فقال الماضي: أقسم لك أني أعطيك ما تطلب إذا كان ذلك باستطاعتي فقال له: أريد أن تتكرم عليّ بزوجتك سعدا. فلما سمعت سعدا طلب الشاعر هبت من تختها مذعورة وصاحت فيه هل أنت مجنون حتى تطلب زوجة الماضي ألا تخشى غضبه؟ فقال لها الماضي: هوني عليك فإني أقسمت أن أعطيه طلبه وقد كنت لي فأصبحت له وقد وهبتك له فقالت للشاعر: ردني إلى زوجي وخذ مائة ناقة ومائة فرس أصيلة وهذه الصرة فيها ألف دينار وخذ ما تريد ولا تفرق بيني وبين زوجي. فضحك الشاعر فقالت له: ولماذا تضحك؟ فقال: واللّه لو أعطيتني مال قارون وسائر كنوز الأرض فلا أسمح بشعرة منك فهيئي نفسك حتى نسافر فقال لها الماضي: خذي جاريتك معك فصارت تبكي وتقول: كيف أفارق أولادي وأرحل فأوصيكم بهم خيراً فأعطاها الماضي ألف دينار وقال لها: اصرفيهم على الشاعر ولا تنسي أن ترسلي الشاعر كل عام حتى أكرمه لأجلك ثم قدم جواداً أصيلاً للشاعر وأركب سعدا في هودج وقدم له عشرين عبداً من الأبطال على خيل أصايل فقال له: وما أعمل في العبيد؟ فقال: ليحرسوك من قطاع الطريق لأني أخاف أن يأخذوا منك سعدا فلا تبقى لي ولا لك فقال الشاعر:

أنا فارس الفرسان قهار العدا أنا حامي الزينات قرم مخاصم
أنا ألف وألفين وحدي أكيدهم ويغدون مني في البراري هزايم
ويشهد لي الهلالي أبو علي ويشهد لي دياب قطاع الجماجم
وإن كنت لا تصدق لمقالتي جرد قومك وجرب من يقاوم
وسعدا زوجتك تعود لبيتها والمال أيضاً إذا كنت نادم

وكان حاضراً بين العبيد عبد جبار اسمه جوهر المغوار حقد على الشاعر من أعماله وغروره فصاح بالشاعر ويلك يا عبد السوء لو أمرني سيدي الماضي لضربت عنقك بهذا السيف. فقال الماضي للشاعر: اذهب واحتفظ بغنيمتك واسلم بروحك

فغضب الشاعر وقال: أنا أهرب من عبد زربول لا قيمة له وأنا مسامح بدمي من يقدر أن يقتلني أنت أو هو فقال الماضي: أنا لا أقاتل ضيفي ولكن تقاتل أنت مع العبد والقوي منكما يقتل خصمه عند ذلك هجم العبد جوهر المغوار على الشاعر وطعنه بالرمح فخلا الشاعر بمهارته عن الرمح وضرب العبد بالحسام أطاح رأسه ثم صاح بالماضي جرب نفسك معي بالقتال حتى تعرف أني أصلح لزوجتك أم لا أصلح لها. وإن لم تبارزني فخذ زوجتك عني فنفد صبر الماضي وانحدر إليه كالنمر ودار بينهما القتال إلى أن كلت منهما السواعد فخاف العبيد على الماضي وهجموا على الشاعر فصاح فيهم الماضي ارجعوا عنه قبل أن يرمي رقابكم لأني أعرف نفسي بأنه لا يقدر عليّ أحد في الميدان إلا أبو زيد وديا ب أولاد عمي ولكن ما دامت النساء تحبل وتلد فما على وجه الأرض فارس، ثم إنه ترك الشاعر وقدم له الهودج وقال له: حقاً إنك بطل ولا تنسَ أن تزورنا كل عام. فلما أخذ الشاعر زوجة الماضي سمع بكاءها وهي في الهودج فقال لها: لماذا تبكي؟ قالت: على وقعتي معك يا أنحس الشعراء فقال لها: أنا أحسن من زوجك الماضي أنا أبو زيد أمير بني زحلان فقالت له:

أبو زيد أمير ابن أمير مجرب وسلطان زحلان بالتوكيد
وما أنت تشبه إلى عبده عبده وأنت نذل بين الرجال بليد
رد أبو زيد الهلالي سلامة إني أمير وفارس صنديد
أنا سلطان بني زحلان بالوغى وإني منسوب لست وسيد
وجيت أنا بزي شاعر لعندكم طلبتك من بعلك سلما بالأيد
وأعطي وأوهب كل يوم وليلة خيل ومال وخدم مع عبيد

فقالت له: اسمع مني وردني لأهلي واكسب الأجر والثواب فقال لها: أنا مرادي تربي لي أولادي، فقالت: كم ولداً عندك؟ قال لها ثمانية عشر ولداً لأني تزوجت ست نساء وكل واحدة لها ثلاثة أولاد ونسائي كلهن توفين فقالت: كيف ماتت نساؤك وما مت أنت؟ فقال: حتى أراك وأتمتع بجمالك الباهر ولما وصلوا رأت سعدا المواشي والجمال والرعيان فقالت: لمن هذا؟ فقال: كل هذا لي؟ ثم قال للرعيان: اذهبوا إلى السلطان حسن وقولوا له قد أتى أبو زيد ومعه زوجة الماضي وبعد قليل رأت سعدا الجيوش والعساكر سائرين والطبول تدق والأفراح شملت الجميع، فقالت سعدا للشاعر: أظن أن ابن عمي حسناً قد جهز جيوشه للحرب قال: كلا وإنما هذا احتفال لاستقبالنا فقالت: يا ليت عزرائيل يأخذك فلما قربوا منهم نزلوا من على ظهور الخيل وسلموا على الشاعر أبي زيد وفي أولهم

حسن ودياب والقاضي بدير وزيدان شيخ الشباب وبقي أبو زيد راكباً فقالت سعدا في بالها: إن له قدراً وقيمة وأقبلت عليها النساء والبنات يترحبن بها وساروا إلى بيت أبي زيد بالدفوف والنوبات، فاستقبلتها امرأة أبي زيد وقبلتها وأجلستها على سرير مرصع بالدر والجوهر وقالت لها: يا مية مرحباً أنت أغلى ضيفة عندنا وليس لأبي زيد فيك أي حاجة، وإنما حصل نقاش وجدال بين الأمراء من جهة كرم زوجك الماضي فقال أبو زيد: لا يوجد أكرم منه حتى إذا طلب الشاعر منه زوجته سعدا فإنه يطلع عنها ويهبها له فما صدقوا أبا زيد واستغربوا من الماضي هذا الكرم فقال أبو زيد: أنا أثبت لكم ذلك، وغير زيّه وارتدى ملابس شاعر وحمل الراية وسافر وأتى بك فأثبت حجته بأنه لا يوجد أكرم من الماضي وبعد أن تزوري عندنا ما تطيب لك الزيارة ترجعين إلى زوجك وأولادك بالسلامة فقالت لها: وهذا الشاعر هو أبو زيد، أجابت نعم هو أبو زيد فلطمت سعدا وجهها وتأسفت على ما صدر منها بحق أبي زيد ثم قالت: كيف يمكنني أن أقابله وقد شتمته وأسمعته كلاماً لا يرضيه ولما دخل أبو زيد نهضت سعدا وقبلت يده وهي تبكي فقال لها: ولماذا البكاء؟ قالت: لا تؤاخذني على ما فرط مني من الكلام الذي يجرح شعورك، فقال: أنا نسيت كل شيء ثم ذهب أبو زيد للصيوان فاستقبلوه بالإكرام وأنشد السلطان حسن هذه الأبيات:

قال الفتى حسن الهلالي أبو علي أنا بأمري يا كرام محتار
كم لك يا سلامة من عجايب وأحوال قضيتها بلا أضرار
فأخبرني يا أمير بما قد جرى وكيف جبت سعدا وكيف صار

فقال أبو زيد: دخلت على الماضي في بيته ليلاً فطرقت باب غرفته ففتحتها فرأيت زوجته نائمة بتختها فقال لي: ما تريد أيها الرجل فعدلت الربابة وصرت أمدحه بأشعار بليغة، فقال لي: تعال غداً على الديوان فأكرمك بمال يرضيك فقلت له: أنا لا أريد مالاً فقال: وما تريد؟ قلت: أريد أن تهبني زوجتك سعدا فقال لي: أبشر أيها الشاعر بسعدا وجواريها، فبكت سعدا وقالت لي: خذ عوضاً عني ألف ناقة وألف دينار وخذ ما تريد فأبيت وأركبها زوجها في هودج وقال لي: بارك اللّه لك فيها وأعطاها ألف دينار وقال لي: تعال كل سنة وخذ ألف دينار عند ذلك أحضر حسن الشعراء وأعطى كل واحد منهم ألف دينار. وأما حسن فأرسل الحريم عزموا سعدا زوجة الماضي فأكرموها وفرحوا بها وصار الأمراء يعزمونها ويقيمون لها الأفراح والليالي الملاح ثم استأذنت من السلطان حسن وقالت: قد اشتقت لأولادي فاسمحوا لي بالذهاب فقال أبو زيد: أنا لا أذهب معها لأني أخجل من

مقابلة الماضي فليذهب دياب فقال دياب للسلطان: اكتب رسالة إلى الماضي فكتب حسن يقول: سلامي على الماضي بن مقرب، وبعد.. فقد أتاكم أبو زيد بصفة شاعر وطلب منكم سعدا حرمكم فجدتم عليه بها فاصفح عنه لأنه سبب لكم الانزعاج والآن قد أرجعنا لكم سعدا مع الأمير دياب وفي الختام تقبلوا منا فائق التحية والسلام. فأخذ دياب المكتوب وأركبوا سعدا في هودجها وسار دياب معها مصطحباً معه ألف فارس فودعوا حسناً والأمراء وساروا يقطعون البراري والقفار ومعهم الهدايا فلما قربوا من الصعيد رأتهم الرعيان فأخبروا الماضي فبعث وزيراً بمائة فارس يكشف له الخبر فرأى دياب وزوجة الماضي فرجع يبشر الماضي برجوع زوجته والأمير دياب فظنّ أن السلطان حسناً قتل الشاعر وأرجع سعدا لزوجها ثم إنه ركب واستقبل دياب وأخذه لدار الضيافة فسلمه المكتوب فلما قرأه فرح فرحاً عظيماً وقال: الحمد للّه الذي بقي عرضنا في أمان ثم سافر دياب إلى نجد وبلغ الجميع سلام الماضي وأثنى عليه وعلى كرمه.

تمت سيرة بني هلال بالتمام والكمال

فهرس المحتويات

مقدمة الكتاب ٥
قصة الخضراء ٢١
قصة شما وزهر البان ٤٤
قصة الملكة خرما بنت الملك النعمان سلطان اليمن وخلاص أخيها الملك
سليمان من الأسر في بلاد برزخا ٧٤
قصة الأمير حسن وزواجه بالملكة خرما وفتحه بلاد برزخا وخلاص الملك
سليمان من الأسر ورجوع السلطان حسن إلى الأوطان ٨٣
قصة الملك الكوكبي وحروبه مع بني هلال وزفاف الأمير سليمان
على بنت الأمير حماد ومصرع ملك الهند جراد وقصة الكركند ٩٢
قصة شراية الخضرا فرس دياب وقصة فوز بنت الهيدبي ورجوعها إلى ابن عمها
بدر العقيلي ١٠١
قصة الهيدبي والعقيلي حنظل ١١٠
قصة الحيصا فرس أبي زيد وقصة الست عليا ورجوع أبي زيد ودياب
إلى حسين الجعبري وما جرى من الحروب والأهوال ١٢٧
قصة الملك الديدبان ١٤٢
قصة زين الدار ١٤٧
قصة غصن البان ١٥٢
قصة سعد الرجا ١٥٩
قصة الست ريما بنت الملك صخر بن علقم وما جرى لها مع محبوبها
الأمير مرشد ابن الأمير دياب ١٦٨
قصة بدر النعام بنت الملك صادر وما جرى لها مع محبوبها جبر المزيدي ... ١٧٥
قصة جوهرة العقول ١٨٩
قصة الست عدلا مع حبيبها الأمير مفلح ١٩٧
قصة نجمة السحور ٢٠٦
قصة الملك الزحلان ٢١٦

قصة طير زيدان ٢٢٥
قصة الست صبحا محبوبة عقل بن هولا ٢٣٢
قصة الملك الصمصام ٢٣٨
قصة ورد الروض ٢٤٥
قصة نرجس الروض ٢٥٨
قصة الست لميا ٢٦٥
قصة الست حسنا ٢٧١
قصة الملكة شمس ٢٧٥
قصة الأمير بدران ٢٨٠
قصة نجم الوضاح ٢٨٦
قصة الماضي بن مقرب ٢٨٩